



CLOSED AREA

AUB. LIBRARY

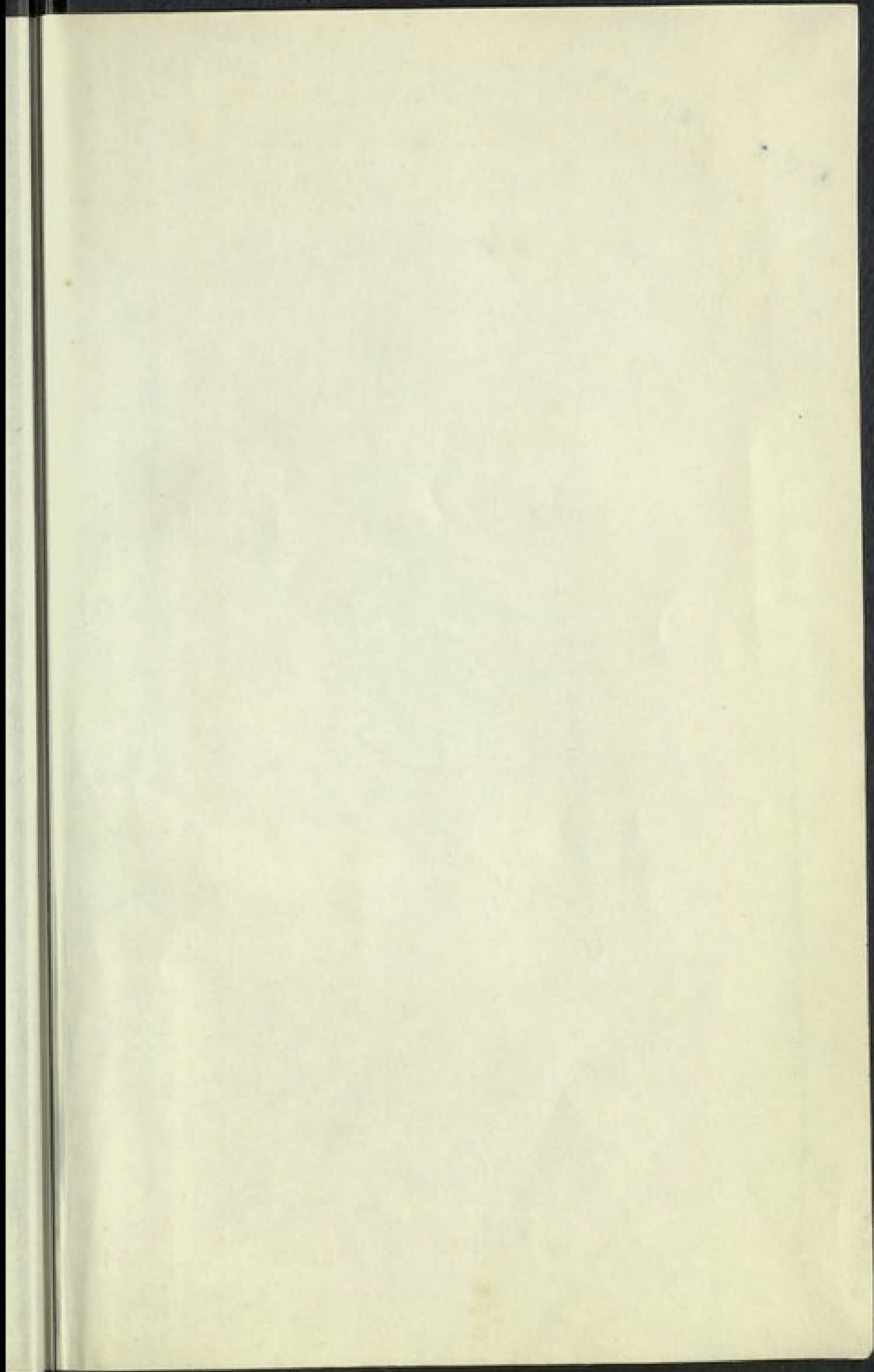
AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



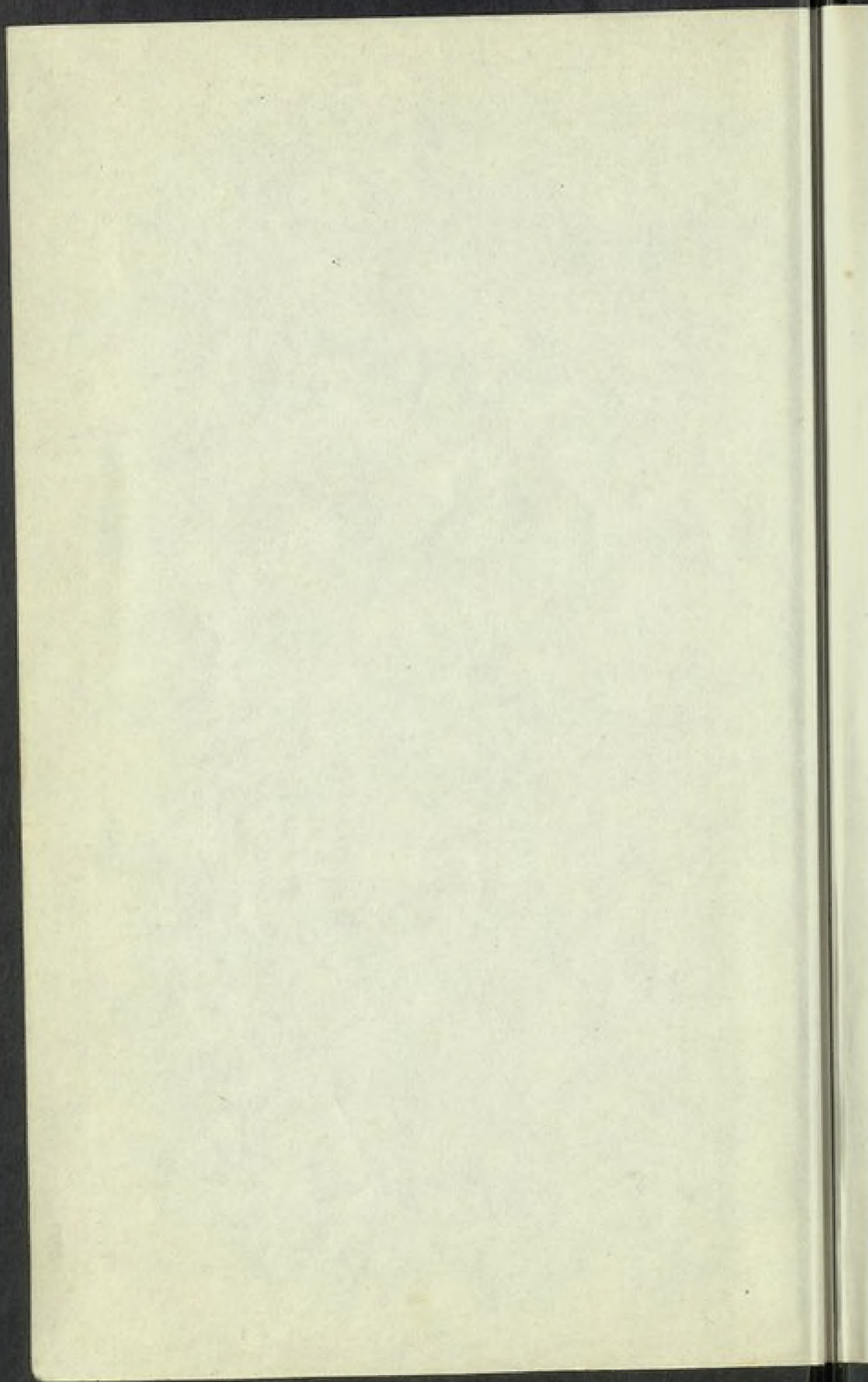
A.U.D. LIBRARY

CLOSED AREA

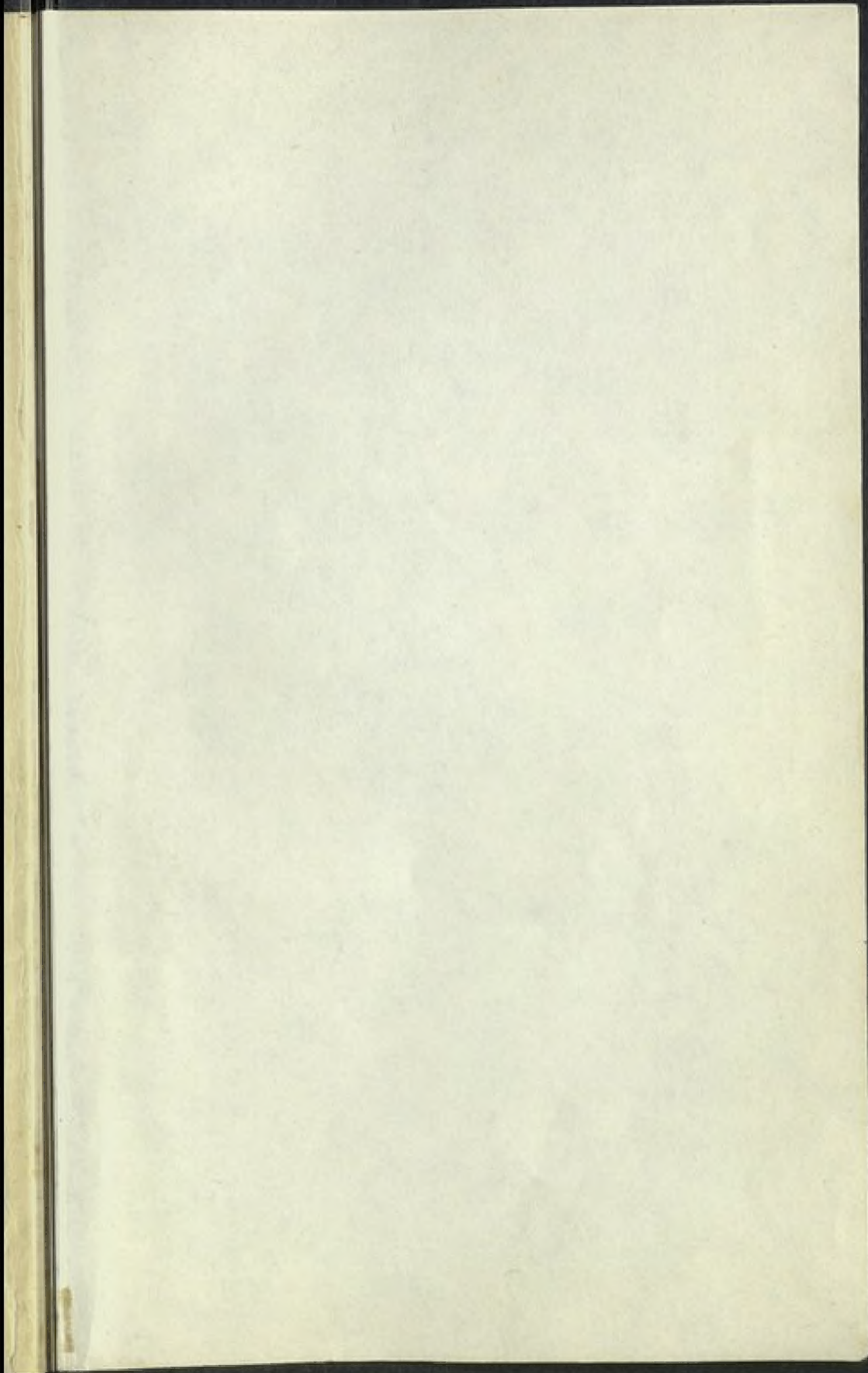




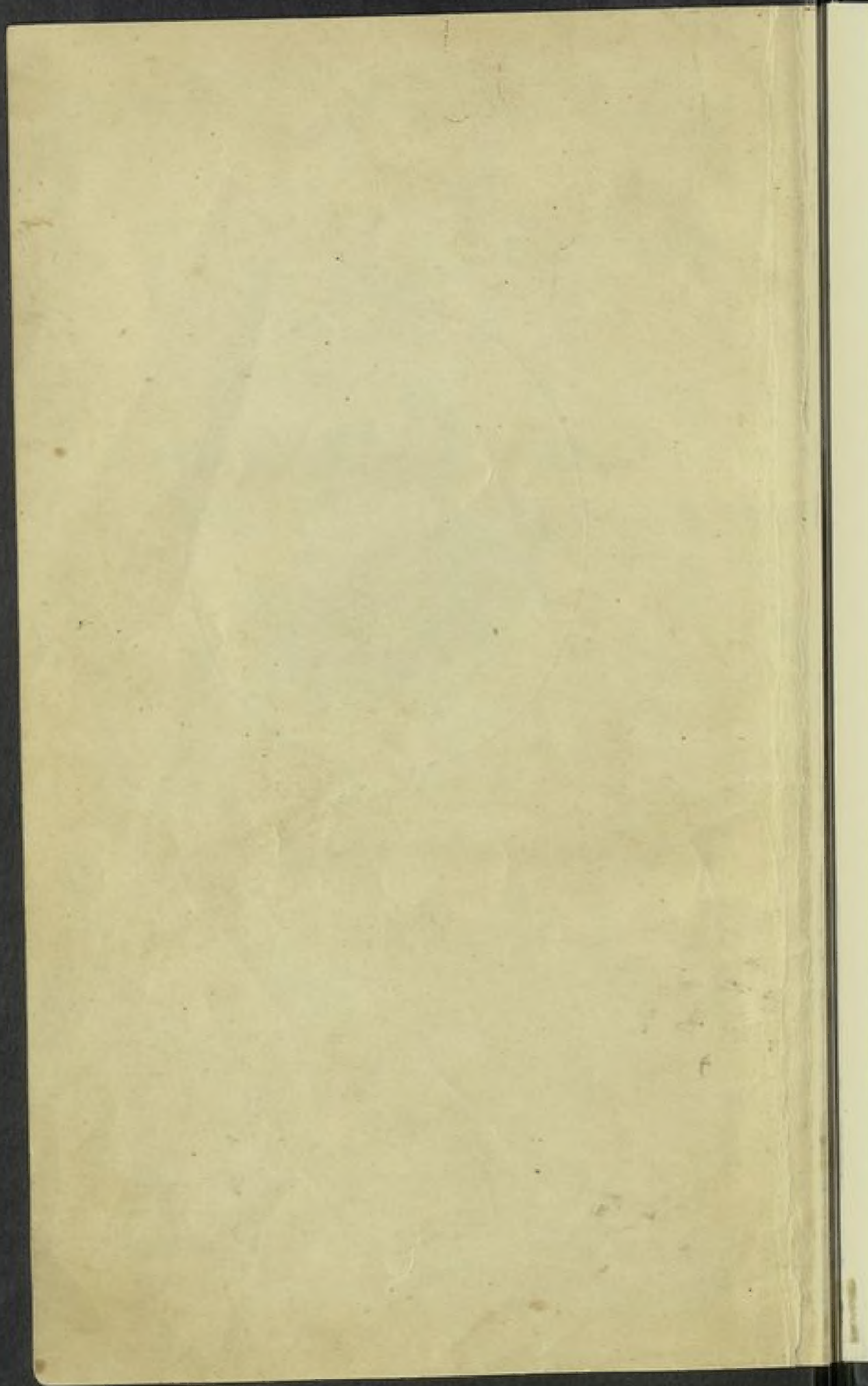
















دارون



كتاب

CA  
576.8  
Sh597mA  
v.1  
C.1

# فلسفة النشوء والارتقاء

طالع هذا الكتاب بكم نعم ولا تناله  
لا بد أن تطالع نفسك من لبر الاعراض  
نزهة عطفك تلمس الحقيقة من وراء ستارها

وهو

الجزء الاول

من

مجموعه

الدكتور

شبهلي شميل

28346

طبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٠

Cat. March 1928





Charles Henry [illegible]



## ديباجة الكتاب

كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك  
لأنك لم يكن رأيك كل الصواب فلا تكن أنت كل  
الخطأ بقتبتك . وأقل ما في إطلاق حرية  
الفكر والتول تربية الطبع على الشجاعة والصدق  
وبس الناس إذا قسروا على الجبن والكذب

يشتمل هذا الكتاب أولاً على مقالات في مذهب دارون في أصل الأنواع  
وتحولها طبعت باللغة العربية أولاً سنة ١٨٨٤ تحت اسم « شرح بخنر على مذهب  
دارون »

ثانياً على كتاب الحقيقة المطبوع أولاً سنة ١٨٨٥ والمشتل على مباحث  
لثأيد هذا المذهب ردّاً على الذين تعرضوا لغيره على اثر نشر الطبعة الاولى من الشرح  
المذكور

ثالثاً على مباحث ومناقشات علمية في الحياة لاثبات الزأني المادي نشرت في  
المقتطف قبل التاريخ المذكور وبعده

رابعاً على مقدمتين ضافيتين احدهما نشرت مع الطبعة الاولى من شرح بخنر في  
ذلك الحين والثانية وضعت حديثاً للطبعة الثانية اليوم

خامساً على خاتمة في خلاصة ما تقدم نظرت فيها نظراً خاصاً الى علوم الانسان  
وفلسفته من حيث نشوءها وتحولها وحقيقتها وتأثيرها في اخلاقه وافكاره وامباله  
وافعاله وسائر أحواله الاجتماعية من عهد القدن اليوناني القديم الى اليوم

وقد أطلقت عليه اسم « فلسفة النشوء والارتقاء » لأنني لم أقصر فيه على النظر  
التقريبي البسيط من حيث نشوء الاحياء وتسللها بعضها من بعض بل أطلقت نظريته  
على الطبيعة كلها من جماد ونبات وحيوان من حيث أصلها وتحولها ونسبتها بعضها الى  
بعض مبيناً ان هذا الكل المشهود مترابط ترابطاً لا ينفك في كل صوره وافعاله سواء  
في الطبيعة الصامتة أو في الاحياء النامية أو في الحيوان الأعجم أو في الانسان

الناطق . موضحاً أن القوى الفاعلة في كل ذلك كالمواد الداخلة فيه من أصل طبيعي واحد متحول الى ما لا حدة له بحيث أن الافعال الظاهرة في أعلى سلم هذا التحول كما نشاهدها اليوم ليست الا تلك الافعال البسيطة كالمادة في أدنى هذا السلم متدرجة فيه وهي لا تنتظر حتى تظهر بأسس مظاهرها ارتقاء وأعظمها شدة لا توفر شرائط معلومة لو فقدتها بعد ذلك لعادت الى بساطتها عملاً بناموس الاقتصاد الطبيعي الذي يقتضي أن كل شيء في الطبيعة منها وبها واليها . مستنداً في كل ذلك الى العلم الاختباري المحسوس . وذلك بلوغ الحقيقة المنشودة في كل زمان من الطريق الوحيد الموصل اليها والتي تلمسها الانسان في كل أطواره في التاريخ من غير سبيلها فضل عنها ولم يهتد اليها الا من عهد قريب جداً . متوخياً من كل ذلك المنفعة العملية لعل الانسان يشيد اجتماعه على أساس متين عالماً أن أقل شيء في الطبيعة قد يكون فيه أكبر نفع له فلا يحتقر شيئاً بل يعتد بكل شيء ويصرفه الى غرضه ويسترشد بنواميس الطبيعة فيتحداها في توخي النفعة المشتركة التي لا تكون المنفعة الذاتية بدونها الا ناقصة وقد تنقلب الى الضد فيضافر عن علم لتوفير هذه المنفعة من مصادرها الطبيعية لا لتزريق بعضها بعضاً كما هو جار حتى اليوم لاعتماده على ما سوى الطبيعة أو سوء فهمه لنواميسها في نظامها لانه اذا كان نظام الطبيعة أساسه تنازع البقاء الفاضل بالتنازع الشديد بين عناصر الكائنات جميعها من أصغرها الى أكبرها ومن أحقرها الى أعظمها عملاً بناموس محبة الذات أو الاثانية التي تطلب النفع الخاص والمنشورة في عمومها وغير المقصورة على الاحياء فقط كما قد يظن توهمها الا أنه يوجد ناموس أرقى ينقل هذا التنازع من بين الافراد المنعزلة بناء على ناموس التكافل والتكافل مرتقياً الى الجماعات المنضمة في مصلحة واحدة الى أن يشعل الجنس كله عسى أن ينهيا للانسان الفوز التام على الطبيعة اذا فهم هذا الانسان الكلي مصلحة الكبرى من وراء ذلك كما يجب ان تكون

ولم يكن ذلك متيسراً له حقيقة قبل خمسين سنة أي قبل اكتشاف مذهب الشو والارتقاء على المبادئ التي قررها دارون في مذهبه لانه لم يكن يعلم حقيقة



نسبته إلى هذه الطبيعة ولا نسبة الطبيعة بعضها إلى بعض ولم يكن يقدر النواميس الطبيعية حتى قدرها في ذلك كله

ولما قمت أبث مبادئ هذا المذهب بيننا ولا سيما ما بني عليه منذ سنة ١٨٧٦ لم يكن له اتباع ولا مؤلفات في اللغة العربية بل كانت أنصاره حتى في أوروبا نفسها لا يتجاوزون عدد الأصابع وكان خصومه حتى من العلماء أنفسهم يفوقون حد الحصر فلم يكن سوى داروين رجل القرن الماضي الأعظم الذي نظر إلى الجهة العلمية فقط ليقرر تكون الأنواع في الأحياء بالتحول والارتقاء من أصول قليلة لم يتعرض لكيفية نشوئها الأصلي. وسوى أنصاره هكسلي وبجنر وهكل الذين وجدوا حالاً في هذا المذهب مسنداً علمياً قوياً للعلم المادي والفلسفة المادية. وسوى سينسر الذي شاد عليه علم السوسبيولوجية وتوسع فيه إلى أقصى ما نرى إليه نظرياته الكبرى. وقد دامت نار الحرب بين العلماء في أوروبا مستعرة اخذاً ورداً وضياً وإثباتاً ودحضاً وتأبداً من سنة ١٨٥٩ إلى حوالي سنة ١٨٩٠ والعلماء يدخلون في هذا المذهب أفواجا حتى يقال اليوم أن الفوز قد استتب له في كلياته واقتصر الخلاف بينهم على مسائل جزئية بسطاً وبياناً فقط كما في كل علم مقرر وعم أيضاً حتى أطلق على كل الكون على العالم المادي وعلى العالم المعنوي. على العالم الطبيعي وعلى العالم الأدبي بحيث لا يمر اليوم بالإنسان مسألة جليلة أو حقيرة اجتماعية أو علمية أو فلسفية إلا وتجد لها في هذا المذهب حلاً في كيفية نشوئها ونحوها حتى مصيرها أيضاً وكان ذلك عوناً كبيراً لتعزيز العلم الطبيعي ودعامة قوية للفلسفة المادية في الكون

ومن أول ما طرقت هذا المذهب طرقة من هذه الجهة القصوى في مباحث مختلفة نشر بعضها في الجرائد وأكثرها في مجلة المقتطف حتى سنة ١٨٨٤ حيث نشرت أصل هذا الكتاب أولاً تحت اسم شرح بجنر على مذهب داروين وقد أحدث نشره يومئذ لغطاً عظيماً مع أنه لم يطبع منه إلا خمسمائة نسخة لم تنفذ إلا بعد خمس عشرة سنة لغطاً كان قليلاً من الخاصة المعدودة فقاموا بنقونه كله أو بعضه كل على قدر علمه أو حسب هواه. وكثيره من العامة الذين اكتروا من

الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لانهم سمعوا ان فيه مساساً باغتر شيء لديهم هم عليه  
حريصون عن ارث وعادة لا عن تدبر وروية

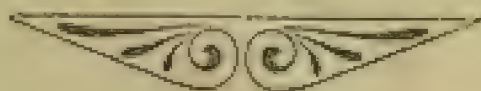
على ان هذه الرجة التي حصلت حينئذ هي المقصودة مني في ذلك الحين لا يقاط  
الافكار من نومها العميق والحركة معها كانت خير من السكون . ومن منا نحن  
الشرقين اليوم أولى بهزة تصل قينا الى أعماقنا وقد تقادم علينا السبات حتى يتنا في  
رتبة في صف الاحياء لا هي بالمتينة فتدفن جثة هامة ولا هي بالحيثة فتبعث  
بشرأ سويها

وأنا النفس العذر من علمائنا اليوم وفي مستقبل الايام اذا لم يفسر لي بسط هذا المذهب  
بسطاً علمياً كافياً وافياً كما هو مبسوط في مطولات علماء الغرب لاسباب لا تخفى  
عليهم في مثل أحوالنا عموماً ولا سيما ان علمي بذلك محدود وما هو الا نقطة مستقاة  
من بحارهم . ولكنني اذا كنت قد قصرت في بسط جزئيات هذا العلم بالتدقيق المكثي  
لعذر وحرص أيضاً الا اني أقدر ان أؤكد لهم اني من جهة كليته ومراعيه لم ادخر  
وسعاً في ابلاغها الى اقصاها صحة ومروى واذا لم ارتفع فيها فلا انضع الى القول بانني  
قصرت فيها عنهم . اعل ذلك كله بمقتضى السبيل لتواضعنا فينهضوا الى مباراة  
أعظم علمائهم ولا أقول فلاستفهم لان الفلسفة وان كان لا يزال لها بعض معنى اليوم  
فانها مستعرج مبدلة في مستقبل الايام فالمستقبل اليوم للعلم وللعلم العملي وحده فقط

الدكتور

مصر في ١٠ ابريل سنة ١٩١٠

شلي شميل



به  
نقد  
»  
الط  
وبا  
العو  
كما  
العب  
بال  
في  
والمد  
المؤثر  
مدار  
هذه  
الى  
الاج



## مقدمة الطبعة الثانية

« الأصلية ليست دائماً في جانب الإجماع فالكثرة »  
 « ليست حجة فاطمة أو هي وعدا برهان القوة »  
 « الوضعية والحقيقة ما كانت أدنى الى الواقع »

كم أنت متمسك بنا نشأت عليه ؟ قلنا كنت مثلك واكثر . وما استسالك  
 به عن نوري في اول الامر لانك كنت صغيراً لا تستطيع ان تقيم احكاماً لك من  
 نفسك تستقر عليها . بل عن اعدادك بالتربية وانطباع فيك بالوراثة . وعليه الحديث :  
 « يولد الطفل على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » . فالتربية تجد  
 الطفل ليناً غير قاس فلا تجد صعوبة في تكيفه فتؤثر فيه تأثير الطابع في الشجع .  
 وبالتكرار والاستمرار يستقيم المرء على المطبوع وينفر اذا حاولت تحويله عنه كما يستقيم  
 العود على اعوجاجه وينكسر اذا حاولت تنويمه . وعليه امثال : « العلم في الصغر  
 كالنقش في الحجر » . ثم ينتقل هذا التكيف في النسل بالوراثة فيولد الطفل وبه استعداد  
 لتقبل مع هذا الانعطاف او ذاك

ثم لما كبرت وصرت قادراً على التفكير لم تفكر غالباً بتحصيل ما نشأت عليه .  
 بل كنت دائماً تجد كل قوى عقلك لتأييده كما دعا داع الى ذلك . بحيث لم تكن  
 في احكامك مستقلاً البتة عن فعل المؤثرات التي نشأت عليها من التربية البيئية  
 والمدرسية والاجتماعية . ولهذا كان اكثر الناس غير مستقلين في احكامهم خاضعين فيها  
 للمؤثرات السابقة المكسوبة والراسخة فيهم معها اتسمت دائرة معارفهم وسمت  
 مداركهم . ولا يشذ عن ذلك الا الفزر اليسير لاسباب خاصة تخف فيها عليهم وطأة  
 هذه التربية . واشد هؤلاء استقلالاً اذا سميت مداركهم قليلاً يرجعون في عواطفهم  
 الى ما يسمونه بدياناتهم المكسوبة عن هذا السيل . فيباحي الكفار ايماناً ويقع المصلح  
 الاجتماعي في خطأ النظام الذي يشكركم منه حتى اذا فكر قليلاً انكر عمله هذا على نفسه

وهذا يدلك على ما لأثرية الأصلية من السطوة على المواقف والمقول . وكثيراً ما نخذ  
ذلك أصحاب هذه المبادئ دليلاً على صحة مبادئهم ويقولون إن مثل هذا الانعطاف الذي  
يعبرون عنه بالوجدان أيضاً غريزي في الإنسان فلم يكن صحيحاً لما كان كذلك .  
والحال إن ما نشاهده في الطفل الذي لا يزال على الفطرة لا يؤيد هذا القول بل ينافي  
في أكثر الأحيان فما منا إلا من سمع من أطفال عند أول نظرتهم اعتراضات معقولة ضد  
مبادئ المقررة كثيراً ما يتعود منها الجاهل ويندم لها العاقل ولكننا نصرهم عنها بما  
لنا عليهم من السلطة حتى يقرروا أخيراً على ما هو مقرر عندنا

فالإنسان في أكثر أعماله وأفكاره ليس ابن غرائزه بل صنع تربيتنا من المهد إلى  
الالحق ولو ترك لغرائزه لكان في مجموعته أرق منه اليوم بكثير ولكن كيف يتسنى لنا ذلك  
ونحن نربيتنا له فشرع بتل كل مبادئه وهو طفل في البيت أولاً ثم في المدرسة حتى  
إذا خاض الاجتماع وبه بقية باقية تكفلت كتبنا الدينية والأدبية وأفاضلنا الخيالية  
والخرافية ونظامنا الاجتماعية بالأجهزة عليها فيزول الإنسان الطبيعي بالكلية ولا يبقى  
إلا الإنسان المصنوع على خلاف الطبيعة



والحق يقال إن الشر الأكبر من التربية المدرسية لأنها تربي الطبقة الراقية من  
الامة التي عليها الممول في تدبير شؤون الاجتماع . فالتعليم في أكثر هذه المدارس حتى  
في أرق المعمورة اليوم وخصوصاً التعليم الاعدادي قاتل لهذه المميزات فعوضاً عن أن  
تعد العقل وتمهده لقبول زرع العلم على الاطلاق وتقوي فيه مزية الاستقلال في الاحكام  
تراها تشغل عقل الطفل منذ ولادته وهو ابن من الشجع سوانية وتمهده اعداداً مخصوصاً  
لغاية مخصوصة . فنزع منه استقلاله وكل مبادئه . وهي بذلك تخدم مبدأ معلوماً لا مطلق  
العلم فيشب الطفل في عقله ضيق الفكر قليل التسامح اعور الفالج لا يبصر بعلوم إلا من  
جهة واحدة ولا يسبر به إلا في سبيل معلوم

ولا تقتصر على ذلك بل تعلمه بجانب هذه المبادئ العلوم الاخرى الحقيقية وهي  
مناقضة لتلك ولكنها تحاول أن تطبقها عليها فتوسع مجال الاجتهاد وترى العقل ارتباكاً



بما كان في غنى عنه لو اقتصر التعليم على العلوم الحقيقية وعلاقتها بالحياة العملية عوضاً عن هذا الاجتهاد العميق في تطبيق المبادئ المتناقضة على حياة خيالية دينية او اديية لا تتفق مع الواقع في شيء وزيد الانسان شقاء في حياته الاجتماعية فوق شقائه الطبيعي المعلوم **فالتعاليم الدينية** تفصل الانسان عن هذا العالم حتى لا يعود يعتمد به وهو بالواقع لا يفصله عنه شيء حتى ولا الموت **والحياة الادبية** تصوره فوق حقيقته بكثير كما تخيل هي لا كما هو فزيده ضعفاً على ضعفه وتجعل حياته تكلفاً ورياء وهاتان الحياتان الخيالتان تصطدمان في الاجتماع بالحياة العملية التي لا يبع الانسان ان ينفك عنها طرفة عين فتتارعة كل هذه العوامل المتناقضة وتترقب اي ممزق وهو الخاسر في هذا التارخ **ولو بني دين الانسان على علاقته الحقيقية بالطبيعة** واقامت آدابه على نواميس الاجتماع الطبيعي لكان في كل اعماله متناسلاً مع نفسه متوافقاً مع تعاليمه غير مضطراً ان يقاوم تعاليمه في كل خطوة يخطوها ككتبات اقامها هو نفسه في سبيله **وكم** ذا يلاقي ان يشا دكاً مني لا ولاستحق عن تلك الفلسفة النظرية المضللة المبنية على الخيال واقم مقامها الفلسفة العملية المادية الى السبيل القويم المبنية على العلم الحقيقي وما كان به من حاجة الى اقامة تلك العلوم التي هي اشبه شيء بهذين المصدقين الا وهي علوم الكلام على الاطلاق تفسير ما لا يفسر وتأويل ما لا يؤول وتطبيق ما لا يطبق التي اضلت عقولاً كثيرة وغلت عن العمل ايدياً كثيرة فم تنفع الاجتماع بشيء بل اضرته اذ اضلته واصبحت عالة عليه وهي فوق ذلك انصببت مقاماً ممتازاً لها فيه حتى انطبق عليها مثل هذا القول

اذا شئت ان ترقى فزى كل مقول	فاكثر به من كل لاغ ومهمل
وحافظ على خاطئ فساد عهده	كانك في دين رب ومزك
وحدث بالآله الكتاب وآيه	وان انت لم تفهم ففسر واوّل
ولو انت ناني فيه كل غريبة	وتأنج في تأويله كالمفسر
وقلت كلام الله ما انت جاهل	وان كلام الله ما ليس بجهلي

وقد حل طيف هذا النهج في النظر على سائر اعمال الانسان ونظاماته وعنى علومه

فطرتهم نفوس ممتازة تطلع على ما لا يمكن للغير ان يطلع عليه من الأرواح  
والاسرار الالهية . وأما ظهوره في صورة انسان فلأنه لا مانع من أن يخص  
الله الملك بقوة روحانية يقتدر بها على جعل روحه في جسده الاصلى لتديره مع  
اتصال أروها بجسم آخر يجبا بما اتصل به من ذلك . كيف لا وقد اثبت الصوفية  
عالميا وسطا سموه عالم المثال وقالوا انه أطف من عالم الاجساد وأكثف من عالم  
الأرواح وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة . ويستأنس  
لهذا بقوله تعالى فتمثل لها بشرا سويا . وأما سماع الكلام الأزلي فلان من  
حفته العناية وميزته الرحمة وخصه مولاد من أصل فطرنه بنقا جوهره لا  
يستحيل في حقه أن تتصل نفسه بالأفق الأعلى وتنتهي الى الذروة القصوى  
من الانسانية وتشهد من أمر الله تعالى ما لا يتأتى لغيره شهوده بحال من الاحوال

### ✽ الجعفر الثاني حكمة ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ✽

الحكمة في ارسال الرسل جيمهم اسماء الناس واصلاح شؤونهم الدنيوية  
والآخروية وايبصالهم الى ما أراده لهم العليم الحكيم من الكمال لان ذلك لا  
يكون الا بالرسالة لأمر أربعة

الاول - ان الله جلت قدرته خلق الناس وركب فيهم شهوة باعثة على  
فعل ما يلزم تركه ونفرة حاملة على ترك ما يتضم فعله ومنعهم عقلا مضادا لها  
ووضع زمام الاختيار في أيديهم وأمكنهم من فعل الطاعة والمعصية فأدركهم  
التكليف الذي سره بعد ذلك امر ان يجالان . أحدهما حظر المنكرات والقبائح  
كشتم الله تعالى ونعمته بما لا يليق بجلاله وعظمته واعراض المنعم عليه عن شكر



ولامكن له الانتقال فيها من الخطأ الى الصواب شيئاً فشيئاً من غير عناء كما زاد فيها  
اختباراً. ولكنه لم يفعل فانه لم يقف امامها صامتاً يسألها ان تفتح عليه بما استغلق من  
اسرارها بل لاسباب كثيرة اختلط الامر عليه فوقع في الشبهات وبنى على هذه  
الشبهات مذاهب وتعاليم كان المبدأ فيها خارجاً عن الطبيعة مستولياً عليها وحاكماً  
عليه ولكنه غير خاضع فيها لتاموس الأمشاط الاقدار ثم استمسك بهذه المبادئ  
متقلباً فيها معدداً وموحداً ولم يتحول عنها فقامها عقبات حالت بينه وبين سهولة  
تعرفه للعلاقة التي بينه وبين الطبيعة وما زال يعترف فيها حتى اليوم ولن يزال كذلك  
زماناً طويلاً ايضاً لشدة رسوخ هذه المبادئ فيه بتقادم العهد



وربما الانسان يتقلب على هذه المبادئ ويخبط فيها عصوراً متطاولة جداً ولم  
يقول عنها قيد شبر في ادابه وعلومه ونظاماته حتى عصور المدن اليوناني فقد قام حينئذ  
فلاسفة بنوا فلسفتهم على الخدس الصادق لا على العلم الصحيح وصرحوا بعلاقة الانسان  
بالطبيعة علاقة شديدة. على ان الوحيد الذي قال بهذه العلاقة وبنائها على العلم الطبيعي  
هو ابو الطب ابقراط فانه اول من صرح بان اسباب الامراض طبيعية مع انها لذلك  
العهد كانت تعتبر احية وتعالج في المعابد وهذا واضح من كتابه الالهوية والمياه  
والبلدان. وكتابه هذا اعظم اثر وصلنا عن الاقدمين لا من حيث الكلام على علاقة  
الامراض بالطبيعة فقط بل من حيث كلامه ايضاً على تأثير الاقليم والنفذ والتربة في  
تكيف الاحياء. فابقراط اول واضع حجراً على وجه علمي في اساس مذهب النشوء  
قبل لامرك وجفروا ستيلايو ودارون زمان طويل. ومع ذلك فابقراط نفسه لم يستطع  
او لم يجسر في ذلك الوقت ان يجعل اسباب الامراض كافة طبيعية بل فصل الامراض  
العصبية عنها كالصرع وجعلها تحت سلطان قوى فائقة الطبيعة وهذا يدل على شدة  
تأثير التربة الاولى وسلطان التعاليم الشائعة على العقول حتى الراقية

على انه مما بلغنا عن تمدن الاقدمين فان الاجتماع لم يرق به كثيراً رغمًا عن  
الدلائل التي يتخذها البعض حجة على هذا الارتقاء بسبب مبادئ التعليم السالف

ذكرها. وبالحصر فهذا الارتقاء لم يكن إلا في بعض الصنائع المتعلقة بالبناء والفنون  
الجميلة كقائمة الآثار الضخمة والتماثيل المتنوعة وهي تدل دلالة واضحة على الضغط الشديد  
الى حد العبودية من جهة والسيادة المطلقة الى درجة التآله من جهة اخرى. وشرايح  
الاجتماع في كل تلك العصور السابقة كانت مبنية على هذا التقسيم والاجتفاف  
بمصلح الجمهور. واني لا انفي لك تمدناً كتمدن عصر سقراط ولا تمدن باني  
الاهرام ولا تمدن الرومان حتى ولا تمدن عصر العباسيين ولا تمدن الامم النصرانية  
بعد خروج الاسلام من الاندلس وقبل الثورة الفرنسية والأمر فاكون قد تمتعت لك  
ان تكون عبداً ذليلاً لا تملك ادى حرية لا في القول ولا في الفكر ولا في العمل ومع  
ذلك فكل هذه العصور قد امتازت بهذه الآثار البديعة التي لا تعادلها آثار بعدها  
ويمكن الجزم بانها لا يمكن ان تعادلها آثار في المستقبل ولكنها بالحقيقة آثار لا قيمة لها  
في المنافع العمومية التي تعظم قيمتها وتعظم الاعمال التي تنجم لها كما ارتقى الاجتماع.  
فالموتى قد ابدعت في فن النحت لانها ارادت ان تقيم الاصنام لاهنها فقامت لها  
الحياكل الفخيمة ونسبت لها التماثيل البديعة. والنصرانية اتقت فن التصوير لانها  
ارادت ان تشخص وقائع دينها وصور قديسيها فتركت لنا من ذلك آثاراً لا تبارى.  
وما بناه الاهرام وبلبك وتدمر وسواها من الآثار التي تعد من معجزات العصور  
السابقة الا دليل ناطق على ما بلغ اليه البشر في تلك العصور من القل والعبودية  
والتماني في عبادة معبوداتهم والخضوع للوكهم الذين رفعهم درجات فوقهم حتى  
الخلطهم بالالهة وبارواهم اذل من الحيوان

مصر هل انت غير ما هن ان لنا شادادك وان قسونا ركا كا

ذلك خلق من صنع فرعون لما شاد اهرامها تناخي السكا كا

وهي كلها بالحقيقة آثار نخدم اغراضاً خاصة ولا قيمة لها في المنافع العمومية

واذا كل تمدن الاسلامي لم يترك لنا شيئاً يستدبر من مثل هذه الآثار فليس

لان حال الانسان به كان اصالح منه في الماضي خصوصاً بعد ان اوغل في الفتح

واستتبت السيادة له واستأثر سلاطينه بالسلطة واستبدوا بالوطايا بل لان الدين نفسه



قام لنقض الوثنية وهدم الاصنام ونفي تعدد الالهة فبعد هذا واحداً مجرداً الذات لا لصفاته فلم يمثله الا تلو تعود العبادة الى الاصنام . وقد تغالى بالامر فحظر نقش التماثيل الاعتيادية حتى الدمى ولولا الامم الاخرى لبادت به صناعة التصوير بالقلم والحفر وهو مع ذلك لم يترك شيئاً عظيماً من آثار المنافع العمومية التي تدل على صلاح حال الانسان في دنياه وارتقاء المجتمع . واعظم ما تركه آثار اديبة لخدمة الغاية الدينية وقد فلق بهذه الآثار جميع الامم التي تقدمته

ولما كانت هذه مبادئ الانسان في حياته كان كل منحة في علومه ومعارفه وشرائعه وادابه وسائر نظاماته متجهاً الى هذه الغاية الادبية منصرفاً بها عن الحياة العملية ولم يجتهد في ان يتعرف ما حوله الا بالتدبر الذي لم يكن له غنى عنه بما تضمن له الغذاء والكساء يتقي بهما الم الجوع والبرد ولذلك ايضاً جداً في تعرف اسرار الطبيعة وما لها من القوى وما بينها من الروابط للتصرف فيها والانتفاع بها فعرف كيف يروي الزرع ويستدر الضرع وينسج الكساء ويقيم البناء ويدلل الحيوان ثقل وقطع المفاوز بل عرف نواويس الضغط والحمل والقل النوعي فينبى السدود ورفع الاقال وركب البحار النخ . ولولا طمعه لما وضع اساس الكيمياء ولكنه لم يحاول ان يتعرف طبائع ما فيها من القوى ليصرفها الى غرضه فيقاوم الرياح بقوة البخار ويقرب الشاسع من الاقطار بقوة البرق ويأتي بها اعمالاً تكاد تكون في عداد المعجائب لا اعتباراً من ان هذه القوى غريبة عنها

ولم يكن هذا الابطاء عن مجرد تذبذب منه في الاحتداد اليها لشدة استغلاها عليه مما هو ضروري في استكشاف كل امر بان عن مجرد انصرافه عنها بما تقدم والدليل على ذلك ان النواويس التي اكتشفها والمنافع التي احدثت اليها والمار ذكرها يصح ان يقال انه عرفها منذ اول الامر اي منذ اليوم الذي دخل فيه في طور الانسانية ولكنه بقي واقفاً بها حتى اليوم . خذ الاضائة مثلاً فان السراج الذي نعرفه منذ اربعين سنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً منذ اربعة او خمسة آلاف سنة المكتشف في خرائب مصر ليس في الزيت الذي يضيء به بل في نفس شكله حتى

يمكن ان يقال انه هو الذي كان منذ خمسة عشر الف سنة ايضاً واكثر. ثم قابل ذلك  
 بانواع الاضافة المختلفة التي استجدت في الحسب او الستين سنة وخصوصاً في العشرين  
 سنة الاخيرة اي بعد انصراف عقل الانسان الى درس الطبيعة وتعرف قواها وتخلصه شيئاً  
 من رتبة تلك المبادئ التي كانت تصرف عنها والطائفة في تعاليمه وسائر آداب القديمة  
 وقل لي بعد ذلك هل تلك العلوم العالية والاداب الزائفة كما يسمونها هي مرة برقى  
 بها او سلم يصعد عليه الى العلوم الحقيقية ام هي بالحقيقة عقبات في سبيلها  
 وكيف يصح ان ينسب ذلك لا الى الاسباب المذكورة بل لتعذره على عقل  
 الانسان قبل هذا العهد لضعفه وقلة اختباره وهو قد اظهر في العلوم الاخرى التي  
 اضطر الى البحث فيها لضرورتها ولعدم حيولة هذه المبادئ منه وبين النظر فيها  
 تفوقاً عجباً اريد بذلك علم الاعداد والمساحات فقد تفوق في هذه العلوم الى درجة  
 لم يبق بعدها من مزيد حتى يصح ان يقال ان العلوم الرياضية بلغت عن الاقدمين  
 ناضجة بل مخترقة لم يستطع المتأخرون ان يزيدوا عليها شيئاً يذكر واما في العلوم  
 الطبيعية فبقي واقفاً كالبلية رأسها في الولية لانصرافه عن النظر في قواها بالنظر في  
 قوى ما فوق الطبيعة واكتفائه منها بالقليل الضروري كما تقدم

فالعلوم الطبيعية هي ام العلوم الحقيقية ويتقضي ان تكون ام العلوم البشرية كافة  
 وان تقدم على كل شيء وان تدخل في تعليم كل شيء فيصح نظر الانسان حينئذ  
 في لغائه وينظم قياسه في دليله وتقوى فلسفته بارتباطها وتعلو آدابه لانطباقها على  
 العمل وتصلح شرائعها لتطبيقاتها على نظام الاجتماع الطبيعي وتوسع عقله لانطلاقه من  
 قيوده المتناقضة وتقدم نظام واحد شامل ذي اتساع لا يحده وتصح احكامه  
 لترتيبها على القياس الصحيح وبسرعة ارتقاؤه لانطباقه في سببه به على نواحي الكون  
 واذا علمت ان دائرة معارف الانسان الطبيعية لم تسع بعض الشيء وان قوى  
 الطبيعة لم تربط بعضها ببعض بعض الربط الا في القرن الماضي ورأيت ارتقاء الانسان  
 هذا السريع خصوصاً في الربع الاخير منه تبين لك اهمية العلوم الطبيعية. ولكن



من الأسف ان هذا الارتقاء الذي هو في بدئهِ والذي ينتظر منه شيء فوق احلام العقل في المستقبل وان كان قد عمَّ الزراعة والتجارة والصناعة والطب ايضاً . ان لم يكن من حيث شفاء الامراض فمن حيث طرق منعها . الا ان الانسان لم يستفد منه كثيراً حتى الآن في شرائعه وحكوماته وان كانت الحروب قد قلت به قلقة تذكر وتقررت به سيادة الامم واخذ الملوك يهبطون من سماء اولمبيهم الى محاذاة البشر . فما ذلك الا لصعوبة ازالة اثر العائق بها من تلك التعاليم الراسخة فيها مدى كل تلك الاجيال المتطاولة والتي ما زالت الحكومات تؤيدها وتتشبها لها المعاهد وتقيم لها الجامعات التي يتغنى بها بعض الشعوب حتى اليوم والتي لا يزول ضررها الا باقراضها ولكنها ستقرض وستقرض معها كل تلك العلوم العالية كما يسمونها اليوم حتى يعمروا بها . وهي من يوم خطا الانسان الخطى الصائبة في علوم الطبيعة في اختصار سيجبوزها . وكل سنة الآن في هذا السبيل بنظم قرون في الماضي

وكأن الاجتماع لا يصلح صلاحاً تاماً يتكفل بهفاً اثر تلك التعاليم الا اذا توحدت المذات وتوحدت الامم وهذا ايضاً لا بد منه والسبيل اليه لم يعد بالمتنع اليوم ونهوض امم المشرق من سباتها دليل عليه . انظر الى اليابان كيف ان نور العلم الطبيعي امتد اليها ونهض بها الى اوج الامم الراقية في زمن قليل بعد ان لبثت في سبات عميق مثلت الصين بل انظر الى امة الصين العظيمة الراقدة منذ الف سنة ولم تتغير في ضجعتها كيف انها تحركت واخذت تفتح عينيها . ولا تظن ان نهوض الامم اليوم يكون كما كان في الماضي انتصاراً وحشياً وفوزاً هجياً تقوم فيه دول على اطلال دول وامم على انتاض امم بل سيكون عدوى سلمية تمتد من السليم الى الاجرب فبهزيمة فيصبح هو ويبقى سواءً صحيحاً . وما مثال انقلاب الامة العثمانية في نورتها السلمية العجيبة بعيد وكان مثال ذلك في الماضي تجري الدماء فيه انهاراً

كل ذلك من معجزات العلم الطبيعي على حداثة عهده وانصار دائرته وقلة عدته وغلبة التعاليم القديمة عليه . وابن منها معجزات العلم الالهي المصروفة بالعلم . فتوحيد الامم واللغات وانتشار الانسانية الحقيقية والنظر الى البشر كأنهم اخوة

واختيار العالم وطناً واحداً كل ذلك لم يتم بهذا العلم الاخير مع انه من اقصى مراميهم  
وما تمت به حتى الآن الا معجزات الحروب والتغريق وقيام الاخ على اخيه . وان  
يتم ايضاً ولا يتم الا اذا انتشرت العلوم الصحيحة انتشار تلك وعرفت اسرار  
الطبيعة معرفة اتم . ومن غريب المفارقات ان الانسان مع شدة علاقه بالطبيعة لم  
ينظر اليها بنظر المستحق لمعرفة اسرارها الا من عهد قريب جداً بل صبا عنها الى  
ما لا علاقة صريحة له به وعلى ذلك شاد كل آثاره وافرج كل مجهودات جسده  
وعقله والذي وصل اليها من تلك الآثار الحسية والمعنوية بالنظر الى ما لم يصل اليها  
شيء قليل جداً ومع ذلك فهذا الشيء القليل كثير جداً بالنسبة الى ما تركه لنا  
الاقدمون من مبادئ العلوم الصحيحة . خذ مثال الكتب الادبية من فلسفة نظرية  
وفقه على انواعه وتواريخه مكذوبة ملفقة واقاصيص خرافية مما لا يزال بين ايدينا وتلده  
قراءنا حتى الآن مما لا ينطبق على عقل لو نقل فكم هو كثير في كل امة فاذا كانت  
منقولات التاريخ عن هذه الآثار صحيحة من انها كانت تعد بعشرات عشرات الالوف  
وتشترى بالوف بدرات الاموال على ما تشاء بخيلة المؤرخ الشعوية فلا اسف عليها ان  
كانت قد فقدت ويكون الامم عمر قد احسن بحرقه نظائرها اذا صحت الرواية عنه فهدم  
الآثار التي يتفق بها التاريخ ويبالغ في كثرتها مبالغة في الفخر وما كثرتها الا اتفاق  
معان واختلاف روي والتي يعتمدها جمهور الناس حتى اليوم كنوز كل امة هي بالحقيقة  
آثار غلدة اضلال الانسان حارقة اياه عن النظر في ما لديه من الخفايا مانعة له عن  
السلوك في الصراط المستقيم . ولكن العلوم الطبيعية وقد اخذ كتبها يملأ اليوم ستكفل  
في المستقبل بما لم تستلمه الايام

فالعلوم الطبيعية هي المعوكل الوحيد الذي يزعم ان اركان تلك العلوم ويهدم بنيانها  
بل هي الخلل الذي سيتكفل بقلب ما بني عليها من المنظمات المنتظمة والشرائع العائفة  
التي هي سبب كل ما نراه من الاضطراب في الاجتماع لفقد التوازن فيه . فالشرائع التي  
تسوس الاجتماع حتى اليوم والمبنية على تلك العلوم شرائع استبدادية لا تنطبق على



تواميس الاجتماع الطبيعي التي لا يصلح الاجتماع الأبدى . وسواء كانت إلهية أو بشرية فالفارق فيها بين أعضاء المجتمع البشري في حقوقهم وواجباتهم عظيم جداً . ولا يفترق ما فيها من الأصول المنطبقة في ظاهرها على العقل والعدل فالعبرة إنما هي في تطبيقها على العمل . والممسك بغير حل أريانا لا بد من أن يصل في تيمر هذا الكون . وهذا الحل ليس إلا الطبيعة نفسها وتواميسها . فبالشرائع التيقراطية يترفع الرؤساء عامة عن الشعب ويستأثرون بامتيازات يحملون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جداً إلى حد الاستئانة بالتشرف وحقوقه معهم قليلة إلى حد الاستهانة بنفسه . وبالسلطة الروحية التي لهم عليه يسيطرون على عقول ومواقفهم فيقيمون عليه من مخاوف أو هامه ضاغطة يجعله يقتنع بأنه لا يجوز له أن يكون في غير الحالة التي هو فيها . وبالشرائع الاتوقراطية الاستبدادية البشرية يرهب الملوك هذا الشعب حتى يموت نفسه ويخيم الجهل عليه فيلبونه حقوقه . ولا فرق بين عالم وجاهل في هذا الذل وموت النفس فكلاهما شرع في التبدل هذا يرحل يظفر على الأرض حتى يعفر جيبته بالتراب وذلك يتبدل بترينه فيذلها إلى مواطئ الأقدام تزلزلاً إلى ملوك السيف وملوك المال وتو انك تأتي عليهم أن ترميهم شزراً لو جردتهم من ذلك كله . فتضحى المصلحة العامة على مذبح الأفراد ويموت الفكر لدى مظاهر القوة الفاصصة والمجد الفارغ حتى يصير الملوك آلهة جبابرة يلبون ويعتكون ولا وازع لهم من شرائعهم والشعوب عبداً أرقاء لا يسنوهم الأرضى ظالمهم وحتى يصير المجد كل المجد لدى اطفال الرجال الاتفاف حولهم لنيل رتبة يلبون لها ثوباً مزركشاً يوزون به في زي يضحك حتى ارباب المسافر أو للحصول على وسام يلقونه على صدورهم ويتنهجون به كما ينهج صغار الاطفال بلعهم فيموت الفخر بالأفكار النبيلة والاعمال الجليلة مجردة عن سفساف هذه الزخارف . ويلمح بهذا النظام عيب آخر يجعل الشرائع أشد ضرراً على المجتمع من ضرر الاستبداد نفسه وهو جودها من طبيعتها نارة ولا تستمك اصحاب السلطة بها اخرى فلا يسبل تغييرها طبقاً لاحتياجات الاجتماع بحسب الزمان والتكليف خلافاً لتاموس الاجتماع الطبيعي الذي هو في طبيعته خاضع لتاموس التحول العام . ولا يتغير فيه إلا

يشق النفس لشدة براث الضغط المتجمعة فيه على مدى الزمان فتنفجر به انفجاراً هائلاً تبعاً لناموس تجمع القوى الطبيعي الذي يحدث به النكبات الطبيعية في الأرض كالزلازل ونحوها . ولذلك كل انتقال الانسان بشره ونظاماته في التاريخ مصحوباً دائماً بثورات تجري الدماء فيها انهاراً وكثيراً ما ترجع بالاجتماع القهري او تنفج به عصوراً متطاوله

ولا ينكر ان في اصول هذه الشرائع ما تراعى فيه مصلحة الاجتماع بل مصلحة كل فرد فيه وانما صبغها احياناً كثيرة بما يلبسها حلة الجود وعدم معرفة تطبيقها على نظام الاجتماع الطبيعي لجبل نواميسه يفقدانها مزاياها الحسنة وهذا هو سبب قيام المصلحين من وقت الى آخر على اختلاف زمانهم بغض النظر عن مطالبهم الخاصة لمقاومة هذه الشرائع تارة بالغت ونارة باللين وكان السيف فيها دائماً اصدق ابناء من سواه . ولهذا السبب عينه كل مصلح الامس يدور رزاً كبيراً على مصلح الغد . والاجتماع هو الذي يجعل مقبة كل ذلك . ولو سبر في نظامه على منهاج الاجتماع الطبيعي لما كان كل هذا الشر



ولا نريد بهذا القول ان الناس في طبائعهم يكونون بعيدين عن كل شر بل ان سهولة انتقالهم في شرائعهم وتحولهم في نظاماتهم يلطف من هذا الشر ويزيل كثيراً من اسبابه . بل بمعرفة نواميس الاجتماع الطبيعي يحسنون تطبيق نظاماتهم عليه فيقدرون فيها ناموس التكافل القاضي بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدره ويحجبون بذلك شر ناموس التكافؤ القاضي بشدة التنارع لشدة المباينة بين هذا التقاسم والعمل ويتقنون بذلك شر تبذير القوى في الاجتماع عملاً بناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي فيعملون الانسان حقيقة واجباته من نفس احترام حقوقه اذ لا شيء اقدر على تعريف الانسان واجباته للقيام بها مثل معرفته المنافع المترتبة له عليها . فبا احترام الحقوق تعرف الواجبات فتتل الجنايات المترتبة على الجهل بها وبمراعاة كل افراد المجتمع في احوالهم المعاشية تحسن صحتهم فقلل امراضهم وتبقى الامة اذ قلل اسباب تولدها



واقشارها. ولا يخفى ما يتبع ذلك من تحسن اخلاقهم واستقامة طبائعهم فلا يقشروا  
الكذب بينهم هرباً من عقاب او مراعاة لمصلحة ونقل السرقة المترتبة على الحاجة.  
ولا وهل يصح ان يكون الامر على غير ذلك؟ أفلسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب  
لاننا عاقبناه على الصدق وان يسرق لاننا حجبنا عنه ما يحتاج اليه؟ او ليس شرائعنا  
هي التي تمنعنا عن تلك الشجاعة الادية التي تسمو بها اخلاق الانسان وتعملنا كرهاً  
على احترام هذا الحجب المنتصب بالارهاب؟ ولا فرق في ذلك بين شرائعنا  
الاوتوقراطية والديموقراطية في كل فترة منها ما برعد الفرائص بالتهديد والوعيد. ولماذا  
كل هذا الغضب على هذا الانسان الضعيف الذي اقل احتياج من احتياجاته كافي  
لان يدفعه الى ارتكاب الجريمة لان الاحتياج مؤلم فالجوع فضاح والحاجة قاتلة.  
فلماذا لا ننظر الى ذلك بالنظر انصائب ونكفي الانسان حاجته ونكتفي شره بل نتفجع  
كل النفع به؟

ونحن اذا طلبنا ان يكفى الاجتماع حاجته وتدرأ عنه غلله وامراضه فلا نكون قد  
تمينا حلماً او قصداً وهماً بل نكون قد تمديننا نظام جسم الحي نفسه الذي كل عضو منه  
بل كل جزء مما كان دقيقاً من اجزائه يعمل لنفسه ولكل معاً والكل نفسه يعمل  
له وعلى صحة هذا الجزء لتوقف صحة الكل والآن اضطرب جسم الحي كله وساء  
مصيره. فندرس نوايس الاجتماع البشري يجب ان يكون يدرس نوايس الجسم الحي  
نفسه ووضع نظاماته على نفس نظاماته لان الاجتماع البشري نفسه ليس الا جسماً  
حيّاً ايضاً ولكنه حيوان هائل كما قال عنه المقتطف منذ سنين قديماً على بحث لي في  
تاريخ الاجتماع الطبيعي نشر فيه في ذلك الحين

ولفانيل ان الاجتماع على الصورة التي هو فيها سائر على نظام الطبيعة نفسها وهو  
متحول شيئاً فشيئاً بالتدرج متذبذب مثلاً ونوراته مثل نكباتها فالاسراع في ارتقائه  
واجشابه تذبذبه ونوراته يخالف للنظام الطبيعي. وهذا القول حق لولا ان الاجتماع  
عاقل والطبيعة عمياء فهو قادر ان يتصرف بأسرارها ويصرفها الى مصلحته حتى يصح

القول ان الانسان من يوم اهتدى الى الكساء وشاد البناء لم يتغير بدنه كثيراً ولكنه في شرائعه لم ينظر الى نوايس الطبيعة تطبقها عليها واخيار الانفع منها بل صبا عنها الى ما سواها وخالف بذلك نظامها فكأن عقله هنا جنى عليه فصرفه عن تعرف اقرب الاشياء اليه والاصحها به حتى اوغل في الضلال وصار رده الى الصواب صعباً جداً. او ليس من العار ان ترى الانسان حتى الآن مشغولاً عن حاضره بماضيه يبنى عليه مستقبله منصرفاً بالبحث في ما لا يجدي عن البحث في ما يجدي وما مثله الا مثل من يمشي الى الامام وهو ملتفت الى الوراء فلا غرو اذا وقع في حفرة منجم الاسكندر وهو يمشي ويدرك نجوم السماء حتى قيل فيه المثل « من اشتغل بعلم ما فوقه بلي بجهل ما تحته » فلم يكن بد لوضع الاجتماع في صراط يصون له توازنه ويسرع ارتقائه من صرف قوى الانسان فيه عن تلك المباحث الرثة المضيق للعقل المضائلة له من فلسفة نظرية وتواريخ كسج العناكب وعلوم عالية ككفة الميزان الفارغة وافاصيص كتماقم عقاريت الف ليلة وليلة وتوجيهها الى البحث الجدل الذي يضمن له ذلك الا وهو العلوم الطبيعية بما فيها من فلسفة اخبارية متينة واسعة التي هي المعول الوحيد كما تقدم لهدم تلك العلوم السخافية وما بني عليها من النظمات الاجتماعية الفاسدة والاساس المتين الذي يشاد عليه ببيان الاجتماع الباسق في المستقبل

واذا علمت ان شأن العلوم الطبيعية لم يأخذ يتأخلم الا في القرن الماضي وان النوايس الكبرى التي تسوس الطبيعة لم تنجل حقيقة الا في النصف الثاني منه ونظرت الى النتائج العظمى التي تربت على ذلك في هذا الزمن القصير من ارتفاع شأن المنافع العمومية وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة ونشر التعليم ومعرفة حقوق الانسان وتقدير سيادة الامم وخصوصاً اتجاه قوى العقل الى النظر في الغريب الداني وتولد حب البحث فيه عن الحقائق الملموسة لم يدرك شي من النظر في ما تقدم من القول. فان تحول مجرى افكار الانسان في جميع مباحثه الى هذه الجهة سيكشف له اسراراً كثيرة في الطبيعة ليس المعلوم منها له اليوم الا نزراً يسيراً بالنسبة اليها تزيد علماً وقوة



وتضطره بحكم الضرورة الى قلب سائر ما بناه على غير هذا الاساس بسرعة لا يعادلها الا تباطلوه في ما مضى عن الاندفاع في هذا السبيل القويم . — واذا علمت ان سر قوته ليس بتعريف خصائص المادة وخواص القوى البادية فيها كالحرارة والكهربائية والنور والمجاذبية على اطلاقها والالفة الكيماوية حتى القوى الحيوية بل بمعرفة تحول هذه القوى بعضها الى بعض وبطلان بناموس عام يشملها جميعها أضمت شأن مذهب النشوء والتحول الذي هو موضوع هذا الكتاب والذي هو من منتجات القرن الماضي وحده بل نصفه الاخير . بل لو علمت كم كلف من العناء تقرير هذا المبدأ الذي يبدو اليوم للعلم بسيطاً وكما انار من الحروب العلمية واللسانية بين علماء النظر والاختبار بل بين علماء الطبيعة انفسهم قبل ان يقره العلم مما يزيدك دلالة على ما للاعتقادات الموروثة من الشأن في الضغط على العقول حتى الراقية لا عظمت جداً الفكرة الاستنتاجية التي حملت دارون على التصريح به بل صبره واجتهاده في جمع الأدلة لتأييده ولا عظمت جسارة اتباعه واطلاقهم ايده على العالم بأسره وتطبيق اعمال الفكر نفسه عليه .

والحق ان فضل دارون العظيم ليس في فكرة وضع اساس هذا المذهب بل بتأييده له بالادلة العلمية الطبيعية . وحملها صامداً لا لان يطبق على الاحياء وحدها فقط بل لان يشمل الطبيعة كلها لا في الارض ومواليدها الجناد والنبات والحيوان فقط بل في السماء واجرامها ايضاً . فقد سبق دارون فلاسفة ودعاة طبيعيين قالوا بهذا المذهب قبله او بما يدل عليه واخصهم بالذكر عالمان طبيعيان كيران وهاملارك وجفروى سنيليار في اوائل القرن الماضي ولكن ابحاثهما غير كانت قاصرة اتلة الادلة العلمية فلم تستطع ان توجه الافكار اليها وان تحدث الثورة التي أحدثتها ابحاث دارون فقامت العلماء واقاعدتهم واثارت بينهم حرباً شمواء كانت هي السبب في جلاء هذا المذهب واتصاره .

والغريب ان دارون ايد مذهباً بشواهد ودلة اخذها من ابحاث علماء اعلام و بعضهم كان من معاصريه ومع ذلك فقد لاقى من هؤلاء المعاصرين انفسهم متاوهمات ضيقة وما مثلهم كما قال هكل الا مثل رجل دخل غابة كثيفة فخذ ينظر في كل شجرة من اشجاره ولكنه لم يفتت بصبره الى الغاب كله المواقف من مجموعها كما ان الفلاسفة

الذين قالوا بمذاهبهم في الكون نظروا الى الغاب جملة ولكنهم لم يدخلوا فيه لتعرف كل شجرة من اشجاره على حدة فانت مذاهبهم مغلوطة او غير ناضجة بخلاف دارون فانه تعرف كل شجرة من اشجاره ثم رجع ونظر فيه جملة. وهذا شأن اكثر الناس في مباحثهم فمنهم من يقف عند تعرف الجزئيات ولا تجد عنده اقل ميل للنظر في الكليات ومنهم من يمتد بنظره حالاً الى الكليات وما مثل الاولين الا مثل الفاعل الذي يقطع الحجارة وينحتها والآخرين مثل البناء الذي يبنها. فلما اجتاح علماء الاجسام الحية في تركيبها والفوارق التي بينها والاعضاء الاثرية التي فيها واختلافهم في عدد الانواع واختلاطها في آفاقها كل ذلك كان قد زرع مذهب الخلق النوعي المستقل. وكانت ابحاث كليل في طبقات الارض قبل ذلك قد اثبتت حصول التغير التدريجي فيها ونفت القول بمذهب النكبات الجيولوجية الكلية الفجائية واجهزت على القول بمذهب الخلق انكلي ثم جاءت الاحافير التي اكتشفت في هذه الطبقات مؤيدة للتحول البطيء في الاحياء نفسها. فلما جاء دارون لم يكن عليه الا النظر في ذلك جملة لتأييد مذهب التحول ونسبته الى اسباب مختلفة طبيعية حدث به الى وضع مذهب الشير وهو الانتخاب الطبيعي تبعاً لناموس المطابقة القائم على تنازع البقاء وبقاء الانسب. وعزز قوله بأنه تمحدي الطبيعة وايد عملياً بالانتخاب الصناعي.



واغرب مما تقدم ان دارون نفسه مع أنه وضع اساس مذهب النشوء والتحول الطبيعي لم يستنتج من مذهب كل ما يترتب عليه من النتائج الصريحة إما لانه لم يستطع او لم يحسر لشدة تأثره بالمذاهب الشائعة وإما لانه لم يرد ليرد عنه مقاومة اصحاب الخلق النوعي لصعوبة اقامة الدليل العلمي على التولد الذاتي. فقال ان الاحياء نشأت في اول الامر من خمسة او ستة اصول تامة الخلق ومنها تفرعت سائر الاحياء المعروفة اليوم والبالدة بفعل نوايس الطبيعة نفسها. ولكن التحفظ لم يغير شيئاً فتدلاق مذهبهم مع ذلك مقاومات شديدة جداً من اصحاب مذهب الخلق النوعي وخصوصاً



من اذنانهم اصحاب المبدأ الحيوي . على ان الذي لم يتصل اليه دارون او لم يشأ ان  
يصرح به فعله معتقو مذهب بعده على اثر انتشاره حالاً واطلقوه على سائر  
الطبيعة . واكبر زعمائهم هكلي وسينسر في انكلترا وهكل وبجنر في المانيا  
وسواء هبطت اصول الاحياء من السموات العلى كما يفهم من قول دارون او  
وصلت اليها من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك كما ذهب السير ولهم طمس  
المعروف بالورد كفن ايضاً صاحب المباحث الكبرى في فلسفة الكون وواضع مذهب  
الحفلات الزويعية في الهيوئى لتحليل الجواهر الفردة . فان ذلك لا يؤيد مذهب الخلق  
الفجائي الذي ليس لنا عليه كاثولود الذاتي ادنى دليل علمي او شاهد عيانى .  
ولا ينبغي كون التولد الذاتي حاصلًا في الاجرام التي هبطت الجراثيم منها او تمكناً  
في الارض التي نمت وتحولت فيها وانما يثبت شدة تاثر العقول بالمذاهب الشائعة ولو  
انها بقايا اساطير تخالف العلم . وخصوصاً اتيادها للمذهب القائل بان القوى الحيوية  
لا علاقة لها بالقوى الطبيعية وكل علاقتها بها انما هي عارضة . وهو بقية رثة من مذهب  
تعدد القوى في الطبيعة لا تنطبق على فلسفة ناموس النشوء والتحول الذي صار اليوم  
في حكم المقرر لدى جمهور العلماء والذي لا يعترف الا بوحدة هذه القوى ثبوت  
تحولها بعضها الى بعض . وكان زعماءه انخفض صوتهم جداً اليوم

وواضع اساس هذه الوحدة في نواميس الطبيعة هو بالحقيقة اسحق نيوتون  
الفيلسوف الرياضي الانكليزي الشهير وذلك في القرن السابع عشر . فانه لسبب  
لطيف يعرض لكل منا في كل دقيقة ولا يقف في الخاطر وهو سقوط تفاحة من  
الشجرة الى الارض اكتشف نواميس الجاذبية العامة واقترحها على اساس علمي واطلقها  
على كل الكون وقد اشار فلاسفة اليونان الى هذه الجاذبية في نظريتهم انى الكواكب  
واعتبارها على دورانها بعضها حول بعض . وقد نقل العرب عنهم ذلك وعبروا عنه  
بلفظة الشوق ولم يزدوا على ذلك . وقد استعملت عنهم هذه اللفظة للتعبير عن  
الجاذبية في قولى

نولا الهوى وبدع الشوق بهديه ما صح في الكون معنى من معانيه

ولاسرى النجم في العلياء وانتظمت له المواقع تقصير وتدوير  
فرجع الفضل في اكتشاف نواميس الجاذبية وتطبيقها على العلوم الرياضية انما  
هو نيوتن وحده كما ان الفضل في تقرير مذهب النشوء والتحول على مبادئ  
علمية اختبارية ثابتة هو لدارون وحده. على ان نيوتن وقف في مذهبه عند هذا الحد  
ولم يشر الى العلاقة بين جاذبيته وسائر قوى الطبيعة ليرد هذه اليها او يجعل تلك  
منها حتى اتسّر مذهب النشوء والتحول قائم الزابط وصارت هذه النتيجة لازمة لدى  
معنقي هذا المذهب كما في هذا القول

شوق تكامل من ادنى الوجود الى اعلى فاعلى الى اعلى اعاليه  
حتى تناهى وقلب المرء قلبه  
ولا سيما انه كان قد تقرر قبله تحول قوى الطبيعة بعضها الى بعض كالحرارة  
والنور وانكهربائية واعتبارها جميعا من اصل واحد

ولما كان القول بمذهب النشوء يستلزم ضرورة القول بمادية الكون لم يكن تقريره  
من السهل لدى اصحاب المبدأ الخيوي لصعوبة تأييد التولد الذاتي بالوسائل التي لنا اليوم  
وقد استمسك علماء النظر بهذا المبدأ استمسك الفريق بحبل النجاة. وبلغ التعمس في  
المنافرة بين الفريقين حداً حده بين سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر دارون فيها كتابه  
في اصل الانواع وسنة ١٨٩٠ وهي السنة التي بدأت جنبهم فيها تخف. وكلت جل  
اعتراضهم ان التولد الذاتي لم يثبت علمياً كأن هذا الاعتراض لا يجوز عليهم كما يجوز على  
سواهم. فان كان اصحاب النشوء لم يروا حياً ثبت من غير حي فهل رأى اصحاب الخلق  
انساناً خلق من غير انسان فكلاهما في جوارز الاعتراض العلمي سواء مع الفرق بان هؤلاء  
بمخالفون كل قضايا العلم في التحقيق والاستقراء بخلاف اولئك فانهم في كل قضاياهم  
متفقون مع العلم الطبيعي. ولو اقتصر اصحاب الخلق على الاستمسك بمذهب الخلق  
الكلي فقط لما اشتد النزاع بينهم وبين اصحاب النشوء للزوم اتفاقهم بعد ذلك على تكون  
الاحياء وتحولها بقوى الطبيعة نفسها ولكنهم ابو الا الاستمسك بالخلق النوعي الذي



يجعل كل نوع من الاحياء موضوع خلق خاص ليفصلوا الانسان بذلك فصلاً تاماً ويجعلوه في مقام ممتاز لا في سلم التحول الزاقي بل في نوع الخلق نفسه لئلا يكون وجوده على تلك الصورة نتيجة يترتب عليها مشاركته الذاتية لساير المخلوقات وهم يريدون ان لا تكون له هذه المشاركة الا في الاعراض فقط تأييداً لتعاليمهم من انه الغاية المقصودة بالذات والتي لاجلها خلق كل ما في الكون وهو قول لا يقبله

○ العلم اليوم

على ان هكل وهو من كبار العلماء الطبيعيين اكتشف في قاع البحار جسماً متعضياً يصح ان يكون حلقة الاتصال بين الجماد والحي ودليلاً على التولد الذاتي وقد أطلق عليه اسم المونير وهو عبارة عن ابط الكريات الحية القائمة بنفسها ومهما يكن من ذلك ومن القول بالباثيوس ومن زعم آخرون ايضاً بانهم تمكنوا من احداث هذا التولد فحل مسألة النشوء الطبيعي لم يعد متوقفاً على ذلك بعد ما ثبت تحول القوى بعضها الى بعض وتحول المادة بها كذلك وتحول الاحياء نفسها تبعاً لناموس المطابقة كما ان حل مسألة الهيولى لم يعد متوقفاً على رد العناصر كلها الى بسيط واحد. والوقوف عند ذلك بعد ما ثبت كل هذا الارتباط تعنت اذا جاز لاصحاب المذهب الواحد جاز اكثر لخصومهم.



وقد علا هتاف اصحاب المبدأ الحيوي جداً لما قام بسنور واكتشف سر الاختار واثبت علمياً انه ناشيء عن جرائم اي احياء دنيا لا ترى الا بالمتاخير المعظمة اطلق عليها اسم المكروبات وأيد قوله بالبرهان اذ منع الاختار واوقف كل فساد بقتل الجرائم في الجسم الخمر وصدها عن النفوذ اليه واكتشف بذلك طريقة التعقيم العلمية واقر مذهب الجرائم على اساس علمي متين فزعموا ان اكتشاف بسنور هذا قد جاء بالضرورة القاضية على مذهب القائلين بالتولد الذاتي

على ان لياذا اصحاب المبدأ الحيوي بجرائم بسنور لم يقدم شيئاً جديداً لاثبات مبادئهم ولدحض مذهب خصومهم وانما هذا الاكتشاف بعد حل المسألة اذ اثبت ان

الاحياء الدنيا اجسام نامة التكوين مختلطة التركيب قديمة العهد ليست الاولى في سلم  
الاحياء وان حل مسألة التولد الذاتي يجب ان يبحث عنه في ما هو ادنى منها مما قد  
تعجز عنه مناظرنا المكبرة وقد يكون موثراً على كل نفسه من الصور الزاكية بالنسبة اليه  
ولكن جرائيم يستور اذا كانت لم تقدمنا شيئاً من هذا القبيل فقد افادت العلم  
فائدة كبرى اذ كشفت لنا علماً كبيراً جداً في التاريخ الطبيعي لم يكن معلوماً لنا  
من قبل واثبتت ان لهذا العالم اتصالاً شديداً بنا فدرسه اذن يفيدنا جداً تعرف ما  
له من المضار وما يحوز من المنافع لتطبيق ذلك على مصالحنا الاجتماعية الزراعية كانت  
او صناعية او طبية . وقد كان لهذا الاكتشاف شأن عظيم جداً خصوصاً في علم الطب  
اذ اثبتت ان الامراض ليست الا اختاراً وان سببها جرائيم قلب كل المذاهب  
الاجتهادية التي كانت شائعة قبله واقترع علم الباثولوجية على قرار مكن وتقدمت به  
صناعة الشفاء تقدماً بيناً بتعرف طبائع الاحياء الدنيا والوقوف على الوسائل المقاومة  
لها . وعلى ذلك اكتشف يستور طريقة التلقيح العلمية بالمصل الثاني وافواقي معاً وعي  
اعظم اكتشاف في علم الشفاء ختم القرن الماضي به حسناته وفي طليعة ذلك اهمية وثبوتاً  
مصل الدفتيريا الذي اكتشفه تلامذته بعده والذي يقذف كل سنة مئات الالوف  
من الاطفال من مخالب الموت المحتوم . وانما قلت طريقة التلقيح العلمية لافضل بينها  
وبين طريقة التلقيح الوافي التجريبية التي اكتشفها اتفاقاً جنر قبل يستور بزمان طويل  
كما ان لست اذكر اسبق منه الى القول بالجرائيم واعتبارها سبب التعفن واستعمال العلاج  
المعتم في الجراحة ولكنه قال قوله هذا بناء على التجربة لا على العلم الحقيقي فالفضل انما  
هو ليستور وحده في اسناد ذلك كله الى علم واسع الاكتاف قوي المدائح . على ان  
الفرع الذي استفاد من هذا الاكتشاف فائدة كبرى هو علم الفيجين اي علم منع  
الامراض والوقاية منها . ولو كانت فطامات الاجتماع اصليح مما هي اليوم لعرفت كيف  
تستفيد منه كل الفائدة المترتبة عليه ولنعت كثيراً من الامراض التي لا تزال تقتك  
بالناس حتى اليوم فتتكا ذريعاً

وعدا عن ذلك فقد استفاد الطب من هذا الاكتشاف فائدة اخرى علمية



عظيمة سيكون لها شأن عظيم جداً في المستقبل متى توجهت الافكار اليها وهي ان علم  
الامراض صار بهذا الاكتشاف فرعاً من التاريخ الطبيعي داخلاً في مذهب النشوء  
والتحول فلا بد من اطلاق نواميسه عليه فقد كنا بالامس ندرس الامراض بمظاهرها  
اي اعراضها ونعتمد في مقاومتها على التجربة واما اليوم فقد افتتح امامنا باب واسع  
لدراسها من حيث اسبابها الحقيقية ايضاً والاعتماد في مقاومتها على العلم ولقد خطونا في  
ذلك حتى اليوم خطوات واسعة ولكنها ليست شيئاً يذكر بالنسبة الى ما سيفتحه علينا  
نظرنا فيها بهذا النظر وتمكنا فيها بهذا الجهد الهادي



وكان مسألة من اهم مسائل الطب العلمية والعملية حلت بذلك او اوشكت  
فقد كنا في الماضي لا نعرف كيف نعال سائر الامراض واما اليوم فقد صار من السهل  
ان نعرف لماذا هذه الامراض تعرض كثيراً وتشفى كثيراً ولماذا غيرها لا تعرض  
الاً مرة في العمر غالباً وسواها اذا عرض فقلما يفارق حتى الموت. فاذا علمنا ان الاحياء  
التي تحدث هذه الامراض كالا حياء العليا انواع وتباينات وعلمنا كذلك ان صفات  
الانواع ثابتة او هي بطيئة التغير جداً وان التباينات متغيرة كثيراً لا تثبت زمناً  
طويلاً انجلي لنا سر اختلاف سائر هذه الامراض. فاذا كانت الامراض الميازمية كما  
يسمونها تعرض كثيراً وتشفى كثيراً فلان اسبابها احياء دنيا من رتبة التباينات  
المتغيرة كثيراً القليلة الثبوت. واذا كانت الامراض النفاطية تشفى وقلما تعود فلان  
اسبابها الحية من رتبة الانواع الثابتة واذا كان السرطان والتفترن والجذام لا تشفى  
غالباً ولا تفارق حتى الموت فلانها ارقى في رتبة النوعية ايضاً فصفاتها اشد ثبوتاً لذلك  
واذا علمنا ان الشفاء من المرض والمناعة عليه بيان في طبيعتهما مما كانت اقوال  
العلماء في تعاليمهما ولعلمها نوع من التكافؤ والاختلاف سهل علينا ان نفهم لماذا كانت  
المناعة ضعيفة قصيرة المدة في امراض الرتبة الاولى ثابتة طويلة المدة في امراض الرتبة  
الثانية متمتعة ( او هي غلبة المرض سيفي هذا التنازع بينه وبين الجسم ) في امراض  
الرتبة الثالثة

وعلى هذا العلم ترتب فائدة أخرى عملية لاستكشاف المصل الواقى والشافى معاً  
تقوى عزائنا في بعض الامراض وترشدنا الى السبيل الاقوم في البعض الآخر فلا  
تدعنا نضيع الوقت عبثاً في محاربة من حيث لا نجدى المحاربة نفعاً لعلنا حينئذ  
ان نجحنا انما هو في نجدى الطبيعة نفسها فحينما لا تنجح هي فالاولى ان لا تنجح  
نحن فنصرف قوانا عن الممتع الى سواه مما يكون ممكناً ليكون اهتدائنا اليه اذا نجحنا  
طريقة علمية شاملة هي اهم جداً من مكتشفات التجربة التي وان افادت كثيراً احياناً  
الا انها لا تفيد فائدة علمية حقيقية للتحويل عليها في العلم

وبناء على ما تقدم يمكن الجزم اليوم بان استكشاف المصل الشافى والواقى ممكن  
في جميع الامراض التي تشفى على اسلوب استحضار المصل الدفئيري وان صعب  
تعيينه في امراض الرتبة الاولى لقصر مدة المانة فيها بسبب شدة تحولها واختلاط  
آفاقها ولكن ذلك اذا افقده الفائدة الخاصة فلا يفقده الفائدة العامة فيها للسبب  
عنه . ويجب ان يكون ممكناً في الطاعون والهواء الاصفر ايضاً . ولا ينبغي ان  
يتولانا اليأس من استكشاف الامراض الاخرى الحادة الخاصة . وهو ليس بالممتع  
في الزهري وان كان صعباً لبطء سير هذا الداء ولعله ممكن اذا عرف حالاً كيف  
يسخرج من المريض بعد هجوع اغراضه الثانوية هجوعاً تاماً . واما التدنن والجذام  
والسرطان فكيف يمكن ذلك فيها على نفس الطريقة المستعملة الوقاية من الامراض  
الاخرى وشفاؤها وهي نفسها لا تشفى فكان ذلك على هذه الصورة تمتع فيها فلم يكن  
بدلاً من توجيه النظر الى مقاومتها من سبيل آخر . ومعلوم ان المرض تنازع بين الجسم  
والاحياء الدنيا المرضية . ومعلوم كذلك ان الامراض تختلف بحسب الانسان والاحياء  
المختلفة لاسباب يجب ان تكون في الجسم نفسه فلمل توجيه النظر الى هذه الجهة او  
الى سواها يسر لنا استكشاف مصل من جنس اخر يمد للجسم صفاته المانعة او  
يكسبه هذه الصفات لتقاومة الامراض التي لا تشفى ولجعلها امنع ايضاً على الامراض  
التي تشفى . فالطب العلمي الحقيقي هو هذا لا طب العقاقير وسيكون له في المستقبل  
شان عظيم جداً الى ان يتيسر للاجتماع ان يعرف بنظائمه كيف يستفيد من حسنات



العلم فيسهل للطب غرضه الأول وهو العلاج المنعي لقتل جرائم الأمراض في مكانها  
وصدها عن التعلق بالجسم . — ولا أنكر ما في القول المتقدم من الجسارة ولكنه قول  
مبني على تطبيق مذهب النشوء على علم الأمراض بناء على ما يعلم من ثبوت الأحياء في  
التنازع بحسب رتبها في النوعية وكأن الواقع يؤيده اليوم



وأول من ذكر مذهب بستور في الجرائم باللغة العربية المفتطف أقدم مجلة عربية  
علمية بل المجلة العلمية الوحيدة في الشرق حتى اليوم . وذلك حوالي سنة ١٨٧٩ . ولكنه  
ذكره في عرض الكلام على تأييد مذهب الحيويين ونقض مذهب الماديين مشايعة  
للآراء الغالبة في ذلك الحين . كما أنه كان أول من نقل إلى هذه اللغة أيضاً كلاماً  
لبعضهم في مذهب دارون في النشوء ولكن لنقضه على أسلوب يوافق أصحاب مذهب  
الخلق . ومع ذلك فلم يسلم من الانتقاد خصوصاً من أصحاب المذاهب القديمة ولو على  
نقل المذاهب العلمية الجديدة فقط . فلم يراعوا معه العمل بالمثل القائل « نأفل الكفر  
ليس بكافر » بل اعتبروه شريكاً بالتضامن حتى كانت كل حياته الأولى جهاداً  
شقيقاً الجأه إلى الهجرة أخيراً إلى مصر

والحق يقال إن الوسط الذي كان المفتطف مقيماً فيه كان يجعل مركزه محفوقاً  
بالمصاعب . على أنه في المسائل العلمية الهامة لم يسلك مسلك التشيع الأعشى ولم يوحّد  
في وجه الباحثين حتى أشدهم مباينة لآرائهم باب الانتقاد ونشر الآراء الجديدة بحرية  
تامة فكان له بذلك الفضل الأول في إعداد الأفكار في الشرق لقبول زرع العلم على  
الاملاق . وما كان اشتداده أحياناً في مقاومة آراء خصومه إلا فضلاً له أيضاً جعل  
هذا الإعداد أتم بحمل العقول على التوسع في الروية للانتقال بها من الرضوخ المغلق  
إلى التفكير والبحث قبل التسليم . وله على فضل خصوصي أيضاً لا أريد أن ادع  
هذه الفرصة ثم من غير أن أسديده شكري الخاص عليه فقد حل غني كثيراً من  
مطاعن الطاعنين بسبب مباحثي ولو لم يكن نصيري فيها . وكثيراً ما كنوا يتناسونني  
ويمسكون به وحده وهو منتهى الفضل له

ولما كانت الحقيقة لا تتجزأ فاما هنا واما هناك وكانت مباحث الطبيعيين اقوت  
مذهب الماديين في فلسفة الكون على قرار علمي مكين اقل ما فيه أنه ثبت مبدأ  
التوحيد الطبيعي في المواد والقوى رأيت ان اخوض غمار هذا البحث من وجهة علمي  
البحث غير حافل بالمصاعب التي ستعرضني في هذا السبيل وان النخعة بتلك العسراحة  
الجازرة التي لم يكن قد ألفها الجمهور بيننا منكبا عن خطه الذين يرون ان الحكمة انما هي في  
المصادرة لعلي ارحزح الافكار عن مألوفها لعلمي ان تحريك الافكار لا يكون غالبا إلا  
بمثل هذه المصادرة العنيفة لما يحدث ذلك فيها من الرجعة القاسرة لتسهيل انتقال الانسان  
في العمران من حال الى حال . وما حاله التي هو فيها عنوان السعادة وما كانت في  
الماضي مما يؤسف عليه

فبادرت المقتطف حينئذ بكلام وجيز انتقد عليه الحياره الى مبدأ الحيويين  
واعتباره مذهب يستور خصوصاً مؤيداً لهم نافياً للقول بالتولد الذاتي وهو لا يؤيد  
قولاً ولا ينفي آخر كما تقدم . وكأني جهلت مركزه او نجاحه فحتمت كلامي بتوجيه  
الخطاب الى منشئ قائلاً « ومثلكم لا يسامح على ذلك وانهم بجانب كعبة العلم » وقد  
رد المقتطف علي بمقال عنوانه « الحياة حيرة العلماء » وختمه بهذا القول السديد  
الحكيم في هذا المقام قال « لو قعدت كعبة العلم التي نحن بجانبها مقعدنا لما استصوبت  
الأيتنا »

ولما كان الغرض من كل ذلك طرق مذهب الماديين من وجهة علمي نشرت  
مقالاً ارد فيه على المقتطف تحت عنوان « الخبرة علم البحث » ثم اردفته بمقال آخر  
عنوانه الحس وانواعه المختلفة بنيت على قول كلود برنار « الحس تكيف في التأثير  
كيفية في المؤثر » واستطردت منه الى هذا القول الذي كان غرضي من كلامي السابق  
لتوجيه النظر اليه لأول مرة في اللغة العربية فابحث فيه على وجه علمي فلسفي وهو :  
« واذا نظرنا الى الحس من حيث كونه تكيفاً في التأثير كيفية في المؤثر كما في قول  
كلود برنار فلا نستطيع ان نفعل باب انكلام في هذا الموضوع حتى نأتي ولو بإشارة  
فقط الى كون المادة ذات حس ايضاً بدليل انها تتأثر حال كونها مؤثرة وتتفاعل حال



كونها فاعلة. فيكون حس الاجسام الالوية مرتبطاً ارتباطاً الجزئ بالكل بتلك القوة العظيمة التي بها تتجاذب الاجسام بالنسبة الى مادتها وبالقلم كمرجع البعد بينها اعني بها الجاذبية العامة التي هي عبارة عن حس المادة في البسط معانيه واعلم انواعه اه



وقصدت بهذا القول ان ابين ان القوى الحيوية والقوى الطبيعية واحدة من مصدر واحد. ترجع بعضها الى بعض وتتحوّل بعضها عن بعض. وما خاب ظني في ما يكون لهذا القول من التأثير فقد جرّ الى مناقشات اظهر بعضهم فيها استغرابه لحس المادة هذا وكأنه نظر الى التعريف اللغوي فقال لي «انا اشعل هذه السيكارة فهل هي نفس» وحمل عليه غيره حلة شعواء انتصاراً للمبدأ الحيوي ونفيّاً لما يترتب عليه من التولد الذاتي واهم هذه المناقشات مدرج في المقتطف في ذلك الحين

وغرضي من طرق هذا البحث على هذه الصورة انما كان لاقرار الفلسفة المادية على اساس عليّتين لازالة الوهم العالق باذهان كثيرين في تلك الايام من انها فلسفة يرمي اصحابها بها الى اغراض سافلة ويحاول خصومها تمكينه في اذهان العامة لتفهم منها وهي خطة دنيئة في العلم وهي اليوم فوق ذلك خطة خرق لان حبالها قصير. فالفلسفة المادية اليوم تختلف كثيراً عن فلسفة الماديين القديمة في انها كانت كفلسفة اصحاب ما فوق الطبيعة نظرية بحتة واما اليوم فهي فلسفة فائقة على مبادئ علمية ثابتة تكاد تكون قضاياها كالتضاييا الرياضية نفسها



وما عنت بتقرير هذه الحقيقة اولاً الا لغرض اهم وهو جعلها توطئة لتأييد مذهب دارون في الشؤ والتحوّل الى اقصاد باعداد الافكار له. اذ لا يخفى ان هذا المذهب كان لذلك العهد لا يحسر احد بيننا ان يتكلم عنه الا في معرض النفي. وقد جاء ذكره مرة عرضاً في خطاب للدكتور لويس احد اساتذة المدرسة الكلية السورية فهاج الخواطر هناك عليه حتى اضطر الى الاستعفاء. وما ذكرت ذلك هنا الا لايين مبلغ استنكروا عامة العلماء لهذا المذهب وبلغ اقصاده من دور العلم في ذلك العهد. —

وأما اليوم فلم يعد مستغرباً الى هذا الحد بل صار يعلم في أكثر المدارس الحرة .  
 وأول مدرسة ذكر فيها بالتصويب مدرسة ليون الفرنسية الطيبة وذلك في سنة  
 ١٨٨٧ في خطاب لأحد اساتذتها المدعو نستور عنوانه الانسان في نظر المشرح  
 وقد حوّلته كثير من اليوم الى غرضهم كما طبقوا كلام غليلي في الارض على غرضهم بعد  
 ان قاموا عليه وكما تحوّلت انا الى ان اكون من الغلاة فيه بعد ان أنكرته وأنفقت من  
 ذكره أول ما سمعت به .

وفي سنة ١٨٧١ — وكنت ادرس الطب في المدرسة الكلية السورية سمعت  
 — ولا اذكر كيف سمعت — انه قام رجل يدعي ان اصل الانسان من القرد . فلم أنحر  
 حقيقة هذا القول ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحتملي على التبصر فيه . وغاية ما اذكر  
 اني لم اسمع به حتى اظهرت اشعنازي منه ومن قائله الذي اعتبرته حينئذ دعياً ما  
 خالف الا ليعرف . ولا عجب فان الكيفية التي ذكر لي فيها والتي يذكرها دائماً خصومه  
 من ان القرد اصل الانسان لا يمكن ان تحدث في سامعها لأول مرة وهو متشرب  
 بالاعتقادات المخالفة الاً فوراً ولو ان في نوع الانسان من هو اخط من القرد  
 بكثير . وهو سلاح يقتر به خصوم هذا المذهب لتحقيره . والا فذهب دارون لا  
 يقول ان القرد اصل الانسان وان الحمار اصل الفرس بل ان الانسان والقرد والفرس  
 وسائر الاحياء في الطبيعة قاطبة من اصل واحد في نشوءها من مواد الطبيعة وبمجرد  
 قواها وقد تغيرت تبعاً لئاموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي  
 نعم مرّت الشهور ولا اذكر اني عرفت عن هذا المذهب شيئاً جديداً حتى  
 نسيته . ومن الغريب اني بعد ذلك بزمان عند نيلني الشهادة كان موضوع خطابي  
 المدرسي النهائي « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية »  
 وقد جئت فيه بكثير مما يؤيد هذا المذهب وانا لا اقصد فكنت كالذي يقول  
 النثر وهو لا يدري

ولكن الذي لم اكن اقصده في ذلك الحين لم يلبث ان صار موقف افكاري



وموضوع حديثي وغرضي في كل كتاباتي بعد مبارحتي المدرسة ورحلتي الى اوربا  
والاطلاعي على هذا المذهب في مؤلفات اصحابه . ولم اجد حينئذ ادنى صعوبة في  
تطبيقه على اقصى ما يرمى اليه قبل ان اطلع على مؤلفات الغلاة فيه كهيل وبخبر  
لان علوم المقابلة في الطب تساعد كثيراً على ذلك . كما انه هو نفسه لم يجد ادنى  
صعوبة في امتلاكه لان تربيتي المدرسية لم تمنعني بطابعها فان اعتلال صحي في  
حدثاتي لم يسمح لي بان اكون من متخرجي المدارس في ما خلا الطب . ولم اقرأ شيئاً من  
العلوم السكالية التي يقولون انها توسع العقل وهي في اعتقادي تضيقه فكان ذلك  
حفظ في استقلال افكاري . وما ذكرت ذلك هنا الا لأؤيد ما قلته في ما تقدم من  
سوء تأثير التربية المدرسية كما لا تزال حتى الآن في تقييد العقول فيشب التلميذ فيها  
ويخرج منها فاقداً كل استقلال في افكاره وخصوصاً كل تسامح وناهيك بما يترتب  
على ذلك في الحياة الاجتماعية من الشرور



ولقد بلغ مني الاقتناع بصحة هذا المذهب اني صرت اعتبر مبادئه اوليات  
لا يجوز ان تخفى على ايسر متعلم واقل مفكر فاذا لم يصريح بها فلعدم جارة او لمصلحة .  
وقالني ان هناك اسباباً اخرى اهم لم انبئه لها حتى انتهت الى تطبيق هذا المذهب  
على الفلسفة العقلية نفسها فانجلى لي سر كل هذه المناقضات في العقول المختلفة اذ  
اتضح لي ان علم البسيكولوجية أي علم العقل او النفس فرع من علم الفزيولوجية أي  
علم منافع الاعضاء فيجب النظر في العقل كالنظر في وظائف الاعضاء باعتبار انه عمل  
مادي . فكل ما يتطرق الى المادة من نوااميس النشوء والتحول ويؤثر فيها يؤثر في  
العقل نفسه الذي هو ليس الاً فعلاً من افعال الدماغ . فاذا كان للاقليم وسائر  
نوااميس المطابقة والانتخاب الطبيعي والوراثة شأن عظيم في تشكيل الاعضاء الحية  
واثر لا ينحى الا في الاجيال المتطاولة اذا تغيرت الاحوال فالتربية والتعليم والعادات  
والاعتقادات وكل ما يؤثر في الاخلاق اثر في العقول ايضاً لا يزول الا بمثل تلك  
الصعوبة حتى لقد يزول من الابناء اثر ما في الآباء من الاجداد ثم يعود ويظهر في

الاحقاد لرسوخ ذلك في الطباع وشدة تكيفها به . وعليه ناموس الرجعة عندهم ويراد به الارتداد الى الاصل وهي حقيقة عرفها العامة قبل ان يقررها العلماء بقولهم « الاصل نحن » ولهذا كانت اعمال العقل كثيرة التناقض شديدة التباير مملوءة بالمفارقات فترى الرجل الذكي القواد والعالم المتضلع طروباً بسخافة نفوراً من حقيقة . فاذا نظرت الى كل ذلك من خلال مذهب النشوء والتحول تبديت لك الحقيقة الناصعة وسهل عليك حل هذا الاشكال . فاجأني بعضهم مرة بقوله « انك لمصيبة على الناس لمعاريتهم في افكارهم » فاجبته بقولي « اذا جازت الشكوى فمن منا اولى بالشفقة اتم الذين مصيبتكم بي واحدة ام انا الذي مصيبتني بكم متعددة »

واذا كنت كتبت ما يغابر مجرى الافكار غالباً او حددت الانتقاد احیاناً فليس لاني كنت اطمع بان ارد الناس الي في هذا الزمن القصير وانا لا اجعل ما يحول دون ذلك من الصعوبات بل لاني قصدت مباغنة الافكار لثقتها الي غير ما لو فيها . وان كنت لا اجعل ان القاء الحجر في المستنقعات الراكدة لا يخلق الضفادع المطننة الا ربنا ينقضي حظها فتعود الي ثقتها الا اني لا اجعل ايضاً فعل الخير المحمور . فان اقل ما يملق بالعقول حينئذ من اثر الافكار الخافقة ينمو فيها غالباً بسرعة الاختار نفسه خصوصاً اذا صادف استعداداً في النفوس كما في كثرة البواعث الضاغطة عليه فيكون مثل هذا التنبيه له بمثابة الشرارة في اشارة كامن القوى المتجمعة . ولعل الناظر الى ما بين طرفي هذه الفترة القصيرة من ذلك العهد الى اليوم لا يسمع الا الاعتراف بصحة هذا القول



واني لا انسى ما عرض لي في اول نشأتي وكنت قد تقلبت على مقالب التردد في الاديان من اليقين الى الشك فالتفتي . ولكني بقيت مستمسكاً بعلة العلال كما يقولون فيينا كنت ذات يوم اشرح وافصل وابسط واعلل ولسان حال يقول ليس يدري مقاصد الله عبدك انت الله في الخليفة سرّاً خاضت الناس في الفنون ولكن صاحب البيت بالذي فيه ادري واذا بصوت كالحامس في الاذن صوت الي هذا السؤال قائلاً : ما هي غلة علك



واين هي ؟ ولا شك انها قوة . ولكن هل تعرف قوة بلا مادة ؟ ولا شك انها خارج المادة . ولكن كيف تفعل في المادة وهي منفصلة عنها ؟ وان كانت متصلة بها فكيف تكون هي سواها ؟ ثم سكت ولم يزد على ذلك شيئاً .

ولا نسألني عن فعل هذه المصادرة بي حينئذ . فقد كان مثله بك الآن . فعلا في الاحرار ثم الاصفرار وجمحت عياني من حجاجيهما على غورها وجمعت قوة جنائي والمقلت ذراية لساني . وهي اول مرة علمت بها اني من الفلاسفة البسطائيين او من العلماء اللاهوتيين . ثم وقفت بي حركة الدماغ فأرتج علي وسكت واتقلت راجعاً ولكني — ولا ازيدك علماً كما يقال — غير راض وحائق شيئاً قليلاً ايضاً . وكأن هذا القول كان كجريمة الاختار فلخذ يحتمر بي وانا مشغول عنه بسواه حتى تعاظم فامتكني وصار شاغلي في تأملاتي وغرضي في مباحثي . فنظرت الى العال من جبهة القسط في الخلق فاذا به كما في قبلي

قسم الناس بين خلق يجازي ثم قوم يعد ذلك مجونا  
بين خلق نعد فيه المعافي ونعد المألوم والسكنا  
هل دريتم بما جنيتهم فظلموهم اثم واتهم الظالمونا  
ثم نظرت اليه من جبهة مكانه في العلم فلم اجد له في المادة محلاً خالياً اللهم الا  
ان يكون كما في قول محبي الدين العربي

فانظروا في شجر وانظروا في حجر وانظروا في كل شيء ذلك الله  
ثم نظرت اليه من الجبهة الاجتماعية فوجدته والتعاليم المبينة عليه على حد قولي  
عبداً به رباً مشياً معاقباً ويقضي ولا رد ويقضي كما يشا  
رجوناً رحماً اردناه عادلاً قصدها جباراً كملك اذا عتا  
دعونا اليه الناس باليمن والدها دعوناهم بالنار والسيوف في القلى

حتى صار الانسان ينظر الى الانسان كأنه عدو الانسان . وحتى صار يعتبر ان وطنه الحقيقي ليس في هذا المكان فالاهتمام بالحياة الدنيا لا يفيد فانصرف عن البحث في الحقائق الى الهيام في الاوهام

ثم نظرت الى العلم الطبيعي من هذه الجهات كلها فوجدت أنه لولاه لما انصرف  
الانسان عن ذلك المقام الى هذا المقام وعرف من الحقائق واكتشف من الاسرار  
واخترع من المصنوعات ما تعجز عنه مدعيات معجزات كل الادبان او تصورات  
الاحلام . وكل ذلك ليس شيئاً يذكر لدى غاية هذا العلم الاجتماعية الحقيقية . وهي  
اعتبار الانسان في كل مكان اخا الانسان مما يدعو الى تصافح الامم من فوق حدود  
الايوطان . بل تجلت لي تلك الغاية الكبرى المتغلطة من هذا العلم الذي هو دين البشرية  
الحق والتي لا تيسر في أي تعليم آخر . ألا وهي التسامح او التساهل الداعي الى  
التعاون الحقيقي الضروري للامران والمبني على معرفة الحق والواجب لا على الرفق  
والاحسان

واي شيء الله بل افيد من معرفة تحول المادة وتحول قواها فيها ومعرفة انهما  
شيء واحد لا نهديا له حركة : الفة في الجماد وانتخاب في النبات وادراك في الحيوان  
وارادة في الانسان على اختلاط في آفاقها سمها ما شئت : حياة او حرارة او كهربائية  
او نوراً او حركة او جاذبية او شوقاً او حباً فهي واحدة في الجوهر . وان اختلفت  
في المظاهر متتالة في جسم الكون متغيرة فيه لحفظ الكل كما تتغير مراكزها في جسم الجماد  
وفي جسم الحي كما في قولي

هو الحب اكبر الوجود بلا مرا	ولولاه ما كان الوجود كما ترى
فكل الذي تلقاه في الكون سره	وهاديه في فضاله كيفما نحصا
هو الحي مولوداً هو الميت عائداً	هو النجم قد اسرى هو الصبح والدمى
هو الكل في كل معيداً ومبدياً	وما نحن الا فيه من صور الفنا
وليس فناء ما تركاه وانما	هو العود للاولى هو البعث للآلى
قضوا فينا واتقينا بعودنا	اليهم وغير الكل ليس له البقا

وما رسخت في مادة الكون حتى بدت لي مزية فلسفة النشوء والتحول العلمية المبينة



على مبدأ التوحيد الطبيعي على كل المذاهب الاخرى النظرية المبينة على مبدأ الشبهة القاضي بفصل المادة فصلاً جوهرياً عن القوى المدبرة لها تبعاً لغاية سابقة في علمها . فانكون حسب هذا الاخير خلق اختياري وكل شيء " فيه مخلوق خلقاً خاصاً تبعاً لغاية مقررّة في مشيئة القوة الخالقة . فعلنا لا غاية له حينئذٍ الا ان يطبق حوادث المخلوقات على غاية هذه المشيئة نفسها لا تدوين الواقع والبحث من اسبابه الطبيعية . فاذا تراءى لنا شيء " عبث من مثل الاعضاء الانزوية غير اللازمة ولا النافعة في الاحياء وقفنا في تعليقه عند حد الاقرار بالعجز عن ادراك مرامي هذه المشيئة التي لا يدرك كنهها واكتفينا بهذا الاقرار عن البحث في ما قد يكون لذلك من الاسباب الطبيعية الداعية اليه فقيدنا العلم بقيود التوكل هكذا وجعلناه عتياً

بينما ان القول بالنشوء الاضطراري على مبدأ التوحيد الطبيعي يحملنا على بحث مطابقا للبحث والتنقيب بالاعتماد على النفس فينتسخ امامنا للعلم مجال لا يقف عند حد . وناهيك بما يترتب على ذلك من النتائج العظيمة في العلم والفوائد الجليلة في العمل . والبرهان الحسي على هذا الفرق واضح من مقابلة الانسان في حاليه من ذلك لا في علومه فقط بل في كل ما يتوقف عليها من احواله الاجتماعية ايضاً كما تقدم فالموحد في الطبيعة لا يسلم بشيء " غريب عنها فاعل فيها او مفعول عنها بل يعتبر ان كل الحوادث التي تحدث فيها منها وبها واليها متحولة بعضها عن بعض وراجعة بعضها الى بعض لا تستقر على حال ولا تثبت على صورة والبقاء غير متوفر فيها الا للسكر . وهذا المبدأ ينفي القول بالقوى المجردة والارواح المستقلة التي نعتمد في جهلنا اليها لتفسير كل ما يبدو لنا غامضاً ويردنا الى البحث عن اسباب هذا الغامض في الطبيعة نفسها .



ولقد كان كل شيء " غامضاً على الانسان في اول الامر وكان ينحو في تعليقه منحي القول بالقوى المجردة فاخذ يتعرفه شيئاً فشيئاً حتى تبين كثيراً من هذا الغامض ورده الى قوى الطبيعة . ومن هذه المباحث الغامضة التي لا يزال كثيرون

يعتقدون روحانياتها حتى اليوم فلو امر بعض الامراض العصبية كالصرع والهستيريا التي تحمل الانسان يأتي اعمالاً غريبة لا يستطيعها الانسان في حال الصحة فينبى \* بامور خارقة العادة . فظالما اعتبروها حالات ناشئة عن ارواح نجمة فعالجوها بانواع التعذيب لطردها من الاجسام الخالة فيها فان تعذر عليهم ذلك — وكثيراً ما يتعذر — احرقوا المصابين بها غير مشفقين عليهم

ومنها ايضاً الانفعال الغريب الذي يكون في البعض فيشعرون بما لا يشعر به سواهم مما هو غير مألوف فيحملونه على فعل الارواح . ومن الاسف ان كثيرين من العلماء الذين لم يستطيعوا التخلص من مفعول تربية الاوهام التي نشأوا فيها في صغرهم ساعدوا العامة على تمكين هذا الوهم فيهم . وكثيرون منهم لا يزالون حتى اليوم يشغلون بفن مناجاة الارواح لمخاطبة ارواح الموتى ويشخبطون فيه على غير هدى مخدوعين للمشعوذين تارة وواهبين في انفسهم اخرى

ولقد ازاح الطب هذا الوهم عن المصابين بالامراض العصبية ونجاهم من معاملة رجال الدين الشرسة ورفق بهم وشفى كثيرين منهم وعزى آخرين . ولقد مهد العلم الطبي السبيل لتفهم الحقائق الاخرى التي يترأى انها فوق طور العلم الحقيقي كثرة الافكار ومطلق الشعور عن بعد حتى قرع الاوهام ومناجاة الاحلام التي يظنون عليها اسم مناجاة الارواح . واول ما كتبت في هذا الموضوع راداً مفعول القوى الروحانية المزعومة فيه الى الاسباب الطبيعية كان في سنة ١٨٧٦ على اثر حادث من هذا القبيل اقام الجرائد في انكلترا واقعدتها حتى اهتمت الجمعيات العلمية بالبحث فيه مما يدل دلالة واضحة على الميل المتأصل في البشر بالوراثة والتربية الى سرعة الاندفاع مع هذا التيار لاقول عارض بعرض لهم ويشكل عليهم تعليله تعليلاً طبيعياً . ومن السهل تفسير الغريب باغرب منه لديهم حينئذ كأنه لا يجوز لهم ان يقرروه وان يضعوا وراء تعليله الطبيعي علامة الاستفهام . وكنت يومئذ في الاسكندرية وكانت كتابتي باللغة الفرنسية (١) ولقد

(١) وقد نشر ذلك في جريدة الكوريه دور بان التي تطلع في الاسكندرية بتاريخ ٢٥ أكتوبر



خطونا من ذلك اليوم الى اليوم خطوة واسعة في العلوم الطبيعية جعلت فهم ذلك علينا  
أسير كذلك



والتوحيد في الطبيعة ينحونا نحواً آخر لا تقدر الغاية التي قد يبلغ اليها ولا يجوز  
الجزم بالوقوف فيها عند حد. ولقد بدا لنا اليوم كثير من هذه الاسرار التي لم يحلم  
آباؤنا بها والتي لو رأوها لعدوها من الخوارق. وذلك بناءً على ناموس التحول الذي  
لا يقتصر على الاحياء فقط بل يشمل الطبيعة كلها. حتى لم يعد يجوز الاعتقاد بشيء ثابت  
فيها لا العناصر ولا الجواهر الفردة نفسها. وحتى صارت اشعة رنتجن وخصائص  
الراديووم غير خاصة بنوع من مظاهر المادة بل هي عامة على اصناف المادة كلها اذا  
توفرت لها الشروط التي تنبئ فيها هذه الخواص وسواها مما لا نعلمه حتى الآن. ولقد  
نظر بعضهم الى هذه الخصائص كأنها قوى جديدة غير القوى المعروفة. ولا يصح  
ذلك الا اذا صح اعتبار القوى المعروفة كالحرارة والنور والكهربائية قوى ممتازة منفصلة  
بعضها عن بعض لا في المظهر بل في الجوهر أيضاً. ولكننا اذا اعتبرناها قوى متحولة وعرفنا  
ان في الامكان ردها بعضها الى بعض فمثل هذا الفصل في القوى الاخرى كأشعة  
رنتجن واشعة الراديووم والاشعة الكيماوية وسواها مما هو معروف ومما لم يعرف حتى  
الآن لا يجوز. ولا يجوز اعتبار هذه القوى الجديدة الا من قبيل تحول المادة وقواها  
كما في تلك. كما انه لا يجوز بناءً على ناموس تلازم المادة والقوة اعتبار هذين المظهرين  
أي المادة والقوة شيئين متمازين في الجوهر يشبان ناموس اثنين في الطبيعة. ولقد اشرت  
الى هذه الوحدة والطلاق مذهب التحول على الطبيعة الصامته نفسها في مقالة نشرتها  
في جريدة البصير في اول عهد صدورها منذ نحو أربع عشرة سنة حيث قلت في رد  
القوى كلها الى الحركة والمادة الى الهبولى بعد ان اشرت الى تلازمها ما نصه  
« والهبولى فرض بسيط للمادة والحركة حقيقة ثابتة فالحركة اصل الكل » اه



وهذه النظرية الاستقرائية قد خطا العلم فيها من ذلك العهد الى اليوم خطوة

جعلتها من المسائل العلمية البحتة لا من المسائل الاستقرائية الفلسفية فقط. كما قتل مذهب  
النشوء والارتقاء القول بتحول الأحياء من مدار النظر للأمرك وجفروا ستيلىر الى مدار  
التحقيق العلمي لدارون

وانجبه نظر العلماء الى هذه المسألة على أسلوب اقرب الى العلم منه الى الفلسفة  
في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وقد ذهب غوستاف ليون في مؤلف  
له سباه «نشوء المادة» الى نفي ثبوت الجواهر الفردة ثبوتاً مطلقاً اذ اعتبره مخزناً  
لقوى هائلة او هو متجدد قوى وانطلاقاً بتبدل لما ديتيه. وذهب الى ان المادة  
بإحدى ذلك ثلاثى خلافاً للمقرر في العلم من ان المادة لا تتلاشى. والحقيقة انها  
تتلاشى في القوة التي تتحول اليها

وهذا القول خطير اليوم. وهو في مبدئه ليس بدعة في العلم اذ يطلق مذهب النشوء  
في الأحياء على الطبيعة كلها وعلى المادة نفسها اذ يجعلها كالأحياء تنشأ وتنمو وتقوت  
مثلاً. وينفي الفصل بين المواد القابلة للوزن والمواد غير القابلة للوزن اذ يجعلها تنشأ  
كها من مبدأ واحد هو الاثير الفرضي المسلم به في العلم اليوم تسليماً مطلقاً<sup>(١)</sup> ولكن  
ذلك لا يجعل قوله في تلاشي المادة وخلق القوى صحيحاً. وان كان قوله في نشوء

(١) أكثر الظواهر الطبيعية كالنور والحرارة والكهربائية الاشعاعية الخ يعتبر مقرها في الانبياء  
والجاذبية التي بقوة ظاهرها نظام الكون وسر الكواكب يظهر انها مظهر من مظاهره. وكل الاتجاهات النظرية  
لعرفه تكبر من الجواهر الفردة متفقة على التسليم بان الاثير مصدرها. وهو ان كان فرضاً مرغوباً الا ان  
القول به يظهر للبعض انه اثبت من القول بالمادة نفسها. وكان الاضطراب اليه شديداً لما ارادوا لتعليل  
انتشار القوى. لم اعتبر كانه ثابت بالامكان لما اثبت (فرزل) ان التور ينتشر بموجات شبيهة  
بالموجات التي تحدث عند سقوط حجر في الماء. وأكد ذلك بتأثير موجات انور واعادة الظلمة بتسلط  
منع موجة نور على موجة اخرى. ولما كان انتشار التور يحدث بالموجات كان لا بد لهذه الموجات  
من شيء فخرج غير فاضلقوا على هذا الشيء اسم الاثير

وقد زادت أهمية الاثير جداً لما تقدمت العلوم الطبيعية لتعذر تعليل أكثر الظواهر بدونه. فلولاه  
لما كان الثقل ولا النور. ولا الكهرباء ولا الحرارة ولا شيء مما نعرفه. ولكان العالم صامتاً ميتاً او كان  
مخاطراً لا يمكن ان تصورها. ولو امكن بناء غرفة من زجاج ونزع الاثير منها: الكمية لما امكن للحرارة  
والنور ان ينفذا اليها ولقيت في ظلمة دامت. والزجاج ان الجاذبية تحبس منعها على الاشياء التي فيها  
فلا يبقى لها حيث يتغير وزن او لفل له. (من كتاب تحول المادة لغوستاف ليون)



الجوهر الفرد واعتباره مخزن قوى متجمدة وتلاشي المادة في قواها تلاشيًا بالتحول ذاتناذج لا تقدر قائمتها في العلم اليوم بتوجيه النظر الى مثل هذا المبحث الخطير. وسواء نشأ الجوهر الفرد من الاثير او تلاشي وتلاشت المادة معه في هذا الاثير نفسه فالاثير نفسه باق لم يتلاش ويكون الجوهر الفرد حينئذ المادة كالكريّة الحية للاحياء ويكون الاثير نفسه حينئذ للجوهر الفرد كالبروتوبلازما للكريات الحية. وسواء سمينا جوهر الكون الاصل اثيراً او هيوولى والقوى التحولة عنه قوة او حركة فالعنى واحد وما هو الا اختلاف الفاظ فقط والمهم تحول هذا الجوهر وانحصاره في واحد هو القوة او الحركة التي هي حقيقة ثابتة في العلم بخلاف الاثير او الهيوولى التي هي فرض لجلاء الكلام وتقريبه الى الفهم. واولى بهذه القوة ان تكون حركة وحركة على نفسها ليستطيع الجوهر الفرد ان يكون مخزناً لها وهي تلك القوة الهائلة المعروفة لنا والتي ينتظر من العلم ان يعرف عنها اشياء اعظم جداً ايضاً (١)

وليس في هذا القول شيء من المبالغة. خذ مثلاً الكهرباء التي ليست الا مظهرًا من مظاهر تلك القوة العامة المنتشرة في الكون والمكونة له. فلقد كانت معلوماتنا بها في اول الامر ليست اكثر من معلوماتنا بخصوص الراديو المعروفة لنا اليوم والمعترف اليوم انها موجودة في جميع المواد قاطبة. فابن معلوماتنا الكهربائية منذ نصف قرن من معلوماتنا بها الآن. اذكر اني القيت في سنة ١٨٧٠ خطاباً في

(١) صور المادة ليست سوى التوازن في الاثير والقوى المعروفة ليس ظهورها لنا الا فقد هذا التوازن فكان الاثير عبارة عن القوة المحركة والمادة عبارة عن توازن في هذه القوة بعض الشيء. وهذا يفهم منه كيف يكون تحول المادة اذ اخذت هذا التوازن بظهور القوى المعروفة كالنور والحرارة والكهربائية الخ التي هي تحولات عنها والتي توازنها بولف المادة انما هي بعض الشئ. ولا تثبت هذه القوى ثبوتاً بريئاً للمادة كما انها لم تنفرد او تغيرت تغيراً غير عسوس مع انطلاق قوى عظيمة منها عند عروض اقل شيء. يفقد توازنها النسبي الا اذا تجمعت هذه القوى جميعاً عظمياً في القوة الام الصادرة عنها ولا تفزع القوة الام هذا التجميع المائل الا اذا كانت حركة وحركتها لولبية على نفسها ولذلك كان هذا التوازن اثبت في الجوامع النردة العريضة في القدم وكانت الجوامع الفردية نفسها على صغرها مخزناً عظمياً لقوى لا تعد وهذا انوى برهان على كون الجوامع النردة عبارة عن زوايا او حركات لولبية في الاثير نفسه. والمفائدة الاولى المحصلة من ذلك هو علم المذاهب التي تناهى لنا من معرفة طريق استقراج هذه القوى من مكائدها واستخدامها لصالحنا وانمكن بها من التغلب على ما يبدو لنا من التعديات المعيرة انها في حكم السحق اليوم

الكهربائية وكأني اشترت فيه إلى ما يتوقع منها إذ ختمته بهذين البيتين :  
 لقد نظر الانسان في البرق معجزاً فأخضعه لما اجال به طرفاً  
 فذا المارد المحكي عنه بما مضى وهذا بساط الريح والقبع الاخفي  
 وما قلتُ قولِي هذا من تخيل شاعر بل عن توقع شاعر . وكما ارتقت الكهرباء  
 من ذلك العهد إلى اليوم <sup>(١)</sup> ومن يدري ماذا يكون مستقبل القوى الجديدة التي لا  
 نعرف عنها الآن الا القليل جداً مني عرفنا طرق ابرازها من مكانها واستخدامها في  
 مصالحنا مع علمنا الا كيداتها ليست الا متحولات قوى كائنات القوى المعروفة .  
 ولا يثنى ذلك الا من وراء البحث فيها باعتبارها انها قوى طبيعية خاضعة للاموس  
 واحد عام لا قوى خارقة الطبيعة لا تقع تحت ضابط . لا من وراء اخضاع الوقت صدى  
 بالتفسير والتأويل لا ثبات اسرار التزويل . ولو اكتفينا بذلك لما طار ريط ولا تكلم  
 مراكوفي ولا ابدع ادبسون واستولوا على السماء والارض

ولا استوى المرء عن محدود قصفت يد المظالم منه ان الصلب ان قلنا  
 ولا يستوي المرء الا اذا طمست يد العلم ما خطته يد الجهل ولم يعد له اثر في

(١) لقد عظم جداً مقام الكهرباء في هذه السنين الاخيرة . فهي قاعدة كل التفاعلات الكيميائية  
 التي تبدو لنا كل يوم أكثر فأكثر انها تفاعلات كهربائية فهي اليوم تعد قوة عامة ترجع اليها سائر  
 القوى ومن المقرر ان الثور هو احد مظاهرها . ومن الغريب العجيب ان مثل هذه القوة التي لها كل هذا  
 الانتشار وكل هذه الامية بقيت مجهولة آفاقاً من السنين . وهذا من اعظم التناقضات في تاريخ العلم على انه  
 قد يمكن ان تكون مواطنين بنوى عظيمة جداً من غير ان نشعر بها . وكذلك من الادلة التي لا يستهان  
 بها على ما في المجاهر الفردية من القوة الهائلة الكامنة ومن اوضحها ايضا على تحول هذه المجاهر المادية  
 نفسها وتلاشيها في القوى المتحولة اليها

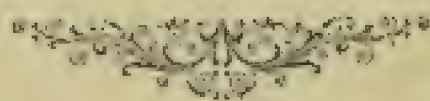
ولقد كان يصعب علينا توليد الكهرباء في اول الامر جداً وكذا ننظر اليها كحادث نادر كذلك  
 واما اليوم فصارت نجدتها في كل شيء . ونعلم ان اقل تصادم بين الاجسام المادية يولدها . والصبر طرما  
 اليوم ليس توليدها بل كيف تمنع توليدها في كل حادث بعرض . فسقوط نقطة ماء او تغير جسم بدرجة  
 الخمس او احواله سلك باثارة وكل تفاعل آخر بغير طريقة جسم ما هو يسوي كهربائية . وهي موجودة في  
 المبادىء المجهرية ولها تكون قوتها قوي في حال التماس تحت ١٥٠ فولطاً وتبلغ ١٠٠٠ عند حصول اقل ضباب  
 و ١٥٠٠ فولطاً عند سقوط اقل قطر وكما هي في التفاعلات الطبيعية هي ايضا في تفاعلات الاحياء فاما من  
 تفاعل حيوي في الانسجة الحية او الكريات الحية الا ورائها ظاهرة كهربائية ( من كتاب تحويل المادة  
 لفرستاف لرون )

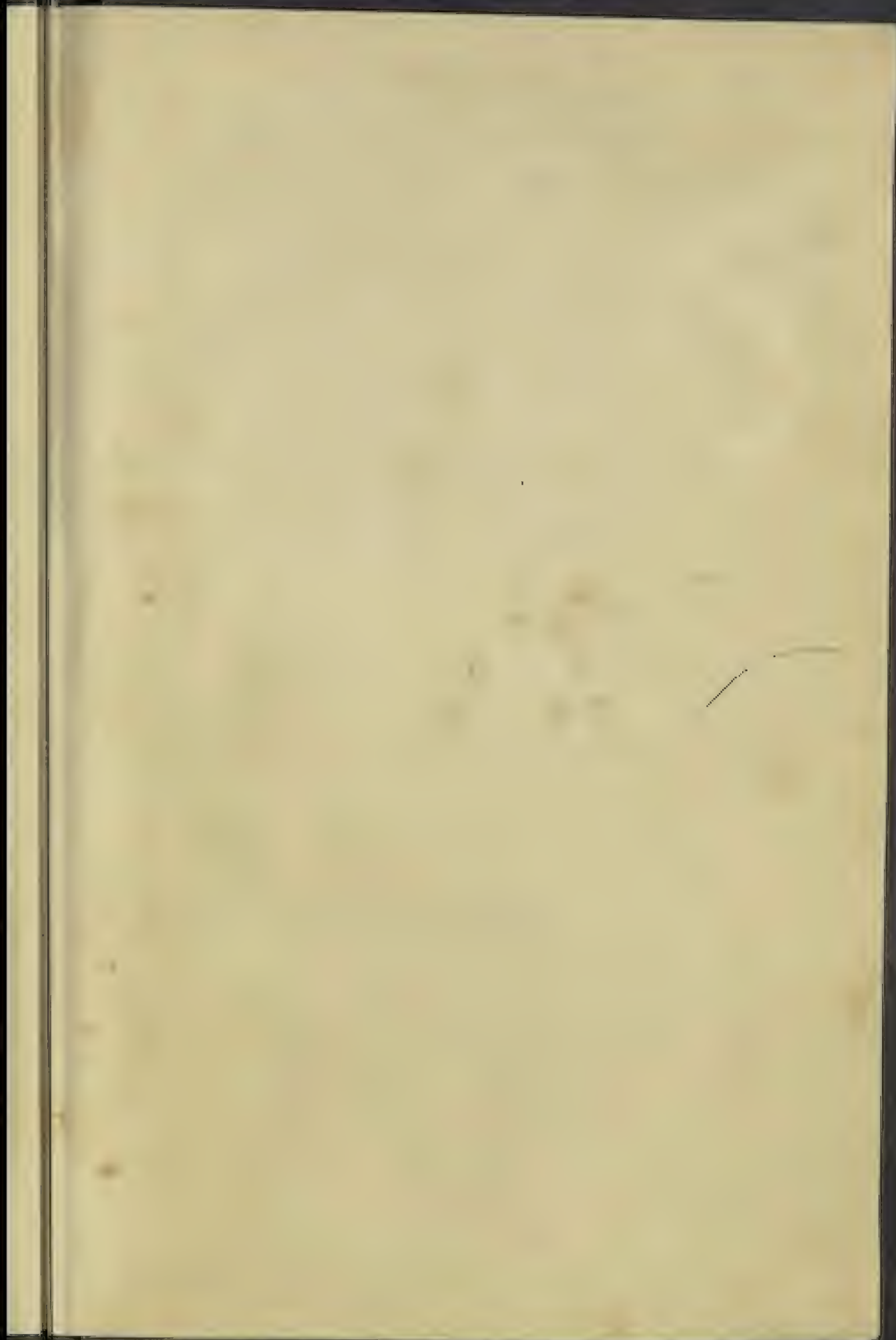


المدارس . بل صارت المدارس للفنون والصناعات والعلوم الصحيحة والطبيعية فقط .  
وفي مقدمتها مذهب التحول الذي يوقفك على الصلة بين العوالم ويسهل عليك فهم  
تحولاتها . ويمكنك من العلم بما تحويه من القوى الهائلة لاستخراجها من مكانها .  
ويعرفك مقام الانسان الحقيقي في الطبيعة فيصرف المرء حينئذ كل جهده للبحث في  
ما هو امامه ولا ينصرف عنه الى ما لا يجدي نفعاً ويحول دون ارتقائه في الحياة  
الدنيا . وبذلك يبين لك مزية فلسفة مذهب النشوء والارتقاء التي هي غرض هذا  
الكتاب على سائر المذاهب التي تقدمته كما نراه مبسوطاً بالتفصيل في ما يأتي

شعبي شميل

مصر في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩







## مقدمة الطبعة الاولى

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاول

« الخليفة أن تقال لا أن تعلم »

لست انسى تحفة الناس لي اذا  
اعرفني مصيباً ولا يسرني تصديهم لي اذا كنت  
اعرفني مخلطاً

هذا الكتاب ألفه الدكتور لويس بخنرالاماني . وهو ينقسم قسمين طبيعي وفلسفي . ببط مؤلفه في القسم الطبيعي مذهب دارون وقد توسع فيه من التولد الذاتي حتى الانسان . وفي القسم الفلسفي ما تعلق بهذا المذهب من آراء اهل التحل والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين . وقد سلك فيه سبيل الاختصار تشويقاً للقارىء لئلا يمل . ولم يدع قضية منه ذات بال قاصية ام دانية تفوته حرصاً على المعنى ان يخل . فأوجز واجمل . ووعى واجزل . وجعله مقالات يستأقها على جمهور من الطلبة في مدينة — أفيانج ومنتهين — فجاء على صفره كتاباً في باب جليل الفائدة . سهل المأخذ حاوياً لكل مسألة . حالاً لكل معضلة . يتطلع به الطالب الى ورود ما فوقه من المطولات وقد عنيت بتعريبه على ما في الوسخ متصرفاً فيه بزيادة وتقصان واصطلاح عربي بحسب مقتضى الحال

واعلم ان الانسان على رأي هذا المذهب طبيعي هو وكل ما فيه مكتسب من

الطبيعة. وهذه الحقيقة لم يبقَ سبيل الى الريب فيها اليوم ولو اصرَّ على انكارها من لا يزال  
مفعول العالم القديم راسخاً في ذهنه رسوخ النقش في الحجر. فالانسان يتصل اتصالاً  
شديداً بعالم الحس والشهادة وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله  
بعالم الروح والغيب. فان جميع العناصر المولف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى  
التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة. فهو كالحیوان فزيولوجياً وكالجماد ككأویاً  
والفرق بينه وبينهما فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر.  
فالانسان يحس والحيوان يحس والانسان يدرك والحيوان يدرك ونواميس التغذية  
واحدة فيهما. غير ان الانسان يدرك اكثر من الحيوان لانه اكل منه كلاً ان الحيوان  
العالي يدرك اكثر من الحيوان الذي دونه. وعناصره كعناصر الجماد تتفاعل وتتربك  
وتصل وتخترق وتولد حرارة والحياة كلها احتراق

ولا طاقة لاصحاب ما وراء الطبيعة على انكار ذلك لكنهم يقولون ان العوالم وان  
تألفت من مواد واحدة الا ان كل عالم خلق خصوصي خلقه الخالق من مواد مخلوقة  
هي ايضاً ولا حياة فيها الا ما اودعه في كل نوع من الاحياء التي جعل الانسان منها  
غاية عمله ومنتهى امله اذ سخر له كل شيء دونه مما في السموات والارض وخصته  
وحده بنفس خالدة وكلفه دون غيره بطاعته. الا انه يتوجه على مساق هذا القول  
اعتراضات منها انه يلزمهم ان ينفوا عن المادة كل عمل صادر منها وكل تعليل ممكن  
بها ولا اخلطهم بقوون على ذلك اما طبيعياً فلان كل ما يعلم عن المادة يدل على انها باقية  
فالامادة لا تدنر الا من حيث الصورة فقط واما من حيث الجوهر فهي دائمة وما لا  
يفنى فغير مبدع. وكل ما يحصل فيها يعال عنه بقوة فيها غير مفارقة وليس فيها ما  
يدل على الاختيار بل كله عن اضطرار لانها ذات نواميس تفعل على نظام معلوم ولا  
يعتربها خلل لا في الكل ولا في الجزء. ومنها ان الخلق الخصوصي يقتضي ثبوت  
العوالم والانواع. وهذا الثبوت مني فقد ثبت ان كل موجود متغير والاجرام السماوية  
متغيرة في هذا الكل المتغير فليست خلقاً خصوصياً بل انما تكونت على مقتضى نواميس



الطبيعة ولا تزال تتكون وتكثر على حكم هذه النواميس حتى اليوم. وان الانواع متغيرة  
ومتصلة بعضها ببعض بل متسلسلة بعضها عن بعض. وربما سلم اصحاب المذهب الحيوي  
بذلك لكنهم جعلوا الحياة مجردة عن المادة اي قالوا فيها بمبدأ حيوي. الا ان هذا  
المبدأ متقوض بحجة ان الكيمياء في طاقها ان تتركب مواد حيوية كالتي ظن انها خاصة  
بالاجسام الحية وان القوى مرجعها جميعها الى قوة واحدة هي الحركة والدلائل من  
الكيمياء كثيرة على ان العناصر البسيطة مرجعها الى مادة واحدة اولى كالحركة في الهوى.  
فالطبيعة واحدة ولا شيء من العلوم الطبيعية يتنافى هذه الوحدة. وبالحقيقة لا يعلم كيف  
يحل هذا المبدأ في المادة من حيث ليس واذا تفرقت كيف يذهب. وقال اصحاب  
الروحانيات ربما صح هذا الاتصال بين الاجسام العضوية على بعض العالم العضوي  
ولكن لا يصح على كماله فلا يصح على الانسان المنفصل طبيعياً وروحانياً. اما كون  
الانسان منفصلاً طبيعياً بما ثبت انه نوع مستقل مخلوق وحده فمتقوض بمذهب  
داورن اذ انضح به انه متصل اتصالاً شديداً بما دونه من انواع الحيوان. واذا كان  
بينه وبين اقرب الحيوان اي فاصل لاسباب طبيعية (١) فما هو اعظم من الفاصل  
الكامن بين انواع الحيوان نفسها بل بين طرفي الحيوان من نوع واحد. وان لم يثبت  
له هذا الفصل طبيعياً فكيف يثبت له روحانياً. فان قيل مما له من سمو المدارك الذي  
ليس للحيوان قلنا ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في الحيوان كذلك  
ولكن على حالات متفاوتة بحسب مقامه من التكوين فالفرق بينهما عرضي لا جوهري.  
وحتى يكون غير ذلك يقتضي ان يكون الانسان واحداً في العقل بل قادراً ان يكون  
بالقوة كما هو في العقل حال كونه ناقصاً كما الحيوان في الجسد. اذ القوة الروحانية لا  
يجب ان يشترط فيها كون معلوم. واذا كان ذلك غير ممكن فكيف جاز لهم حمل  
هذا الفرق بينهما على مبدأ الروحاني فالنقض على الواحد دون الآخر مع انه متوقف

(١) كما نرى في الحيوان بعضه لبعض وتقلب الانسب في المنازعة وفقدان الصور الانشائية بسبب  
ذلك وسرعة اكتمال المتعاقبات بحيث تبعث المداقة بينه وبين ما دونه وتكون الانواع بعضها بجانب بعض  
لا رأساً بعضها من بعض الخ

فيها على مبلغها من التكوين . فالعقل موجود في الحيوان كما أنه متفاوت جداً في فروع الانسان فان كثيراً من الحيوان يعيش في جموع ويتساعد فيما بينه وربما اقام منه حراساً لهذه الغاية فتدرك بوقوع الخطر . فالتفردة تساعد كثيراً في قضاء كثير من حاجاتها . والذئاب تئالب اذا قصدت الاقراص . والهادرياس ( نوع من القردة ) تقب الحجار للتنميش على الذباب فان عثرت بحجر كبير قاتها لتكأ كاً عليه وتقبله ثم تقسم غنيمةا فيما بينها . وذكروا ايضاً ان حيوانات عياء غير قادرة على تحصيل قوتها بقي رفاقها يعولونها ويتدمون لها قوتها زماناً طويلاً . وذكر براهم « ان الميامين في الحبشة وهي ذاهبة لسرقة البساتين تشيع رؤساءها صامئة فاذا ابدأ أحد صغارها صوتاً ارتدت اليه وضربتة لكي تعلمه الصمت والطاعة » وقال ايضاً « انه رأى سرباً من الميامين يقطع وادياً فلما بلغ قسم منه الجبل وكان الباقي لم يزل في الوادي حاجت الكلاب مؤخرته . فلما رأى كبار القسم الاول الذكور ذلك ارتدت اليها وصوتت فيها صرخة شديدة جرعت لها الكلاب فتقهقرت على اعقابها على رغم تهيج اصحابها لها . فتمكن الميامين من قطع الوادي الاً واحد منها صغير عمره نحو ستة اشهر فصعد على صخر مرتفع واخذ يصرخ ويستغيث والكلاب قد احاطت به من كل جانب فانفرد له ميمون ذكر من اكبر الميامين وهجم كالبطل حتى وصل اليه وخلصه والكلاب وقفّت مذعورة ولم تبد حركة » ولا يخفى ما للكلب والفيل من التحجب والتوردد للانسان

وفي الانسان شعوب وقبائل متوحشون جداً لا يعرفون ما معنى الانسانية . ومنهم من لا يستطيع اضعف عقله ان يعد العشرة ولا الاربعة . وبعض الاستراليين لا يفرق في الصورة بين رجل وفرس وبيت . فهل والحالة هذه يصح القول ان الانسان عاقل والحيوان بلا عقل ؟ اليس قتل الاولاد ولا سيما وأد البنات عند بعض القبائل عادة جارية ؟ اليس في سوء معاملة المتوحش لامر وامراته ما يضعه نحت الحيوان ؟ ايدري المتوحش ما معنى الفضيلة وهل يعتبر الخير الاً حسب ما اصطلاح عليه قومه فيقتل



و يسرق خالي البال مراقب الضمير؟ الا يا كل المتوحش نعضه بعضاً؟ اليس ان بين  
ادنى البشر وارفعتهم عقلاً من الفرق ما هو انظم منه بينه وبين الحيوان؟ فمن العجب  
كيف يخصص العقل بعد ذلك بالانسان وينفي عن الحيوان. واذا كان الانسان ظم  
حياته كالحيوان حسياً ومعتوياً فمن اين له هذا الفرق بعدها

\* \*

وبالحقيقة ليس لاصحاب الروحانيات سند يعتمدون عليه وملجأ يلجأون اليه  
الا الوحي وسوف لا يبقى لهم سواه وسيخدمهم زماناً طويلاً ولوقفتنا عند هذا الحد لولا  
ان مذهب دارون يتناول كل ما يتعلق بالانسان كاللغات والعادات والشرائع  
والديانات وغيرها

فالتحل والديانات وما شا كل اصلها واحد وقيامها في الدنيا انما هو لعاملين  
حب الرئاسة في الروساء. ولوتياح الرؤوس الى حب البقاء وكلاهما لما في الانسان  
من محبة الذات. فسطا دهاة الناس على ساذجي العقول منهم فساد البعض وسيد على  
البعض الآخر وتم بذلك غرض الفريقين ولكن الى حين. واعلم ان محبة الذات  
تجمل الانسان بتنفى نفسه كل خير يعتقد خيراً ويهرب من كل شر يعتقد شراً  
ولا يملك لذلك سبيلاً واحداً بل كل يرى خيره بحسب هواه فيطلبه من حيث يراه  
ولو اخطأ السبيل احياناً فلا يخطئ الغاية التي هي دائماً السعي وراء راحة الذات ولو  
ارتكب القتل على نفسه لاعتبار ذلك افضل من حياة قلقة بالحواس ونعب الضمير  
او طمعاً بحياة اخرى ربما كانت اقل نعباً من الحياة الدنيا. وهي السبب الذي لاجله  
ميز الانسان نفسه عن سائر الكائنات واراد ان يكون بينه وبينها فرق في الجوهر.  
وهذا الميل ظاهر في جميع اعمال الجسدية والعقلية وفي جميع عواطفه فانك قلدا ترى  
من يعترف بخطائه لان محبة ذاته لا تصبر على الضيم عالة به وان اعترف به  
فلاسباب ذاتية ايضاً وغالباً يجتهد بان ياتي بعبء خطائه على سواه. فان لم يجد احداً  
من البشر يلقي عليه ذلك عمد الى شكوى الدهر والزمان

بالدهر لم الق فيه صديقاً وزمان قد صار من عدائي

وغدا عارفٌ بفضلٍ فيه جاحد الفضل شائناً لفعالي  
وما الدهر سوى الانسان وما الزمان سوى اهلِه



ولا يتوهمن القارىء بما ذكر ان محبة الذات صفة ردية بحمد نفسها كلاً « وإنما هي صفة واجبة ضرورية يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الانسان الحسية ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة التي تتوقف عليها حياته المعنوية واذا أدت أحياناً الى ما يضاد ذلك فأنصرف الاميال والارادة غير المرتبة فيها ، وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيدة واما ردية فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في احكامه واعتدلت الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة ( الاولى الكبرى التي هي أم الصفات في الاجسام الحية على حد الجاذبية الكبرى في الجاد والتي اصلها هذه الجاذبية أيضاً ) كثير من الصفات الفرعية الرفيعة كالكرم والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالفة والتعاون وسائر الصفات الحميدة التي هي سبب راحة الانسان وسعادته منفرداً ومجتمعة . وبالضيد من ذلك اذا انحدرت الحواس في نقلها وكذب العقل في حكمه وضأت الارادة في شهواتها فيتولد منها اللذائفة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ووراء المحكوم واستبداد الحاكم والافتراء وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالحراب<sup>(١)</sup> وعليه فقد انصرف بجميع الاشياء من حيث رآها لا تعبت براخله الحسية والمعنوية ولم يحجم حتى ولا امام الموت . ولا بد ان ظهر له الموت بادي « بد » العقدة التي لا تحمل والعقبة التي تسقط دونها كل عزيمة . لانه لما كان الموت يقع على الجسد فعلياً لم يكن عنده سبيل للشك بان موت الذات هذا واقع حقيقة . وكيف تصبر محبة الذات على هذه المصيبة التي لا مصيبة بعدها . فهام العقل في سما الخيال متمهلاً غوارب غرائب الافكار يرجو من ذلك مهرباً فسمع همساً يقول له « ان تموت فاتبعني » فوقع عنده هذا القول موقع المطر من الارض العطشانة فاصاح له سمعه وفتح له قلبه وكل

( ١ ) من رسالة حوادث وافكار العرب نشرت سنة ١٨٧٩ في جريدة مصر الفتاة



جوارحه. ولما كان الانسان في اول أمره شديد الجهل بالاشياء المحيطة به وبمخاضاتها  
وكان يرى ان هذه الاشياء ذات تأثير ظاهر فيه خاف على نفسه منها لئلا تكون  
مظهراً لقوة عاقلة مستقرة فيها لها عليه سلطان مطلق فبعثه هذا الخوف على ان يتدلل لها .  
ثم تطرق الى ان جعل هذه القوة روحاً ثم الروح المأتم تصور الله كمنفسه يغضب لما  
يغضبه ويرضى لما يرضيه فتحرك له الهدايا وقرب القرابين وتقرب اليه بالناسك والمشاعر  
وحال وحرم . ثم تأصل فيه هذا الميل بحكم الوراثة الطبيعية وانتقل هذا الاعتقاد في  
نسله بحكم التقليد<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ولا شبهة ان هذا الامر أو ما هو مثله أصل كل نحلة ودين اذ يستحيل وجود  
الانسان المعجم بدون أحلام تنمو ضمناً تخيلته أو هاماً تعاطف فتصير ارواحاً تكثر  
ضمناً كل ما يحيط به . فلانسان في أول الامر لم ير شيئاً مما في السماوات والارض  
الأظلمة مفرّ أرواح قهيبها وللتقرب اليها عبداً . وأخذ يتقلب فيها تقلب الخائر .  
ولما لم يهتد اليها سبيلاً قصدتها في كل الموجودات فعبدها في الشجر والحيوان والحجر  
والكواكب حتى الانسان . وأقام لها الاصنام المنحوتة التي صار يمجج اليها وجعلها محط  
آماله حتى تبين له انها لا تقوى على مهبة ولا تدفع مله فلغفلها لفظ الزوادة على  
حد قوله

أتبنا الى سعد<sup>(٢)</sup> ليجمع شملنا فشتنا سعد وما نحن من سعد  
وهل سعد إلا صخرة بتوقه من الارض لا يدنو لقي ولا رشد  
ولا شك ان هذه العبادة المعروفة بالفتيشية أول عبادات الانسان وهي كثيرة

(١) يزعم سبسطر ان اصل الاعتقاد بالارواح الاحلام . فلانسان الاول لما كان يعلم انه يذهب  
ويجي ويبرى ويسمع واعمل ان لا كرامة وهو قائم مع الله لم يبرح من مكانه كما تأكد لولا من شهادة الذين  
راوه قائماً على ان فيه وجدانين لوفاتين الذات للعتقة والذات التي لم تفسد انجانه فهو وجوده روحاني  
يفارق الجسد اما قام ويعود الى الماهية . وجسماني . وذلك على راية اصل جميع عقائد الانسان المألوس  
والمتدين وهو اصل الاعتقاد بالارواح والنصوص واليهامات واصل عبادة الكهنة والنبات والحيوان وسائر  
العبادات الفنتيشية والاصنامية واصل جميع الاديان

(٢) هم لبي ملكان من كنانة

الاتشار بين الاقوام المتوحشين فان للمتوحش شجرة او حيواناً او حجراً او شيئاً  
آخر يعتبره متسلطاً عليه فيبالغ في تكريمه وأسباب التقرب اليه. وربما زرع امام بيته  
شجرة واعتنى بها جداً لانها في زعمه حارسة له وجميع ما يملك واذا يست شق  
الامر عليه جداً وربما نسب ذلك لفضيلته عليه فاجس منه شراً. ولا تزال آثار  
هذه العبادة في ديانات الشعوب المتدينين حتى اليوم فكم من شجرة مقدسة تزدحم اليها  
أقدام الوافدين وكم من مكان مشهور بالمعجزات تلهب اليه شوقاً قلوب القاصدين. ثم  
بعد عباد الفتيش جاء عبدة الكواكب ولا ريب ان الانسان لم يرفع نظره الى ما فوق  
الأبدان ثم غرغ في عبادة موجودات الارض كافة. حينئذ رفع نظره الى السماء وقد سمع  
ما في أرضه اذ رآه دون ما يتفكر واذا الكواكب اللامعة والشموس الساطعة استوقفته  
حيناً من الدهر وقد رضي بها آلهة له حتى ارتاب بها في حجرها كغيرها

\* \* \*

ولما داخله الريب في حقيقة معبوده هل هي في ما تخذه معبوداً من بين موجودات  
العالم ام في ما وراءها صار لحيثته يشترط في دعائه وتضرعه. فصار يخاطب الشمس  
مثلاً بقوله « ما أحسنك من نور وما أبهاك وما أنورك لا تقدر الابصار أن تلتذ  
بالنظر اليك. فان كنت أنت النور الاول الذي لا نور فوقك ذلك المجد والتسبيح  
وإليك نطلب واليك نسعى لنندرك السكني بقربك وننظر الى ابداعك الاعلى وان كان  
فوقك واعلى منك نور آخر أنت معلول له فهذا التسبيح وهذا المجد له وانما سمينا  
وتركنا جميع لذات هذا العالم لتصير مثلك ونلحق به الملك وتصل بمساكنك. اذا كان  
المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكألفها<sup>(١)</sup> وهكذا  
كانت الآفة في أول الامر كثيرة جداً بقدر موجودات هذا العالم ثم أخذ يختصرها  
كلما زاد تعرفاً بهذه الموجودات حتى حجبها عن الابصار وحصرها في واحد  
أحد وقال

ارباباً واحداً أم الف رب ادبنت اذا قسمت الامور



تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير ٥

•••

وانه يستحيل غير ذلك لان جميع معارف الانسان اكتسابية صادرة عن الحواس وحكمة بها على قدر تعرفه بها « فالحوادث تنوأل على الانسان وتتأقلم الحواس فتؤثر في الدماغ تأثيراً يحمل فيها تفكيراً الا ان تأثر العقل بالمؤثرات واحكامه بها تختلف كثيراً بالنظر الى اختلافها واختبارها ايها . والمكان الاول اقل اختباراً من الاواخر كانوا بالضرورة اقل علماً منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وجمل افكارهم وهماً . وكان الخلف يشتغلون كل يوم بما أفسده السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم وانواع معارفهم . الا ان ازالة ما فسد من المبادئ من عقول الناس لا بد وأن تحول من دونها مصاعب ربما أدت الى هراقة الدماء . فان الاوهام الراسخة في العقل بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراحة لا تحمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً « والغريب ان الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالادلة والبراهين اذا كانت مخالفة لآرائهم مغايرة لاهوائهم بل ينقضونها بالقوة . وانغرب منه ان المصائب التي تصل بالوثك الافراد الذين ساء بنحيم لوجودهم قبل اوانهم والتي مصدرها البشر تعتبر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد ان الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادراً عن قوة سرية تراقب اعمال الانسان فيقول هذا جزاء الضالين . وهو اشد فساداً من ان يبرهن على فسادهم فلو تجاسر احد في زمن جاهلية اليونان على ان يكفر بجوبيتر ابي الالهة اما كان يتساقط عليه غضب جوبيتر متجسداً بايدي الكهنة والشعب ؟ فهل يصح والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة ان نعتبر ان ذلك القصاص كان عادلاً . كلا .

« ولذلك لا يليق بنا ان تمسك بما كان في العصر الحالي من الاوهام تمسك الاعى بقائدهم . ولا ان نطرح ما تبديه لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق لمجرد كونه مخالفاً لما انطبع في عقولنا ورسخ في اذهاننا كما انه لا يجوز ان نعتبر القصاص الذي يقع على بعض الافراد لما قضى به بعض المبادئ العامة مفعول قوة ساهرة تعمل

كل شيء على قدر الاستحقاق بل يجب علينا ان نحارب الاوهام ونبددها بقوة الحقيقة لكي لا يقوى امرها فنعدم اسباب التقدم فان الانسان اذا تمكن الوهم منه سقطت قواه وقد اسباب العمل . اذ يستولي الخوف على طباعه والمزج على حواسه فتسقط حوادث الكون فينبهها عوضاً عن ان يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمة شمس تسطع او قمر يطلع او ريح تهب او نار تشب واذا نظر الى السماء كفت عنها العطف خشية واحتراماً لانه لا يرى كواكبها الا آفة ولا بحسب صواعقها الا عذاباً واذا نظر الى الارض قال امي ارحمني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماء يرويني . ولا يتجاسر ان يقطع منها سنبلة قمح او يتناول قبضة ارز الا بعد الاستغفار والتكبير . اذ يرى في كل شيء آفة قاهرة وارواحاً ساحرة فيستدعي في حركاته وسكناته ارواح الاشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي الا خيالات واوهاماً لا تحجب له خيراً ولا تدفع عنه ضرراً<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

هذا اصل كل عبادة وهي اصل كل ديانة<sup>(٢)</sup> والديانات تشابه من حيث الوحي او ما هو بمعناه . فانك لا ترى ديانة اُسُجِلت او اُنحطت او لا تزال قائمة الا ومُسندها الوحي

(١) من رسالة حوادث وافكار السائلة الذكر .  
(٢) وان لم ان مذهب دارون كما نعلم على الانواع نعلم على الديانات ايها . فان الديانات المختلفة كالانواع تشبه من اصل واحد وتقوم بعضها من بعض وتتعارض بعضها . وكما ان المذاهب من الانواع في هذا المذاهب هو الانسب للاحوال الخارجة عنها فكذلك الديانات ايها ما كان السبل لحوال الزمان . والعالمان المجوهريان في الديانات هما كما في الانواع الغير والاختلاف الشبهي وكما يحصل في الانواع كذلك في الديانات يحصل ايضاً نتائج عظيمة لجميع اسباب عديدة صغيرة لا قيمة لها في الظاهر كالاعتقادات والاكتشافات وتغير العلوم وازدياد اعتبار الانسان وتغير احتياجاته وكثرة المخلوقات وادخال تعاليم ادينية صورية للهيئة الاجتماعية الى غير ذلك مما يغير الديانة . وقد اُسُجِلت ديانات كثيرة في الدور السابق العهد التاريخي وفي عهود ايها . وقد تكونت منها ديانات جديدة كذلك ولا شك ان المباديات التي اُسُجِلت قبل التاريخ والتي لا نعرف عنها شيئاً اكثر جداً من الديانات التي اُسُجِلت بعده ولم يبق في شذرها اليوم سوى ديانات الشعوب الهندية المجرمانية المنتشرة جداً اليوم وفيها كثير من المذاهب والمعتقدات والشج . ولم يكن القصد من عبادات الانسان الاول المخلوق الروحي الذي يصوره الا بعد ان بلغ في الادراك مبلغاً كبيراً جداً بل كانت بقصد المحافظة على وجوده الطاعري فقط



وقاعدتها الايمان وباطلاً يتعبد البشر في اقامة الادلة العقلية والبراهين الفلسفية لتأيد ذلك والاولى لهم ان لا يخرجوا من وراء حصن الايمان والتسليم . فانه لا يقوى ما لهم من الحصون وان كان لا يقوى على صدمات القياس والبرهان لعدم انطباق اقوالهم فيها على العلوم الطبيعية من جهة وتناقض قضائهم في الاعمال التي ينسبونها للقوة المصادرة عنها ذلك والصفات التي يصفونها بها من جهة اخرى . قالوا ان الانسان حرّ فهو مسؤول باعماله بعد ان قالوا انه صنع الله على مشيئته . ولا يخفى ما في ذلك من التناقض لانه ان صحّ الواحد انتهى الآخر . ولا عبرة بما يتوكلون عليه من البراهين الطويلة المملة والحجج العريضة المخلّة التي يضيع اولها في آخرها لا ثبات ما يقولون فانه ككله اجتهادي . ثم قالوا ان كل ما يناله الانسان مقسوم له ومقدور عليه بعد ان قالوا ان هذه القوة كلها عدل بل رحمة . فابن الرحمة بل ابن العدل في قسمة تيل زيد اكل نعمة في الدارين وتجلب على عمرو كل نعمة فيهما واي فضل لزيد ان اصاب واي ذنب على عمرو ان اخطأ وكلاهما لم يصورا نفسيهما على ارادتهما وانما صورتها قوة اخرى اقوى منهما كما شاءت ولم يعترضا في عملها ما يوجب عليها ظلم الواحد ورحمة الآخر

وتشابه من حيث ان كل واحدة منها تدعي الصحة لنفسها وتنفيها عن غيرها وتعلم اضطهاد ما سواها إما صريحاً وإما ضمناً بحسب حال الامة المداينة بها من القديس والنوحش فان كانت دعوى الديانات صحيحة فالحقيقة لا تسجراً ولا بد ان تكون في واحدة منها فقط فاي هي وما هي :

كل يعظم دينه باليت شعري ما الصحيح

وتشابه ايضا من حيث انها تعلم البعث وخلود النفس

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا ام عمرو

وكان بعض العرب في الجاهلية اذا حضر الموت يقول لولده ادفنا معي راحتي

حتى احشر عليها فان لم تفعلوا حشرت على رجلي . قال بعضهم يوصي ابنه عند موته

ابني زودني اذا فارقتني في القبر راحلة برجل قائم

للبعث اركبها اذا قيل اقلعوا مستوسقين معاً لحشر الحاشر

من لا يرافيه على عثراته فالحلق بين مدقع او عائر  
فاذا جاء يوم الحساب يوم ينتقي العالم  
ومها عشت في دنياك هذي فما تخليك من قمر وشمس  
ليست كل نفس جسدها وقابلت به خالقها

فماذا بالقلب قلب بدر من الشبري تكلل بالسام  
يخبرنا الرسول بان سنحيي وكيف حياة اصدا وهام  
فمن اين نجمع اجزاء كل فرد وقد تبعثت وانتشرت هباء مشورا ودخلت في  
تكوين كثيرين آخرين وفي كل جزء من اجزاء هذا العالم حتى ان ذرة الكبريت التي  
قامت بتكوين جزء من رثاينا آدم قامت ايضا بتكوين ملايين ملايين من الزنات وغيرها  
من الاعضاء والاجزاء في الحيوان والنبات والجماد

زعموا اني سأبعث حيا بعد طول المقام في الارماس  
وأجرز الجفان أرفع فيها بين حور وولدة اكياس  
أي شيء اصاب عقلك يا مسكين حتى رميت بالوسواس

وان قيل ان البعث للأنفس لا للأجساد والآنفس منفصلة مستقلة بعضها عن بعض  
قلنا ان هذه القضية عدا انه غير متفق عليها الحالية من كل اسناد علمي ومنفية بالعلوم  
الطبيعية عموما وبمذهب دارون خصوصا فنفس الانسان كنفس الحيوان عمل من  
اعمال المادة اي من اعمال الاعصاب والدماغ على حد عمل الهضم في المعدة والازهار  
في النبات فالنفس حالة من القوة المتصلة بالمادة كما ان الدماغ حالة من المادة المتصلة  
بالقوة فالمادة متحركة وحركتها اذلية والسكون الذي نراه فيها ظاهري فقط فهي في  
تجاذب دائم بينت احشائها وتنافر كذلك يقطع افلاذها فالحبة والنور ليسا في  
قلب الانسان وحده بل في قلب الجماد ايضا وهناك اصلها واصل كل حياة وما الحياة  
والموت الا تبدل في المادة وتغير في الصور ليس الا

تخالف الموت والحياة فموت بعض حياة بعض  
حياة كل وموت كل في ما نراه محال فرض



وتشابه في الفروض والثواب والعقاب وقد جعل بعضهم جنهم لذات جسمانية  
وغيرهم روحانية. وفي الاعداد من حيث استعمال الاثنين والثلاثة والسبعة والعشرة  
وغير ذلك كثير فكل ما هو موجود في الديانات اليوم كل في العقائد التي كانت  
من قبل فما الثنية والثالث والسماء الثالثة والسبع الطباق والوصايا العشر الا مقولات  
متحولات عما قبلها

قال فيلسوف شعراء العرب والمعم أبو العلاء المعري

عجبت لكسرى وأشباعه      ونسل الوجود بيول البر  
وقول النصارى الله بضم      ويظلم حياً ولا يتصر  
وقول اليهود الله يحب      ريس العظام ويرج القبر  
وقوم أنوا من أقاصي البلاد      لرمي الجمار ولثم الحجر  
فوا عجبا من مقالهم      أيمى عن الحق كل البشر

فاحل العقائد جميعاً وهم الانسان اذ كان في عهد الحشونة وكما نشأ هذا الوهم في  
الانسان سار معه ايضاً ونما فيه كما نما هو من ادنى الى أعلى فكان الانسان كلما ارتقى  
درجة في الحضارة برقيته فيه الى ما يوافق حاله منها حتى جعله قاعدة أبحاثه العقلية  
ونظرياته الفلسفية وصار علة قضاياه الأولية وأفكاره الغريزية لان العقل اذا أحب  
أمراً تفرغ له وتمن فيه وعززه بأنواع التصور حتى اذا كان هناك وهم لا يعود عنده  
ريب في كونه حقيقة

وهناك أن تعطي فلم تجد لنا      لخلناك قد أعطيت من شدة الوهم

\*\*\*

ولفان ما الفائدة من معرفة الانسان نفسه انه حيوان ومن نفي الديانات وهل  
يمكن صلاح الكون بدونها

فكون الانسان يمكن قوام شأنه وصلاح حاله بدون الديانات فما لا يجب أن  
يكون شك فيه بل لا يصلح حال الامة الا كما ضعفت فيها شوكة الديانة ولا يقوى  
شأن الديانة الا كما انحط شأن الامة ولا يسع أحداً انكار ما للديانات من الوقع

العظيم في تقدم الامم وتأخرهم وتعصبهم وتباغضهم وتباغضهم وتنافرهم وتحاملهم بعضهم على بعض واذا نظرنا الى التاريخ رأينا على صفحاته من الدم سطوراً لوجعت لكنت بحوراً وما سببها الا العدوات التي افارتها الديانات . ولو لم يكن في الديانات سوى قييد حرية الفكر لكفى أن تكون علّة شقاء الانسان في دنياه فلقد ملأنا حالة الانسان الساج في بحر الاوهام لتصويرنا رجلاً مرتعداً واجف القلب متعوذاً بالرقى هائماً أناه الليل والطراف النهار لا نذاً بذلك البناء الذي شاده دهاة الناس منقباً في الارض متخوفاً من كل شيء . غير منقب في الامر متردداً في كل شيء ولسان حاله سواء اقام بمكان او سار على طريق لا ينفك ينشد

أعيذ نفسي وأعيذ صحتي من كل جني بهذا الثقب  
حتى أعود سالماً ورصدي

اذ برى نفسه محاطاً بالارواح تراه من حيث لا يراها وتفعل فيه من حيث لا يراها بيدها رزقه وحياته وسعادته وشقاؤه فكيف يستطيع أن يكون على ثقة من أمره وشغله الشاغل أن يتقرب اليها واجتأ حائراً لا يعرف كيف يرضيها اذ لا يعرف ما يغضبها

\*\*\*

وقد كانت التعاليم الدينية بادية بدءاً خشنة وغير موافقة للبيئة الاجتماعية . ثم رأى الانسان انه يحتاج في قوام أمره الى مساعدة أمثاله له فوفق هذه التعاليم لاحوال معاشه بحسب الزمان والمكان . والديانات البالغة في التهذيب وضعت تعاليمها على قواعد اديبة وابلغ قاعدة في الدين أن يعمل الانسان مع غيره ما يجب أن عمله غيره معه . وهذه القاعدة المنسوبة الى كنفوشيوس قبل المسيح بنحو ثلثمائة سنة لا تخلص بكنفوشيوس وحده . بل هي أقدم منه جداً أي منذ قدرا الانسان ان يدرك انه تزمه مساعدة اقربائه في حياته أي انه يحتاج الى الجمعية التي لا يتنظم أمرها الا بما يدعو الى التآلف كحبة القريب التي تجعل الانسان يطلب حقوقه من حيث يقوم بواجباته . وهي من هذه الجهة متفقة مع تعاليم الفلاسفة اذ تعلم وجوب عمل الخير



واجتناب الشر . والفرق بينها ان تعاليم الفلاسفة تطلق للعقل حرية الفكر لكي يتصرف بالاشياء بحسب الزمان والمكن فلا تعلمهم بخير مطلق أو شر مطلق لان المصطلح عليه انه خير أو شر عند قوم ليس كذلك عند قوم آخرين . وبالضد من ذلك الديانات فانها تقيد العقل اذ تعلم بخير مطلق وشر مطلق . ومن الغريب ان هذا الاطلاق لا يوافق إلاها . فيضطهد الانسان بعضه بعضاً ويقتل بعضه بعضاً ويرتكب أفظع القبائح واقبح الفظائع وهو على يقين من انه يفعل الخير لان شره تربيته ان الايقاع بمن ليس على شاكلته ضروري وخير مطلق لوجوده عموماً . فضلاً عن ان الديانات لالقاء مقاليدھا في أيدي الرؤساء تصبح آلة لتنفيذ اغراضهم فتكثر الشرور والفتن في العالم وأي شاهد على ذلك أعظم من حشد الجنود واثارة الحروب وسفك الدماء والحريق بالنار والتعذيب بأنواع العذاب التي يزلزل التاريخ لك صفوفها ويسمك ضوضاءها ويرسم لك مناقعها ويريك لحبيها وبملا الآذان بصراخها وانينها وغير ذلك من الاضطهادات التي تفتت قلب الحجر الصلد فضلاً عن قلب الانسان . والنصرانية التي تتفخر بتعاليمها الادبية لا تقدر الا أن تحمر خجلاً مما أثارته من الفتن في القرون الوسطى وفي غيرها وارتكبتها من القتل اعتداءً وظلماً وجنته من التعذيب والحريق بالنار قصاصاً لانس ابرياء لا ذنب لهم الا انهم جاؤا قبل وقتهم أو بهم مرض . وھا هي جان دارك واقفة في عرصات باريس شاهدة على شناعة تلك العصور البربرية وقساوة تلك القلوب الوحشية (١)

٥٤٥

وعندي انه لولا الثورة الدينية التي اثارها مذهب لوثر لا يعلم الى أية دركة كان الانسان قد انحط في أوروبا فهذا المذهب أقل تقييداً للعقل من المذاهب الاخرى . ولو بحثنا عن أسباب الثورة الفرنسية التي دفعت العالم في ميدان التقدم اجيالاً فوجب علينا أن نقول ان ثورة لوثر هي التي مهدت لها السبيل بما نهت من الخواطر وسهلت

(١) من منازعات الخجل رجال الدين اهتم اليوم طويلاً بجان دارك هذه وعظموها في معاني القديسات وكانوا قد احرقوها في الماضي لانهم اعتبروها انها متعاقدة مع الشيطان

للعقل من التفكير والبحث في المبادئ الفلسفية واجالة النظر في أحوال الكون والتملص  
من ربكة التعاليم القديمة . والبرهان الماضي والدليل القاطع هو ان الامة التي اعتنقت  
هذا المذهب وهي امة الانكليز اندفعت متقدمة من بين أمم أوروبا حتى بلغت مبلغاً  
جعلها في مقدمة العالم ولا تزال فيه حتى اليوم على رغم صعوبة مركزها الجغرافي خلافاً  
لباقى أمم أوروبا فانها لبست متأخرة على نسبة المذاهب التي لها من ذلك وربما لا تبقى  
انكسرة في المستقبل كما هي اليوم لرسوخ قدم هذا المذهب فيها فيسبقها بعض الامم التي  
ربما لا تلبث زماناً طويلاً حتى تتجاوزته كثيراً

والحافظون على الاحوال المقررة هم أصحاب الروحانيات ومن توكأ على عصاهم من  
أصحاب السلطة فيدعون ان الكون لا يغير الا بما هو مقرر في سياساتهم ودياناتهم وشرائعهم  
وعاداتهم ولغاتهم وسائر آدابهم مما ألفوه ويستغربون كل قول كان على ضد ذلك .  
على ان كل عصر يتغير عما تقدمه والعالم يتقدم ولا يتأخر ثم هم يتغيرون مع كل عصر  
ويؤيدون ما قرره هذا العصر وهم لا يزالون يكررون ما يقولون كأنهم لا يدرون انهم  
يتغيرون . فما كلف غير جائز عندهم في الامس صار أمراً واجباً عندهم اليوم لانهم  
تعودوه ولا شك ان ما يقال اليوم همساً سيصير غداً يعلم في المدارس . فمعارضتهم  
لكل مستجد ليست الا عتبات يصعبون بها السلوك في طريق التقدم واضطهادهم  
لمضادهم لا يكسبهم سوى جنائيات يضيفونها الى ما لهم من الجنائيات ويقتسي حكم  
الحالف عليهم

ولا يتوهمن القارى ان مرادنا بذلك قلب الموضوع وعكس المطبوع قهراً وظلماً  
اي استعمال القسوة لثني الدبانات على حدة استعمالها لتأييدها كلاً ثم كلاً وانما القصد  
ان الحكومات لا تكره الناس على الايمان ولا تحصد الانفاس عن ابداء ما في الصدور  
بل تدع كلاً وشأنه وتحمشي الضنط على العقول ولا تعارض الافكار المضادة فلا  
بعضي زمن حتى تشرق انوار الحقيقة ويهتدي الناس ببراسها في ظلمات هذا انكون  
انما المراد مثلاً السيف يصدا عقله ساكناً بلا اعمال



يصدأ السيف بالخباء ولو كان شديد الصقال حد النصال



واما الفائدة من ذلك فتقسم ثلاثة اقسام اديية وعملية وسياسية  
فالفوائد الادبية المترتبة على ذلك تفوق حد الحصر عدداً . ولو لم يكن لنا فيها  
سوى معرفة الحقيقة فقط لكفانا ذلك لان الانسان لا ينبغي ان يطمع بصلاح حاله الا  
بمعرفة الحقائق التي يلزمه ان يسعى اليها جهده ولا يجب ان يحجل من معرفة اصله  
انه حيوان فالحقيقة لا يحجل من معرفتها الا الجاهل بل بذلك افتخاره اذ يرى نفسه  
اليوم اكل منه في الامس واذا كان هناك وجه للحجل فهو اولى بمن كان كلاماً  
فنتقص بالخطيئة . وهذه المعرفة تجعلهم انهم انما قابل للتقدم اذا احسن استعمال ما فيه  
من القوى اذ يعلم ان ما بلغه ليس موهبة سرية من المواهب التي نصيب الانسان  
بحسب مشيئة معطيها وانما هو نتيجة عمل متجمع على مر الدهور لاسباب معلومة . ويعلم  
كذلك ان الانسان لا ينبغي ان يبتدئ كل حيلة او يقبل كل مزية لانه قد يكون  
مستكلاً لمزية ناقصة في غيرها فيبحث فيه عن موضوع قوته وكامله ويستخدم به ذلك  
لاصلاح احواله . بل ربما عدت المزية حلة والحيلة مزية بالتقاييس لما هو مقرر في الذهن  
لا لما يحكم به حرية العقل . على ان العقل نفسه غير حر حقيقة وانما يعمل وفقاً لاحكام  
هي منشأ حركته غير ان عمله على موجب هذه الاحكام لا يوجب فيه تقييداً الا من  
حيث التواضع الكلية والروابط الكبرى للكون فيتغير على حكم الضرورة وتكون نتيجة  
هذا التغير التحسين . بخلاف ما لو كان مقيداً بوجه او تعليم ياتي تغييراً ولا يقبل تحويراً  
فانه يبقى واقعاً كالبلية في عتقها الولية<sup>(١)</sup> حتى يموت . ويعلم ان النظر الى ما وراء  
الطبيعة اضاعة الوقت في ما لا يجدي نفعاً ومن تعامل على علم ما فوقه يلبى بجهد ما تحته<sup>(٢)</sup>

(١) البلية نازة المحر والولية الرجل - قبل وكأنا يربطون الناقة معكوبة الراس الى مؤخرها ما  
على ظهرها او بما يلي كذاها وبطنها وبأخنونة ولة فيشدون وسطها ويقطعونها عن الناقة ويتركونها كذلك  
حتى تموت عند الفجر

(٢) فانه الابكندر في شهر النجم . قال بعضهم كما عند شهر النجم اذ وصل اليها انباء الملك وانما  
في جوف الليل وادخلنا سناناً ليرينا النجوم فجعل شهر يدير يده ويدير حتى سقط في بئر فقال الليل

وربما لم يصب ذلك العلم . وان الكمال قد يكون نقصاً احياناً كأن تكون كل الاحوال الخارجية غير موافقة له فانه لا يقدر ان يثبت امامها

قد يني الفرد لاقتضاء استواء ووافق لسائر الاحوال لكنه يعلم كذلك انه كما تفعل الاحوال الخارجية فيه يفعل هو ايضاً فيها غير ان الانسان يفعل في الاحوال ما قد يفعلن في الاشكال ومن ثم يفعل واسطتها في نفسه فيدرس فعلها من حيث ذلك ويبدل ما في وسعه لجعلها اقرب الاشياء لما يؤثر فيه تأثيراً حيداً يسرع بتقديمه نحو الكمال . بل يعلم ايضاً ان الاسباب المذكورة ليست حية فقط بل معنوية ايضاً فيصلح امور تهذيبية وتعليمية ولا يحقر شيئاً صغيراً منها وانما بهم به اهتماماً كبيراً علماً بما قد يكون له من الوقوع العظيم يجمع فعله على ناموس تجمع القوى فيتقنه من حيث يراه مضرراً ويقصده من حيث يراه نافعاً . وهكذا يحصل له تغير عظيم في احوال حياته الطبيعية والادوية فيزداد شكله جمالاً وكالاً وعواطفه وسائر قواه المعنوية نبالة وجلالاً ويقل الشر من بني البشر



والمفوائد العملية كثيرة كذلك فانا اذا قابلنا بين الشرق والغرب اليوم نرى بونا عظيماً بينهما من جهة التقدم في الصنائع وسائر اسباب الثروة على حكم المبادئ الفائضة في شرائع كلي منها او اذا قابلنا بين حالة اوروبا قبل الثورة اللوثرية وبعدها نعلم ان النهضة التي حصلت لاوروبا في الفلاحة والملاحة والصناعة والتجارة انما سببها تلك الثورة الدينية التي فككت العقل من بعض قيوده ومهدت تلك الثورة السياسية التي لا ينكر فائدتها الا من عيى بصره يوقع الغرض . فانشئت المعامل وعقدت الشركات الزراعية والتجارية والصناعية وكثرت ثروة الامم الناهضة بها وقوي عزم الانسان على ما فيه من الضعف واستظهر على الطبيعة وقواها فقرّب البعيد من الاقطار اذا استنطق البرق واستمرى البخار ووصل بين البحار كل ذلك بما اكتشف من المعدات وعرف من الاسرار



رباً مره بالعزم وهو ضئيل ذلك طوداً من راسيات الجبال  
وأما الفوائد السياسية من العلوم الطبيعية والفلسفة المادية فكثيرة كذلك وأقل ما  
فيها معرفة الانسان نفسه بالنسبة الى امثاله وما له من الحقوق وما عليه من الواجبات  
فان الانسان البالغ شيئاً من هذه الحرية الصحيحة لا يعتقد العصمة للقوانين التي  
وضعها البشر بل يعتبرها على حد المبادئ الفائضة في تعاليمهم والمؤثرة في فطرتهم .  
فلا يهاب ملكاً لصوتجانه ولا شريعة لاجماع الناس عليها الا من حيث ما يراه نافعا  
للهيئة الاجتماعية مؤيداً لحقوقها

ولما كانت احوال هذا العصر مثلاً تختلف عن احوال ما قبله او ما بعده كان  
من العبث بالحقوق المقدسة اطلاق شريعة عصر على عصر آخر لا يمكن ان يكونا  
متفقين في احوالهما طبيعياً وادبياً وسياسياً . وانه يستحيل قوام العدل في مشهد الوجود  
بشريعة ثابتة غير متغيرة على حكم تغير الزمان وتغير كل شيء بل على حكم كل مسألة  
وكل قضية اذ لا تكون مسألة كمسألة او قضية كقضية مهما تشابهت احوالها كما لا  
يكون مرض كمرض ولو كانا من نوع واحد لاختلاف المرض الواحد في كل فرد ويجب  
مراعاة هذا الاختلاف واقامة علاج خصوصي لكل شخص في كل مرض كما يجب  
نظر خصوصي في كل قضية يستحيل ان تستدرك القوانين الموضوعية والاحكام المقررة  
فالناس لما خافوا ان لا يعدلوا وكان خوفهم في محله ضموا الشريعة في قانون صيانة لها  
فالتوى عليهم المقصود اذ صارت الشريعة لصيانة القانون اي صار صاحب البيت  
لصيانة بيته لا البيت لصيانة صاحبه . ولا يخفى ما يوجب ذلك من الضرر ولا سيما  
على غير العارف به . فيدفعه صاحب الدماء موصوماً متلصصاً بترقه من حيث  
يراه سائياً وقد لا يجهل القضاة ذلك في تأدية وظائفهم اذ تعرض لهم احوال يتبينون  
فيها خطأ القانون الثابت الا انهم يتقادون اليه صاغرين مستترلين من قدر ما يلحقهم  
من التبعة والمسؤولية في اعدام النفوس وتخريب البيوت بقدر ما يتحصنون وراءه هذا  
اذا عدلوا وليتهم يعدلون . وكيف يجد ضميرهم راحة وراء حصن كهذا اقامه الناس على  
ما لهم من الاهواء والاغراض وهو لهم الطوع من الظل . قال هولباخ « انا لا نرى هذا

القدر من الجنایات على الارض الا لتضافر كل شيء على جعل البشر اشراراً جانين  
 فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها تصب اعينهم تدفعهم  
 الى الشر . فما عسى ان ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غيبة باردة في هيئات  
 اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايته وتجل قدر المنيء واساءته ولا تقاص اقبح  
 الذنوب الا اذا كان مرتكبها ضعافاً . فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك لذنوب  
 ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كباراً . وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا  
 القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز  
 شأنها « فالشربعة لا يجب ان تقبل من ايدي الآلهة بل من ايدي البشر » اي لا  
 يجب ان تؤخذ من افواه الرؤساء والامراء ولكن من لسان حال الصعاليك والفقراء  
 حتى تكون اقرب الى الانسانية اي الى اقامة العدل الصحيح منها الى تنفيذ الاهواء  
 والاغراض النفسانية . فلا تهدم جسداً تعبت فيه الطبيعة ملايين من السنين لغرض  
 قوي ولا تخرب بيتاً ولا تهدم آمالاً لغرض غني ولا تبث احكاماً تمس هذه الجواهر  
 المقدسة الا منعاً لما يلحق بالهيئة الاجتماعية ضرراً بليغاً جداً غير مختلف فيه وربما  
 راعوا اليوم فيها ما يمس حياة الاجساد اكثر من ذي قبل فصعبوا اسباب الحكم  
 بالقصاص اي اعدام الجسد . لكنهم لا يزالون يهملون سواها من حيث الحياة الادبية  
 على ان قتل الآمال لا شد من قتل الاجساد وانا لني عصر تفضل فيه الحياة المعنوية  
 على الحياة الحسية وهذا هو سبب ثورة الخواطر في اكثر الممالك المتمدنة وتآلف  
 العصب السرية والايقاع باهل السلطة فان الظلم وضباع الحقوق لا يصبر عليها  
 ذوو النفوس الالية

فرب اناس لا تذلل لكابر لها انفس من دونها النجم والسماء  
 ولكنها تدنو الى الحق كثيراً سما فوق هام الدائس وخيا  
 ومن اين له ان يسمو فوق هام اولئك الذين جلسوا على منصاتهم كالارباب  
 وداسوه تحت ارجلهم دوس الثواب يأمرون وينهون وهم عن مصالح الناس لاهون وفي  
 سفهم يمرحون بميلون الى حيث يميلون



يسقط الطير حيث يلتقط الحب ويفشى منازل الكرماء  
فكم أصبح بهم الصحيح سقياً والبري جانياً والكريم مهاناً  
تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتفتي مريض المستاعد الضاري  
ولا يعارضون فيما يقولون او يفعلون كأنهم عن الزل معصومون او عن الغرض  
منزهون . على ان الانسانية قد نفت العصمة عن رؤساء الدين ولكنها لم تمكن بعد من  
نفيها عن هؤلاء الغاوين

من لي برد جراح من غوايتهم كما يرد جراح الخيل بالجسم  
اذهلوا ان العرش الذي يتبوا انه قائم على قاعدة هي الامة ام هم لا يدرون ان  
الامة صارت بجورهم

كان صوت شعبها المرتض كشيخ اففى ازمنت لعض  
فهي تحك بعضها بعض  
فاذا خلت الامة من تخمهم هوى بهم ذلك العرش كجلود صخر حظه  
الليل من عل

او انتفضت تطلب راحة من تعب  
تزلزل فيهم عرشهم وتمزقوا شظايا وطاروا في الفضاء شذو مذر  
ام هم يتوهمون ان رقي المراتب الرفيعة في امور الدنيا واحوال السياسة لا يكون  
دائماً الا بالاستحقاق الدال على غزارة العلم وسعة الفضل ولا يريدون ان يذكروا ان  
اسبابه تكون غالباً على ضد ذلك

وقد يلبس المرء خير الثياب ومن دونها حالة مضنيه  
كما يكتسي خده حمرة وعلتها ورم في الريه  
او لعل تسلق المقامات العالية هو في الحياة الادبية كما في الحياة الطبيعية يجلب  
الدوار ويطمس البصائر والابصار . فالعدل كل العدل في الانتقام من الظالمين .  
وسيعلم الظالمون أي متقلب ينقلبون . اذ يأتي يوم نسود فيه منهم الوجوه وتنفق  
القلوب وترهق الارواح جزاء ما جنت ايديهم وما هم يفعلون

بخلاف الانسان الجاهل حقيقته فانه تنطلي الاوهام عليه وتهضم حقوقه حتى لا يبقى لوجوده اثر ومما يدل على صحة ذلك ان الامة الخائفة في قفار الوهم لا تكون شيئاً في الوجود بالنسبة الى ملكها . بل هو كاشي وتاريخها ليس سوى تاريخ ملكها وما على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

فيذهب به الغرور الى ان يتصور نفسه من طينة ارفع من طينة الامة واذا لا يرى له من ضد ذي بال يسكر في خمرة مجده ويطمح في تيه ضلاله حتى يخيل له ان ما في السموات والارض مخلوق له او هو صنع يديه وربما نصب نفسه الها في عيني الامة فصدقته فيستبد في الرعية ولا شريعة له سوى ارادته ولا قانون سوى هواه فيستزلف ثروتها ويضعف قوتها ويقتل اولادها وبالجملة يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه والامة التي هذا شأنها تتقوض اركان استقلالها فتشخص اليها ابصار الظالمين وتعد اليها ايدي الفاتحين ويسومونها ذل الاستلحاق وخسف الاستغراق ولا تقوى حجتها وتأنف كلمتها ولوفق لاستقلالها الا بعد سقوط سلطان الاوهام وقيام تعاليم اصحاب الافكار الحرة مقامها او ضعف شوكتها بها ولن تتوفق له قط ما دامت على ضد ذلك ولو نهضت اليه عصابة واحدة بل تكون هذه النهضة فيها كالاضطراب الذي يسبق انطفاء النور يسرع بفتائها ويذهب ببقائها فضلاً عما يوجب ذلك بينها من تفرق الكلمة وكيف تنضم كلمتها وتفرق المذاهب والمال يحول بينها وبين انضمامها وهو اكبر سبب لسقوط الامم العظيمة ولولادة لقويات الامم حتى الضعيفة منها على استحصال استقلالها لان صوت الشعب اذا انضم لا يغلب معها كمن خصمه قوياً

وقد كانت اوربا قبل الثورة في حالة شؤم من ذلك كما مر بك واما اليوم وقد قطعت بعض تلك الربط التي كانت مقيدة حركتها فقد رأيت بعينيك وسمعت باذنيك ما بلغته من حمرة الشأن وصلاح الحال في الشرائع والاحكام فاستحكمت حكوماتها على الشورى الا ما كان منها باقياً تحت حكم تلك القيود وصارت الامة هي الحاكمة عوضاً عن الملك وفي بعضها صارت جمهورية وهذه الهيئة هي الهيئة الحكومية المعدة



للمستقبل<sup>(١)</sup> وربما لا يطول الامر حتى لا ترى ملكاً في كل اوربا لان سرعة سير العلوم الطبيعية يؤذن بسرعة حركة الافكار في طلب الاستقلال والتبصر في ما به سعادة الامة التي لا تنال الا بتسهيل الاسباب المؤذنة لكل فرد باستعمال قواه استعمالاً حراً  
وهما يمكن من امر تغير الشرائع وتقدمها حتى في اعظم الممالك المتشددة فلا يزال طابع التقليد والاستبداد شديد الاثر فيها ثقيل الوطأة عليها



فهلأ سادني الجالسين على عرشكم العالي ويديكم صولجان المجد والقوة فلا يفضيكم  
انذارى ولا تقطعوا من حكم الدهر وقد عدل فلم صبرنا على مضغه وكلت شر  
الجائرين ولا تطمعوا باسترداد ما فات

فقد انقضت تلك السنون واهلها فكأنها وكنانهم احلام  
وسوف يتولى ما بقي . وربما كان حظكم من ذلك في الشرق اطول جداً لولا ان  
الغرب باسط فوقه يديه مزعج ان يقبض عليه . ولا تعلموا النفس بما في التاريخ من  
سقوط بعض الامم الباذخة الشأن وقيام امم اضعف منها القوت اليكم مقاليد احكامها  
وسلمتكم زمام امورها فانه وان حصل ذلك الا انكم لن تبلغوا امانكم لتوفر معدات  
التقدم في العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة آتاراً لا تمحي ولا نزول بزوال  
امة من الامم خلفها امة تكون في استعدادها ارفع منها شأنًا واعلى مكاناً



هذا واني ارجو ممن لم تصنع معاني على قالب عقله . ولم توافق احكامي احكام  
نقله . ان يحدد في النظر قبل ان يحدد في خصامي . وان يلين للبحث قبل ان يشتد في  
ملاهي . وربما سدل الغرض على بصائر القوم حجاباً . فقرأوا الصواب خطأ والخطأ صواباً .  
فعدوني على وجه مخطئاً مريباً . وعدوني على وجه مجيداً مصيباً

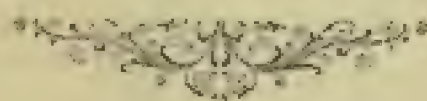
(١) اريد بها لا كما في اليوم بل الجمهورية الحديثة الديمقراطية التي يتم فيها توزيع الاعمال على قدر  
المنافع العمومية بحيث تتوفر منها المنفعة لكل فرد في الاجتماع بدون ادنى تمييز مطلقاً واني شرفير معها قوى  
الاجتماع بحيث يقل التبذير والتفريط بهذه القوى ما أمكن

فمن رام تقويي فاني مقصوم ومن رام تعويبي فاني معسوج  
 فالحقيقة ليست دائماً في مانا . ولا الخطاء دائماً في ما كان ضدنا وقد قال آباؤنا  
 من قبلنا مثلاً . فلا بد ان يكون في الامر وجه ذو خطر . يستحق ان يستوقف النظر .  
 والعاقبة من تدبر الاشياء كما تقتضيه لا كما يشاء . والحكيم من لم يختصم احداً لفكر او  
 بيان . بل دفع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان

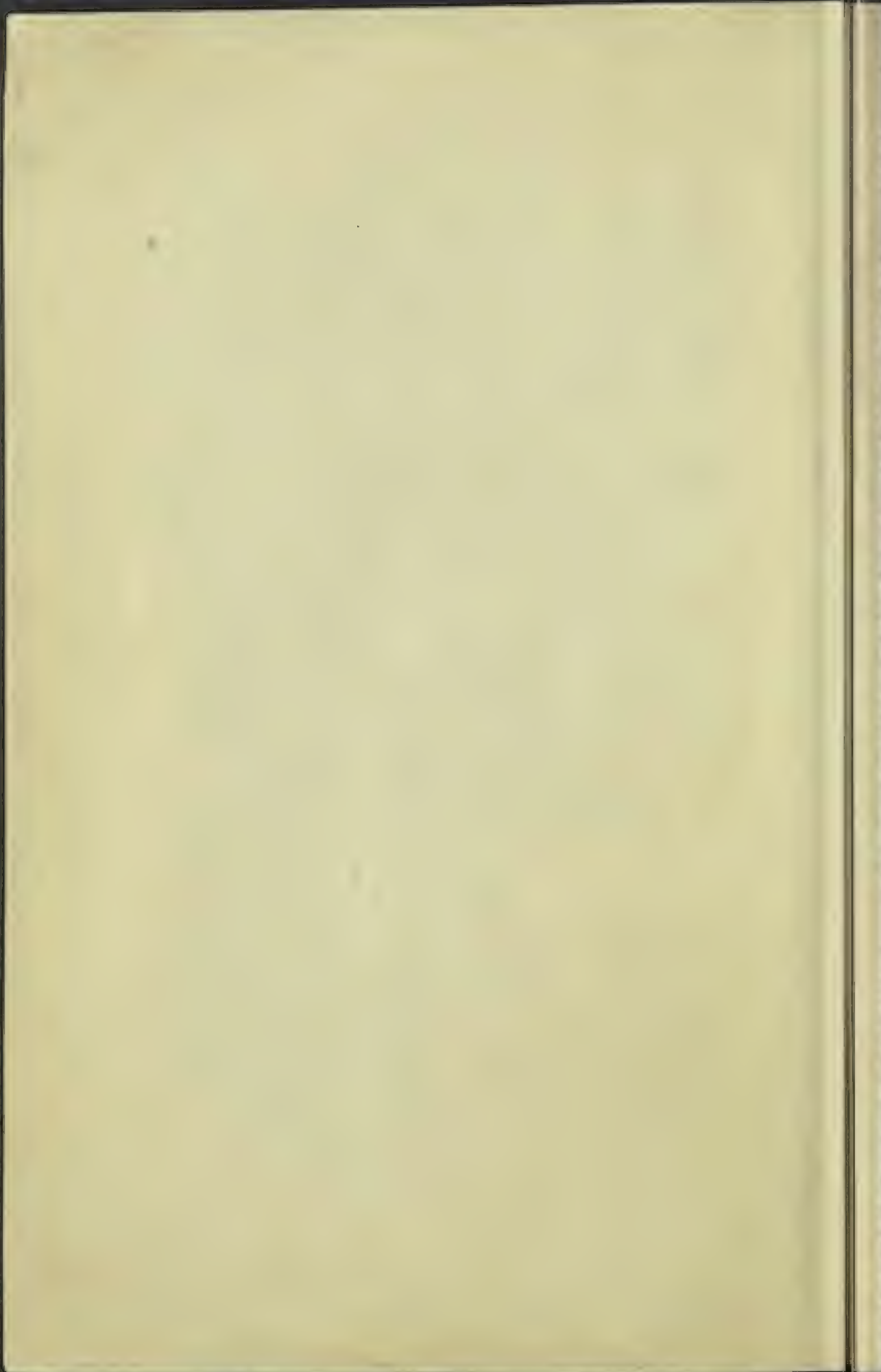
وما طلب المعيشة بالتمني ولكن القدر دلوك في الدلاء  
 تحي بلثها طورا وطورا تحي بحياة وقليل ماء

طنطا سنة ١٨٨٤

شيلي شميل









لويس بنجر



## شرح بختري على مذهب دارون

## المقالة الاولى

أهتدت : الاحياء الاولى والبياتولوجية أي علم الاحياء من مذهب النيكيت الجيولوجي وتحرار  
 الخلق من مذهب هذا المذهب وانتفاضة من نشوء الاحياء الزمانية نشوءاً ذاتياً من اراء لين في  
 ذلك من دارون وكتابه في انتخاب الانواع الطبيعي في تنازع البقاء من سافور دارون  
 ومما صرح به : لامرك وجفروا سافيلير وعلقي ولوكن ولي ولوفوس وكتاب آكار الخلق وعكسي وهوكر  
 الخ من مذهب دارون واقسامه : اولاً تنازع البقاء ثانياً التنوع او تكون التنوعات وتغير  
 الانواع ثالثاً الخلفاء في الانتحال والوراثة رابعاً الانتخاب الطبيعي على مدى الاطوار الجيولوجية  
 الكبرى من مذهب دارون الى مذهب من درس تأثير التربية الصناعية في تغير الحيوانات والنباتات  
 الاعلى من أمثلة لتغير الصناعي والطبيعي المتصور وغير المتصور وأما هذا الاخير الى المادة  
 والريانة والضرورة والفن ويريد به نحو الأعضاء بالعلم وعدمه والى مفعول الاحوال الخارجية ايضاً  
 من الارتقاء ليس نتيجة لازمة لكن كثير من أمثلة على الكون الواثق او الشك في صور اثرية  
 جينية من موروثات الانسان عن الحيوان من دارون لم يستخرج من مذهب كل ما يفتق عليه من  
 ما يلام دارون عليه من خروج العالم العضوي كله من صور واحدة هي الكربة من التولد الذاتي ومذهب  
 الكربة من اراء جيجر وعكل في كيفية تكون الاحياء الاولى .

خشف الوطاء ما أظن اديم الا رض الأرض من هذه الاجساد  
 اتنا في كل خطوة نطأ بها الارض أمنا جميعاً نمر بقبور ملايين ملايين من الاحياء  
 التي عاشت وجاهدت وتألست زماناً طويلاً قبلنا ثم ماتت تاركة آثارها في الارض  
 المبسطة تحت اقدامنا كأنها تريد بها ان تقول لنا

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار  
 ولقد رأى الناس هذه الآثار في كل زمان ومكان . ولكنهم لم يدركوا حقيقتها  
 فاعتبروها من فئات الطبيعة التي راق لها في زعمهم ان ترسم صور الاحياء في باطن  
 الحجارة . وكانوا في العصر الوسطى يعتبرون العظام الهائلة التي وجدت في اماكن  
 متفرقة وهي عظام الفيلة الاولى والحيوان المعروف بالسودنت<sup>(١)</sup> أنها بقايا من طوائف

(١) نوع حيوان انقرض وقد أطلق عليه (كوفيه) اسم (السودنت) أي ذا الاسنان المحلقة

الجبابرة الذين كانوا في اعتقادهم يأهلون الارض زماناً طويلاً قبل الانسان  
 الا ان بعض ذوي العقول الراجحة والافكار الثاقبة السابقين عصرهم قد ادركوا  
 الحقيقة منذ القديم فان الفيلسوف اليوناني « اكرينوفانوس » من « كولوفس »  
 العدو الألد لآلهة اليونان وابو الفلسفة الآيانية <sup>(١)</sup> عرف الاحافير منذ ٢٤٠٠ سنة  
 بما هي حقيقة . فعرف انها بقايا حيوانات ونباتات كانت حية في الماضي واستدل من  
 وجود اصداغ بحرية على الجبال ومن انطباع صور السمك والفقم في حجار مقام  
 ازمبر وباروس وسيراكوس ان الماء كان يغطي هذه الاماكن سابقاً

غير ان مثل هذه الاقوال الصائبة المتفرقة هنا وهناك والصادرة من مثل اولئك  
 النوايع لم يكن يمكن التعويل عليها وان كانت جليلة بمجد نفسها لعدم ارتباطها بما تعز  
 به من المعلومات التي لم تدرك الا قليلاً قليلاً وباتت نابع . والحقائق الراسخة المعلومة  
 كانت دون ما يلزم لان ينسب عليها تعليم مطابق للصحة . ولم يتيسر ذلك الا في اوائل  
 هذا القرن وأواخر القرن الماضي حيث قام العالم الطبيعي الشهير « كوفيه » ووضع اساس  
 علم البالتولوجية اي علم الاحياء الاولى . ولا يخفى كم لا يزال هذا العلم الحديث  
 ناقصاً ولكنه لا يخفى ايضاً كم ينتظر منه ولنا شاهد على ذلك من كلام « اجاسيز »  
 حيث يقول :

« لا يعرف كم اقتضى من العناء والصبر لتأييد هذه المسألة البسيطة وهي ان الاحافير  
 او الآثار المتحجرة هي في الحقيقة بقايا حيوانات ونباتات كانت سابقاً حية على  
 الارض الا الواقفون على تاريخ العلم . اذ لزم اولاً ان يبين ان الاحافير ليست من  
 خرب الطوفان لان هذا المذهب كان المعمول عليه زماناً طويلاً . فالبالتولوجية لم تؤسس  
 على قاعدة الا من حين ما بين كوفيه ان هذه البقايا هي بقايا حيوانات قد انقرضت  
 ومع ذلك فكم لا يزال يعرض لنا من المسائل التي تنتظر حلها »  
 فهذه المسائل التي يشير اجاسيز اليها يشغل العلم الحديث بحلها . ومما يسهل هذه

(١) نسبة الى آلهة مدينة في بلاد اليونان القديمة اسمها لا يعرفون الا على احكام العقل ولا يعرفون  
 للعالم الا بياض كل



الغاية اليوم الاكتشافات الصادرة عن مد السكك الحديدية وخرق الجبال وفتح المقالع وتخطيط الطرق وبناء المدن وحفر الابار والاستقصاء في البلدان البعيدة الى غير ذلك مما هو الآن اكثر منه في الماضي . ولعدم ادراك هذه الاشياء في الماضي ادراكاً صحيحاً كان اذا وجد شيء منها لا يعبا به او عند من الخوارق

ولا ينبغي ان يتوهم ان جميع الاحياء الاولى او اكثرها بقيت محفوظة الى يومنا هذا فانه لم يحفظ منها الا القليل جداً مما وافقته الاحوال . والتقسم الاكبر تلاشي لفعل الاشياء الخارجية ولا سيما ما كان منه غير ممكن الحفظ من طبيعة كطائفة الحيوانات الرخوة والاجزاء الرخوة لباقي الحيوانات ومنى وجد آثار هذه الحيوانات العديدة الهيكلي في غاية الندرة . وما يشاهد في الاحافير غالباً انما هو اصداق وقواقع كسكية وعظام وقطع عظام وشعر وريش واسنان وحوافر ومبررات متحجرة وما شاكل . وتلى هذه الآثار يكون البحث لمعرفة الاحياء التابعة لها وجنس معيشتها . ومن النادر ان تلتقى المبال كل العظمى اللازمة الاولى كاملة ومحفوظة جيداً . واندر منه ان تلتقى الحيوانات كاملة ولا بد لذلك من احوال خصوصية . ومن اعظم امثلة هذا الاخير مماميث ( جمع مموت وهو الفيل الاول ) سيبريا او القيلة الاولى التي هي من اعم امثلة البالتولوجية . فهذه الحيوانات توجد كاملة بجدها وشعرها واحشائها وقدميها الوف من السنين . وزعم بعضهم انه وجد في معدنها بقايا طعامها القديم . وسبب حفظها فعل الجليد او الارض المجلودة حيث وقعت واندفست حين كان الماء سائلاً او الارض طينة . ولكي يعلم كم يصعب على العقل البشري ادراك هذه المسائل بدون مساعدة العلم يكفي توجيه النظر الى معتقد قبائل سيبريا الرحالة الذين يعتبرون هذه الحيوانات انما مناجذ هائلة حية تدب تحت الارض وتوت سالماً تقابل النور . وصينو اسيا الجنوبية يعتقدون ذلك ايضاً وينسبون الزلازل الى حركتها تحت الارض

فيظهر مما تقدم ان معرفة الاحياء الاولى صعبة للغاية لقلة المحفوظ منها ووجوده

غالباً في حالة ناقصة جداً . ولأن المعلوم من هذا القليل المحفوظ هو دون الطفيف . وإذا  
تذكرنا بان ثلثي الأرض او ثلاثة أخماسها تغطيها البحار وان قسماً صغيراً من الثلث  
الباقى تغطي الجبال الشاهقة فلم انه تمنعنا عن الابحاث العلمية موانع طبيعية . وانا لا نعلم  
شيئاً عن احافير قارات اسيا وأفريقيا وأميريكيا وأستراليا الواسعة . وما نعلمه من هذا  
القبيل انما هو آت كله من قارة أوروبا الصغيرة . ولقد احاب دارون حيث قال ان اغنى  
مجموعتنا بالانتولوجية ليس شيئاً بالنسبة الى الحقيقة وهو آت من قسم من سطح الأرض  
صغير غير مستوفى البحث فيه . على ان كثرة اختلافات هذه المجاميع تدلنا على كثرة  
الاحياء التي عاشت على الأرض في كل الادوار بما يفوق حد الحصر

ومع كل هذه الصعوبات الناشئة عن قلة المواد المعلومه وعن نقصها في غالب  
الاحيان قد تحققوا ان طبقات الأرض المختلفة الكثيرة تحتوي اجساماً عضوية مختلفة .  
اي انه في الادوار العديدة لتاريخ الأرض التي كل طبقة من طبقاتها تدل على كل دور  
من ادوارها عاشت حيوانات ونباتات خصوصية مختلفة بعضها عن بعض يزيد اختلافها  
كلما زاد البعد بينها

وعليه فصاروا يعينون مقام بعض الطبقات في النظام الحيواني من مجرد الاحافير  
الموجودة فيها خصوصاً الاصداف التي تحتفظ جيداً مادتها الكلسية والتي تلتقي في الاحافير  
بكثرة فانها اعتبرت زماناً طويلاً دليلاً على تعيين مقام بعض الطبقات في الأرض .  
وهي لا تزال الى اليوم تعتبر ادلة ثمينة ولو ان كثيراً من الاكتشافات الحديثة يناقض ذلك  
فما تقدم ومن الوهم في فهم بعض الحوادث الجيولوجية نشأ المذهب العظيم القائل  
بنكبات الأرض وتقلباتها وبالنتيجة مذهب تعاقب الخلق . وهذا المذهب ان الذين يدعوا  
كوفيه الشهير تغلبا على سواعها حتى هذه الايام الاخيرة ويراد بهما انقلاب عام يتحقق  
به كل اثر حياة على سطح الأرض ثم تقوم على الروى مخلوقات اخرى حية وهذا التعاقب  
حصل ٣٦ او ٤٠ او ٥٠ مرة في تاريخ الأرض

\*\*\*

على ان علم بالانتولوجية لم يكن يخلو من مسائل كثيرة يصعب او يستحيل تطبيقها



على هذا المذهب . منها امتناع ملاشاة كل الاحياء في وقت معلوم من تاريخ الارض دفعة واحدة لانه توجد اصول ثابتة حية لم تتغير في التغيرات والاضطرابات الجيولوجية كالحفريات البحرية الدنيا . وهذا ذلك فلا يرى في خلال الادوار المتعددة تكاثراً تدريجياً في بعض الانواع ثم انقراضاً بطيئاً فيها كذلك مما يدل على ان الصور الواحدة انتقلت من دور الى دور في تسبق طبقات الارض . فهذه الملاحظات لا يصح معنا التسليم بانقراض تام يعقبه خلق جديد . وما فعله من وحدة النظام الاساسي في العالم العضوي ومن تقارب البنية في كل الصور الحية لا يقبل ذلك ايضاً . لانا نجد في طبقات الارض المختلفة ليس عدداً عظيماً من الصور المتشابهة فقط بل تدرجاً بطيئاً صاعداً ونسبة شديدة بين احياء المكان الواحد المختلفة سواء كان بين الاصول المنقرضة والحية او بين كل منها . فاذا يوجد رابط يربط الصور المتعددة بعضها ببعض وهذا لا يجب ان يكون في المذهب المار ذكره .

ومع ذلك فعلماء كثيرون ايدوا هذا المذهب وله نصراء حتى الآن . ومن اشر نصرائه كوفيه الذي هو باحث في الاسافير العظيمة اول من مهد السبيل لدرس الآثار الاولى درساً علمياً . ولقد عرف ايضاً في كتابه — تقلبات سطح الارض — هذه الامور المتناقضة وهو يذكرها ايضاً على ترتيب مطابق لافكار دارون الا انه لم يأخذ على نفسه تطبيقها على مذهبه . وربما كان السبب امتناع مثل ذلك في حينه . على انه يعذر بجانب الغشيز الذي لم يخش فصل المسألة بقوله « ان الخالق قادر ان يعيد خلق الصورة التي اعجب خلقها » . فان مثل هذا الجواب يعلق الباب في وجه العلم وفي وجه العقل البشري

ومذهب التغيرات او الاضطرابات الجيولوجية هو اقرار بالجهل ليس الا والتسليم بدعوى ان سبب الاشياء الحقيقي والطبيعي لم يدرك ظفورا الى ما وراء الطبيعة وهو شأن الناس عموماً في تفسير كل ما اشكل عليهم معرفة سببه الطبيعي . على ان الرضى بذلك — وهو شأن كثير من اساتذتنا الفلاسفة — تشبه بهنود اميركا الذين لما رأوا خريستف كولمب نازلاً بينهم قالوا انه نزل من السماء

وهذا المذهب لم يثبت كل هذا الزمان الطويل ولم يقوَ بعضه على ما سواه حتى يومنا هذا الا لعدم وجود ما يفضله . ولا سيما ان مبدأ ثبوت الانواع كان قد رسخ في ذهن الجميع . فكان كل نوع يعتبر انه ثابت على مر الزمان والله خلقه خصوصي . ولم ينزع هذا الزعم حتى قام داروين واخذت الابحاث الحديثة تمهد لتعلم سبل التقدم على ان مذهب نكبات الارض وتقلباتها المارة ذكره كان قد انتقض قبل داروين بزمان طويل والفضل في ذلك راجع الى الجيولوجي الشهير المرس شارل ليل الانكليزي الذي بين في كتابه — مبادئ الجيولوجيا — بالاقبال الاعتراض ان النكبات المشار اليها لم تكن عامة بل خاصة اي ان الانقلابات لم تعم قط سطح الارض دفعة واحدة . وانما الارض تتبع دائماً في تاريخها نشوءاً تدريجياً ثابتاً مستمراً وهي دائماً وأبداً تحت فعل نفس القوى ومعرضة لنفس الاحوال التي لا تزال تغير سطحها حتى اليوم . وقال ايضاً ان هذا النشوء بطيء جداً وغير محسوس بحيث يخفى علينا وما اشتهر هذا المذهب حتى انضم اليه جمهور الجيولوجيين وهو الذي مهد السبيل لانحراف الافكار عن مذهب ثبوت الانواع

\*\*\*

ولما ظهور العالم الحي فلما عليه احد ثلاثة افتراضات اما التسليم بمذهب تعاقب الخلق . او القول بتحول العالم العضوي تحولاً تدريجياً متتابعاً بفعل القوى الطبيعية . او التسليم بالمذهب القائل بتولد جميع الانواع حتى العليا منها رأساً تولد ذاتياً في كل الادوار بفعل القوى الطبيعية . فالاول يكاد لا يثبت والاخير فاسد لا تتفاضر جميع ظواهر العالم العضوي . وواضع هذا المذهب ليل الجيولوجي الشهير وهو يقول فيه مانصه « ان الاختبار يعلمنا ان كثيراً من الاحياء والانواع الحية يضمحل على الدوام من دون ان يقفر العالم فلا بد اذن من ان تكون قد قامت بطريقة غير معروفة من الطرق الطبيعية انواع جديدة مقام التي اضمحلت فالقول ان هذه الانواع مكتشفة حديثاً وهي متكوّنة حديثاً غلط »

ولا يخفى على العارفين بالعلوم الطبيعية ما في هذا القول من الاضطراب اذ لا



يفهم كيف ان نوعاً حياً كالأسد او الفرس ونحوهما يوجد دفعة واحدة بدون استعداد سابق بفعل القوى الطبيعية المعروفة

فلفصل المسألة لا يكفي ان يقال انه تولد انواع جديدة بل ينبغي ان يبين كيف يكون ذلك بحيث يكون مطابقاً لما يعلم عن القوى الطبيعية وكيفية عملها وهذه المسألة المهمة الصعبة قد حلها كلاً او بعضاً رجل من اكبر رجال هذا العصر اثنى به العالم الطبيعي الانكليزي

## شرل دارون<sup>(١)</sup>



وُلد هذا الامام المقدام والعالم المدقق والفيلسوف المحقق سنة ١٨٠٨ في انكلترا<sup>(٢)</sup> وقد صرف عشرين سنة من حياته في البحث فقطع عن المسألة التي نحن بصدد حلها حتى تحقق له ان الاجسام الحية الماضية والحاضرة قد لا نشق من اكثر من خمس او ست صور اصلية نباتية وحيوانية. وربما كان مرجع هذه الصور الى صور اذن ابي الى بعض كريات اصلية. فالاجسام الحية على مذهبه لا تنفك ابداً عن التحول في نشوئها الخاضع لناموس طبيعي ثابت. وكتابه<sup>١</sup> يعد من افضل الاساليب الفلسفية الطبيعية فهو لا يعتمد فيه في تفسير الظواهر الطبيعية وما تعلق بها الا على الامتحان والعيان. ولا يخفي الصعوبات التي تعترض مذهبه بل بالفساد من ذلك يسقطها لكي يبعدها بما في الامكان. واتقد علماً بسبب اشياء كثيرة جديدة او بالحري تعلمنا ان ننظر اليها نظراً آخر. وكل ما تعرض له شديد التعلق باهم مسائل العلوم

(١) وكان قد اشتهر قبل ذلك بابحاثه العلمية الطبيعية في طواغير حول الارض على الباغرة الانكليزية (بيكر) من سنة ١٨٢٢ الى ١٨٢٧

(٢) وتوفي في سنة ١٨٨٢ ودفن في مقبرة رمال العظام في كنيسة (واستمنستر) وهي (كاثوليكون) في فرنسا.

الطبيعية ولا سيما الفيزيولوجية . ولذلك فهو يهم جداً جميع الذين يهمهم المسائل العامة التي تشملها هذه العلوم ولم يتم بعد كتاب ليل — مبادئ الجيولوجية — اعظم من كتاب دارون من جهة تأثير العظيم في جميع العلوم الطبيعية . فدارون فعل في علم الحيوان ما فعل ليل في علم الجيولوجية اي انه جرده من كل مفاهيم ومجرد وجعله تحت حكم التحول التدريجي بفعل القوى الطبيعية

\*\*\*

وقبل ان تنتقل الى البحث في مذهب دارون لا بد من النظر الى من تقدمه في هذا السبيل من العلماء الافاضل — وهو نفسه — يذكر في مقدمة كتابه اسما كثيرين منهم للدلالة على ان مثل هذه الافكار كانت موجودة ولكنها لبثت هاجمة ولم تنتشر إما لضعف البرهان وإما لكثرة الخصوم . واقدمهم وافضلهم « لامرك » وهو ليس كما توهمه بعضهم فيلسوفاً لا إماماً له بالعلوم بل بالصد هو من اعظم الطبيعيين الفرنسيين . وقد تولى تعليم الحيوان في بستان النبات في باريس زماناً طويلاً . واول ما درس من العلوم الميثورولوجية والطب ثم تعلق على النبات والحيوان اللذين نبع فيهما جداً هذا ما عدا كتاباته الفلسفية . ولطالما هزأ به اضداده لأجل هذا المذهب الذي هو اول واضع له حتى جاء دارون ووفاه حقه من الاعتبار

\*\*\*

وكان الاعتقاد قبل لامرك ان الانواع ثابتة لم تتغير عن الصورة التي خلقت بها ولن تتغير . قال لينبوس اعظم نأت القرن الماضي ما نصه « الانواع بقدر الصور الحية المخلوقة في الاصل » . على انه وجد في كل زمان من الفلاسفة والعلماء من قال انه ربما كانت الصور الحاضرة آتية من صور سابقة على سبيل التحول . الا ان ذلك لا يجوز اعتباره الا من قبيل الرأي فقط لخلوه من كل مستند طبيعي . والفضل الصحيح للامرك وحده الذي كان فيلسوفاً وطبيعياً معاً لما بسطه من هذا القبيل في كتابه فلسفة الحيوان ( سنة ١٨٠٩ ) وكتابه — تاريخ الحيوان العديم الفقر ( سنة ١٨١٥ )



فانه اوضح فيها يراهن طبيعية عدم ثبوت الانواع واشتقاقها بعضها من بعض من ادناها الى اعلاها وارتقاءها بالتحوّل التدريجي

وهو يذكر لهذا النوع عدة اسباب كالعادة والضرورة وجنس المعيشة والثقل اي استعمال الاعضاء وعدمه والتصلب وفعل الاشياء الخارجية والوراثة التي يجعلها في المقام الاول . ويعتقد ناموس الارتقاء التدريجي . ويقول بالتولد الذاتي في الاجسام الحية الدنيا . واكثر اعتماد على استعمال الاعضاء وعدمه وعلى العادة والضرورة كما يظهر من الامثلة التي يذكرها . ولا بأس من تفصيل بعض ما جاء به من هذا القبيل لبيان النسبة بينه وبين دارون من جهة ما يتفقان ويختلفان

•••

فهما وان اتفقا من حيث مصدر الانواع الا انهما يختلفان في كيفية حصول ذلك ونظر دارون من هذا القبيل اصح . فان لا مترك لاعتماد على العادة والضرورة وجنس المعيشة عنده ان الجسم يوفق للاحوال الخارجية ولاحتياجاته بقوة نفسه . واما دارون فبالضد من ذلك يجعل التوفيق المذكور من فعل الاشياء الخارجية فيعلا عن استعداد فيه لقبوله . ولا تخفى اهمية الفرق بينهما لان قول لا مترك فيه تنبيذ ومذهب دارون اعم . وقلم يعتبر لا مترك فعل الزمان الذي يجعله دارون من اعم العوامل . ولا بأس من ايراد بعض الامثلة من لا مترك لزيادة الايضاح

قال ان الخلد ليس له عينان او هما اثر فيه لانه لسكنه دائما تحت الارض هو في غنى عنها وعن النور . وقد توسع حتى قل انه اذا ربطت احدى عيني الطفل ينتهي الى ان يصير ذا عين واحدة فقط واذا تكرّر ذلك عدة اجيال يتكون نسل اعور وان الاقنعي انما كانت ذات شكل مستطيل وجسد ملس لا اعضاء له لان ضرورة مرورها في مسالك ضيقة والمادة اقتضت ذلك

وشكل الحيوانات الرخوة البحرية الخاص واحتوائها على مماسك ملونة نتيجة جنس معيشتها ومحاولتها امساك فريستها

والطيور المائية كالبط إنما كلت لها غشاء بين اصابعها لاحتياجها الى العوم واعتيادها له

والفلق الذي يعيش بقرب الماء إنما كان طويل العنق والمتنفس والرجلين قويمهما لانه في التقاط غذائه من الماء يحاول عدم الوقوع فيه وعنق الأوز إنما كان منحنيًا طويلًا لمحاولة التقاط غذائه من أسفل الماء والزرافة إنما كان عنقها طويلًا جدًا لاحتياجها لمد عنقها الى اوراق الاشجار العالية.

وميل الثور الى النطاح سبب قرونه وحمل الفمجر أجريته في جرابه بقرب بطنه سبب فيه لشدة رجليه وطول ذنبه وقوته  
\* \* \*

فمن هذه الامثلة وغيرها يرى ما في هذا التعليل من الاجتهاد والتقص وهو وان صح على بعض الحوادث وفي بعض الظروف الا انه لا شك في كونه لا يصح على ارتباط العالم العضوي بعضه ببعض. ومما يزيد في فضل لامرك انه كلت يعتبر جدًا ناموس الوراثة الذي بسطه دارون جيدًا. الا انه لعدم ادراكه كيفية عمله كما ينبغي لم يستطع تبينه في كل حالة. بخلاف دارون فانه بسطه في اخص الاحوال. ولما لامرك فاكتفى بان قال على وجه الاجمال ان الوراثة مع الاحوال السابق ذكرها تجعل الاحياء تنشا وتتحول وفقًا للضرورات وللاحوال الخارجية الفاعلة فيها من ادنى الحيوان حتى الانسان. وهو يظن ان الانسان نوع من القروود ارتقى حتى صارت كالات الارتفاع فيه وراثية

\* \*

وافكار لامرك تشابه جدًا مع افكار احد فلاسفة الالمان المتأخرين وهو «شوبنهاور» الذي يجعل مبدأ كل شيء في الارادة. فانه نظير لامرك يقول ان احتياجات الحيوان وارادته سبب اعضائه. وكل اعراض جسم حي إنما هي مفعول ارادة ذلك الجسم. ففرنا الثور انما هما لميله وارادته النطاح. وسبقان الابل السريرة لارادته العدو



وانه وان كنا لا نستطيع ان قبل قول لامرك هذا على علاقه الا اننا لا نجد بدا من التسليم معه بأمور اخرى هو باتفاق تام فيها مع دارون وهنا يظهر فضله على اقرانه

واول هذه الامور انكاره الانواع وعنده ان لا انواع في الطبيعة بل افراد فقط تتحول تحولاً غير محسوس. واذا كان ذلك ينفي علينا في مكانه فلتقصر وقتنا وطول زمانه. وهذه القضية مهمة جداً في مذهب دارون

وثانيها ان لامرك لا يسلم بقول معاصريه من الجيولوجيين الذين يقولون بتغيرات الارض وانقلاباتها العامة. وعنده ان هذه التغيرات خاصة وهو قول يعجب به لا سيما اذا اعتبرت حالة العلم في زمانه (١)

ولم يكن له عضد في فرنسا الا جفروي سنيلير (١٧٧٢ — ١٨٤٤) وهو من فحول العلماء والطبيين ونظرياته قريبة من تعاليم الطبيعيين الالمانيين. وكانت افكاره في الانواع نظير افكار لامرك منذ نحو سنة ١٧٩٥ الا انه لم يتجاسر ان يجاهر بها حتى سنة ١٨٢٨ وذلك في رسالته — اصل وحدة التركيب العضوي —

على انه جعل اسباب هذا التحول غير ما جعله لامرك وجعل اعتماده على الاحوال

(١) لامرك لم يقصر في فلسفته على هذا الامر فقط بل درس ايضا مسائل اخرى عامة درساً حقيقياً مادياً وجلباً جليلاً لا يختلف عما هو مقرر في العلم اليوم. وهنا بعض فضايا مغلطة من كتابه فلسفة الحيوان

١ التقاسيم المول عليها كالعلاقات والصفات والانواع الخ ليست طبيعية بل اجتهدية

٢ الانواع لم تكن الا شيئاً قديماً ووجودها انسي ونوعها في الارض محدود

٣ اختلاف الاحوال الخارجية يؤثر في تكوين الحيوان وصورة جزئية وكلها

٤ الطبيعة كومت الحيوانات اولاً فاولاً مستمدة من ادائها ومنتهية بالاعلاها

٥ النباتات والحيوانات لا تفرق بينها الا بالحيث

٦ الحياة ليست الا طبيعة

٧ التسليم الجفروي اصل كل حي

٨ لا مبدأ حيوي منفصل

٩ الجهل والعصب موانع الافكار وكل افعال العقل

١٠ الارادة غير حرة

١١ الادراك ليس الا ارتشاه في ادراك الاحتمام

المخالفة ولا سيما الهواء واختلافاته من جهة الحرارة والرطوبة وكمية الحامض الكربونيك فيه الى غير ذلك مما يجب ان يؤثر في تكوين الاجسام الحية وبنائها من تأثيره في التنفس . وهو يعتقد بنظام مشترك لبناء كل الاجسام العضوية

\*\*\*

وبينا كان لامارك يبحث في هذا الموضوع كان في المانيا رجلان يبحثان فيه ايضا وهما الشاعر « غاي » والطبيعي الشهير والفيلسوف معا « اوكن »

فغاي يقترب في نظرياته الفلسفية من جفروي سنيليار وهو ذو مقام في تشرح المقابلة لاكتشاف عظم ما بين الفكين في الانسان والمذهب في الجمعية انها اجزاء فقرات متحولة . وقد نشر سنة ١٧٩٠ كتابه — تحول النبات — وقد بسط فيه بيان ودقة مبادئ مذهب التسلسل فقال ان الورقة اصل في النبات ومنها يتكون باقي الاعضاء ثم رجع بعد حين عن هذا الرأي كما سيأتي الى مذهب لامارك وجفروي اي مذهب الارتقاء التدريجي او التسلسل

اما لورنس اوكن فكان طبيعياً اعظم من غاي — ١٧٧٩ — ١٨٥١ — ولقد تبع في كتابه — فلسفة الطبيعة — نفس الترتيب الذي تبعه لامارك . وهو لم بسط فيه مبادئ مذهب التحول فقط بل مذهب الكريات المهم جداً ايضا . وعنده ان جميع الاجسام الحية ناشئة مما يسمى — العنقة الاولى — « ارشليم » وهي نفس ما نسميه اليوم ( بلاسما او برتوبلازما ) — ومذهبه الشير في الحيوانات الطبيعية التي على موجب رأيه يتركب منها جميع العالم العضوي في الانسان فيه اشارة الى مذهب الكريات الحالي . ومهما يكن في هذين القولين وهما التحول وانكريات من الصحة فالعلم لم يستفد منهما سريعا القائمة المتظرة للاعتقاد فيهما على النظريات الفلسفية العريقة في الابهام . وزد على ذلك ان اوكن كان يضع افكاره في قالب من الكلام هو من الاقطاب وعدم الصراحة بحيث كان يجعل انتشارها صعباً جداً

وفي الجملة فان آراء اوكن في ( فلسفة الطبيعة ) لم يزد شأنها في الثلاثين سنة التي عقبها الا انحطاطاً . حتى انه في الجدل الذي حصل بين جفروي من جهة وكوفيه



وانصاره من جهة. على تحول الانواع في جمعية العلوم بباريس في ٢٢ شباط سنة ١٨٣٠ اضطر علماء المدرسة الفلسفية ان يرتدوا على اعتابهم خاسرين امام خصومهم اذ فاز الاصوليون (الذين ينظرون الى الاشياء من حيث الواقع المنظور فقط) على اصحاب النظر الفلسفي في الطبيعة والفوز المذكور انما كان لنقص الشواهد وليسوء فهم الموجود منها. فلم تقبل آراء جفروى بدعوى انها آراء لا دليل عليها. وصحت الغلبة ولكن الى حين لخصومه الذين اقتصروا على الواقع المنظور. واعتبرت مسألة البحث في اصل الانواع من المسائل التي تعلو على العلوم الطبيعية علواً كبيراً

٥٥٥

وذاع خبر هذا الجدل في كل اوربا. وقد كتب غاني الذي هو كما قلنا قريب جداً بافكاره من جفروى وفلسفته رسالة جلية في هذا المعنى فرغ منها قبل موته بايام قليلة (١٨٣٢). وقد ضمنها شرحاً مستوفياً في صفات كوفيه وجفروى ومذهب كل منهما. ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٦٠ لم يسمع ذكر علم فلسفة الطبيعة لما كان من انتشار خصومه. ففسى العلماء لما فيه من النقص والخطاء ماله من المزايا التي لا تنكر حتى توهموا كما قال هكل ان الفلسفة في الامور الطبيعية لا تتفق مع العلم. وليل نفسه الذي هو اعظم المصلحين في علم الجيولوجية اعتقد ذلك ايضاً وقام ضد لامرك. وهو يذكر في كتابه - قدم الجنس البشري (صفحة ٣٢١) كيف انه في كتابه - مبادئ الجيولوجية - (١٨٣٢) تظاهر ضده. وكثيراً ما يتقدم اليه في كتابه المذكور سائلاً العفو حيث يقول «ان كل ما قدمه لامرك في تحول الانواع صحيح وفي موضع آخر منه ما نصه» «كلنا عرفنا صوراً جديدة اكثر بان عجزنا عن تحديد الانواع» وغير ذلك مما يدل على رجوعه الى افكار لامرك

والغريب ان كليل رغم ان مضاده لمذهب تحول الانواع في كتابه - مبادئ الجيولوجيا - هو الذي مهد له السبيل بتفضير مذهب النكبات العامة المعول عليه قديماً في علم الجيولوجيا. لانه لما بين ليل وحده فساد مذهب النكبات الارضية العامة المفاجئة. وبين مع غريس شدة تأثير التربة والاقليم في الاجسام الحية. لزم ضرورة

أن تشهر آراء لامرئ وجفروى أيضاً ولو كانت على ضد مشرب الطبيعيين و بعض الناس لان معرفة الاحوال في تكوين الارض لا بد أن نتاول تكوين العالم العضوي المنتشر فوقها واستمرار الحال الواحدة يقتضي استمرار الثانية

فعاد العلماء الى البحث في هذه الآراء ولكن واحداً واحداً وعلى سبيل التستر . ودارون يذكر لنا في مقدمته أسماً كثيراً من موافقين على رأيه وفيهم بعض افاضل لاهوتسي الانكليز

•••

وما زال الاعتقاد بوجود علاقة شديدة بين جميع الصور العضوية و بتسلسلها بعضها عن بعض ينحت اذهان بعض الفلاسفة في السر حتى حان لهم أن يجاهرُوا بحقيقته مستندين فيه الى الحوادث المقررة

فاذاغ ويليم هوبرت في سنة ١٨٣٧ ان انواع النبات ليست الا تبانيات مرتقية وكذلك انواع الحيوان . ثم في سنة ١٨٤٤ ظهر في انكلترا كتاب - آناط الحلق - الشهر وقد طبع مراراً والطبعة العاشرة في سنة ١٨٥٣ . بسط فيه مؤلفه وقد اخفى اسمه وجود عاملين يعملان التغيير في الاحياء احدهما احوال الحياة الخارجية . والثاني القوة المتصلة بالجسم الحي . وهي ذاتية مستقرة فيه تدفعه الى الترقى . فمن هذين المبدئين يستنتج المؤلف ان الانواع غير ثابتة

وفي سنة ١٨٤٦ قال احد الفاضل علماء الجيولوجية في البلجيك «دوماليوس دلوى» في رسالة أثبتت في - سجل جمعية بروكسل الملكية - ما معناه ان الانواع الجديدة متكونة بالتسلسل لانها خلق خاص . وذكر انه أبدى هذا الرأي من سنة ١٨٣١

وفي سنة ١٨٥٣ - ١٨٥٨ استنتج هوبرت سينسر احد مشاهير علماء الانكليز مما قرره الاختيار ومن التدرج العمومي المتبع في الطبيعة بعد ان قابل بين مذهبي الخلق والتحول ان الانواع لا بد أن تكون قد تغيرت للتغيرات الحاصلة في الاشياء التي من خارج



وفي سنة ١٨٥٢ قال «نودن» أحد أفاضل نباتي فرنسا ان الطبيعة كوّنت  
الانواع كما تكوّن نحن النباتات

وفي سنة ١٨٥٣ قال أنكوفت «كيرلين» في تفسير ظهور الانواع الجديدة بفعل  
جسم ميازمي قد ينتشر في بعض الاحيان على الارض فربما تقسح الجراثيم التي تولد  
الانواع. ومهما يكن من غرابة هذا الزعم فما هو الا وسيلة لتفسير الشيء تفسيراً طبيعياً  
ثم بعده بستين أي في سنة ١٨٥٥ كما يقول دارون بحث الفاضل «بادن بادل»  
في فلسفة الخلق في كتابه - وحدة العالم - ويؤمن جلياً ان ظهور أنواع جديدة في  
الخلق ليس من العجيب بل بالضد هو شيء قياسي

فدارون اقتنى آثار ليل في علم الجيولوجيا وكلاهما فتحا لنا السبل فهم أعظم  
أعمال الطبيعة

وفي سنة ١٨٥٩ بحث في هذه المسألة اثنان شهران من علماء الانكليز وهما  
الاستاذان هكسلي وهوك في وقت واحد تقريباً مع دارون وذهب فيها مذهبا لا يختلف  
كثيراً عن مذهبه

وهكسلي هو أحد علماء تشرنج المناظرة اشتهر جداً منذ نشر كتابه - منزلة  
الانسان في الطبيعة - قال في خطاب القاء في جمعية لوندرة الملكية ان الاعتقاد بالخلق  
المتعاقب لا يتفق

أولاً مع الواقع

ثانياً مع التوراة

ثالثاً مع ناموس تناسب الطبيعة العام

ثم يبين كيف ان المذهب القائل بان الانواع الحاضرة ناشئة عن أنواع أخرى  
سابقة متحولة هو المذهب الوحيد الذي فيه بعض مستندات فزيولوجية

•••

وبعد ظهور كتاب دارون بقليل ظهرت مقدمة الدكتور هوك - في نباتات  
طسمانيا ( مقاطعة في أستراليا ) - والدكتور المذكور من أفاضل النباتين - وقد يبين

فيما امتاع فهم ظهور الانواع الأ بالتسلسل عن أنواع سابقة متحركة . وهو كدارون يرى ان الطبيعة ميدان حرب يدافع كل شيء فيه عن نفسه ويقتل القوي منه الضعيف ويؤلف نوعاً قائماً بنفسه . والانواع لا تستقر على حال من الاحوال الا مع الزمان الطويل وبعد ملاحظة الصور التي بين بين . وسنعود الى بعض هذه الامور المهمة . أما هوكر فحدث في علم النبات ما أحدثه دارون في علم الحيوان من الانقلاب وعنده ان مذهب استمرار التحول اعظم المذاهب التي جاء بها الطبيعيون

وما عدا الامور العامة الجوهرية في مذهب دارون فان فيه ايضاً اموراً اخرى عرضية مهمة ذكرت في بعض المؤلفات قبل دارون بكثير . فان احد الاطباء المدعو ونس تلا في مجمع لوندرا الملكي في سنة ١٨١٣ رسالة في امرأة بيضاء على جلدها بقع سود ذكر فيها « الانتخاب الطبيعي » حيث قال ان الطبيعة تكون انواع البشر كما يغير الزارعون انواع المواشي . فالسود من البشر يتلون على السموم الميضية اكثر من البيض لذلك نموا اكثر منهم في المناطق الحارة حتى لم يبق فيها سواهم

وفي سنة ١٨٢٠ كان ديكنسل وهو نباتي فرسايي شهير من المؤيدين لمسألة « تنازع البقاء » وعنده ان جميع النباتات دائماً في تنازع بينها وهو يستنتج من ذلك كل ما يترتب عليه

فلم يكن يتخفى والحالة هذه لسبق دارون الا اطلاق ذلك على كل الاحياء كما فعل هو

•••

وكتاب دارون مال اليه اعظم علماء انكثرة كليل وولاس وأورن وغيرهم هذا ما عدا هكيلي وهوكر السابق ذكرهما . ولا يخفى ما اوجب هذا الكتاب من اللغط وفي سنة ١٨٦٠ قام مطران اكسفورد في جمعية من الطبيعيين الانكليز وقال ان هذا التعليم مخالف للدين . فاسكتة الحاضرون مؤيدين دارون وقائلين له دعنا ولا تكن



حجر عثرة في سبيل العلم<sup>(١)</sup>. وفي ألمانيا وفرنسا حصل في اول الامر هياج ضد المذهب المذكور ثم ما لبث ان هجع . واليوم اكثر علماء ألمانيا وفرنسا ولا سيما علماء المدرسة الحديثة متابعون لدارون في تحول الانواع<sup>(٢)</sup>. واعتراض الاصوليين الوحيد على مذهب دارون هو انه افتراض لا يستطاع تبين صحته . ولقد جهل المعارضون ان افتراضهم الخلق واحداً او متعاقباً يستتبع تبين صحته اكثر تناقضاً مع جميع الاشياء . واما مذهب دارون فبالضد من ذلك يفسر جملة ظواهر كانت قبله غير مفهومة - ولقد كفى معروفاً ان امر الخلق الواحد مثلاً يمتنع لان الحيوانات والنباتات الخلقة لا تعيش الا على اجسام اخرى عضوية وكثيراً من النبات لا يعيش الا في ظل نبات آخر - على ان نظر دارون ليس افتراضاً بل اكتشافاً ولا تليل الكلام في ذلك اكثر الآن لانا سنعود اليه فيما يأتي

\*\*\*

وقبل ان نفرغ من تاريخ هذه المسألة اقول اني من جملة الذين تكلموا بمذهب التحول قبل دارون بزمان طويل وفي الطبعة الاولى ١٨٥٥ من كتابي - القوة والمادة - في فصل - التولد الاول - قلت ان تولد انواع جديدة يحصل طبيعياً بالتسلسل والتحول وقد جعلت اسباب ذلك فعل الاحوال المختلفة لسطح الارض من جهة وتغيراً تدريجياً في الجراثيم من جهة اخرى . ولم افصل فعل هذه الاسباب او العوامل كما ينبغي لعدم امكان ذلك حينئذ وما عرت خمس سنوات حتى ظهر كتاب دارون مؤيداً لمذهب التحول

فيري مما تقدم ان مذهب دارون لم يبد فجأة كما قد يظن . بل بعد ان استعدت

(١) من جملة ما قاله هكيلي (لو كان له الخبر في اجنادي من بين فرد قابل للارتقاء ورجل بهراً جهده بالبحث عن الحقيقة لا خفرت الفرد)

(٢) لا خلاف في ان اهم ما كتب في دارون ومذهبه هو كتاب هكيلي -- تكوين الاجسام العضوية العام -- حيث بسط المؤلف عدة مسائل من مذهبه ولا سيما مسألة اول ظهور الاجسام العضوية وقد استعونا كثيراً من هذا الكتاب

القول له كثيراً في انكلترا وفرنسا والمانيا وروسيا انكلترا. وبعد ان عرف اصحاب التحقيق فساد المذهب القديم. الا انه كان يلزم اقامة آخر مقامه وهذا حصل لما ظهر

## مذهب دارون

وهذا المذهب بسيط جداً بنفسه والعجيب فيه ان الطبيعة تولد اشياء عظيمة لعوامل تكاد تكون بالنظر اليها ضعيفة وغير محسوسة بتجميع قواها فقط شيئاً فشيئاً على ممر الدهور والادوار الجيولوجية الطويلة جداً. وهذا المذهب يذكرنا بالمثل السائر - البساطة علامة الحقيقة - على ان جميع الاكتشافات العظيمة والاختراعات والحقائق بسيطة جداً وقرينة الفهم واول شيء يعرض للذين يعلمونها ان يتعجبوا كيف انها لم تعلم قبل

وعنوان كتاب دارون وحده يتضمن كل مذهبه مبدئياً وهذا هو - تولد الانواع بواسطة الانتخاب الطبيعي او بواسطة حفظ الاصول الأكل في تنازع البقاء -

وعندي ان هذا المذهب يقسم الى اربع مسائل جوهرية وان لم يتسمه دارون كذلك ودرسه على هذه الصورة يسهل فهمه جداً وهي :

- (١) تنازع البقاء
  - (٢) تكون التباينات او تغير الافراد
  - (٣) انتقال هذه التغيرات في النسل بالوراثة
  - (٤) انتخاب الطبيعة للتغير من هذه الافراد الذي يكون فيه بعض افضلية وهذا الانتخاب يحصل بواسطة تنازع البقاء
- فهذه العوامل الاربعة اذا اجتمعت وفعلت معاً فتنتجها التي هي استمرار تحويل الاحياء في الطبيعة تكون كأنها ذاتية



وأول هذه العوامل وأهمها هو

### تنازع البقاء

إن الاختبار يعلمنا أن جميع الأفراد من نبات وحيوان مبالغة التكاثر إلى ما يقبل دونه الغذاء وتضييق عنه الأرض . فإن السمك وفار البيش مثلاً لو صحّ نتائجها جميعه وكان الغذاء كافياً لضاقت عنه لحج البحر وتغطت به الأرض وبلغ ارتفاعها بأذرعاً في بضع سنين <sup>(١)</sup> ولو أخذنا أنواعاً تكاثرها قليل كالقيل الذي هو أقلها تناجاً لكان الحال كذلك أيضاً مع الزمان الطويل . فإن اتى الفيل لا تلد حتى تبلغ الثلاثين . ولا تلد من هذا السن إلى التسعين إلا ثلاثة أزواج فقط . ومع ذلك فقد حسبوا أنه إذا أخذ زوج واحد فقط ولم يمترضه ما يمنع تكاثره في مدة ٥٠٠ سنة يبلغ الناتج ١٥ مليوناً من الفيلة . ولو أخذنا كذلك نباتاً لا يعطي سوى جرثومتين في كل سنة ففي عشرين سنة يبلغ عدد ما يعطي مليوناً . وكذلك الإنسان الذي يتكاثر قليلاً ويتضاعف في كل ٢٥ سنة فلو صح جميع نتاجه لضاقت عنه فسيصح الأرض في بضعه آلاف من السنين

ولنا على ذلك أمثلة معتبرة من الأنواع التي تكاثرت كثيراً جداً لعدم وجود موانع كلية تمنع تكاثرها . فإن الخيل والبقر الوحشية التي تسرح سرباً لا يحصى عددها في سهول أميركا الجنوبية الواسعة إنما أصلها عدد قليل أتاها من أوروبا يوم غزوة الإسبانيول . وقد قدر هبلط عدد الخيل الوحشية في سهول بلاتا الواسعة بنحو ثلاثة ملايين . والنباتات والحيوانات التي أدخلت من أوروبا إلى أستراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطي الأرض هناك وفازت على الأصلية منها . ويوجد في بلاد

(١) يقال إن السمكة تبيض في المرة الواحدة من ألف بيضة إلى مائة ألف

الهند الشرقية نباتات ادخلت اليها منذ اكتشاف اميريكاف وقد امتدت من رأس  
كلومون الى جبال حملايا

فهذه الكثرة في النتائج تعرضها اسباب كثيرة منها مزاجية الافراد بعضها لبعض  
من جهة وعدم موافقة الاحوال الخارجة للحياة من جهة اخرى او هو تنازع البقاء .  
وهذا التنازع على حالين فاعلي ومفعولي . ويراد بالفاعلي ما كان بين الاحياء بعضها مع  
بعض . وبالمفعولي ما كان بينها وبين قوى الطبيعة الصامتة . قال دارون ان الطبيعة  
تزرع الجراثيم بيد سخية الا ان الكثير منها لا يبلغ تمام نموه ويهلك ملايين منها على  
الدوام . لان الطبيعة وان جادت بالكثير فقد عانت هذا الكثير بسباب التلاشي والهلاك  
ولدارون في وصف هذا التنازع للبقاء ما نصه : انما اذ نسمع تغريد الطيور في  
الليالي <sup>(١)</sup> الزاهيات ونرى الطبيعة باسمة عن ثمر الصفا والسكون . لا يخطر لنا ببال  
ان جميع هذه السعادة انما هي قائمة على تلاش في الحياة متع ومستمر فان الطيور  
تقتدي من انواع الذباب وبذور النبات . وتسمى ايضا انها هي العدد القليل الباقي من  
بين اخوانها التي سقطت عليها الطيور الجوارح وعشت باعشاشها اعداؤها من كل جنس  
او الملت بها قساوة الفصول والجوع والبرد وغير ذلك

ولا يخفى ان الفائز من الافراد او الانواع او غيرها على ما سواه في معيعة هذا  
التنازع للبقاء هو ما تتميز بها بصفات جسمية او عقلية تحقق له هذا الفوز . وهذه  
الصفات كثيرة جداً . فقد تكون الاقدام . او القوة . او كبر القد . او صفرة . او وسائل  
المحجم . والدفاع . او اللون . او الجمال . او السرعة . او الصبر على الجوع . او حسن

(١) فلهذا اراد بنكر الليالي مثلاً فنصه : والاول ان الاسمان في اول ما عهد من اوقات تغريد  
الطيور كقول امرئ القيس

كان المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونثر القطر  
يميل به برد انبائها اذا غرد الطائر المسفر



الكساء. او الحياة. او حسن التدبير في استحصال القوت. او الحكمة في اتقاء الشر  
الح. ولعموم النوع هي كثرة النتائج ( وان كان فعل انكثرة محدوداً جداً ). ولنبات  
موافقة التربة. او قوة يقوى بها على المؤثرات الخارجية المفسدة. فاننا لو قطعنا العشب المؤلف  
من نباتات مختلفة على مساواة الارض وكررنا ذلك فلا يقوى منه. والحالة هذه على مساواة  
إلا ما كان أكثر موافقة للتربة. وقد رأوا في امتحانات من هذا القبيل ان تسعة انواع من  
عشرين نوعاً هلكت. او لو زرعنا بزوراً مختلفة مخلوطة معاً ثم حصدهاها وزرعنا بزور  
المحصود وهكذا على زمان معلوم. فلا يبقى بعد حين من البزور الاصلية الا القليل  
الاشد والاكثر تلحاً والافق التربة. فلو تنازع نباتان في قفر لما بقي الا اقواهما  
على احمال اليبوسة. ولا يفوز في زمان القحط الا من كان اشد صبراً على الجوع.  
والدبق ينزع ما جاوره من الانواع بحلاوة الفم التي تأكلها الطيور وتفسد بقره  
اكثر من سواه. وبعض انواع الغنم الجبلي اذا وضع بين انواع اخرى اكثر منه  
وفاقاً لاحوال الحياة فانه يهلك. وهكذا العلقة الطية ايضاً. وذو الاجنحة العشائية  
المائي انما يغوص في الماء بسهولة فتكون خاص في رجليه يجعله متميزاً على ما سواه  
من نوعه في القنص والحرب. وبعض الحيوانات يتبدل لونه كالجمل الابيض والذئب  
الابيض اللذين يتلنان في الجهات القطبية المغطاة بالثلج على الدوام. وكذلك الذباب  
الاخضر الذي يعيش على اوراق النبات. وبعضها يغير فروه الذي يتبدل اذا اقبل  
الشتاء وبعضها سرعته في الحرب او شدته في القتال. ولذا امثلة غريبة من هذا  
القبيل كاقتراض الفار الاسود الانكليزي تحت اتياب الفار الرمادي المنوفري الذي  
قيلع المانش على مراكب غوليم دورانج. ولم يكن في مدينة سان فرانسيسكو في  
كليفورنيا سابقاً غير الفار الابيض الا انه اقترض امام الفار الاسود الذي جاء  
اليها بالمراكب الاوروبية وقد تكاثر فيها حتى بلغ ثمن القط خمسين ريالاً. واقترض  
نوع من الخطاطيف في امريكا لنوع آخر منها. وكانت نتيجة سرعة انتشار دج الدبق  
في انكثرة اقتراض الدج المفرد منها. وهذا التنازع في الوجود يطلق ايضاً على

الانسان ومن هذا القبيل ما هو معروف في التاريخ من اقتراض اهل امريكا واستراليا  
المتوحشين لدخول اهل اوربا بينهم

ولا يبلغ التنازع معظمه الا بين الانواع الاقرب بعضها الى بعض لاشتراكها  
في التنازع عليه . ويقل كما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد . وكما كانت  
الصورة قديمة كانت اضعف عن مقاومة خصومها الاحداث لانحاذ الاحداث في التنازع  
صوراً انفس للتغيرات الحاصلة في احوال الحياة نجعلها اقوى . وكل صورة غلبت  
لا تعود ابداً اذ لا تعود قادرة على الثبات في التنازع . ويتضح لنا كل ذلك على نوع  
عجيب في استراليا او هولاندة الجديدة . فان هذا القسم من العالم المنعزل جغرافياً  
عن كل منازعة لم تزل حيواناته ونباتاته متأخرة تشبه احافيرنا المتكونة منذ زمان  
طويل . واعلى حيواناته رتبة ذو الجراب الذي عاش في اوربا في الدور الثاني وتلاشى  
تغلب انواع اخرى عليه اقوى واكمل . وانما بقي مثل هذا الحيوان في استراليا الى  
يومنا هذا ولم يتلاش لعدم وجود منازع له شديد البأس . ولكن من يوم دخلها  
الانكبيز اخذ كل ما فيها بالتلاشي حتى كاد يزول لعدم صبره على منازعة ما ادخلوه  
معهم . ولم يسمع قط ضد ذلك أي انه لم يسمع ان موجودات استراليا امكنها ان  
تأصل في اوربا

فاذا امتنع تكاثر الجانب العظيم من الحيوانات بسبب الجوارح منها فالجوارح  
نفسها يتنوع تكاثرها أيضاً لقلة القوت الذي يقيم من نفسه جداً لنمو الحيوان لا يتعدى .  
وزد على ذلك أيضاً تأثير الاقليم والبرد والحر فقد ذكر داروين ان خمس الطير هلك في  
بعض أماكن في انكلترا بسبب البرد القارس الذي حصل سنة ١٨٥٤ - ١٨٥٥ . وما  
بقي منه انما هو الاقوى والاكثر رشاً والشعور اكثر على طبيعة الاقليم . كما ان الذي  
يفوز باستحصال القوت في زمان القحط على مذهب داروين انما هو الشديد وصاحب  
الحيلة . ومن المعلوم ان التنازع مع الكواسر الطبيعية ولا سيما البرد يشتد كلما صعدنا نحو



الشمال الا انه يكاد يتلاشى حيث تغلب القواصر المذكورة لفرط شدتها . على ان تأثير الاقليم في نوع ما قد لا يظهر الا اذا كان مع تنازع انواع اخرى . فان في حدائقنا نباتات كثيرة متحملة الاقليم جيداً ولو تركت ونفسها خارج الحدائق بعيدة عن اعتناء الانسان لما استطاعت ان تثبت لمنازعة اقربائها والحيوانات لها . ويكاد شجر القفطان في اوكسيا من اعمال انكلترا يتلاشى للضرر الذي يلحقه من ابقارها فاتها ترعاه وهو صغير . ولكي يتنامى فيها لا بد من ان يتداركه الانسان بما يصونه من مثل هذا الضرر وقد يتوقف نجاحه في بعض البلدان على عدم وجود ذباب لو وجد لأضر به كثيراً ولقد علم ان البقر والحيل والكلاب في بلاد باراجي لا تنتقل الى الحالة الوحشية كما هو الغالب في باقي اميريكا الجنوبية لذباب مخجج يكثر فيها ويقتل صغارها باللقاء يضر في سراتها . فلو انتشر فيها بعض انواع الطير الاكل الذباب لقل ذبابها وكثرت بقرها وخيلها الوحشية أيضاً ولحصل تغير عظيم في نباتاتها التي تلقنت منها . ولأثر ذلك في احوال طيورها أيضاً وتداعت سائر احوالها الى حصول عدة تغيرات فيها ولموازنة بينها

فهذا الشاهد يرينا ما يفعله التنازع للبقاء في ظواهر الوجود من اختلاط الاعمال لما بينها من الارتباط الشديد . ولقد دقق دارون جداً في البحث عن هذا الارتباط وبلغ فيه نتيجة عظيمة . من ذلك ما فسر به تلقيح كثير من النباتات بالذباب الذي يردد عليها ( كالنحل والزناير وغيرها ) حاملاً البُيَاض<sup>(١)</sup> من زهرة الى اخرى ولولاه لما تلقحت النباتات المذكورة . وعدد الزناير يتوقف على عدد فار اليبش الذي يخرب اوكلها . وعدد فار اليبش متوقف على عدد القطاط واليوم التي تفرسه وهكذا . بحيث ان وجود حيوان جارح في مكان يؤثر في نباتات ذلك المكان . ولنا شاهد ايضاً في ما هو معلوم من دودة تظهر في شجر القفطان ثم تختفي لاختفائه واسمها ( ننا ) . فحينما كانت الدودة المذكورة كثر « الاكمن » جداً وهو حيوان يضع بيضه في

(١) غار في اعضاء ذكور النبات وهو اسم المذبح النبات

جسدها فتموت فإذا اقفر الغاب ماتت «التسا» لتقد قوتها «اخفتي» الاكمن» كأن  
لم يكن شيء من ذلك كله

وهناك أيضاً شاهد ثالث مأخوذ من جزيرة القديسة هيلانة فان هذه الجزيرة  
كانت في القرن السادس عشر يغطيها غاب كثيف فلما ادخل اهل اوربا المعز  
والخنازير اليها رعت الفروع الصغيرة فتعرت الارض في ظرف قرنين فطراً على حيواناتها  
تغيرات جسيمة . ويلتقي في تربتها آثار حيوانات رخوة ارضية وهي نوع كان موجوداً  
في القديم وقد انقرض اليوم ولم يكن يوجد الا في هذه الجزيرة

•••

فهذه الشواهد تكفي . وهي تبين ان كل جسم حي مرتبط في تكوينه وصفاته  
الخاصة ارتباطاً شديداً ولو انه خفي غالباً بغيره من الاجسام الحية التي تنازعه في قوته  
ومسكنه وغير ذلك . وهذا الامر ظاهر جيداً كما قال دارون بانياب النمر والظفار كما  
هو ظاهر بمخالب الذباب الذي يتعلق بشعوره

وقد لاحظ هكل في كتابه المذكور سابقاً على دارون انه ذكر امثالا فاسدة  
بجانب امثال صحيحة . وعنده (أي هكل) أن تنازع البقاء بحيث يعلم الواحد  
الآخر لا يكون الا بين الاجسام الحية فقط . وأما بينها وبين الضرورة فلا تكون  
ذاتة اعدام الحي بل توفيقه لها كما اشرنا الى ذلك فيما تقدم بقسمنا التنازع الى  
فاعلي ومفعولي

فهذا ما نيسطه في ما يخص تنازع البقاء الذي هو في الحياة الادبية أيضاً كما هو  
في الحياة الطبيعية . وبقي علينا اثمة الموضوع أن نبسط الكلام على الاقسام الثلاثة  
الباقية . وهي تكون التباينات . ثم انتقال هذه التباينات بالوراثة . وأخيراً انتخاب  
الطبيعة لما هو اكثر صلاحية . فالاول وهو

•••



## تكوّن النباتات

مبنى على القاعدة المنحصلة من الاختبار والتي وضعها دارون. وعلى ان الاجسام  
 الحية مالة الى التغير على اوجه مختلفة وإلى حد محدود. أي انها تنحرف عن الأصل  
 الصادرة عنه بعض صفات خصوصية اما في السحنة أو اللون أو الكساء أو القوام  
 القوة أو تكوين بعض الاعضاء. فلا تشبه الابناء الآباء شيهاً تاماً مطلقاً. ولا يجتمع  
 اثنان مع كثرة الاجسام العضوية على شبه واحد حتى ولا ورقتان على شجرة واحدة.  
 بل يوجد دائماً اختلاف ولو مهما كان قليلاً. فالتحول الى حد محدود هو اذاً ناموس  
 عام يطلق على جميع الاحياء. ولا يقال (ان الحي يلد حياً نظيرة). ولا يصح ان يقال  
 أيضاً انه (يلد حياً مختلفاً عنه). لان الوراثية ليست راسخة كما انها غير متخلقة. فلو  
 كانت راسخة لاقتضى أن يبقى العالم العضوي واحداً في جميع الادوار وفي سائر  
 الاحوال. وذلك بخلاف الواقع لما يعلم من اختلاف الاحياء العظيم في الادوار  
 البيولوجية. ولو كانت متخلقة لاقتضى أن يحصل في الصور العضوية شذوذ بشرد بها  
 ولا يرث الى قياس وهو ليس كذلك أيضاً. والصحيح أن يقال ان (كل حي يلد حياً  
 شبيهاً به). وعلى هذه القاعدة يشبه الابن أبويه بالصفات الجوهرية ولا يشبههما  
 أبداً بكل الصفات ولو ان الاختلاف جزئي غير محسوس. ويشهد هذا الاختلاف كما  
 كانت سلسلة التسلسل أطول فان النباتات والاشجار النسيجية أكثر شبيهاً باصلها من  
 النباتات البززية. والاشجار المثمرة المقطعة لا تثبت كذلك الا اذا زرعت بالنسيجة  
 ورجع الى اصلها البري اذا زرعت بالبززية. على ان الاختلاف بين الابناء والآباء هو  
 غالباً جزئي جداً بحيث ينفى على غير المحقق. فان قطع الغنم قد يظهر للبعض ان كل  
 واحد منه نظير الآخر وأما الراعي فيعرف كل فرد منه بعلامة خصوصية. وهكذا  
 كل زوج في سرب من الطير فانه يعرف بعضه ويتجمع به بسهولة

فهذا الميل في الاحياء الى التغير نتيجة تكوين التباينات . ولا يخفى ماله من الاهمية في صناعة تحسين الحيوانات الالهية والامار والازهار سواء كان ذلك بتوليد تباينات جديدة بالصلب أو بشتيتها بعد توليدها

وهذا على رأي دارون أصل الانواع فانها حاصلة عن انحصار بعض الصفات في بعض الأفراد وانتقالها في النسل بالوراثة وثبوتها فيه مع الزمان الطويل . فالتباينات على رأيه أنواع في حالة النشأة والانواع تباينات واضحة جيداً وثابتة

وربما لم يظهر الانتخاب الطبيعي واضحاً حتى يتوعم الضد كما في الاماكن التي لا تغير فيها أحوال الحياة الخارجية كالأقليم والتربة والقوت والهواء وأقسام اليابسة والمياه . أو تتغير قليلاً جداً مثل بلاد مصر فانها لموقعها الجغرافي لم يعرض لها منذ ألاف من السنين أدنى تغير يعتد به لا في أقليمها ولا في مائرها أحوالها الخصوصية فلم تتغير نباتاتها ولا حيواناتها ولا اناسها . وأما في الاماكن المتغيرة أحوالها فبالضد من ذلك يكون الانتخاب الطبيعي ظاهراً واضحاً جداً

•••

ولا يسع خصوم دارون أن ينكروا ميل الاحياء الى الاختلاف وتكوين التباينات لما هو واضح ومسلم به عموماً . ألا أنهم يزعمون أنه لا يتناول إلا الاعراض فقط كاللون والجلد والقدر وغير ذلك ولا يصل تأثيره الى جوهر التكوين . وقد بين دارون بطلان زعمهم هذا وأثبت ان الميل المذكور يصل الى الجوهر أيضاً . قال ان الفرق بين النوع والتباين يتمتع تبيينه علمياً والاختلاف بين العلماء من هذا القبيل كبير وليس لهم فيه تعريف مقبول والذي أوقعهم في هذا الارتباك اعتبارهم النتائج حداً يفصل بين النوع

ولا تمر ستة الأضع العلماء أنواعاً جديدة وكل منهم يميزها على هواه فقد ذكر دارون ان النباتي الانكليزي وستن يذكر ١٨٢ نباتاً انكليزياً عدها غيره أنواعاً مع انها تباينات . وقد قال هو كذا في هذا المعنى ما نصه « ان التباينين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النبات . فالنوع اذاً غير محدود . واذا كنا لا نستطيع



أن تحقق انتقال الانواع بانفسنا فلا نحصرنا في دائرة من الاختبار ضيقة جداً « وما  
 قيل عن النبات يقال أيضاً عن الحيوان . فأن فيه أصولاً كثيرة بعدها بعضهم تباينات  
 وبعضهم أنواعاً . وقد قال جليل أستاذ الحيوان وقد بين لخصومه بطلان اعتقادهم في  
 النوع — انهم كثيراً ما يعتمدون في تمييز الانواع على اختلافات هي فيها أقل منها في فروع  
 الجنس البشري . وقال هكل انه في صناعة تصنيف النبات والحيوان كثيراً ما يحصل  
 على اختلافات أهم من الاختلافات الطبيعية التي يعتبرها بعض الطبيعيين كافية لتقرير  
 النوع والجنس أيضاً . والاستاذ برن مترجم دارون يقول أيضاً « ان القول بالانواع لا  
 أساس له وليس ما يسوغه في طبيعة الاشياء » ولأمر معلوم انه كلما كان الطبيعي واسع  
 الاطلاع في فقه أشكال عليه تمييز الانواع لزيادة علمه بالتباينات والصور التي بين  
 وعليه فكما اتسع العلم قل التصديق بالتنوع وهذا مما يدل على ان القول به لا أساس  
 له الا في عقل الانسان

وأصحاب المذهب القديم قلما يعتبرون قيمة التباينات . بل بالضد يكرهونها لانها  
 توقيهم في الارتباك من حيث الترتيب . وأما عند دارون ومن تابعه فهي ثمينة جداً  
 لانها اصل الانواع الجديدة . وقد تغيرت طرق الترتيب منذ قيام مذهب دارون وصار  
 يعتنى كثيراً بالتباينات التي كان يهمل أمرها سابقاً لعدم الطابقها على القاعدة المعول  
 عليها عندهم . وقد ذكر ليل في هذا المعنى في كتاب ( قدم الجنس البشري ) ان أحد  
 تجار الاصداغ في لوندرة المتعق جداً في العلوم الطبيعية قال له ذات يوم انه لا يخشى  
 شيئاً يقل قيمة مجموعاته مثل ظهور رسالة في وصف بعض الحيوانات الرخوة الكبيرة وصفاً  
 جيداً لان كل نوع يدخل في صف التباينات لا يعود له مشتر . غير ان ليل يقول أيضاً  
 « ولكن منذ ذلك الزمن زادت قيمة الحقائق العلمية جداً في أنكثرا حتى كثر الطلب  
 على الصور التي تصل بين الصور المنفصلة بعضها عن بعض انفصلاً كبيراً وأصبحت  
 قيمتها أثنى من الصور الأصلية »

على انه لا ينبغي الاستنتاج مما تقدم ان كل تباين يصير نوعاً وان وافقته

الاحوال كلاً . فان تباينات كثيرة تلاحظ في النصاب أو الانتخاب الطبيعي . ويزعم  
 هكل ان الانواع كلها غير متساوية في قابليتها للتغير فبعضها متغير جداً وبعضها  
 ثابت وبعضها متغير الى حد محدود . وسبب هذا الاختلاف على رايه احوال الحياة  
 الخارجية وكثرة انتشار النوع أو قلته وما شا كل ذلك . وعنده ان النوع البشري  
 أكثر الانواع وفقاً للاحوال

..

فهذا ما نبسطه بشأن ما للحياة من الميل الى التغير . على ان ذلك لا قيمة له في  
 مذهب دارون الا بالوراثة التي تنقل الصفات الميزة للانواع في النسل . وأعلم انها أي  
 الوراثة تنقل الامراض كما تنقل عيوب التكوين مثل زيادة عدد الاصابع والاعطاش  
 ومثل الجهر وتشقق الجلد ولادية كانت كما تقدم أو عارضة كالعيوب الحاصلة عن  
 آفات طارئة . وكما انها تنقل الصفات الجسدية تنقل الصفات الادوية كذلك أيضاً .  
 كالشهوات . والاميال . والعوائد . والاخلاق . والعقل الى غير ذلك . ومن عجيب أمرها  
 انها كثيراً ما تقطع الاجيال كلمة وتظهر في الاولاد بعد ذلك . وهذا الامر يسمى  
 عندهم ( الانافيسم ) ومعناه الرجوع الى الجد ونصطلح عليه بالدور الوراثي أو الرجعة  
 ولا فرق بين أن يكون من جهة الأب أو الام . والانتقال الوراثي كان معروفاً قبل  
 دارون لكن ليس كما ينبغي لفهم ما يترتب عليه . فكان اذا ذكر منه شيء يذكر على  
 سبيل الغرابة . وأما اليوم فهو من أعظم الامور التي يعتمد عليها في تاريخ ارتقاء العالم  
 العضوي وارتقاء الجنس البشري . على ان الاطباء منذ القديم قد انتبهوا الى الوراثة  
 المرضية وعرفوا ان غالب الامراض المزمنة قد يصير وراثياً ويكن في الجسد ولا يظهر  
 حتى سن معلوم كالسل الذي ينشأ مع سن البلوغ . وعرفوا أيضاً انتقال الامراض  
 المكتسبة . ولم يجهلوا امر الدور الوراثي الذي تقرب الاولاد بموجبه من اجدادهم  
 بالاميال والعوائد والاخلاق والاستعدادات المرضية وصفات أخرى جسدية . قال  
 فيرخو منذ نحو ١٠ أو ١٥ سنة في ذلك ما معناه : ان بدن الاب وبدن الام يكسبان  
 مادة الجرثومة ومن ثم الولد الصادر عنها حركة مادية ذات طبيعة خصوصية لا تسكن



حتى الموت . وقد عرف أيضاً ما سيكون لهذه المسألة من الاهمية حيث قال انها ستكون  
اصح ما تبني عليه فلسفة الطبيعة . ولقد اصاب لانه بالوراثه يتوصل الى التعليل طبيعياً  
عن ظواهر كثيرة سواء كان ذلك في حياة الافراد الجسدية أو العقلية أو حياة الشعوب  
أيضاً . مما كان يعتمد في تعليله عنه سابقاً الى قوى ما فوق الطبيعة أو ينسب الى استعداد  
في الاحياء لا يدرك . فالانسان كما هو الآن وكل ما يملكه ليس الا نتيجة عمل  
شاق وبطي لم يقتر ابدأ على مر الدهور الطويلة وقائم على انتقال الصفات في الاجيال  
المديدة بالوراثه . سواء كانت هذه الصفات حسية أو معنوية ولادية أو مكتسبة  
ليس الا

فالوراثه مهمة جداً في مذهب انتقال الانواع قال دارون في هذا المعنى ما نصه  
« اذا كان من المقرر ان الاختلافات حتى اكثرها شذوذا والتي لا تنطبق على جنس  
معلوم كتقص بعض الاصابع والافطار أو زيادتها وكالحرس ونشق الجلد وغيرها تنتقل  
في النسل بمجرى . فكم بالحري ينبغي أن يكون كذلك في الاختلافات العارضة التي  
يصح عليها جلياً ناموس الوراثة الشامل لكل الصفات الفردية » على انه يقترب من  
نواميس الوراثة الخاصة لا تزال مجهولة كلياً وعلى المستقبل ان يرفع الحجاب عن  
مكنوناتها (١)

- (١) بسط الاستاذ مكي الكلام في نواميس الوراثة المشار اليها كما يلي قال  
(١) ان الانتقال يكون اشد كلما كانت الفروع المنفصل اعظم وهو في النبات القسبي يظهر منه في  
النبات البري  
(ب) كل جسم يكتب نسبه فضلاً عن صفاته للوراثه بعض صفاته المكتسبة في حياته الخصوصية  
بحيث ان الانتقال يكون على نوعين محافظ ومتكامل  
(ت) ان ظهور الجيل ليس الا خلافاً من اعمال الدور الوراثي شديداً جداً  
(ث) المذكور يشبهون الاب والامات يشبهون الام غالباً  
(ج) الغيوب العارضة (كترجع الفروع وقطع الاذنان) قد تصور وراثية  
(ح) الصفات المكتسبة بكون انتقالها سهل وانبت كلما طالت تكرارها في الاجيال كما في تربية  
الاناث والحسين الازهار  
(خ) بوجه انموذج انتقال وراثي خاص بادوار الحياة أي انه لا يظهر الا في سن معلوم من العمر وهذا  
يكون في الامراض خاصة

وقد وصلنا الآن الى آخر قضية من مذهب دارون واحمها وهي

### الانتخاب الطبيعي

ويسميه « برن » التحسين الطبيعي أيضاً . ولا يكون الا اذا كان للاختلافات الحاصلة في الفرد معنى في تنازع البقاء . فان الاختلافات الفردية تكون ضرورة على احدي ثلاث حالات : اما نافعة للمنازع . او مضره له . او لا نافعة ولا مضره . ففي الحالة الاخيرة لا يكون لها معنى فيقاوها وعدمه على حد سوى . وكذلك أيضاً اذا كانت مضره لان الاختلاف الذي يحصل والحالة هذه تكون تسببه أحد أمرين : أما ملاشاة الفرد . وأما ملاشاة الصفة . وتختلف تسبته اذا كان نافعا فيمتاز الفرد به على اخوانه وخسومه في تنازع البقاء . وينتقل هذا الامتياز الى نسله وينمو فيه على مرور الاجيال . وهذا الامتياز في تنازع البقاء لا يحصل الا بعد جهد جهيد . فلكي يولف الفرد به نوعاً جديداً لا يكفي امتياز به مرة واحدة بل يلزم لذلك أحياناً مائة جيل أو الف جيل أو عشرة آلاف جيل . وهذا الامر يعتبر جداً في مذهب دارون فان الزمان في تاريخ الارض ومكوناتها له المقام الاول وانما لئلا الذعر اذا افكرنا في عدد السنين الذي اقتضاه تعاقب الادوار الجيولوجية فوجودنا بالنظر الى ذلك لا يكاد بحسب لحظة

فدارون في علم الحياة اقتنى آثار ليل في علم الجيولوجية وكلاهما فتحا لنا السبيل لفهم اعظم اعمال الطبيعة القائمة على اسباب او قوى ظاهرها ضعيف وقليل الاهمية الا انها ذات فعل وان كان بطيئاً فانه يتجمع مع الزمان الطويل ويأتي بكل ما نرى

فالانتخاب الطبيعي اساس مذهب دارون ولكي يفهم معناه كما ينبغي لا بد من معرفة الاسباب التي دعت الى القول به . فهو انما توصل اليه بدرس علم تحسين الحيوانات



والنباتات الالهية الصناعي . وهذا العلم كما لا يخفى قد بلغ مبلغاً عظيماً يتأمله العجبة  
ولا سيما في انكثرتا وطن دارون حيث يوجد اناس متفرغون لذلك . وقد أجرى دارون  
نفسه امتحانات كثيرة من هذا القبيل . ولكي يتأكد بالبيان فعل هذه الصناعة  
المنحرفة في جمعتهن في لوندرا تشغلان بترية الحمام . فتحقق بنفسه ان النباتات  
الكثيرة للحمام انما اصلها كلها البام أي الحمام البري لانها قد تحتوي بعض الصفات الخاصة  
به والدالة على اصلها . وربما اشتبه بها انما أنواع لشدة الاختلاف بينها فانه لا يقتصر فيها  
على الصفات الظاهرة فقط بل يتناول ايضاً تكوين الهيكل والبيضة واسر الطيران وغير  
ذلك . قال دارون « اني ما كنت اظن قبل زيارتي الحمام ان كل هذه النباتات يجوز  
ان يكون مصدرها صورة واحدة »

وعلى رأي دارون ان الانسان قد بلغ الغاية القصوى في التحسين الصناعي لانه  
يستطيع ان يجمع في اصل واحد اقل الاختلافات الفردية بواسطة الانتخاب الصناعي .  
وميل الصور الى التغير او الانحراف عن الصورة الاصلية يتضح جلياً في الاحياء  
الواقعة تحت فعل التربية اكثر من الواقعة تحت فعل الطبيعة . لكثرة اختلافات  
احوال الحياة في الحالة الاولى وشدة تأثيرها . كحسن السكن وغزارة الثوب . على ان  
هذه القابلية أي - الميل الى التغير - لا تفقد ابداً . فان اقدم نباتاتنا الالهية كالقمح  
لا يزال يعطي ثباتات حتى يومنا - ومبدأ التحسين الصناعي قد كان معروفاً منذ القديم  
وكان الرومانيون القدماء والصينيون وغيرهم يعنون به . ويظهر انه معروف ايضاً عند  
شعوب افريقيا المتوحشين . على ان كل انسان يربي حيوانات ونباتات يستخدمه ولا  
يسري . لانه يختار دائماً التربية احسن الحيوانات والنباتات ككلاب الصيد وحياد  
الحيل وغيرها . والحق انهم الذين يعملون ذلك كثيراً يستعملونه على غير علم  
نهم بحقيقته كما في زمان الصطفاةم لا يتقنون الا افضل الحيوانات اللازمة ويقتلون  
ما سواها او يغير كونه وشأنه بلا عناية

واذا كان علم تربية الحيوان قد تقدم كثيراً في انكثرتا فلا عتاه اصحاب الحيوانات

من ذوي الثروة فيها به. فانهم لا متلاكهم عدداً وافراً منها كل واحد منهم اذا وجد احد  
افراد القطيع مميّزاً ببعض صفات حسنة يريه ويعتني به حتى يحسن به كل القطيع  
رويداً ورويداً. وهكذا توصل اهل انكاثرا الى تحسين حيواناتهم الاهلية بحيث  
صارت بقرهم المختارة للذبح ذات بطن ضخم وسفان نحيفة ورأس صغير لا قرون لها.  
وصار لحم خنزير (الجامين) ولشحم ويسمى عندهم المتي دماً. وغنم للصوف وديوك  
وكلاب «بلدج» للقتال. وحمام لحسن المنظر. وخيل لحسن الصورة. واخرى للسباق.  
وهذه الاخيرة المولدة من جياذ خيلهم وخيل العرب تفوق جداً الاصل المولدة منه.  
وقد توصل الانسان في تربية الازهار والاعمار والخضر بواسطة التحسين الصناعي الى  
نتائج عجيبة جداً كالخندر الذي هو في اصله البري يابس وقاس فانه اكتسب  
بالترية طعمه المعروف. وكل الاعمار اللذيذة نتيجة اعتناء الانسان بها واتخاذها  
لافضلها على مدة طويلة من السنين. وقد لا يكفي الانتخاب الصناعي وحده فيقرن  
بالصالب بين الفروع للحصول على فرع جامع فيه كل الصفات الحسنة في غيره. على  
ان الانتخاب وحده اذا اعتني به كما ينبغي فانه قد يعطي نتائج اغرب جداً من ذلك  
ومثاله غنم (اطر) في اميركا ولم يذكره دارون مع انه من اعظم الامثلة على ما يستطيع  
المرء ان ياله بالترية فقد وجد في (مصاشتنس) خروف بدنه طويل جداً  
وساقاه الامامتان قصيرتان فاستحسن فيه هذا التكوين لانه لا يستطيع معه ان يقفز  
من فوق سور الحظيرة فاعتنى بتربيته حتى انتشر على قسم كبير من اميركا الشمالية حيث  
بقي خمسين سنة. ثم جاء غنم اسباني اسمه (مورينوس) او مور فازاحه لان صوفه  
اكثر من صوفه واجود منه. وقد ذكر «عذارا» مثالا كذلك في باراجي حيث قال  
انه ولد سنة ١٧٧٠ نور بلا قرون فاستحسنه المربون فربوه ولم يزل حتى اليوم بقر  
باراجي البلدية عديمة القرون على شهادة «رُل»

فيري من هذه الامثلة كم هي متنوعة طرق التحسين الصناعي ودارون يقول  
بالاستناد الى ذلك ما معناه: — «كما ان الانسان في طاقته ان يحسن الفروع صناعياً



بانتخابه الافراد التي يكون فيها بعض الصفات الموافقة لغاية ما نهم شئها اما بالتصالب  
واما باستمرار تحسينها بعد الولادة . هكذا تفعل الطبيعة ايضاً فانها تجمع التغيرات  
النافعة للفرد وتنقلها في نسله من جيل الى جيل . والفرق الوحيد بين عمل الانسان  
والطبيعة هو ان الانسان يعمل عن علم بالشيء ولذلك كان عمله يتم في زمن بالنسبة  
الى الطبيعة قصير واما الطبيعة فيلزم لنجاحها زمان اطول من ذلك بكثير . ويقول  
( اي دارون ) ايضاً انه اذا كان الانسان يحصل على مثل ذلك في الانتخاب فكم  
يجب ان يكون هذا الامر اعظم في الطبيعة التي لا تنتخب لمصلحتها كما يفعل الانسان  
بل لمصلحة المنتخب نفسه والتي تشتغل بلباقة اكثر وقوة اعظم منه لذلك فانها لا  
تغير لحظة واحدة عن جعل اقل التغيرات في الاحياء ممكنة فان كانت جيدة حسنتها  
والأ لا شئها . ولهذا السبب كانت الالوان التي تقي بعض الحيوانات من مطاردة اعدائها  
لها . وكان رأس منقار صغار الطير الرخص الذي تشق به قشرة البيضة التي تكون  
ضمنها . ولون ناقر الخشب الذي يتسلق الاشجار ويتش على الذباب تحت القشر  
وتكوين مخالبه ومنقاره وذنبه ولسانه مناسبة ذلك الجنس معيشته . ولهذا السبب  
عنه كانت قوائم المعزى السريعة العدو . وبصر الجوارح الحاد وسلاحها القوي .  
وله ايضاً ولاتنخاب يسمى جنسياً قرن الابل القوي وعرف الديك <sup>(١)</sup> وكذلك ايضاً  
طول عنق الزرافة التي ترعى افايق الاشجار العالية وهذا المثال ذكر في انكلام على  
مذهب لامارك . واذا ذكرناه هنا فلا بد لنا من ان نبين وجه الفرق فيه بين مذهب  
لامارك ومذهب دارون

(١) الانتخاب الجنسي يراد به تنازع الذكور للحصول على الاناث وبالعكس وهو على رأي هكل ذو  
اهلية في تعبير الاجسام المجهة التي هي اعظم منها على رأي دارون ولا يقتصر على الذكور فقط بل تناول  
الاناث ايضاً ففترة الاسد وغيب الثور وقرن الابل واناث الخنزير وعرف الديك الخ كل ذلك عند هكل  
امتيازات حاصلة عن الانتخاب الجنسي . وكذلك الالوان المجهلة في ذكور بعض الطيور وانواع الفراش  
والاصوات المجهلة ايضاً . لان الاناث تفضل ما كان منها حلوياً مثل هذه الصفات وهو ( اي هكل ) يؤكد  
انه يقتصر بين الطيور ذات الاصوات المجهلة تنازع في ايجاد الثغريد الحصول على الاناث ويؤكد ايضاً  
ان هذا الانتخاب المعقول معول عليه كثيراً في الانسان وانه احد اسباب ارتفاعه الجوعرية

قد تقدم ان لامرئ يجعل سبب هذا الطول في عنق الزرافة الضرورة او العادة التي تضطرها للتناول الى الاشجار العالية. وأما دارون فيختلف عنه في التعليل عن سببه حيث يقول - ان الزرافة الخالية آتية من اصل اصغر منها وهذا الاصل قد انقرض منذ زمان طويل فلم يكن عنقها في الاصل طويلاً كما هو اليوم ولا باقي اعضائها نامياً كذلك ( بناء على ان الاعضاء متناسبة في الجسم الحي ) وبقيت على هذه الحالة زماناً ربما كان مائة سنة او الف سنة او اكثر او اقل بدون تغير جوهري فيها لعدم تغير احوال حياتها حتى حصل ينس شديد ماتت به كل الاشجار الا أشدها أي اعلاها فماتت كل الزرافات الصغيرة التي في عنقها قصر بحول بينها وبين الحصول على قوتها . وبقيت الكبيرة الطويلة الاعناق وانتقل ذلك في نسلها الى اولادها . وبقيت هكذا حتى اصابتها ايضاً ما اصابتها في المرة الاولى فماتت قصارها وبقيت طوالها وهكذا وما زال هذا الامر يتكرر فيها حتى بلغ بها في الادوار الطويلة والاجيال العديدة الى ما هي عليه اليوم . ولعلم ان مثل هذه التحولات يتم بمساعدة قوة شديدة يسميها دارون - النمو المشترك ويراد به ان اعضاء جسم حي ذات نسبة بينها ثابتة لا تتغير بحيث لو تغير عضو لرافته تغير ايضاً مناسب له في سائر الاعضاء . فقد شوهد ان طول القوائم يكون مع طول العنق . وان الحمام القصير المنقار وجلاذه قصيرات ايضاً . وان القطا التي عيونها زرق هي عادة صماء . وان الكلاب العديمة الشعر اسنانها ناقصة الخ

وقس على ذلك باقي امثلة لامرئ . على انه لا ينبغي ان يظن من ذلك ان دارون ينكر تأثير الاسباب التي يذكرها لامرئ . كلا بل بالضد يعترف بتأثيرها ويضعها في مقام رفيع بجانب الانتخاب الذي يعمد في المقام الاول . والاسباب المذكورة هي كما تقدم العادة والاستعمال والضرورة . ومن الامثلة التي يذكرها دارون يعلم ما لهذه الاسباب عنده من القيمة في امر التغيرات الحادثة . فلاجليها كانت عظام رجلي البط الاهلي اقوى وعظام جناحيه اضعف من البط البري . وكذلك البقر والمعزى التي تحلب دائماً فان حلماتها تصير كبيرة . واكثر الحيوانات الاهلية آذانها مرتخية لقلة لزوم



استعمالها بخلاف الوحشية فانها شديدة فيها. وكل الطيور من طائفة النعام اجنحتها ضامرة لانها لا تطير. والخنزير لقيامه دائماً تحت الارض هو في غنى عن العينين ولذلك هما الترفيه وغير ذلك كثير

\* \*

وهو يعرف دارون ايضاً بتأثير الاحوال الخارجية للحياة التي يعتبرها كثيراً جفوى سنبلير (كلاقليم والتربة والنبات والتور والهواء وأقسام اليابسة والمياه الخ) (الأنف) يجعلها دون الانتخاب الطبيعي. فان تأثير الاشياء الخارجية وتغيراتها الدائمة على سطح الارض (المتغير على الدوام) كل ذلك مهم جداً. حتى ظن كثير من العلماء انه يكفي وحده لتعليل عن التغيرات الدائمة في العالم الحي وما حصل فيه من الارتفاع. فنحن نعلم مع قلة اختبارنا ان كساء الحيوانات متوقف على الاقليم. ولونها على القوت أو التور أو المساكن التي تقيم فيها عادة. وكبرها على كثرة القوت أو قلته وغير ذلك. غير ان هذه الاحوال الخارجية التي سيأتي بيانها مفصلاً لا يسعها على رأي دارون أن تفسر - المطابقة الكلية - في الاحياء للاشياء الخارجية المحيطة بها ولاحوال حياتها ولااحتياجاتها الخ. فمثل هذه المطابقة الكلية لا يكون الا نتيجة الانتخاب الطبيعي الذي هو العامل الأكبر. وأما باقي العوامل كاحوال الحياة الخارجية واستعمال الاعضاء وشدهم والعادة والنمو المتناسب والوراثة والتصلب الى غير ذلك فيعمل معه بالاشتراك ايضاً. وانه يصعب بل يستحيل علينا أن نعرف كم يخص كلاً من هذه الاسباب العديدة من كل من النتائج المختلطة الصادرة عن عملها المشترك. ويظن دارون اننا غالباً لا نعرف شيئاً عن التواميس التي تتغير الاحياء بموجبها وان ما نستطيعه من ذلك انما هو التاكيد بوجود هذه التواميس. على انه مما كانت فلا يسعنا ان ننكر وجوب حصول لجميع ثابت في التغيرات الطفيفة الموافقة للفرد بواسطة الانتخاب الطبيعي<sup>(١)</sup>. ولا يظن

(١) ان فكل احد المتخصصين لدفع دارون يزعم ان احوال الحياة الخارجية لا تفعل راساً الا قليلاً جداً. ولقد بالغ بعضهم في اعتبارها على زعمه حتى جعل الجسم الحي في حالة المعزولة المطابقة بالندية اليها. وعندئذ ان ذلك خطأ لان الجسم يفعل ايضاً فيها وما المطابقة عندئذ سوى نتيجة مبادلة هذين الأمرين أي

ان تجمع الصفات الموافقة في الفرد ودوام هذا التجمع فيه يسميان بنحو الكمال في كل الاحوال . فانه ما كان سلطان التحسين والتكامل عظيماً فلا يحصل عنه هذه الغاية دائماً . لانه قد يكفي ان يكون في الفرد امتياز ولو قليل المعنى حتى يقوى على اقاربه ولو كان اضعف منها في باقي الصفات . وقد يكون الامتياز أحياناً سبباً للانحطاط ككبر القد والعافية في حين فقد القوت . وعليه فالارتقاء يصاحب تغيرات الفرد غالباً لا دائماً ووجوباً . فربما تنبهر الفرد ووقع في الخوول كما في الدب الاسير الحالي فان اصله دب الكهوف الذي كلن اكبر منه واقوى ولكنه انحط الى حالته الحاضرة لتغيرات في سطح الارض وفي المسكن والقوت وما شا كل . وكذلك الديدان البطنية فان اصلها من دودة كانت سابقاً في الخارج اكمل منها ولكنها فقدت بعض اعضائها لتغير جنس معيشتها في القناة المضطربة فأنحطت . والسر يبد ( حذرون ما في ) الذي كان له قوقعة كلسية لما كان مستقلاً فتمزق من فوقه اذ صار حلياً يعيش على حيوانات اخرى . وذلك نتيجة الانتخاب الطبيعي . لان القوقعة النافعة له في الحالة الاولى لا تنفع في الثانية بل ربما اضرته اذ تزيده ثقلًا لا معنى له . وعلى ذلك فكل جزء لا يعود فيه فائدة يفقد رويداً رويداً

ولما في جعلان جزيرة مديراً شاهد على ما يحصل من الضرر بسبب الامتياز فقد قل دارون ان غالب الحمل هناك لا يطير لقص في جناحيه . وسبب ذلك عندنا ان ما كان منه قادراً على الطيران يسوقه الريح ويلقيه في البحر فيهلكه ولا يبقى منه

الفعال والانفعال . فجميع صفات الاجسام الحية على رايه اما نتيجة ما يسمى مبدا التكوين الباطن وهذا المبدأ ذاتي متوقف على التركيب الاول المادي للجم الحي ووراثته . واما نتيجة ما يسمى مبدا التكوين الظاهر الحاصل عن تبادل فعل الاشياء التي من خارج وفعل المطابقة الحاصل عن هذه الاشياء . ولا يوجد غير هذين العاملين للتكوين . ويري عكس ان لفظة المطابقة هي احسن ما يدل به على فعل الانتخاب والمطابقة عنده على نوعين لازمة ومتعدي . الاولى تلزم الوالدين والثانية تتعدى الى الاولاد . فانا نعلم من الاختيار ان اختلاف القوت في الوالدين يؤثر جداً في اجسام الاولاد ولا يؤثر الا فيهم . وحس المحار ومفره غذائهم بجملائه حقيقاً . وعليه فكل الاجسام الحية نظراً لما بينها وبين الاشياء التي من خارج من الفعل المبادل يحصل فيها تغيرات عديدة قد تظهر نتيجتها اثاراً فيها وفارة في اولادها



الأعاجز فينتقل تكوينه منه إلى نسله وهو لا يخرج من مكانه إلا بعد طلوع الشمس وانكسار شدة الريح . ويكثر قيامه في الأماكن الرطبة بجانب الصخور التي تقي من الريح . وإذا وجد منه ما يظهر في بعض الأماكن في الجزيرة المذكورة كان جناحه قويين جداً لمقاومة الرياح . فذلك شاهد على الانتخاب الطبيعي مشتركاً مع عدم استعمال الأعضاء

\*\*\*

فمن هذه الأمثلة وكثير غيرها يعلم أن الانتخاب الطبيعي لا يؤدي إلى الارتقاء دائماً وإن أدى إليه غالباً . على أن الارتقاء كثيراً أو قليلاً في العالم العضوي لا حقيقة له واضحة . ويلزم الانتباه إلى ذلك إذا نظر إلى الشيء على مذهب دارون فإن الحال المناسب في ظروف معلومة من الزمان والمكان قد لا يناسب في غيرها . فإن التكوين الكامل إذا كانت أحوال الوجود بسيطة يكون نقصاً لا امتيازاً . ولذلك كان الانتخاب الطبيعي يعمل في مثل هذه الحالة هذه تتغير لا ارتقاء . ولا ننس ما قلناه سابقاً وهو أن الانتخاب لا يكون في كل قوته إلا حيث يكثر ازدحام الأحياء المتنازعة . ولهذا السبب كان وقوف بعض الأنواع وارتقاء البعض الآخر . فانه قد يعرض لبعض الأنواع أن يكون معزول عن كل منازعة لشدة بساطة أحوال حياته فيبقى ثابتاً غير متغير . كالحبوانات الرخوة الدنيئة التي لم تزل واقفة على درجة واحدة في سلم الحياة منذ زمان طويل جداً وهكذا غيرها مما لم يتغير إلا قليلاً جداً . وربما كانت صور قريبة منها موجودة ولكنها ارتقت سريعاً ولم تبقى أصولها . ولا ننس أيضاً أن الحركة البطيئة التي يصدر عنها العالم العضوي لم تسكن قط . وإنما ما زالت كما كانت صاعدة من البسيط إلى المركب . وانه لا تزال صور جديدة أولية تتولد أيضاً وتنمو على مقتضى نوااميس النمو في الطبيعة

\*\*\*

١ فيما تقدم يعلم لماذا لا يزال كثير من الصور غير كامل وفي حالة دنيئة جداً في مدى الأدوار الحيولوجية على رغم الانتخاب الطبيعي وقد كاد مذهب دارون يضمف

لاجل ذلك لولا انهم وافقوه بالتعليل الثاني من هذا القبيل . فان هذه الصور الثابتة  
او المتغيرة قليلاً لا وجود لها الا في عديلات الفترتي في الطبقات الحيوان . واما  
ذوات الفتر ( ومنها الانسان ) فتسير دائماً نحو الكمال الا في ما ندر كذوات  
الجراب منها فاما قلما تغيرت عما كانت عليه في الدور اليوراوي <sup>(١)</sup> الذي كان  
ظهورها فيه . وبحسب القاعدة التي وضعها ليل ان الصور العضوية تكون اثبت كلما  
كانت أدنى في سلم الحياة واشد تغيراً كلما كانت اعلى . وسبب ذلك في الصور الدنيا  
بساطتها من حيث التركيب وقبول التأثير من جهة . وعدم تغير احوال حياتها الخارجية  
من جهة اخرى . واما في الصور العالية فبسبب اختلاط تركيبها وشدة انفعالها مع  
تغير احوال حياتها الخارجية مما يجعلها متغيرة جداً



وقد ضرب دارون مثلاً لادراك الرابط الذي يربط الاحياء بعضها ببعض قال : انها  
كشجرة ذات اغصان خضراء متفرعة هي الانواع الباقية . واغصان يابسة هي الانواع  
المتقزمة . فالاغصان النامية لا تنمو هكذا الا حتى تنضج بغيرها . ولا تنمو اقلية منها  
كذلك حتى تنضج بما جاورها ايضاً . فلكي تبقى الانواع ظلية لا بد لها من ان تتغير .  
وكل تبين فهو اشد حيوية من الاصل الصادر عنه . وكل نوع لا يتغير لا يثبت .  
واذا زال لا يعود وكلما كان الجنس قريب العهد في التكوين اي كلما طال الزمان عليه  
في الادوار الحيوانية حتى تكون كل اكثر انواعاً اي كان اقدر على الحياة بخلاف  
الاحناس التي عهد ظهورها بعيد فان انواعها تقل حتى تتلاشى رويداً رويداً . واكثر  
الاحياء ما في دورها فانه لا يثبت امامه شيء مما تقدمه كما هو معروف في زيلاندة  
الجديدة <sup>(٢)</sup> . وكانت الصور الحية في الدهور الغابرة اقرب بعضها الى بعض ثم تشعبت

(١) نسبة الى جبال يورا بين فرنسا وسويسرا وهي الادوية ايضا نسبة الى الاولاد نوع من الطباشير  
مؤلف من حيوانات صغيرة جداً تشبه بعض السمك وهو طبقة من طبقات الارض الغابرة  
(٢) الماورسكان اوستراليا الاصليون عديمي في لغتهم مثل كلمة حكمة وهو - ان فار الرجل ابيض  
قد طرد فاراً كما انت ذباية قد طرد ذباباً وطرد باله قتل سرعنا هكذا الماورس نسبة سبقت ادم  
الرجل الابيض -



من حول اصلها الاول وأخذت تتباعد يوماً عن يوم حتى كثرت الصور الجديدة . فالصور القديمة اذن ذات صفات تتوزع وتخصص وتكون الاجناس المختلفة ويسمىها اغاسيز — الصور الانباتية <sup>(١)</sup> او الاصول المتقدمة — وهذه الاصول الاولى لا تلتقي الا في جزائر منفردة حيث التنازع قليل كالا رنيشورنقس العجيب (حيوان ذو منقار) والماليدوزير وغيرها



وقد رد دارون ايضاً على من يرى عدم ارتقاء كثير من الصور الحية تخطيطاً لمذهبه بما معناه . ان كثيراً من الحيوان بل غالبه فيه اعضاء موروثه لا فائدة لها وقد تكون مضرة لاختلاف احوال الوارث عن الموروث عنه كرجلي القرظلة <sup>(٢)</sup> مثلاً فالحاجة في غنى عن الغشاء بين الاصابع لانها لا تقوم كاجدادها التي كان مثل هذا الغشاء لازماً لها . وامثال ذلك كثيرة جداً في الحيوان والنبات وتسمى اعضاء اثرية اي ضامرة او ناقصة النمو . ولم يكن يعنى بها سابقاً الا للتريب واما غايتها فلم تكن معروفة . ومن هذه الاعضاء العيون الاثرية لحيوانات الكهوف . واجنحة الطيور وانواع الذباب التي لا تطير . والانثاء في ذكر ذوات الثدي <sup>(٣)</sup> . والحوض والطرفان السفليان في الحيات والاسنان التي توجد في اجنة الحوتة ولا يبقى الا اثرها في كبارها . والاسنان القواطع الاثرية في الفك العلوي للعجول . والاسنان الاثرية في الطيور . وهذا الاخير من اعظم امثلة الوراثة وقرابة الانواع . والانسان فيه ايضاً بقايا كثيرة من طائفة ذوات الثدي الذي هو منها ولا فائدة لها . كعظم العصعص . وعظم ما بين الفكين الذي اكتشفه

(١) والاصوب تسميتها بالصور المزمعة

(٢) نوع من الامور يعيش على الارض خارج الماء

(٣) لحيت ما شاعده العرب من هذا القيل سنة اثناء اثرية في رجل ثلاثة من كل جانب وذلك

في نظري من اعظم ادلة الوراثة وقرابة الانواع

غائي والزوائد الدودية في القناة الهضمية <sup>(١)</sup>. واعلم ان فعل الورثة في الحياة الجنينية أظهر منه في سواها. فان في الجنين في الادوار الاولى من حياته شتوفاً على كل جانب من عنقه شبيهة بالاصداغ التي تنفس بها ذوات الفقر الدنيا التي لا رئة لها. والشرابين تنعكس على نفسها لتصل بها كأن التنفس الصنغي مزيج ان يصير ثم يتغير هذا التكوين ويقول الى سواه. والرئة نفسها في اعلى ذوات الثدي ليست الا التفاحة التي يعم بها السمك ولكنها نامية ومركبة أكثر منها. والتنفس في الاليدوزبر الذي هو بين السمك والحشرات في التكوين قائم بالاصداغ والرئتين معاً. ويرى فيه واضحاً ان الرئة ليست سوى تفاحة منفصلة بمحارج كثيرة جداً ومفتوحة الى الفم. ومبدأ التكوين الجنيني واحد فان جميع الحيوانات المختلفة تشابه بعضها مع بعض في اول درجات الحياة الجنينية وتشأ جميعها من صورة واحدة اولية. قال الشوبر ببر استاذ علم الاجنة: ان اجنة ذوات الثدي والطيور والجزدان والافاعي والسلاحف (اي طوائف الحيوان المتوسطة) تشابه في اولها وليس بينها فرق الا من جهة الكبر. ويقول أيضاً ان هذه المشابهة قد تبقى حتى اول ظهور الحياة. ويرى اكثر من ذلك أيضاً فان جنين اعلى ذوات الفقر كالانسان يمر في نمو بدرجات الحيوانات التي دونه ليس الحياة فقط بل الاحفورية او السابقة ايضاً. واغاسيزوهو من خصوم دارون يقول ايضاً ما نصه: « انه لا مر يسوع لي التصريح به الآن على سبيل الاطلاق ان اجنة جميع الحيوانات الحاضرة وصورها مما كانت رتبها هي الصور الحية المصغرة لاصولها الاحفورية »

(٢) ان هنك يطلق اسم الدسنيولوجيا على علم الاعضاء الانثوية وهو يعدها من اعظم ما يتأ به من منهب دارون وينقض به منهب الخلق ويرى فيها انتفاض دعاتم التطور بها اي الاسباب الغائية لان من عند الاعضاء ما هو غير نافع وقد يكون مضرًا ومن ثم مغايراً للغاية ولا يظهر منها نوع من الانواع. وسببها عدم استعمالها لعدم الحاجة اليها غالباً لتغير في احوال الجسماء فتفسر. وهو يكفى من امثلتها العديدة بذكر العيون الانثوية للحيوانات الحولية والحيوانات التي تقيم تحت الارض وفي عمق البحار والاجنة الانثوية لكثير من الطيور وبعض انواع الذباب الذي لا يظهر وانصر لذلك عدم الاجنة مع ان الذباب اصله من اجناد ذات اجنة. وقد اضطراف انثوية الحاجة بذوات الفقر من اكبر الحشرات. والاسماك العديدة الزعانف والسم الذي انثري في الطيور. واما عالم انبثات فامتلك ذلك فيه كثيرة



فهذه الاشياء لا تتفق مع المذهب القديم اي مذهب الخلق اذ لا معنى لها فيه بل هي منافية له ايضا وربما عشت يعلم اللاهوت. واما على مذهب دارون فمعناها واضح وهي من اعظم الادلة على صحته وبدونه يستحيل علينا ان نفهم لماذا الازر الذي لا يعم له غشاء بين اصابع رجله ولماذا كان في الاجسام الحية اعضاء زائدة بل مضره احيانا. ولماذا هذا التشابه بين الاحياء كما يعلم من تشرج المقابلة. ولماذا هذه الوحدة في التكوين الجنيني. وما معنى الاعضاء الانرية. فلم تكن الاحياء مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا جوهريا من ادناها الى اعلاها لا تقتضي ان يكون بينها ذلك



على ان دارون لم يحصر الاحياء في اصل واحد وربما كان ذلك لعدم جوارته لا لسبب آخر. فجعل الحيوان من اربعة او خمسة اصول اولى مخلوقة منذ زمان طويل ككل اصل زوج. وكذلك النبات. غير انه لم يصمت عن ذلك كليا بل قال في آخر كتابه « ان المشابهة واسبابا غيرها كثيرة تدعونا ضرورة الى الاعتقاد بان الاحياء اصلها واحد » وان لا فاصل جوهري بين العالمين عالم النبات وعالم الحيوان « غير انه يحترس مستدركا على نفسه حيث يقول ايضا « اني ارى فيما يظهر لي ان الاحياء التي عاشت على هذه الارض جميعها من صورة واحدة اولية ففخ الخالق فيها نسمة الحياة على ان اساس هذه النتيجة المشابهة فالتسليم بها وعدمه غير جوهريين »

فهذا القول غير قياسي ويجعل المذهب ناقصا وربما تقضه ايضا وقد قام الاستاذ برن منيرج دارون ضده. لانا اذا سلمنا بافعال خلق خصوصية ثمانية او عشرة ازواج اصلية فما المانع من اطلاق هذا الخلق على جميع الاحياء وما الداعي بعد ذلك لتفسير ظهورها على سبيل طبيعي لانه سيان عند الفيلسوف حصول الفيل الخالق مرة او مرات. فالتسليم به ولو مرة اقامة المعجزة مقام الناموس الطبيعي. فليس لنا الا ان نتوسع بمذهب التسلسل الذي وضعه دارون حتى آخره ونجعل العالم العضوي يشتق من صورة واحدة اصلية بسيطة جدا من الكرية او البيضة. قال برن « كيف يسوغ

لنا ان نستغرب هذا الامر الذي نراه كل يوم بانفسنا ليس الجسم العضوي حتى  
الاكثر كلاً كالانسان يتكون رويداً رويداً من كرية واحدة او البيضة « اه  
فالنمو بالبيضة لا يقتضي له وقت طويل ويتم في بضع ساعات او ايام او اسابيع  
او اشهر . والبيضة حوصلة كروية صغيرة جداً مكروية كروية غالباً ومؤلفة من غشاء دقيق  
شفاف يتضمن مادة لزجة ومن نواة . وهذا الكل يؤلف ايضاً نواة لحوصلة اخرى اكبر منها  
هي البيضة . ولا يسبق الفهم الى بيضة الدجاجة فان بيضة الدجاجة والطير تختلف عن  
سائر البيضات ولا سيما بيضة ذوات الثدي . لان بيضة الدجاجة يحيط بها مع مغلف ثم  
زلال ثم قشرة اي كل ما يلزم لتكوين حيوان جديد . واما بيضة ذوات الثدي فليس  
فيها شيء من ذلك كله بل يصلها غذاؤها مما جاورها من بدن الام . وعليه فكل جسم  
عضوي نباتاً كان او حيواناً منشأؤه من بيضة . ونموه فيها بسيط بانقسام المادة اللزجة  
التي يتضمنها المح . فيتحول المح الى جواهر عضوية تسمى كريات جنية وهذه الجواهر  
تنامي وتتحول الى جميع الصور الممكنة وتكون الجسم الحي باضافة كريات جديدة .  
فالعمل كله راجع الى تنامي انكريات بالانقسام .

على ان الاحاطة بهذه المسألة من خصائص علم الامبريولوجيا اي علم تكون الاجنة .  
واما نحن فعلمنا ان فقط ان جميع الاجسام العضوية منشأؤها من ابسط الصور  
المعروفة اي الكرية . وان نموها كائن بانقسام هذه الكرية انقساماً بسيطاً جداً في  
ظاهره . وهذا النمو الفردي الذي نراه ونراقبه في كل ادوار جارية على نفس ما هو  
جاري عليه نمو كل العالم العضوي المتكون من كريات اولية هي نفسها متكونة منذ ملايين  
من السنين في قعر البحار الاولى



فبني علينا ان نعرف مصدر هذه الكريات الاولى — اي اصل الصورة العضوية  
الاولى التي يقول دارون ان الخالق نفخ فيها نسمة الحياة — تولدت ذاتياً طبيعياً ام  
خلقت واودعت نولاميس النمو ؟ على ان الوقوف عند هذا الحد نقص في مذهب دارون  
لان خلق الصورة اذا صح مرة فلا مانع يمنع تكراره مرات متوالية على ممر الدهور



فلم يبقَ اذاً الا مسألة التولد الذاتي التي هي اليوم المحور الذي يدور عليه علم الاحياء . فانه اذا أمكن لنا ان نبين ان ظهور الاحياء انما هو نتيجة طبيعية لقوى طبيعية ظهرنا بمذهب دارون على كل ما تضمنته العالم العضوي ولم تخف علينا منه خافية لانه امر مقرر اليوم ان الحيوانات والنباتات حتى اكثرها تركيباً مؤلفة جميعها من الصورة العضوية الاولى أي الكرية فقط كما يعلم من تكوينها الجنيني

واذا تقرر ذلك استغنينا عن التولد الذاتي في الاحياء العليا في الاحياء الدنيا أي في الكرية الاولى او في ما هو أبسط منها ايضاً . ولا يصح غير ذلك . ولقد كانوا في السابق يظلمون التولد الذاتي على الاحياء الدنيا حيوانات كانت او نباتات كالذباب والديدان وغيرها لتعذر معرفة اصلها . ولكنهم عدلوا عن ذلك لما رأوا بواسطة الميكروسكوب ان الاحياء المذكورة اصلها من بيضات او جراثيم صغيرة جداً . وقد اطلعوا به على سر الطرق التي تكون بها هذه الجراثيم غالباً . وعرفوا به ايضاً ادنى الاحياء المؤلفة من كرية واحدة فقط والمسماة حيوانات قيعية . وسميت هكذا لانها ترى بالمكروسكوب جموعاً تتنامى بسرعة عظيمة في المناقع العضوية . وولما اكتشفت هذه الحيوانات القيعية حصل جدال شديد بين الطبيعيين على ذاتية ظهورها وعدم ذاتيتها . ولم يقر قليلاً حتى أثاره بعض علماء الفرنسيين وتطارحوه في جمعية العلوم بباريس . على ان البت في هذه القضية غير متيسر بالفوسائل التي لنا لان الدليل الامتحاني الملائم حينئذ عرضة للخلل وما دامت الاحوال المناسبة في الطبيعة لتولد الكريات الاولى تولد ذاتياً غير معروفة كما ينبغي فلا يمكن إيجاد هذه الاحوال بعد تجميد الهواء والماء وغيرها من الجراثيم . على ان الكرية نفسها مع شدة بساطتها ذات بناء هو من التركيب بحيث يتشبع معه صدورها من الجماد رأساً . بل ظهورها كذلك يعتبر في العلم معجزة او هو كظهور احدى الاحياء العليا من الجماد رأساً . وربما كانت الكرية متشعبة نمو سابق فلا يرجح منها الوقوف على اصل الحياة بل يلزم ان يبحث في ما قبلها من الصور المكتشفة حديثاً التي لم تبلغ درجة الكرية بعد والتي هي نوع من الحويصلات الصغيرة الحية او هي مخاطة يكاد يكون لا شكل له

على انه وان كانت الامتحانات لا تؤيد حدوث التولد الذاتي اليوم الا ان ذلك لا يجعل حل المسألة ممنوعاً فلسفياً . وربما كان عدم حدوث اليوم لتغير في ما يقتضيه من الاحوال التي كانت له في اول تكون الارض . فان الارض كما لا يخفى قد مرت بادوار كثيرة مختلفة جداً ربما كان بعضها اكثر مناسبة لحدوث التولد الذاتي من وقتنا الحاضر . وليس في هذا الافتراض شيء من الغرابة او الامتناع . وربما استغنيا عنه ايضاً لان استمرار التقدم في العلم لا بد ان يقوى على هذه العوائق . وعندى ان التولد الذاتي لا يزال يحصل حتى اليوم . وكثير من الطبيعيين الذين تعلموا على درس هذه المسألة منذ ظهور مذهب دارون يعتقد ذلك نظري ايضاً

ومن جملتهم الدكتور جستاف جييجر مدير بستان الحيوان في فينا فانه قد خص رسالته الثالثة من « رسائله في الحيوان » بمسألة ظهور الاحياء الاولى ووضح ذلك جلياً مبتدئاً بمذهب دارون قال - بعد ان ذكر في مقدمته وجود حزين متضادين في هذه المسألة وهما اصحاب ما فوق الطبيعة والطبيعيون - ما نصه :

« انه لما تجاول هذان الحزبان في المرة الاولى وكانت معرفة الاشياء لا تزال ناقصة بما يقصر معه ذرع اذكي العلماء عقلاً واوسمهم علماً ضاق على الطبيعيين مجال البرهان حتى اتوا على بينات ناقصة بسخر بها »

« واما اليوم فقد انقلبت الحال اذ كثرت مستندات الطبيعيين بالبيولوجية والجيولوجية والجغرافية والنباتية والشرعية والفيزيولوجية والامبريولوجية . واول ما ظهر كتاب دارون وبدت لهم حقائق ما لم يكونوا يدركونه استأنفوا الجدال فاستظهروا على خصومهم اصحاب ما فوق الطبيعة الذين كان النصر قد استتب لهم تحت قيادة كوفيه وردوهم على اعتابهم وحسروهم ضمن استحکامهم التي تزعزعت اركانها بصدمات القياس والبرهان »

« والحرب القائمة بينهم اليوم حرب عوان سيكون لها شأن عظيم في تاريخ العلم كشأن حرب الثلاثين سنة في الحياة الدينية . كيف لا واعظم المسائل التي يسعى العلم



حلها هو بلا شبهة ما تعلق بالحياة العضوية فلا شك ان يكون شأن هذه الحرب اعظم ما في تاريخ العلم اه

وعند جيجر ان اول الاحياء كان في الماء وتركيبه من العناصر المركبة منها الاحياء الحاضرة اي من الكربون والهيدروجين والا كسيجين والازوت خاصة . ومن ثم ايضاً من مركب الكربون والا كسيجين أي الحامض الكربونيك الذي كان كثيراً في الهواء الاول . وكذلك من النشادر الكثير الازوت بحيث يظهر ان الاحياء ظهرت اولاً في سوايل من محلول كربونات النشادر

\*\*\*

وأما صورة هذه الاحياء على رأي فكانت كرية بسيطة أي ذات خلية واحدة وغذاؤها كان كما هو اليوم من خبيرة المادة غير العضوية وخاصة من كربونات النشادر<sup>(١)</sup> وان هذا التولد لم يحدث في مكان واحد من الارض بل في القسم الاعظم من سطحها وبساطة الاحوال الفاعلة في سطحها حينئذ كانت الصور المتكونة اولاً بسيطة جداً أي من ذات الخلية الواحدة ولا يبعد ان يكون كذلك لانه لا يزال مثل هذه الاحياء ذات الخلية الواحدة موجوداً في ارضنا حتى اليوم

وهو يظن انها لا حيوان ولا نبات بل شيء شبيه بكثير مما لا يزال يرى حتى اليوم من الصور المتوسطة بين العالمين وبالارتقاء انشق ونحول اليهما . وقد جعلها بعضهم عالماً ثالثاً قائماً بنفسه سماه عالم البروتست أي عالم الاحياء الاولى . وهو يعرف الحيوان منها بقابليته للانتقباض . والنبات بعدم وجود هذه القابلية فيه . فاذا انقبضت الكرية فهي حيوان وإلا فهي نبات . على ان من الكريات ذات الخلية الواحدة ما ينقبض في بعض اطوار حياته ولا ينقبض في البعض الآخر فهي لذلك نقطة اتصال العالمين . ومن الكريات ذات الخلايا الكثيرة ايضاً ما له الخاصة المذكورة

(١) الكرية كما قلنا ذات تركيب غير من الاختلاط بحيث لا يصح معه اعتبارها الصورة الاولى للحياة والصورة الاولى هي ما يسمى بالعلقة نوع من الحماض الحمضي للخاصة التي تصرف بمواد السوايل المحيطة به فربما كانت الكريات الاولى من هذه العلفة المعروفة باسم البلاصيا ايضاً

أو ما يقرب منها . ولذلك لم يكن للنبات والحيوان صفة معلومة خصوصية يتميز بها الواحد عن الآخر ولا يتميزان هكذا الأ في الطبقات العليا منها وبصفات جمة ظاهرة وليس من الغريب على رأيي أن يلتقي في طبقات الأرض القديمة حيوانات ونباتات معاً بعضها بجانب بعض خلافاً للمذهب القديم الذي يزعم أن النبات سبق الحيوان وهو خطأ ومن هذه الأحياء ذات الخلية الواحدة تكونت على رأيي الأحياء الكثيرة الخلايا ( حتى أعظم الأحياء ) . وعندئذ أن نمو الأجسام العضوية الأولى ذو شبه شديد بنمو الجرثومة في أطوار الحياة الجنينية . فإن أقدم أصول السمك اللاحثوري ليس له هيكل عظمي بل غضر وفي نظير السمك الحالي في أوائل حياته . وأقدم ذوات الفقرات ليس له هيكل سوى ثلاثة أقسام كبيرة ( رأس وثقب وذنب ) نظير ذوات الثديي الحاضرة في أوائل أطوار الحياة الجنينية . وإذا كنا على رأيي لا نزال نرى أصولاً لسانر درجات الحياة العضوية حتى أدناها فلان طريقة نمو الأحياء ذات الكرية الواحدة لم تتغير أحوالها اليوم عما كانت عليه في الأطوار الأولى . وعندئذ أنه لا يرجح العصور على بقاها في الأرض لشدة صغرها ورخاوتها والتغيرات الشديدة العظيمة التي حصلت في الحجار القديمة في ما صر من الدهور <sup>(١)</sup>



وقد تكلم الأستاذ هكل من « يانا » بهذا المعنى نظير جيجر أيضاً وزاد عنه أيضاً وتأكيده . ويظهر من أبحاثه أنه يوجد تحت ذات الخلية الواحدة أحياء أدنى أيضاً لا بناء لها ولا صورة خلية ولا نواة ولا أعضاء تقتضي بالامتصاص وتنمو بالانقسام . وهي كتل صغيرة من الألبومين لها خاصية الالتقاط إلى حد ضعيف جداً وتقترب جداً من جنس اليرزوبود ( الحيوانات الجذرية الأرجل ) الذي يختلف عنها بقوقعته العكسية . وهي تغير منظرها بأخراجها من جسمها زوائد رخوة لا شكل لها

(١) قد وجدوا في أحد الحجار القديمة حيوانات من هذه الحيوانات الأولى (ايوزوب كنادنس)

وسمائي على تنصلي في ما يجي



تسمى أرجلاً كاذبة وقد سماها هكل مونيراً<sup>(١)</sup> لبساطتها. فالمونير إذا أجسام عضوية البومنية لا شكل لها طبيعتها واحدة ولها خاصة التغذية والتوليد. وجميع الوظائف العضوية عوضاً عن أن تتم فيها كما في الحيوانات العليا بواسطة أعضاء خاصة فإنها تصدر رأساً من المادة العضوية التي لا شكل لها

وهو يقول أن هذه المونير أو الكريات البلاسمية<sup>(٢)</sup> الصادر عنها جميع العالم العضوي بالتسلسل تنمو في سائل تكونت فيه مركبات ثلاثية ورباعية من الكربون والهيدروجين والأكسجين والازوت ذاتياً كالرسب البورات في السائل رويداً رويداً بفعل القوى المتجاذبة

ويظن أن الصعوبات التي كانت تقترض التسليم بالتولد الذاتي إنما كانت لعدم العلم بهذه الأحياء البسيطة للغاية أي المونير وأما اليوم فلا سبيل للشك بكون هذه الأحياء أول درجات الحياة ويكون كل خلية بل كل جسم عضوي صادراً عنها. وكيفية ذلك أنه يحصل تكثف في نقطتها المركزية فتصير نواة. ثم تحاط النواة بالمادة اللزجة رويداً رويداً ثم يظهر الغشاء الذي يحيط بالجميع. وهكذا كان يعمل تكون الكرية في السابق على رأي شليدن وشوان. فالكرية على رأي هكل تتخلص من السائل المتضمن المادة البلاسمية رأساً ولا تتكون من الجهاد ذاتياً ابداً بل تتكون من المونير المتكون ذاتياً. فانه لا اختلاف في الأحوال الطبيعية والكجائية تولدت في البحار الأولى أصول كثيرة من المونير وربما أنواع مستقلة تلاشى بعضها وهو الأكثر في تنازع البقاء وبقي البعض الآخر وصار جد العالم العضوي بأسره. وعنده أي (عند هكل) أن كل نوع من الأحياء صادر عن نوع من المونير. وهذا لا يمنع كون أنواع المونير الكثيرة صدرت جميعها من صورة واحدة أي من مونير واحد في الكيف لا في الكم بالتغير التدريجي. وهو يقول في هذا المعنى ما نصه «قد يمكن أن أجيالاً عديدة من هذا الحيوان الأول بقيت تتنامى آلافاً من السنين في الأوقيانوس الأول

(١) ومعناها في اليونانية البسيط

(٢) نسبة إلى البلاسما والمراد بها مادة مكونة

الذي احاط بالارض بعد ما بردت بدون ان تتغير حتى طرأ تغير على احوال الحياة الخارجية اقتضى أن تتغير له هذه الاحياء ذات الاصل الواحد فتغيرت كلها الا ليومانية ذات الطبيعة الواحدة (١)

غير ان هكل لا يؤكد ما اذا كان التولد الذاتي لا يزال يحصل اليوم ام لا وانما يؤكد انه لا بد ان يكون قد حصل ولو مرة واحدة في الازمان الاولى . والبلتولوجيا لا يسعها ان تكشف لنا عن شيء من هذه الاحياء الاولى للاسباب التي ذكرها جيجر . وهكل كجيجر لا يعلم بحد فاصل بين النبات والحيوان . ويقول بوجود طائفة متوسطة بينهما اي طائفة البروتيست اي الاحياء الاولى . والفرق الجوهرى بينهما على رايه ان الكرية تكسب في نموها قواماً في النبات هو اشد منه في الحيوان . وقد حصر مذهبه بما يأتي حيث قال : « ان جميع الاجسام العضوية التي تأهل الارض اليوم والتي كانت عليها في السابق قد تكونت بحول بطي » وارتقا « تدريجي في الاصول الاولى القليلة ( وربما كان الاصل واحداً فقط ) في الزمان الطويل . وهذه الاصول نفسها قد تكونت من الجاد بالتولد الذاتي الخاص باسطة الاجسام العضوية البلاسمية أي المونير »

•••

جميع الصعوبات التي تفرض التولد الذاتي تزول بمذهب هكل هذا لما فيه من البساطة وقد جاءت الاكتشافات البالتوجية مؤيدة لصحته أيضاً فانهم اكتشفوا اخيراً في اميريكاً شيئاً من ذلك مهماً جداً ولا بد من بسط الكلام عليه فاقول انهم كانوا يظنون في السابق ان الحجار المساة سيلورية (٢) اقدم طبقات قشرة الارض . وكانوا يستغربون ذلك وربما ارتابوا بمذهب التسلسل ايضاً . لان النباتات والحيوانات التي وجدت معاً في هذه الطبقة وان كانت من ادنى الانواع الا انها بالغة

(١) ظهر اخيراً - في غازة بانا في الطب والعلوم - رسالة ورسوم لمكل في وصف المونير قال المؤلف فيها ما نصه « انه بسط في تصور احياء اسط من المونير واول كلال منه » .  
(٢) نسبة لبلاد السيلور القديمة في انكلترا



شيئاً غير قليل من التوحيث لا يصح ان تكون اول الاجسام العضوية ولو انهم حاولوا اقامة اسباب جيولوجية لتعليلها . غير ان ويليم لوجان قد اكتشف في كندا فوق مجرى نهر لورنزو عدة حجار صلبة جداً لا شبهة في كونها سابقة اقدم الحجار السيلورية . وقد اقتضى لها الى ان بلغت درجاتها الحاضرة ازمان طويلة جداً وقد سموها بالطبقة اللورنزية<sup>(١)</sup> . فهذه الحجار اللورنزية التي وجدت ايضاً في هونكاريابا وبافيارا تطلق على عرق كلبي سمك الف قدم وفيه آثار عضوية . وهذه الآثار آثار اصداغ لتويع عظيم هو الريزوبود<sup>(٢)</sup> المشتمل على حيوانات من ادنى درجات الحياة . وهي ليست سوى الكتل الصغيرة الرخوة للبلاسا التي وصفها هكل وتختلف عنها بزيادة غشاء كلبي فقط . وهذا الغشاء محفوظ في الارض ويوجد مخلوطاً بالحجار الكلسية لاميريكا ويعتبر كأول آثار الحياة . واما الحيوان نفسه فلا يوجد منه شيء بالضرورة ولا يزال كثير من هذه الحيوانات موجوداً في قعر بحارنا ايضاً وهي مكونة من حوصلة صغيرة مخاطية حية لا بناء لها ولا صورة خلية ولها صدف رقيق للغاية

ولم تغير هذه الحيوانات عن حالتها منذ ظهرت الحياة الى يومنا هذا الذي كثرت فيه سكان الماء والهواء والارض جداً وقد سموا الحيوان القدي وجدوه في كندا « ايرزون كنادنس » او حيوان الشفق الكندي اشارة الى انه شفق الحياة<sup>(٣)</sup>

فهذا الحيوان او ما هو من رتبته يربنا به اول درجات الحياة او ما يكاد يكون كذلك ويوضح لنا سر الحياة الذي هو اعظم اسرار الطبيعة بطرق طبيعية . ورب معترض يحاول نقض ذلك فيسأل كيف تولدت المركبات العضوية التي تنمو فيها الاحياء الاولى كالمونير وما اشبهه ؟ يستطيع ان يبين انها تكونت ذاتياً من الجداد مع علمنا انها لا تكون الا بفعل الاجسام العضوية نفسها ؟ الا ان هذا الاعتراض المعمول عليه

(١) نية لهر لورنزو المار ذكره

(٢) الريزوبود صنف من ادنى صفوف الحيوان يسمى بروتوزوا وهي الحيوانات الاولى

(٣) داروين يجعل الايرزون من ادنى رتب الحيوانات المعروفة ايضاً الا انه يضعه في مقام متغير في

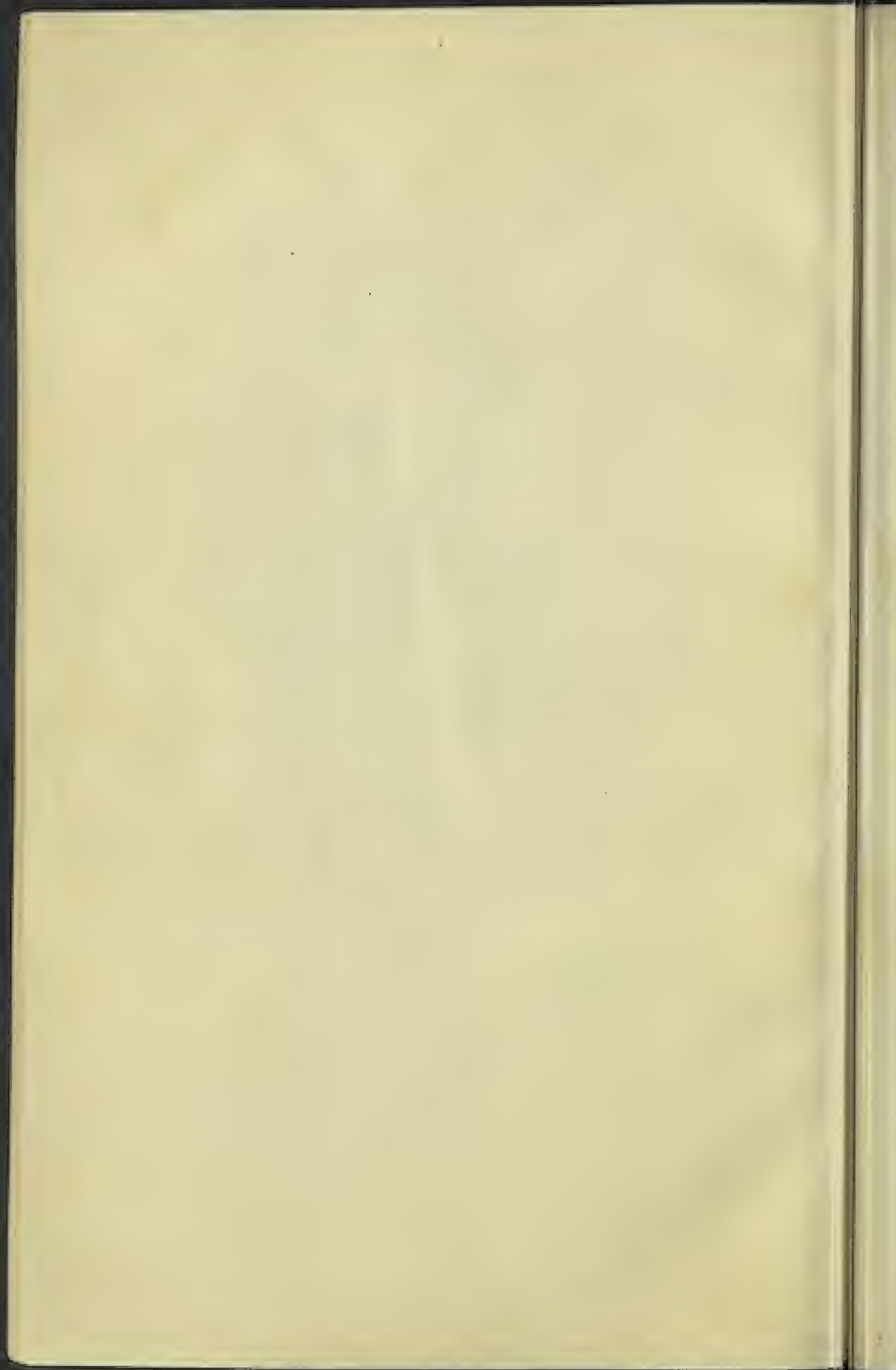
سابقاً لا قيمة له اليوم لان الاكتشافات انكياوية ولا سيما في العشرين سنة الاخيرة قد صيرت المستمع ممكناً فلان الكيمياء الآن تولد مركبات عضوية كالكحول وسكر العنب والحامض الاكراليك والحامض الفرميك والدهون حتى الالبون والفيرين والخندين أيضاً من الجاد رأساً. ولكن يظن سابقاً ان مثل ذلك ممتنع بغير فعل القوى الحيوية. ولا شك ان ما يستطيع في المعامل انكياوية يستطيع أعظم منه في الطبيعة فليس من العقل اذا ان ينكر عليها طبيعياً ما يستطيع لغيرها صناعياً

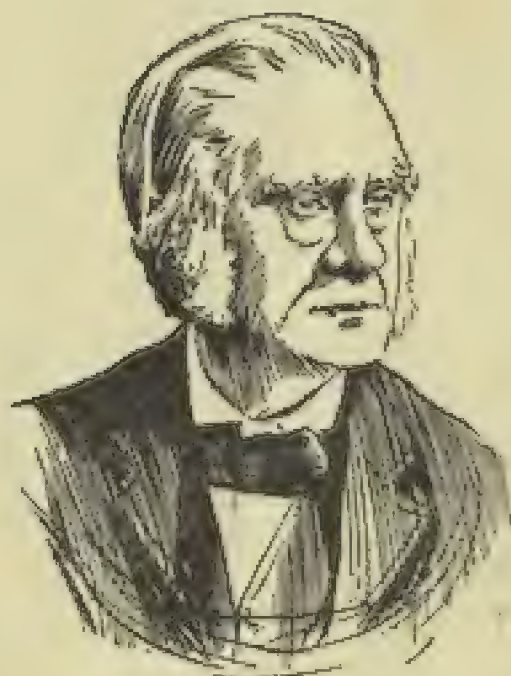
ولا يتوهم احد ان في طاقنا ان نركب احياء بالغة في الارتقاء فان مثل ذلك ممتنع صناعياً لا متناع حصولنا على الاحوال اللازمة له ولا سيما الزمان الذي هو أهم ما يكون. وكل ما يمكن ان نرجوه بمعالجة المركبات العضوية الصناعية بجميع مقتضيات الحياة هو الحصول على احياء دنيئة جداً كالتي تقدم الكلام عليها. وأما ما كان اعلى منها فيستحيل علينا لانه يستحيل ان نجتمع الاحوال المناسبة الضرورية له في مالنا من الوقت القصير حتى ولو انا عرفناها كما ينبغي. على ان الانسان قد توصل الى اشياء جلية جداً غير منتطرة فربما توصل أيضاً الى اكثر مما نرجو<sup>(١)</sup>. ومهما يكن من ذلك فلا ينبغي ان نطمع ابداً بتكوين احياء بالغة مبلغاً عظيماً من الارتقاء لان مثل ذلك نتيجة عمل شاق جداً عمله الطبيعة ولم تسمه الا في زمان طويل جداً في ملايين من السنين<sup>(٢)</sup>

(١) قال جورج بيرش في كتابه - تعدد فروع البشر - (الطبعون بباريس سنة ١٨٦٤) ما نصه " ان عقل الانسان لا حد وليس من يعلم الى اين يصل ومن يدري اذا كانت لا يصل يوماً ما كما فعل رومانيوس وانفتح الحياة في نوع جديد يخرج من معلو " - برومانيوس هو ابن يابوت فتح الحياة في رجل من الجنس بالخصاء نال النباه الغضب لذلك جورج فامر فلما كان قريباً على جبل فوفس وسلط عليه دوداً تاكل كتفه فكانت كلما اكلمه بها شياً ما

(٢) كان الامتداد شهوون الفص بالمكروميكوب حبيبات ميكرو... لم... لم من الخط فراً ما تولد ذات الكربة الواحدة التي اول اصل الحياة المجهريه. ثم رأى ذات الكربة الواحدة تقول الى المجهريات النقية التي هي ارفع منها رتبة وذلك رويداً رويداً. وقد وافقه على ما رأى جورج بناتار حيث قال ( الى اواني شهوون في انه يمكن مشاهدة المجهريات النقية كما يشاهد تكون البلورات في سائل فيو ذلك ) والامتداد علم من يابا رأى فطراً خيطياً ( انصار الفني ) بغير صورته بحد... الاشياء التي يتولد عنها وفي أيضاً ( ان اشياء جديدة مثل ذلك تشاهد كل يوم ) له







مکسلي



## المقالة الثانية

فهرست : اعتراضات على مذهب دارون : (١) اعتراضات لاهوتية (٢) اعتراضات من فقدان  
 بين يدي — وجود صور انتقالية في العالم الأدنى — سوء فهم مذهب دارون — نقصان المعلومات  
 الصور التي الجيولوجية — اسباب اخرى لنقص الكائن في تسلسل الاحياء الدنيا — اكتشافات جديدة —  
 قصر مدة الاصول المتوسطة وعدم ثباتها — بيان سهولة ملائمتها بأشكال مأخوذة من النباتات —  
 النباتات نمتي كالانواع في مذهب دارون — نظر شيدر في اصل النباتات الاوربية وارتقاها باعتبار  
 اللغة الهندية الجرمانية انها الام — انتقاد مذهب دارون — ماله من الخرافات وما فيه من النقص —  
 عجز مذهب دارون عن تعليل كل الحوادث — طرق اخرى لارتقاء الاحياء : احوال خارجية —  
 مهاجرة الحيوان والنبات — تغيير النسل — مذهب كايكر — فضل دارون في توجيه الاميال الفلسفية  
 الى العلوم الطبيعية ونحوه من الاسباب النامية — ادلة ضد التيلولوجيا أي الاسباب الغائية — نظر  
 شيدر في دارون وفي التيلولوجيا — تعليل افعال الحيوان وبداهة مذهب دارون .

لقد تقدم الكلام في المقالة السابقة على مذهب دارون وما يترتب عليه على سبيل  
 الاختصار . وما قيل فيها لا بد من ان يرسخ تأثيره في رأس كل عاقل . على ان  
 الاعتراضات على هذا المذهب كثيرة وقد عرفها دارون نفسه فأفرد لها قسماً كبيراً من  
 كتابه . ولم يسطرها كذلك الا لينفيها بحاله من سعة الاطلاع ودقة النظر ولكي يبين  
 ايضاً صحة مذهبه بمزية التحقيق وفضل التدقيق . ولقد اظهر من خلوه الغرض ما لا  
 شك في انه لم يقصد به سوى معرفة الحقيقة

وانه ليطول بنا الشرح اذا فحصنا كل الاعتراضات التي اعترض بها عليه او  
 اعترضها هو على نفسه . فنقتصر على واحد منها فقط هو أهمها جميعاً . لانه يظهر في اول  
 الامر ان نفيه غير ممكن . وهو غير الاعتراض الملاهوتي الذي لم ينفيه دارون نفياً صريحاً  
 بل اراد تقليل قيمته بجعله الخلق المحصور في بضعة اصول قابلة لكل تغير لاحق من نفسها  
 اولى بحكمة الخالق وعظمته . ولا حاجة الى القول ان مثل هذا التعليل ساقط من نفسه

وكان في إمكان دارون الاستغناء عنه لولا أنه راعى حساسات مواطنيه الدينية. لأن قاعدة مذهبه الصدقة العمياء. وكله قائم على أفعال طبيعية لا شيء من التصديق بها. وهو أعرق في المادية من مذهب لامارك لأن لامارك يسلم بناموس الارتقاء عام وأما دارون فإن ارتقاء الأحياء عنده متوقف على تجمع تدريجي في الأفعال الطبيعية العارضة الضعيفة التي لا تحصى

\*\*\*

فاعتراضنا إذاً علمي لا لاهوتي. وهو مهم جداً لأنه إذا صح ولم ينف ألم ليس فقط بمذهب دارون وحده بل بسائر مذاهب التحول أيضاً. ولا سيما ما يتعلق منها بالإنسان لتعيين مقامه في الطبيعة وفي عالم الحيوان. وهو إذا صح أن الأحياء تكونت بالتحول بعضها عن بعض رويداً رويداً فلا بد من أن كان بينها صلة تدل على انتقالها أي من صور بين يمين. وكان ينبغي أن تلتقي هذه الصور في الأرض. فلماذا لم يكن بينها ذلك وإذا كان فلماذا لم يوجد؟

فقولنا أن لنا على فساد هذا الاعتراض ثلاثة أجوبة: أحدها أنه تعلم صور كثيرة متوسطة وكل يوم تلتقي صور جديدة أيضاً ولا سيما من الحيوانات الصدفية المحفوظة أحسن من سواها من رتبها الدنيا لغشائها الحجري أي الكلسي. ولذلك كان ترتيبها في سلسلة تحولها أسهل أيضاً. ولنا الآن سلسلة طويلة من الأصداف المعروفة يختلف طرفها جداً بحيث يستحيل الجمع بينها لولا ما بينها من الصور المتوسطة الدالة على بطلان التحول<sup>(١)</sup> وما كان لا يزال ناقصاً من هذا القليل قد كفى بما وجد في الطبقات المكتشفة حديثاً في الأرض. فاتهم قد وجدوا في هذه السنين الأخيرة بالبحث في طبقات هليستاد وسان كيان في منحى جبال الب النمساوية الجنوبي والشمالي بين الأراضي

(١) دافيدسن صاحب رسالة جلية في وصف (براشبود) أفككراً يقول إن السيرين بها ترتيبها والسيرين بها كراماً طرفي طائفتها يختلفان جداً بحيث لا يصدق من لم ير الصور التي ترتبها أنها منظران - براشبود - معانها الذراعين الأيمن الأيسر اسم يطلق على الرتبة الخامسة من طائفة الحيوانات الرعوية.



الثانية والأراضي الثلاثية المتوسطة عالمًا من الحيوانات البحرية مؤلفًا من نحو ثمانمائة نوع ملأ دفعة واحدة فراغًا واسعًا ولا ريب أن مثل هذه الاكتشافات لا يزال لازماً لنا كثيرًا . ولا يخفى أنهم قبل دارون لم يكونوا يعاون كثيرًا بالتنوعات كأن ليس لها معنى وأما اليوم فساروا يعتنون بها ويعرفون قيمتها .

وإذا نظرنا إلى المسألة من وجهها الحقيقي نجد أن لا فرق أيضًا بين الحيوانات العليا كذوات الثدي مثلًا والحيوانات الرخوة البحرية من هذا القبيل . فإن المموت أي الفيل الأول ليس إلا متعدي سلسلة طويلة لا تتضمن أقل من ٢٦ نوعًا من الفيلة الأولى وهذه الصور الانقلاية تصل بين المستودت ( نوع من الفيل يمكن تتبع أصله إلى الدور الثلاثي ) وفيلنا الحالي . وهكذا يمكن تتبع أصل الريوسروس أي الكركدن ذو القرن الواحد الموجود حيث يوجد الفيل إلى أجداده الأول . وقد اكتشف المشرح الانكليزي ( أون ) عدة صور أحفورية متوسطة بين المجترات والصفاقية الجلد بحيث أن المسافة البعيدة التي تفصل الجمل عن الخنزير مثلًا قد انقضت

\*\*\*

واكتشاف الطير العجيب الأركو يتركوس مكوروس حديثًا وصل بين طائفتين من الحيوان منفصلة أحدهما عن الأخرى انفصالًا تامًا . وهما الطيور والحشرات (١) .

(١) هذا الاكتشاف يسوغ لنا أنه أن يجعل الطيور والحشرات من مصدر واحد كما فعل جنروي سنيليار سنة ١٨٢٨ إذ قصد أن يبين أن الطيور صادرة عن الحشرات . والأركو يتركوس مكوروس اكتشف سنة ١٨٦١ في سوليهوفن في بيرا العليا . وقد اشترته انكلترا بخمسة آلاف ريال . وهذا كاف للدلالة على عظم قيمة هذا المكتشف . وحول هذا الحيوان قدم واحدة ومناقضة فراريط . وعرضة قدم أربعة فراريط . وله ذنب أشبه بذي الذب طوله أحد عشر فراريطًا ونصف فراريط مكوّن من عشرين فرقة رفيعة مستطيلة وفي كل فرقة منها ريشتان . بخلاف ذنب الطير الحالي فإنه قصير ويجمع على نفسه وليس له سوى أربع أو خمس فقرات قصيرة وريش الذنب في الفرقة الأخيرة منها فقط . وفقرات الذنب في الطيور المحاصرة لا تكون متصلة إلا في الحياة الجينية . فإن ذنب النعام له من ١٨ إلى ٢٠ فرقة في أول حياته فإذا ارتقى صارت تسعة . وأما ريش الفروين الاماميين للأركو يتركوس فكان لمروحة . فهو لذلك ناقص عما هو في الطيور المحاصرة . فكل ذلك يدل على أن هذا الحيوان أصل قديم جدًا يقرب المسافة بين الطيور والحشرات

وكثير من الجيولوجيين والزولوجيين (علماء طبائع الحيوان) والبالولوجيين يبحث عن صور متوسطة بين نوعين موجودين وذلك على رأي دارون خطأ لأن الصور الحاضرة غير آت بعضها من بعض رأساً بل كل منها منتهى سلسلة تحولات طويلة. ولذلك كان يقتضي إذا أريد الجمع بين صورتين معلومتين أن يبحث لها لا عن صورة تجمع بينهما رأساً بل عن أصل مشترك محبوس. مثال ذلك الحمام الطاووسي والحمام الغليظ العنق فانها غير مشتقتين بعضهما من بعض بل من الحمام البري وكل منها يتصل فيه بصور متوسطة خاصة به. ولا يوجد صورة متوسطة بين الفرس والتاير ومع ذلك فهما متحولان عن أصل مشترك مختلف عن كليهما وقد اضمحل منذ زمان طويل. والصور الاربع الحاضرة الفرس والحمار وحمار الوحش والكواجا لم يكتشف على صور متوسطة بينها تصلها بعضها ببعض رأساً مع انه يجمعها أصل واحد أحدث عهداً من الأصل السابق وقد اضمحل أيضاً. واعلم ان الصور الحاضرة كلها كانت مختلفة بعضها عن بعض جداً كانت الاصول التي تجمعها بعيدة كذلك.

ومما يعز فيه ان خصوم دارون كثيراً ما يفوتهم هذا الشرط المهم جداً فيقولون لك مثلاً أتريد أن نقنعنا بان الاسد يأتي من الحمار والفيل من الفرس؟ فلو كان مذهب دارون يعلمنا شيئاً من ذلك لوجب علينا ان نلحقه بفرائب العلم. ولكنه يرفع عن مثل هذه التهمة بما بسطناه من البيان السابق وهو ان الصور الحية للعالم الحاضر لا يشتق بعضها من بعض وانما هي النتائج الأخيرة لتحول حاصل في اصل ماض بفعل الطبيعة البطيئة في ملايين السنين. ويستحيل ان تنابع هذه الاصول لأن كلاً منها منتهى تحول طويل خاص به. على انه لا يمتنع اجتماعها بعضها بجانب بعض على ارض واحدة وفي وقت واحد (١). كما تجتمع اوراق الاعنسان المختلفة في الشجرة

(١) قال الاساذ مليار ان الصور المحيية الكائنة بعضها بجانب بعض قد تكونت بالفرس بعضها من بعض لا بعضها من بعض وكثيرون يتوهمون ان مذهب دارون يعلم بانهم لا نوع حي الى نوع آخر فمن كانت افكاره كذلك فلا شك انه لم يفهم دارون



الواحدة فلو اردنا البحث في اصل كل ورقة لاقتضى ان نبحث عنه في الاغصان بل في  
 الغروع بل في الساق بل في كل جذر من جذور الشجرة على حدته . قال دارون في هذا  
 المعنى ما نصه « ان القاعدة التي تعلمنا ان الطفرة في الطبيعة محال لا تصح اذا اقتصرنا  
 على الاحياء التي تقطن الارض اليوم وانما تصح اذا نظرنا الى الماضي وبحسبنا عن اصل  
 هذه الاحياء فيه . فان بينها فراغاً كبيراً ولكنه ظاهري فقط لا حقيقي لان الصور  
 المتوسطة التي كانت تصل بينها مائت منذ زمان طويل » وفي الجملة فان جميع الاصول  
 المتعددة كانت في الماضي كما قيل في المقالة السابقة اقرب بعضها الى بعض مما هي اليوم  
 ولما اليوم فقد تباعدت جداً متشعبة حول الاصل الاول وصار الفراغ بينها كبيراً  
 ايضاً كذلك



والجواب الثاني هو قلة المعلوم لنا من الارض فانه قد تقدم في المقالة السابقة ان  
 العلوم المستقصى منها يكاد لا يكون شيئاً يذكر . ولذلك كان علمنا بالاحياء الاولى ناقصاً  
 جداً ايضاً فان ثلاثة ارباع الارض تحجبها المياه والربع الباقي قسم كبير منه تغطيه  
 الجبال او تحول دون استقصائه موانع اخرى شتى وما بقي فلا نعرف عنه الا القليل .  
 فلا غرو اذا كانت سلسلة الاحياء تظهر لنا مقاطعة تفصلها فراغات عظيمة وزد على ذلك  
 ايضاً ان الاحياء الحية لا تحفظ غالباً واذا حفظ منها شيء فبعضه ولا بد له ايضاً من  
 احوال خصوصية موافقة فالاجسام الرخوة لا يبقى منها شيء . ولا يبقى من الاصداغ  
 والعظام ايضاً الا ما كان مدفوناً في الارض غير معرض للفساد . وقد ذكرنا في  
 كتابه — قدم الجنس البشري — مثالا على سرعة فساد البقايا فقال انه في سنة ١٨٥٣  
 لما تم تخفيف بحيرة هارلم لم يوجد فيها اثر لعظام بشرية مع انه قد حصل فيها حروب  
 وغرق فيها مئات من الاسبانبول والهولانديين وقطن على ضفافها نحو ٤٠٠٠٠ نسمة مدة  
 قرون ولم ياتق فيها الا بعض بقايا مراكب ودراهم واسلحة وما شا كل .  
 فاما قلنا كلف لمعرفة النقص في المعلومات بالانتولوجية وقد الصلة بين الاحياء  
 في غالب الاحيان ولدارون في سبب ذلك نظر آخر ايضاً جوهرى حيث يقول « انه

نظراً لكيفية توالي الحوادث الجيولوجية لا بد من فقد الرابط وحصول الفراغ لانس الطبقات الجيولوجية المختلفة تفصلها ادوار طويلة جداً فان كل قسم من سطح الارض يحصل فيه على الدوام تغيرات كثيرة وبطيئة تحدث تغيراً في ارتفاعه وارتفاعه تارة فوق البحر وتخفضه طوراً ثمته ويشمل ذلك مساحة من الارض عظيمة <sup>(١)</sup> فهذا التعاقب نتيجة حصول قترات في الادلة الجيولوجية على تكون الاحياء لانه في حين الارتفاع الاصالح لتكون الصور الحية الجديدة لا ترسب تلك الرواسب اللازمة لحفظ البقايا العضوية وترسب في حين الانخفاض . وعلى ذلك فالارض التي ترتفع فوق الماء تكون انواعها حديثة مع انها هي نفسها متكونة في اماكن اخرى لكنها لا تحتوي شيئاً مدفوناً فيها من البقايا الحية التي تسمح برابطها بالانواع التي كانت عليها قبل الانفجار في الماء . فلا تعلم النسبة بين احيائها قبل الانفجار وبعده ولكن يمكن ذلك ينبغي الحصول على عدد وافر من الاصول من اماكن مختلفة ولا يكاد يتيسر . ذلك على انه في كل سنة تحصل اكتشافات تؤيد هذا المذهب اذ يزداد عدد الاصول المعروفة التي بين بين فيقوى المذهب على دحض الغلاط الماضي ولم يبقوا لا يعتقدون وجود ذوات ثدي كبيرة قبل الدور الثلاثي أي انه لا توجد قروود أحفورية في ما قبله . وأما اليوم فيعرفون كثيراً من القروود الأحفورية . وقد وجدوا ذوات ثدي كبيرة في الاراضي الثانية حتى في ما هو أقدم منها ايضاً . وهكذا ايضاً كان ينظر في الطيور فانه لغاية سنة ١٨٥٨ لم يكونوا يعرفون آثار طيور قبل الدور الثلاثي . وأما من ذلك الوقت فقد اكتشفوا في ايلي العرق الرملي الاخضر — حجر المسن — للطبقة الطباشيرية ( طبقة ثنائية عليا ) آثار طيور ما في من طائفة ربيع الماء المعروف بالنورس ايضاً . وقد اكتشفوا الاركوثيريكوس مكروروس في اقدم من ذلك ايضاً أي في الطبقة الاوليشية

(١) لا شبهة في صحة هذا القول فانه لا يزال يرى في دورنا هذا اختلافات بطيئة في طو سطح الارض في عدة أماكن منها في سكندنافيا وفي امريكا الجنوبية وفي ايطاليا وفي غيرها . فان ساحل والبارازو قد ارتفع ١٩ قدماً في ٢٢٠ سنة وحصل اعظم من ذلك ايضاً في شيلو وارنغمت الارض حيث كوكهيو عند اقدام في ١٥٠ سنة وكلما حصل ذلك من بعضة عالية مرة طويلة وقد قرروا ارتفاع ارض سكندنافيا بانامي قدم منذ العهد التاريخي



للدور الثاني وعلى قول دارون انهم عرفوا في العرق الرملي الاحمر اثر ارجل ثلاثين طيراً كبيراً لم يعثروا على بقاياها . وعلى ذلك فكلما كثرت الاكتشافات الجديدة انضغ لنا عدم ظهور الانواع فجأة خلافاً لما كان يعتقد سابقاً <sup>(١)</sup>

\* \*

والجواب الثالث الذي يدحض دارون به الحجة القائمة على مذهبه من فقد الصور المتوسطة يتعلق باحوال حياة هذه الصور فانه لا توجد الصور الانتقالية الا نادراً على رأيهم لانها اقل شدة واقصر مدة من الاصول التي جاءت بعدها ولسهولة اضمحلالها وسرعة سببان :

احدهما ان مدة التغير في احوال الحياة الخارجية الموافقة خاصة لتولد الصور الجديدة بالانتخاب الطبيعي هي اقصر جداً من المدة التي شكفت وثبتت فيها الصور المذكورة . وليبان صحة هذا القول اعود الى ذكر المثال الذي ذكره شارل فوجت في رسائله في الانسان حيث ذكر ان الدب الاسمر الحاضر لا شبيهة في ان اصله دب الكهوف القديم الذي كان في الدور الطوفاني . فانا نعرف الدرجات الثلاث الانتقالية بينها غير ان وجود بقاياها نادر بخلافها فان وجودها كثير ولا سيما دب الكهوف الذي لا يكاد يخلو منه كهف من الكهوف الكثيرة جداً التي استقصيت للدور الطوفاني . ولا يفهم سبب ذلك الا سرعة تغير احوال الحياة الخارجية وضمحل هذه الصور الانتقالية في تنازعها مع هذه الاحوال الجديدة

واعلم ان تغير الاحوال الخارجية قد بلغ الغاية في التأثير والثبات حيث متصل انتقال من الحياة في الماء الى الحياة على اليابسة وفي الهواء فكل صورة حية ثبتت في هذا الانتقال كان تكوينها بالغا من الارتقاء شيئاً غير قليل ويظن دارون ان مثل هذه

(١) علم الباثولوجية كما تقدم لا يزال في المهد الا ان الامل بأكبر والاكتشافات فيه تزداد يوماً بـ يوم . وقد جلب الطبيعي جيودري احافير من بركاري في بلاد اليونان الى باريس واكثرها من التي بين يديهم وقد وصفها بناتيار في رسالته في محوّل الاحياء المأهولة بباريس سنة ١٨٦٦ . فهذه الاكتشافات لا تفصل بين حواشيف ذوات النمل المتغاربة فقط بل بين المتاعدة جداً ايضا كما بين الدب والكلب والخنزير والتمرس الخ

الاصول لا يزال موجوداً كذلك الذي يطارد السمك في الماء في الصيف والحيوانات الارضية في الشتاء

والسبب الثاني الذي تضمنحل لاجله الصور المتوسطة اي الانتقالية بسهولة وسرعة هو ان المنازعة والمزاحمة تبلغان الغاية في الشدة بين الصور الاقرب بعضها الى بعض . فما كان منها ضعيفاً تلاشى لمنازعة ما كان منها قوياً له وتقل المنازعة بين الاحياء المتباعدة بطول المنازعة بينها فيسهل قيامها بعضها بجانب بعض وعلى ذلك فتكون اسباب تلاشي الصور الانتقالية عظيمة جداً كما كانت اسباب توليدها كثيرة كذلك . وكلما اسرع الارتقاء وتميز ( كما في اعلى ذوات الفقر خاصة ) خفي تحوله



ومن المقرر أن الصور التي بين بين تضمنحل ايضاً في مبحث آخر غير هذا له به علاقة شديدة وان ظهر لنا انه بعيد عنه جداً أعني به المبحث اللغوي فان اللغات المختلفة كالانواع تنمو وتنشأ بعضها من بعض وتنازع ايضاً والفرق بينها ان اللغات تتغير بسرعة اكثر من الانواع جداً ولذلك كانت في تغيرها اظهر لنا منها فالانواع قد تدوم مائة الف سنة . ولا يعلم ان لغة دامت اكثر من عشرة قرون . وهذه المشابهة المهمة جداً ذكرها دارون في صفحة ٤٣٦ من كتابه الا انه لم يبسطها البسط الكافي . بخلاف الجيولوجي ليل فانه استناداً الى ابحاث الفيلولوجي (١) الشهير مكس مولر افرد فصلاً من كتابه - قدم الجنس البشري - لاطلاق مذهب دارون على اللغات وقد يسن فيه بما لا يقبل الاعتراض ان الانواع في الطبيعة واللغات في التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة وكما انه يصعب تمييز الانواع عن التباينات هكذا يصعب تمييز اللغات عن الالسة ايضاً والفيلولوجيون غير متفقين على عدد اللغات كما ان الطبيعيين غير متفقين على عدد الانواع فحي عندهم من ٤٠٠٠ الى ٦٠٠٠ لغة . وليس لهم حجة مقبولة يفصل اللغة عن اللسان كما انه لا يوجد حجة يفصل النوع عن التباين والعاملان الجوهريان في اللغات هما كما في الانواع التغير والانتخاب الطبيعي وكما يحصل في الانواع كذلك يحصل في اللغات ايضاً نتائج عظيمة

(١) اي اللغوي نسبة الى الفيلولوجيا اي علم اللغات



تجمع اسباب عديدة صغيرة لا قيمة لها في الظاهر بحمد نفسها كادخال عبارات اجنبية وكثرة الخطباء والكتابة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الالفاظ المختلفة الى غير ذلك مما يغير اللغة وتكون نتيجة ملاحظة الحدود او الصور التي بين بين . فان ترجمة لوثر للتوراة قد ايدت شان اللسان السكسوني في سائر المانيا زماناً طويلاً . واما اليوم اي من بعد ثلاثمائة سنة فيكاد لا يفهم احد . ومن المقرر ان القاطنة المنقطعة علاقتهم مع وطنهم الاصلي اذا مرّ عليهم نحو خمسمائة او ستائة سنة وهم على هذه الحال من الانقطاع فانهم لا يعودون يفهمون لغة وطنهم لما يكون قد حصل فيها من التغير بسبب المحادثات والتقدم بخلاف لغتهم التي لا تكاد تتغير لقلة ذلك عندهم . فان الامبربر من سكس ويمر النقي في سفره الى اميركا الشمالية ( سنة ١٨١٨ - ١٨٢٦ ) بتأطنة المانية انقطعت علاقتها مع اوروبا في حروب الثورة الفرنسية ( سنة ١٧٩٢ - ١٨١٥ ) نحو ربع قرن . فوجدهم يتكلمون لساناً قديماً كان شائعاً في المانيا في القرن الماضي وقد قل استعماله فيها . وقد نزلت قاطنة نرويجية في ايزلاندا في القرن التاسع حيث بقيت مستقلة نحو ٤٠٠ سنة وتكلم لغتها الفوثية القديمة . واما لغة نرويج نفسها فقد تغيرت جداً عن الاصلية لعلاقتها مع اوروبا . ولهذا السبب لا يفهم الالمان اليوم اللسان الالمانى القديم ولا الانكليز الانكليزي القديم ولا الفرنسيين الفرنسيين القديم وكما تقدمت الامم زاد تقدم لغاتها لتوزع الاعمال حينئذ واتضح الافكار واتساعها ولزوم التعبير عن كل منها بدلالة خاصة فغنى اللغة بالالفاظ دليل على حالتها من التقدم وحالة الانسان من التقدم<sup>(١)</sup>

وقد ذكر ليل مثلاً واضحاً على فقد الصور المتوسطة في اللغات وعلى ما يترتب على ذلك من النتائج . فقال ان اللغة الهولندية متوسطة بين الالمانية والانكليزية . فلو مانت اللغة المذكورة كما لو انضمت البلاد الى بلاد غيرها استغرقها أو طرأ عليها طارئ طبيعي أوجب مثل ذلك فيها . لا تمتد المسافة بين الانكليزية والالمانية جداً ولما ظن الفيلولوجيون في المستقبل على فرض جهلهم ذلك انه كانت توجد صلة بين اللغتين

(١) اعني لغة على قول الانكليز لغة سكسبراي لغة الانكليز

فسبب التباعد العظيم بين اللغات كما بين الأنواع أيضاً هو فقد الصور المتوسطة ليس الا وكل لغة مانت لا تحي كما ان كل نوع اقراض لا يعود



ومن اراد التعمق في هذا البحث فعليه ما عدا كتاب ليل بكتاب شليخر — مذهب دارون وعلم اللغات ( سنة ١٨٦٣ ) — قال مؤلفه أن مبادئ دارون تطلق جميعها على كيفية نمو اللغات فان جميع لغات اوربا يكاد يكون لها اصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ومنها تفرعت عدة فروع أولاً . ثم تفرع من هذه الفروع فروع اخرى وهكذا . ولا يظن أن ما قيل اقراض كلاً بل هو مقرر علمياً أنه يمكن مراقبة لغة من اللغات وتبع سيرها في سائر أحوال ارتقاءها . وبهذا يتميز الفيلولوجي عن الطبيعي الذي يصعب عليه مراقبة الأنواع جداً — كاللغة اللاتينية مثلاً — فإنه يتحقق منها أن اللغات تتغير ما دامت يتكلم بها . ولنا في الآثار الكتابية الدليل الذي لا ينقض على صحة هذا القول . ولولا الآثار المذكورة لتعذرت معرفة ذلك على الفيلولوجي وان كانت عليه اصعب من الأنواع على الطبيعي . ولما كانت تحولات لغة تحصل في زمن قصير جداً بالنسبة الى الأنواع كان ادراكها اسهل ايضاً . وزد على ذلك ان سائر اللغات حتى اعظمها يعلم من بنائها ان ارتقاءها حصل بالتدرج مبتدئاً من ابسط الصور . فلم يكن فيها في اولها سوى اللفاظ البسيطة المعبرة عن الاحساسات والصور والافكار وما شا كل بدون ادنى تغير صرفي او نحوي . وقد تكونت هذه الاصول في اول الامر كما تكونت الكريات العضوية وكانت كثيرة نظيرها . وهذا يدلنا على انه كان في البدء لغات ام كثيرة خاضعة كلها لكيفية نمو واحدة كالصور العضوية الاصلية ولم يسر نموها في سبل مختلفة الا بعد حين نظيرها

وعلى رأي شليخر فاللغات بقيت قبل دخولها في العهد التاريخي زماناً اطول منه بعده وذلك مطابق لما يعلم عن الانسان وقدمه قبل العهد المذكور . ولا يخفى اننا لا نعلم شيئاً عن اللغات قبل اختراع الكتابة وان هذا الاختراع يدل على درجة متقدمة جداً في تاريخ الارقاء البشري



وقد اضمحلت لغات كثيرة في بحر الدور السابق العهد المذكور وفيه ايضاً . وقد تكونت عنها لغات جديدة كذلك . ولا شك ان اللغات التي اضمحلت قبل التاريخ والتي لا نعرف عنها شيئاً اكثر جداً من اللغات التي عاشت بعده ولم يبق في تنازعها اليوم سوى اللغات الهندو جرمانية المنتشرة جداً والمتسعة كذلك وفيها كثير من الانواع والبيانات فانه لما هجرت الشعوب ولاسباب اخرى كثيرة قد فقدت من بينها الصور الانتقالية بحيث صارت اليوم كأنها منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً جوهرياً كأنه بعضها بجانب بعض نظير الانواع في العالم العضوي



فيري مما تقدم كيف ان دارون قد نفى الصعوبات التي تعترض مذهبه — ولا سيما الاعتراض المبني على فقد الصور التوسطة — وكيف ان ابعاد مسائل العلم في الظاهر تجتمع حول مذهب متقاربة متشابهة فانه كما قلنا في المقالة السابقة قد اراد بعضهم ان يضع من شأن هذا المذهب فجهل محض افتراض لا يمكن تبين صحته . والحال ان مثل هذا الطعن لا يفيد شيئاً لان اعظم الاكتشافات وتقدم العلوم ولا سيما الطبيعية سببها مثل هذه الافتراضات وما ينبغي اعتباره في كل افتراض كون المواد المبني عليها كافية ام لا والنتيجة المستخرجة قياسية كذلك . ولا يستطاع النكار ذلك على مذهب دارون . وما يؤيد صحته هو انه بعلل به كثير من المسائل التي لا تفهم بدونه ببساطة كلية وباسباب طبيعية . وكل تعليل لا يكون طبعياً لا يفيد شيئاً بالحقيقة بل هو اقرار بالجهل يقيم المعجزة مقام النواميس الطبيعية والعلم لا يرضى ذلك . والطاعنون على مذهب دارون هم اصحاب الدين مع ان تعليمهم نفسه — المبني على ثبوت الانواع وتكرار الخلق — الحق بلفظة الافتراض في اسوء معانيها . لانه ما عدا انه لا برهان لهم على تأييد دعواهم سوى الايمان فمذهبهم لا يتفق مع الحقائق البينة والعلم الصحيح الذي لا يعرف نسبة اخرى سوى نسبة الاسباب والسيات . واذا كانت امور كثيرة لا تزال محجوبة عنا فلا يلزمنا من ذلك ان نلبسها ثوب المعجزة ونعلق باب البحث في وجهها بل ينبغي لنا ان نبالغ في معالجتها عسى ان ينكشف سرها لنا يوماً ما

فلا خوف على مذهب داروين من هذا القبيل . والايضاحات المذكورة لا تبقى عند من يطلع عليها شبهة في ان الانواع تكونت ولا تزال تكون بالطرق التي ذكرت فيه . ولكن هل هذه الطرق كافية وحدها لتعليل عن سائر احوال نمو العالم العضوي . كلاً . فانا لو اطلقنا مذهب داروين على جميع الحوادث المفردة او على ظواهر الحياة اجمع لوجدنا كثيراً منها لا ينطبق عليه وربما كان معه على طرفي تقبض . ويستدل منه على ان الطبيعة سلكت سبلاً اخرى ايضاً لتحويل الانواع . ولا شك في ان هذه السبل عديدة جداً لانه من المسلم ان الطبيعة في تشنئتها الذي لا نهاية له يندر ان تبلغ غايتها بسبل واحد وانا من رأي شارل فوجت حيث قال - في بحثه عن مذهب داروين في غازات دكولوين وقد أقر على صحته « ان طرقاً كثيرة تؤدي الى رومه » <sup>(١)</sup> ولاحق ما يؤخذ داروين به كونه لم يعبأ كثيراً بما للاحوال الخارجية <sup>(٢)</sup> والاختلافاتها من الفعل الشديد في تغيير الاحياء . ولقد مر بنا في المقالة السابقة ان داروين كثيراً ما يذكر هذه الاحوال الخارجية الا انه لا يجعل لها فعلاً الا مع « الانتخاب الطبيعي » . وما ذلك الا تفصيلاً لمذهبه لكي يجعل له المقام الاول . على ان فعلها الخصوصي عظيم جداً في الواقع . ولا بد من التسليم بان احوال سطح الارض المتغيرة على الدوام تؤثر تأثيراً شديداً في تحويل الاحياء ولا سيما اذا اعتبرنا ما بين القارات من الاختلاف العظيم في الشكل وغيره . وهذا الفعل كان شديداً جداً حيث شاركه مهاجرة الحيوان والنبات . واعلم ان المهاجرة تكاد تتناول الاجسام الحية كافة . واسبابها اما القحط او ازاحة نوع نوع آخر او اختلاف في الاقليم او التربة او غير ذلك . وقد تكون المهاجرة اتفاقيّة غير ارادية كانتقال بزور النبات من مكان الى آخر بواسطة المياه أو الرياح أو الطيور وما شاكل

\*\*\*

فالاحوال الخارجية قد تغير تغيراً كلياً وبنية بسبب المهاجرة وتؤدي غالباً الى

(١) وفي المثل الثاني كل الدروب تؤدي الى الطاعون

(٢) كالاقليم والتربة والغذاء والهواء والنور والحرارة واقسام اليابسة والمياه الخ



نتائج غريبة<sup>(١)</sup>. فان الأصل الانكليزي قد تغير جداً في أميركا وأستراليا في مدة قصيرة على نوع ما بحيث انت الفرق اليوم بين الانكليزي والأميركاني والأسترالي ظاهر. وإذا أردنا معرفة هذه النتائج في المدد الطوال فعلياً بالنظر إلى الشعوب الهندية الجرمانية التي هاجرت من آسيا (بين نهر الكنج وجبال حملايا) إلى أوروبا. فإنه قد قرر بالأبحاث الفيلولوجية أن الاسوجيين والهنود الآريين ذروا أصل واحد. فساير أعضاء هذه العائلة الآرية الكبرى منشاؤها الواحد في شرقي بحر قزوين أو الجنوب الشرقي منه. ولكن أي فرق اليوم بين رجل هندي وأسوجي أو نروجي وم تغير عبيد (سود) أفريقيا تغيراً حسناً بنقلهم إلى أميركا فان جلدهم أشرق لونه وعقلهم زاد إدراكه وتنبهه. على أن الاسود في مذهب دارون لا بصير أيضاً وبالعكس لانهما ليس بعضهما من بعض بل كل منهما آت من صور بين بين لا أعداد لها تختفي أصولها في أصل عالم الحيوان



ولنا بقطع النظر عن المهاجرة المهمة حوادث ظاهرة تبين ما للأحوال الخارجية من الفعل الخاص في تكوين الأحياء وتحولها فان في قارة أستراليا المتميزة عن باقي القارات بأحوال خصوصية من حيث الأقليم والتربة والهواء وغير ذلك حيوانات ونباتات خصوصية ذات أشكال غريبة غالباً

فاشجارها شائكة لا خضرة فيها ذات أوراق صفراء رقيقة متجبة عمودياً لا

(١) قال الأستاذ مورينز وجنر في رسالة عنوانها (مذهب دارون وناموس مهاجرة الأجناس الحية) ما معناه أن المهاجرة بالنظر إلى مذهب دارون أمر مهم وفي شرط ضروري للانتخاب الطبيعي وبدونها يندر الانتخاب ماله من الفعل. فان الأنواع التي لا تهاجر تموت شيئاً فشيئاً. وذكر أمثلة كثيرة مفصلة تأييداً لقوله. وهذا الشرط يستلزم مطلقاً جوهرية في مذهب الانتقل وينتج من اعتبارات شتى. والمهاجرات كانت في الأدوار الأولى لتكوين الأرض أكثر منها اليوم وقد قلت باعتبار الإنسان مقام القسطنطين الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي

تجذب نور الشمس وفي اميركا الجنوبية القيان <sup>(١)</sup> واليوما <sup>(٢)</sup> والنعام والجاجوار <sup>(٣)</sup> أصغر من أمثاتها في العالم القديم . وفي سوريا والعجم جميع ذوات الثدي ( حتى الصادرة من بلاد غربية ) ذات شعر طويل أبيض . والكلاب والخيول في بلاد الكورس جلدها مرقط . وقد تضاعف غلط الخنازير واستقامت آذانها واسودت وبرها في جزيرة كوبا . والقطط المدخلة الى براجي قد تغيرت جداً حتى صارت القطط التي يؤتى بها حديثاً من اوربا تأتي مباضعتها الأ بكره . وخیل سهول اميركا الجنوبية تختلف جداً عن خيل العرب مع ان أصلها من خيل اضعافها الاسبانيون هناك سنة ١٥٣٧ وهي عربية الاصل . فلون شعر الحيوانات وجلدها غالباً يتغير بحسب طبيعة الاقليم . فالترية وكل ما يحيط بالحيوان يفعل في ظاهره فعلاً واضحاً . فان المناطق الحارة تولد الالوان الشديدة الزاهية . والمناطق الباردة تولد اللون الأبيض غالباً وكل لون باهت . والحيوانات التي تقطن الرمال تلون بلونها . والتي تقيم على اصول الشجر تأخذ لون القشور . والتي تعيش على الاوراق تكون خضراء الخ .

•••

فاذا كان مثل هذه الامثلة على ضيق مجال اختبارنا كافياً لاثبات فعل الاحوال الخارجية وتغيراتها في الاجسام الحية فلا شك ان فعلها البطيء . المستمر في الادوار الطويلة لتكوين الارض كاف لان يجعل في الاجسام الحية نباتاً كانت ام حيواناً تغيرات كلية شديدة جداً . ولا سيما اذا اعتبرنا الاختلافات التي وقعت في الاقليم والهواء والحرارة وتوزيع المياه فان سطح الارض قد تغير جداً فارتفع في جهات وانخفض في اخرى . وكم هيبت الجبال وهاداً وكم ارتفعت الوهاد جبلاً وكم طغى الماء على اليابسة فصيرها بحراً وكم ظهرت اليابسة في وسط المياه . وكثير من العلماء الذين لا يسمعون بنذهب دارون يجعل للاحوال الخارجية فعلاً يكفي به وحده للتعليل عن تسلسل الانواع ونحوها في الماضي والحاضر <sup>(٤)</sup>

(١) نوع من الفساح (٢) الاسد الاميركاني (٣) الثور الاميركاني (٤) منهم جافروي ستيلير الذي يجعل العمل الامم للتغيرات الحوائية



على ان هذا القول تطرف لكن لو عدنا الى الحالة الوسطى وقسمنا العمل بين الانتخاب الطبيعي من جهة والاحوال الخارجية من جهة اخرى لسهل الامر علينا جداً وكان لنا حينئذ عاملان قويان صحيحان لتعليل التحول



ولا بد أيضاً من التسليم بعامل ثالث لم يسطر كما ينبغي ولم يذكره دارون ولكنه يتم في الاحياء بحالتها الجرثومية مدة أطوار التكوين ويجعل ما يسمونه — تغير التكوين — وهذا القول غير حديث وقد ذكر مراراً عديدة والاستاذ بمجربته من فريبورج قال فيه سنة ١٨٥٥ ما معناه ان الحيوانات العليا ربما كانت قد خرجت من جراثيم او بيوض حيوانات أدنى بانقسام الجراثيم أو بتحولها غير ان الأدلة على ذلك كانت قليلة وغامضة فلم يمكن الاستناد عليها. أما مذهب دارون فيه العقول لاعادة البحث في هذه المسألة حتى جعلها بعض العلماء الجديرين بهذا الاسم موضوع بحثه أعني به المشرح والفزيولوجي الشهير الاستاذ كوليكز فانه جمع أبحاثه في تقرير تلاه على مجمع العلوم الطبيعية والطبية في ورزبورج وهذا التقرير طبع في ليزنج سنة ١٨٦٤ فكوليكز بعد أن بين في تقريره ما في مذهب دارون من النقص شرع في تبين ما له من المزايا فقال ان دارون قد خطت الطريق الوحيد المؤدي الى حل مسألة أصل الاحياء حلاً صحيحاً. فظهور الاجسام الحية حسب كوليكز بصفة أحياء كاملة غير مقبول بل تتكون على مقتضى ناموس للاتقاء عام. وعنده أن مبدأ هذا الناموس موجود أقل في عامل — الانتخاب الطبيعي — الداروني منه في ما يسميه مذهب — التكوين الكثير الطبايع — ويراد به أن بيوض الاجسام الحية الدنيا أو جراثيمها ملقحة كانت أم غير ملقحة تستطيع في بعض الاحيان ان تتحول الى صور اخرى قد تكون اعلى منها في الاصل ليس بالطريقة البطيئة التي يعول عليها دارون بل بالتحول فجأة وهو يذكر تأييداً لمذهبه الاحوال العجيبة — لتغير التكوين — والبرثنوجنيا<sup>(١)</sup>

- وللتحول - وايضاً السهولة التي بها يتغير الجنين في اطوارهِ الاولى من التكوين لاقبل  
الاسباب تغيراً يعمد به كثيراً عن اشكال نموه الاصلي مما يستتج منه ان العالم  
العضوي قائم على رسم اساسي يكون بموجبه ميل لا بسط الصور للبروز في اشكال متغيرة  
اكثر فاكثراً

واني وان كنت مع دارون لا اسلم بوجود رسم اساسي لاسباب اعدادها كافية الا  
انني اعتبر فكر كوليكر قابلاً لان يكون ذا شأن عظيم اذا اتسع وتأييد بالابحاث الحقيقية.  
وهو الآن مستند الى كثير من الحوادث التي تثبت قابلية الجراثيم والبيوض والاجنة  
للافعال بالعوامل التي من خارج . وعليه فانه يمكن تغير التفرخ من بيض الفراخ على  
نوع معلوم بوسائط معلومة . ويمكن ايضاً توليد متولدات غريبة باحداث بعض عاهات  
في الجنين . ومما يؤثر جداً في تحول الاجنة طعام الوالدين من حيث الكثرة والقلّة .  
والنحل يحول فروخ العائلات منه فيجعل منها ملكات وذلك بعزلها وحدها والاعتناء  
بها اعتناء خصوصياً وتقدير لها طعاماً وافراً . والنمل يجعل الشاغللات منه تبلغ غاية نموها  
باعتناء خصوصي بها . وبالعكس ذلك فعل ادوار فانه منع فروخ الضفدع من ان تبلغ  
وتصير ضفادع يحجب النور عنها . ليس لان نموها توقف كلاً فاتها بلغت قدراً هائلاً  
انما بقيت في حالتها الفرخية وباذنابها . واجاسيز قال انه اذا اعترضت احوال خارجية  
نمو جرثومتين متشابهتين في درجات مختلفة من نموها فقد ينشأ عنهما نوعان مختلفان

ولئن كان مذهب دارون غير كاف لرفع الحجاب عن سر الحياة مرة واحدة بل  
اقتضى لذلك عوامل اخرى ايضاً الا اني لست ارى في ذلك ما يحيط من قدره  
لان التقدم ولو خطوة واحدة في سبيل كثير العقبات كهذا بحسب نجاح كبير . ففضل  
دارون لا ينقص اذا وجد العلم ان الطبيعة تستخدم عوامل اخرى ايضاً لتحويل الاحياء



ولدارون فضل في ادخال الفلسفة في العلوم الطبيعية وفي تقصص ما كان من  
الاهام سائداً على العقول فان هذه العلوم لم يكن يسمح لها من قبل الا بالمراقبة وتجميع  
المواد وترتيبها وما شاكل ولا سيما ان تقسيم الاعمال قد بلغ في عصرنا مبلغاً يستحيل



معهُ كل اجتهد للتصميم فكان يلزم رجل واسع الاطلاع صحيح العلم جامعاً الى علمه الميل الفلسفي الصحيح حتى يقدم على مثل هذا الامر غير خاشٍ غضب اصحاب التقاليد او خائف ان يثير في تعاريج الفلسفة القديمة للطبيعة . لان المتعلمين على الدروس الخاصة هم يواقع الامر قاصرون عن ذلك فالاشجار على رأي المثل تمنعهم ان يبصروا الغاية ولادخال الفلسفة في العلوم الصحيحة نتيجة اخرى ربما كانت اعظم من مذهب دارون نفسه فلسفياً ألا وهي ازالة الاعتقاد بالاسباب الغائية من دائرة العلوم الطبيعية او العلم عموماً بدهاين قاطعة . ولا يخفى ان بعض فلاسفة الطبيعيين كانوا قد فتدوا هذا الاعتقاد من قبل بالحجج المنطقية ونجحوا بعض النجاح ولا سيما في علم الطبيعيات حيث لم يبق له اثر خلافاً لباقي العلوم ولا سيما علم اللاهوت الذي يجعل الاسباب الغائية اساس حججه وغاية برهانه اذ يجد بها ان وضع الالف في وسط الوجود وعدم وضع العينين في ابهام الرجل غاية في الاحكام ونهاية في الحكمة

نعم انت الذي ينظر الى هذه الاعضاء نظراً بسيطاً باعتبار فائدتها ونسبتها الى الاحوال المختلفة للطبيعة بقطع النظر عن الماضي يجد فيها من الموافقة والمطابقة ما يحسبه مقصوداً . واما العلم فلا يبحث فيما هي عليه من النظام اليوم فقط بل في ما كانت عليه في الماضي ايضاً . وبأي الطرق الطبيعية وصلت الى ما وصلت اليه من الاحكام على نوع غير محسوس . وهنا يبسط لنا مذهب دارون التعليقات الصريحة والادلة المأخوذة ليس من الفلسفة وحدها فقط بل من الحوادث والامثلة الحية ايضاً . والدأ اعداء الفلسفة المادية وهو الاستاذ شليدن لما قرأ كتاب دارون اضطر ان يصرح جهاراً بطلان القول بالاسباب الغائية في الطبيعة (١)

ففي ما تقدم من الامثلة ما يكفي على ظني لتعلييل طبعياً عن سبب ما في الاعضاء

(١) قال الاستاذ هكل في كتابه - اسخالة الاجسام الحية - ( اما غري في اكتشاف دارون الانتقاد الطبيعي في تعاريج اليقظة اعظم الادلة على استغلال الاسباب الميكانيكية في البيولوجيا ونرى ايضاً نقوض اركان القول بالاسباب الغائية او الحيوية في الاجسام الحية )

من الموافقة فمن الجهة الواحدة على مبدأ الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء تقوى الاعضاء الموافقة والصفات المناسبة على سواها في الدهور الطويلة بحيث تثبت أخيراً. ومن الجهة الثانية على مبدأ الارتقاء والوراثية تحفظ في الاجسام الحية اعضاء لا فائدة لها وقد تكون مضرّة ايضاً. وقد ذكر دارون مثلاً لهذه آذان النباتات المتعرشة فانها مفيدة في مثل هذه النباتات ولكنها توجد ايضاً في نباتات اخرى لا تعرش حيث لا فائدة لها. وتعرّي جلد رأس دود الخشخاش يظهر انه في غاية الاحكام لمعيشته لانه يغزل في الخشخاش المتعفن ولكننا نرى ذلك ايضاً في رأس ديك الخشخاش الذي ليس له هذه الضرورة. وقالوا ان تداريز الحجمة في صغار ذوات الثدي هي لتقصد تسهيل الولادة. ولا ننكر فائدتها والحالة هذه. ولكن لا يصح القول بانها وضعت لذلك لانها موجودة ايضاً في جحاش صغار الحشرات وصغار الطير التي تخرج من البيضة. والغشاء بين الاصابع في القرعاطة وفي الاوز الارضي لا فائدة له فيها بل هو مضر في حالتها الحاضرة ولكن لا يزال فيها بسبب الوراثية. والعظام المتخفة الكثيفة في ذراع القروود وفي القاعنتين المتقدمتين للفرس وفي جناح الخفاش وفي زعنفة الفقم لا تفيد هذه الحيوانات شيئاً. وانما هي بقايا موروثه من اجداد انقرضت منذ زمان طويل. وناب الافعى السام وقناة البيض في الاكمنون لا ينطبق وجودهما على الاسباب الفائية او الفائدة لانهما مضران بغيرهما من الكائنات الحية. وحة الزناير والنحل لا فائدة بها لان صاحبها يموت بعد استعمالها وغير ذلك كثير. والانسان الذي هو غاية في الاتقان فيه اعضاء كثيرة لا فائدة لها وقد تكون مضرّة وسيئاً لأمراض قتالة. مثال ذلك الغدة الدرقية<sup>(١)</sup> التي ينشأ فيها المرض المعروف بالجواتر. والاورتان اللتان قد يسبب ورمهما والتهابهما الاختناق. والوراثية الدودية التي هي في الاولاد منشأ التهابات قتالة. والاعور الذي كثيراً ما تصبغ المواد فيه نجساً خطراً. والغدد الصغرية والعصص واثداء المذكور الخ. وفي الجملة لا يوجد في بدننا

(١) نزع الدكتور كوخ من سويسرا نحو ١٥٠ غدة درقية من المصابين بالجواتر وظهر له ان نزعها يؤثر مدياً في الدماغ فان بعض المتروكة منهم قد وقعت في البلاهة التامة على ان المسألة تستعمل الثبوت



عضو لا يرى فيه عند التدقيق انه كان يمكن ان يكون اصلح مما هو للغاية التي وضع لها . وانا تعجب اليوم من صنع العين الدقيقة التي هي اكمل الاعضاء والطنها والتي اصلها حسب تقليل دارون نقطة عصبية حساسة ارتقت حتى بلغت حالتها الحاضرة بعد ان مرت بدورات من التغير غير محدودة ومع ذلك فهي ليست في غاية الاتقان والاحكام لان احسن العيون لا يمنع تبعد النور . ووضع القناتين الهوائية والغذائية الواحدة بجانب الاخرى وسد احدها بلسان المزمار سدا ناقصا تقص في التكوين قد يؤدي الى الاسفكسيا وآفات اخرى بدخول أجسام غريبة في المسالك الهوائية ولا يعلم سبب ذلك الا من تشریح المقالة



ومذهب دارون يعمل لنا ايضا سبب الاميال والبداهة في الحيوان التي يعتبرها خصومه شاهداً عظيماً على ما أودعته من القصد لغايات معلومة . قالوا ان الميل للمهاجرة في الطيور غريزي اودع فيها حفظاً لها ومراعاة لامر راحتها . مع ان سببه طبيعي وقد تولد من تعاقب الحر والبرد فان الشتاء القاسي كان يجعل الطيور السريعة الحركة تنسحب من الشمال نحو الجنوب فاذا جاء الصيف حملها حب الوطن على الرجوع الى الاماكن التي نشأت فيها وتكرر هذا الامر مراراً كثيرة وكل سنة كانت الطيور تدفع الى بعد لاشتداد البرد وامتداد نحو الجنوب حتى صار فيها هذا الميل السنوي الى المهاجرة عادة والعادة صارت وراثية فصار هذا الميل كانه غريزي . والى مثل هذه الاسباب ايضا يجب ان ينسب نوم الحيوانات الشتوية فانها ابطلت حركتها لم تكن تهرب من امام البرد فنسحب الى اماكن مظلمة حيث كانت تنام مدة فصل الشتاء وما زال هذا الامر يتكرر فيها حتى صار عادة والعادة وراثية (١) . ودارون يذكر غير ذلك اميالا وبدائه

(١) قد تقدم في المقالة الاولى في الكلام على الوراثة ان العادات والاميال المكتسبة في الحياة تنقل الى النسل ونسبت فيه وهذه المعلومات مأخوذة من تربية الحيوانات خاصة . فمسل كلب الراعي لطواف حول الماشية موروث فيه . وتقتل الفط صيد الجرد على صيد افار منيارث فيه ايضا . والحيوانات المولودة من حيوانات معودة على جبر العربات ( من بحر وغيل ) اقبل لهذا العمل من سواها المولود من

كثيرة مثل بديهة الطير لبناء اعشاشه. وبديهة كلب الصيد المكتسبة بالتعويد حتى  
صارت موروثه فيه. وبديهة الحيوانات الاهلية التي تجعلها شديدة الميل الى الانسان  
وبديهة الكوكو التي تجعله يضع بيضه في اعشاش غيره. والبديهة العجيبة التي يأسر النمل  
بها النمل الغريب. والبديهة التي يبني النحل بها خلاياه وغير ذلك من الاميال والبداهة  
التي جعلوها ادلة على الاسباب الغائية مع انها نتيجة الانتخاب الطبيعي. على ان هذه  
الاميال تتغير بتغير جنس المعبشة وهذا دليل على انها غير غريزية وغير ثابتة. مثال ذلك  
فاقر الخشب الاميركاني فانه فقد هناك عادة التعرش على الاشجار وصار يصطاد الذباب  
وهو طائر وكذلك الكوكو في اميركا فانه لا يفعل ككوكو أوروبا أي لا يبيض في  
اعشاش غيره. وطيور أخرى غيره تفعل ذلك

\*\*\*

ففي ما تقدم من بسط مذهب دارون في انتقال الانواع ما يكفي على ظني لفهمه  
وهذا المذهب يزاد شأنه يوماً عن يوم ليس بالنظر الى العلم فقط بل بالنظر الى فلسفة  
الكون أيضاً ومهما يكن من أمره في حد نفسه فشأنه يعظم أكثر باعتبار ما اذا كان  
يصح على الانسان واذا صح عليه فما هي نتائج ذلك. ثم ما نسبته لباقي المذاهب المعول  
عليها حتى اليوم في ما تعلق بارتقاء العالم العضوي هل يؤيدها واذا أيدها فما هي  
النواميس التي تترتب عليه لارتقاء العالم العضوي عموماً والانسان خصوصاً فهذه المسائل  
المهمة ستكون موضوع بحثنا في المقالات الآتية

حيوانات لم تعود ذلك. وجميع خيل اميركا الاناساقولية عاقلت الميل لمني الخشب حتى صار موروثاً فيها  
والحمام الفلاب الانكليزي تربت فيه هذه العادة حتى صارت وراثية. والغنم الانكليزي لم يعود اكل الشجيم  
الذي ادخل الى تلك البلاد الا بعد ثلاثة اجيال. والخلاصة ان الحيوانات المولودة من حيوانات تربت  
على عادات معلومة تكون اقرب الى العادات من سواها



## المقالة الثالثة

فهرست : تطبيق مذهب دارون على الانسان اصل الانسان وتكوينه ونسبه الى الحيوان — تقسيم لينوس وجعل الانسان من صف البرمبات — الاعانة عن صف البرمبات بتقسيم بومباخ الى ذي اليدين والى ذي الاربع ايدي ثم الرجوع الى تقسيم لينوس — صف الأرغنتال أي النسل البروفسور اون — الحياة العقلية في الحيوان . الفرق بين الانسان والحيوان ليس مطلقاً بل نسبياً — الضمير والوجدان — الانتصاب على القدمين — ان الشفرة الكاذبة بين الانسان والحيوان تسمى كلى يوم بالارتقاء الحاصل بالنزوية وموت الاصول النوسطة — اشباه الانسان أو انواع القردة التي تشبه الانسان كالجيون والتشبانزي والاوران اوتان والكورلا — قردة افنورية وبنر افنوريون — قدم الجنس البشري — في هل تكون عقل الانسان من عقل الحيوان بالتدريج ام بقتة

مذهب دارون على ما بسطناه في المقالتين السابقتين مهم لانه يكشف لنا عن أهم الظواهر واوسعها ألا وهو أصل العالم العضوي اذ يهيئ لنا المعدات التي يتيسر لنا بموجبها الحكم بأسبابه وهل هي في الاسباب الطبيعية أم في الاسباب الغائية المعول عليها حتى اليوم

ويعظم شأنه أكثر اذا اطلق على الانسان ليعلم ما اذا كان يصح أيضاً عليه واذا ما كانت النواميس العاملة في باقي الاجسام الحية هي العاملة في اصدده كذلك أم هو خارج عن حكم هذه النواميس؟

فلا يخفى أن أكثر الفلاسفة والطبيين أيضاً ( ما خلا المدعوبين ماديين من فلاسفة اليونان ) كانوا يعتقدون ان الانسان مختلف جوهرياً عن عالم الحيوان ولا اتصال له به لا جسمانياً ولا روحانياً . وبقي هذا الاعتقاد معولاً عليه حتى اليوم لفقدان الأدلة التي يبنى عليها ما يخالفه ولو ناقض الوحدة العامة للطبيعة والتصور الفلسفي للكون . فمسألة « من أين أتى الانسان وكيف أتى » لم يستطع العلم حلها طبعياً واعتبرت انها تعلو على العلم فلم يكن حلها ممكناً الا للدين وحده لكن لما كانت الادبان

متعددة كانت الروايات في أصل الإنسان كثيرة أيضاً وأحياناً غريبة للغاية . فانك تكاد ترى روايات تتعلق بهذه القضية عند جميع الشعوب على اختلاف طبقتهم في المعتقد والتقدم . وهذا دليل على ما للإنسان حتى المتوحش من الميل إلى معرفة أصله الذي هو « سر الأسرار » كما قال عنه أحد فلاسفة الإنكليز .  
وأما اليوم فتعرض لنا هذه المسألة على وجه آخر نظراً إلى تقدمنا في المعارف . ودخولها في الأبحاث العلمية بعد أن كانت تحسب فوق طور العقل من أكبر الأدلة على ما للعقل من الاقتدار<sup>(١)</sup> فالعقل لا حد له خلافاً لما ذهب إليه بعضهم لاحقاً بالحقيقة بل للغاية في النفس دينية أو فلسفية . ولذلك لا يجوز لنا أن نياس من حل أشكل المسائل وأنحسبها وينبغي أن نسي إلى الحقيقة جهدنا بجميع الوسائط التي لنا إيماناً كانت أم اقتراضات

\*\*\*

لا شك أن العوامل العاملة في الإنسان هي نفس العوامل الطبيعية لأن كل ناموس يطلق على سائر الطبيعة الحية ينبغي أن يطلق على الإنسان أيضاً . إذ إن النواميس التي تكون هذا العالم على مقتضاها واحدة وثابتة . وعلم التشريح وعلم الفيزيولوجية أي علم بناء جسم الحيوان وعلم منافع أعضائه لا يدعان محلاً للريب في كون الإنسان تشريحياً وفيزيولوجياً أكمل طائفة ذوات الفقرات . وهذه الطائفة التي هي أعلى طبقات الحيوان رتبة تنزل كلما ابتعدت عن الإنسان في سلسلة دركات لا تحصى فإذا كان بين الإنسان وبين ما هو قريب منه من ذوات الثدي فراغ تشريحي أو فيزيولوجي فهو ليس أعظم من الفراغات الموجودة بين أجناس أخرى منها . ويدل فقط على اختلاف عرضي أو نسبي لا جوهرية أو مطلق<sup>(٢)</sup> وهذه الحقيقة تتجلى لنا خاصة

(١) قال الأستاذ شيفورن (إن معرفة أصل الإنسان الصحيح اكتشاف كثير النتائج في جميع فروع الفكر البشري وربما يدها المستفيل أعظم ما في طائفة العقل الوصول إليه)  
(٢) قال هكسلي في كتابه - معرفة أسباب الظواهر الحية - ما نعه أنه من السهل أن يبين أن الإنسان بالنظر إلى بنائه لا يختلف عن الحيوانات التي دونه والقرب منه أكثر مما يختلف هذه الحيوانات بعضها عن التي من صنفها



إذا نظرنا الى طرق الترتيب التي نهجها الزولوجيون ( علماء طبائع الحيوان ) والى ذهاب  
نعمب الذين منهم حاولوا جعل الانسان عالماً مستقلاً عن الحيوان والنبات سدى . على  
ان لينوس الذي هو أعظم من وضع طرق الترتيب في علم الحيوان لم يفته ذلك لانه  
ضم في صفه الاول المسى « بريمات » الانسان والقرد والتصف قرد<sup>(١)</sup> غير ان  
بومباخ سنة ١٧٧٩ قد انحاز عن هذا الترتيب ووضع صف ذي اليمين ( وخصه  
بالانسان ) تميزاً له عن صف ذي الاربع أيدي ( وخصه بالقرد ) وقد عرف  
الانسان انه — حيوان منتصب ذو يدين — فكل الصفات التي يتميز بها الانسان  
على رأيه اذاً ( وقوفه منتصباً ) وحصوله على « يدين » وهذا الترتيب عرفه يوفون  
وتبعه كوفيه الشهير وهو الذي أدخله في العلم والى اليوم لم يخرج منه تماماً على ان  
عدد أكبر من الزولوجيين قد رجع الى ترتيب لينوس وهذا الترتيب أصبح ما يمكن  
وضعه . فالتمييز بين ذي اليمين وذو الاربع أيدي لا وجه له تشریحياً والفضل في  
هذا انسان الدقيق للمشرح الانكليزي هكلي . فانه قابل بين بناء عظام اليد والرجل  
وعضلاتها تشریحياً في الانسان والقرد وبين أن الاعتماد على الظاهر لا يكفي في مثل  
هذه القضية بل يجب النظر الى الباطن ايضاً . ومن بحثه يتبين أن اليد والرجل « في  
الانسان والقرد الشبيه بالانسان ولا سيما الكورلا » مكونتان على مبداء واحد أي ان  
الكورلا ليس له أربع أيدي كما زعم بل يدان ورجلان فقائمة الكورلا الخلفية ليست  
سوى رجل ذات ابهام كبيرة اشبه بابهام اليد من جهة مقابلتها لباقي الاصابع أي ان  
له رجلاً ماسكة<sup>(٢)</sup> وهكذا سائر انواع القرد والتصف قرد ايضاً ففي سائر هذه

(١) قال لينوس ( قد يظهر أن الفرق اعظم بين الانسان والقرد منه بين النهار والليل . لكنهم  
إذا قايما بين الاور يابوي العربي في المدينة وبين متوحش رأس الرجا الصالح يصعب عليهم التصديق  
انهما من اصل واحد . كما انه يصعب افتناعهم بان سيدة نيلة من سيدات البلاط التركي ورجلاً بسيطاً  
يعيش في الغاب هما من نوع واحد ) . اهـ

(٢) اعرض الاساذ شهوزن على هذه القضية قال انه يمكن التوفيق بين الأقوال المتناقضة في الكورلا  
لان قائمة الخلفية هي في بعضها رجل وفي البعض الآخر يد . فان جانب المعقب رجل . وجانب الاصابع  
يد . وذلك في غاية الموافقة لواقعة هذا العضو . والذي يميز رجل الانسان من جهة الشكل كونها تظهر قطعاً

الحيوانات وضع عظام الرسغ واحد . ولها من العضلات القابضة والباسطة القصيرتان والقصية الطويلة مما يجعل القائمة الخليفة تشريحياً رجلاً لا يجوز توهيها يداً . لذلك يرفض هكسلي تسمية ذوات الاربع ايدي . ولا يعتبر الانسان سوى طائفة خصوصية من البرينات . ولا يجوز غير ذلك حتى ولو كان الفرق بين رجل الانسان ورجل الكورلا اعظم مما ذكر ايضاً . والفرق اعظم بين تكوين رجل الاوران اوتان مثلاً والكورلا منه بين الكورلا والانسان



ويؤكد هكسلي انه لا يوجد فرق جوهري كذلك بين باقي الاعضاء كالمعضلات والاحشاء والاسنان والدماغ الخ . فالنسنين الذي هو اوضح الادلة على تقارب ذوات الثدي واحد في الانسان والكورلا من حيث عدد الاسنان وانواعها وتكوين الناج . والفرق بينهما في اشياء عرضية فقط وربما كان اعظم بين انواع القروود المختلفة . وقد يسن شهبوزن ان اسنان اللبن في الانسان لا فرق بينها وبين اسنان القرد بشي لان الاضراس انكاذبة التي تلبث فيما بعد والتي تتميز بناج صغير وجذور ملتصق بعضها ببعض لا توجد في النسنين الاول ويوجد مكانها اضراس صحيحة ذات ناج وجذور اشبه بما في القرد أي ان الانسان يكون في النسنين الاول ادنى في التكوين أي أقرب الى أصله . ولا يبلغ الانسانية حقيقة الا في النسنين الثاني . وفي هذا النسنين أيضاً تشبه اسنان الانسان اسنان القروود العليا في جميع صفاتها ما خلا الحجم . وقد استنتج شهبوزن من ذلك « ان الانسان كان في السابق يعيش على الامار » . وبناء القروود العليا يشبه بناء الانسان في كثير من الامور التشريحية . وقد بين هكسلي انه في تشريح جثث البشر كثيراً ما تلتقي العضلات موضوعة كما في القروود تقريباً . « وعليه فالمشابهة بين الانسان

تجدل فوفها جسم الانسان المنتصب . واما حالة الكورلا من ذلك فهي بين انتصاب الانسان وبين وفوف ذوات الاربع . فالكورلا يقف قائماً مغنياً ورسته مشواو ركض مع عمودياً مع ان جسمه لا يقف على القائتين الخلفيتين وحدها فقط بل قسم منه يستقر على مؤخر النسنين المستقرتين على الارض . وفي الجملة فانه لا يستطيع تصور الانتقال بين الحيوان والانسان الا كما هو موجود في الكورلا . اه



والصور الأدنى منه كما يقول شفهون ليست في الحياة الجينية فقط كما هو معروف من زمان طام بل بل في حالة نمو وبلوغه الكمال أيضاً . ولا يزول أثرها شيئاً فشيئاً »  
وعلى قول هذا المؤلف يوجد من المشابهة بين القرد والانسان في بناء ثلاث من اعظم الخواص ( العين والاذن والجلد ) ما ليس لباقي ذوات الثدي لا فالقرد بعد الانسان هو الحيوان الوحيد الذي له الجسبات الحساسة التي تمس بأخف التأثيرات . وهو الوحيد أيضاً الذي له البقعة الصفراء في الشبكة والذي الدهليز فيه ( الاذن الباطنة ) شبيه بما في الانسان خلافاً لانصاف القرد التي يختلف فيها ذلك عنه »

•••

وأخر دعوى واقراها أيضاً لفصل الانسان عن الحيوان تشرحيًا كانت الدماغ . على أنه وجد بعد الفحص الدقيق ان لا فرق بينه وبين ادمغة باقي الحيوان من حيث البناء التشرحي . ولما كان هذا العضو مهماً جداً كان لا بد من بسط الكلام عليه فاقول ان الأستاذ أون احد مشاهير مشرحي الانكليز سعى من بين كثيرين آخرين في ان يجد في دماغ الانسان فصلاً يفصله عن الحيوان ويضمه في صف خاص بين ذوات الثدي . فقد ذكر ذلك ثلاث مرات وهي اولاً الفئسان الخلفيان لدماغ المغطيان المخيخ والمسطان عليه . ثانياً القرن الخافي للتجويزين الجانبيين الكبيرين . ثالثاً الرجل الصغيرة لغرس البحر . ويراد بها عقدة صغيرة بيضاء مستطيلة مستقرة في الجدار الانسي للقرن الخافي او في قعره تنشأ من شرم او اللوا وحشي مقابل . فعلى زعم أون ان هذا التكوين الذي هو اكل هنا منه في الحيوان يجب ان يضع الانسان في صف قائم بنفسه بين ذوات الثدي سعي صف الارشنسفال اي التساط تميزاً له عن صف الجيرنسفال اي الخاص

•••

ولما انشر مقال أون سنة ١٨٤٧ كثرت مناقشات العلماء له نظير روستون وحكلي والوار وغيرهم وكثر البحث في دماغ القرد كذلك . وكانت النتيجة ان ما قاله أون مغلوطة وانما استند في بعضه على رسوم مغلوطة وناقصة لدماغ الشمبانزي . فان

قد طبعها بعض المشرحين الهولنديين (فروليك وشرادر فان در كولك) . لانهم تحققوا  
أن أدمغة القردة فيها كذا القرن الحفاني لتتجمع بين الجانبين والرجل الصغيرة لفرس  
البحر وأن الفصين الحفنيين للدماغ فيها مملغان على المخيخ أيضاً وأحياناً أكثر مما في  
الإنسان<sup>(١)</sup> ولزيادة الأسباب فليراجع القسم الثاني من كتاب هكسلي في مقام  
الإنسان في الطبيعة

ولما حجم الدماغ الذي ينبغي اعتباره أيضاً فقد بين هكسلي أن الفرق بين أصغر  
جمجمة بشرية وأكبر جمجمة للكوولا وأن كل عظمياً إلا أنه أقل مما هو بين فروع  
البشر المختلفة وقد قاس مورنون حجم بشرية فبلغت مساحة أعظمها من الباطن ١١٤  
قيراطاً وأصغرها ٦٣ قيراطاً . وقيل أنهم رأوا حجم هندو لا تتجاوز مساحتها ٤٦  
قيراطاً ومساحة أعظم جمجمة للكوولا لا تتجاوز ٣٤ قيراطاً وعليه فإن حجم الدماغ  
يختلف من أدنى الإنسان إلى أعلاه أكثر مما يختلف بين الإنسان والقرد . وأما تلافيف  
الدماغ التي أرادوا أن يجهلونها امتيازاً خاصاً بالإنسان فتمت موجودة في دماغ القردة  
وبالغة كل درجات النمر من الدماغ الملس للسناس إلى دماغ الأوران أوتان  
والشبانزي الذي قلما تختلف تلافيفه عن تلافيف دماغ الإنسان

وهكذا أي عضو أو أي جهاز فحشاء كان لنا نفس النتيجة التي ذكرها  
هكسلي والتي هي خلاصة أبحاثه وهي أن الفرق من حيث البناء أقل بين الإنسان  
والقرد منه بين طوائف القردة المختلفة

والاستاذ هكسلي يقول كذلك أن الفرق بين أدنى الإنسان وأعلى الحصوان في  
النك فقط أي في العدد والحجم وهو أقل مما بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا  
والفرق على رأيهم أعظم بين رجلين أحدهما من الطبقة العليا والآخر من الطبقة السفلى  
منه بين أدنى الناس وأعلى الحيوانات . وعنده أن الأنتروبولوجية أو علم الإنسان ليس

(١) وقد عرف لون غلطة حديثة حيث قال (أنهم حينئذ أن كل الأجزاء النكافة في بناء دماغ  
الإنسان موجودة في فترات تزرع أيدي (القردة) أيضاً إلا أنها عندنا كثيراً وأدنى جداً ما هي في  
الإنسان) ومع ذلك فإن هذا الفرق النسبي كبير عند هذا العلم (ومع أن الإنسان في صف وحده)



الافرنجاء من الزلوحة او علم الحيوان

وعليه فلا يوجد فرق جوهري بين الانسان والحيوان ينفصل به الواحد عن الآخر  
انفصالاً تاماً لا في الجسائي ولا في الروحاني أو العقل لانه لا شبهة اليوم في أن الدماغ  
عضو الفكر وأن العقل يختلف بحسب كبر الدماغ وشكله ووضعه ونموه أي أن الانسان  
والحيوان سائر جسمانيًا وروحانيًا والفرق بينهما في القو والارتقاء فقط ٩

على أنه يوجد كثير من الفلاسفة واللاهوتيين والطبيعيين لا يسلم بأن الانسان  
 حيوان الأ في الجسائي فقط وأما في الروحاني فهو غير خاضع لنواميس الحياة الحيوانية  
 ونحسب على ذلك بأن المقابلة بين عقل الانسان وعقل الحيوان القريب منه تؤدي  
 الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها تشرح المقابلة. وبعرض للفلاسفة ولأصحاب ماوراء  
 الطبيعة عند ما يحاولون بيان الفاصل بينهما نفس الصعوبات التي تعرض للمشرحين.  
 فلا يوجد فاصل بين الانسان والحيوان عقلياً كما أنه لا يوجد جسدياً فان أعلى قوى  
 لانسان العاقلة موجودة جبروتياً في أدنى طبقات الحياة. وأرفع حاساته وأقواها كاللمحة  
 والمودة والشفقة والالم والحقد والحزن الخ موجودة في الحيوان أيضاً فكل ما يتميز به  
 الانسان من الصفات النبيلة موجودة في الحيوان كني حالة موعود بها والفضل  
 في ارتقاتها فيه الى ناموس الانتخاب الطبيعي. فالانسان لا يتميز عن الحيوان الا بكون  
 الصفات المشتركة بينهما أبلغ فيه واظهر وبقائه الانسب أرقى<sup>(١)</sup>. وهذا الذي جعل  
 القوى العقلية فيه تقوى على الاميال السافلة والشهوات الفاسدة

ولا ينبغي أن يظن من ذلك أن هذه القوى العاقلة غير موجودة في الحيوان  
 أكلاً. فالحيوان يقابل ويستفري ويستنتج ويتعلم بالاخبار ويتأمل كالانسان والنحطاطة  
 عنه في ذلك كمي فقط. ونواميس الفكر في الحيوانات العليا هي كما في الانسان. ومعرفة

(١) ان ما بين الانسان على رأي مئكل عن الحيوان هو ان الله اعطاه كثيراً غامية جداً اي في نوع  
 صفات كثيرة مختلفة لا توجد في الحيوان الا متفرقة مثلاً حسن. نرفع لو كمال في بناء العظم والدماغ  
 والاعراف الخ عظمة قوة الفكر وكثرة الدم والاعتدال في المنهج

الاسباب واستخراج النتائج يتان في كليهما على شرائط واحدة . وكل النظامات السياسية والاجتماعية للانسان موجودة في الحيوان ولكن على سبيل الرسم . وقد تكون اقل فيه منها في الانسان . والخلاصة ان حياة الحيوان العقلية لم نعلم الا قليلاً حتى اليوم وقد حطت جداً عن مقامها لان اساتذتنا الفلاسفة الذين جعلوا درس هذه المسائل محصوراً بهم قد بنوا احكامهم على امور مجردة لا على الاختبار . ولما الذين يدرسون هذه الاشياء عن قرب فانهم يرون اموراً غريبة كثيرة تعلم على ما يستطيع عقل الحيوان . ولهم ذلك لا ينبغي الاعتماد على العلماء الذين يجلسون وراء مكاتبهم بل على الناس الذين يخالفون هذه الحيوانات كالصيادين والرعاة والفلاحين واصحاب معارض الحيوانات والمحافظين عليها وغيرهم الذين ييسر لهم مراقبة اعمالها العقلية ففهم نعلم اشياء مختلفة عما يقال عادة . فالحيوانات ليس لها عقل وعواطف كالانسان فقط بل لها أيضاً لغات وجمعيات قد تكون منتظمة احياناً اكثر من جمعياتنا . وتبنى بيوتاً وقصوراً تظاير بها قصورتنا . وعندنا جنود وامرى وسجون ومحاكم . وتعتنى كبارها جداً بنهذيب صغارها وبما كان اعتناؤها بذلك اكثر من اعتناء الانسان به . وتغير اخلاقها وتكتسب كثيراً بمخالطة الانسان ( والحيوانات الاهلية شاهد على ذلك ) خلافاً لزم من ينفي هذه القابلية عنها توسلاً لجعل ذلك فاصلاً لها . حتى ولو صح هذا الزعم لما ساع جعله صفة خاصة به دون غيره اذ ان متوحشي البشر قلما يكتسبون كذلك . وجميع فروع البشر غير متساوين في هذه القابلية فان احر الجلد والاسكيمى والبولينيزياوي والماوري والاورالي الخ يتلاشون جميعهم كما لا ينبغي بمخالطة القوم المتدنيين . ولا نعلم من قوي على ذلك وارتفع فوق حاله الاملية سوى الاسود الذي ادخل الى امريكا الشمالية وهذا أيضاً في حالة العبودية وبمخالطة الانسان ( نظير الحيوان تماماً ) . واذا قالوا ان الانسان له خاصية النطق لتعبر عن افكار مجردة فانهم أيضاً لا يثبتون شيئاً اذ ان الالفاظ المعبرة عن ذلك لا وجود لها في جميع اللغات الامريكانية كما يعلم من فيولوجية المقابلة . وكذلك اللغات الاورالية وبعض اللغات البولينيزاوية واكثر الالسة التي يتكلمها سود اوسط افريقيا واذا اريد المقابلة بين



الانسان والحيوان فيلزم ان لا تكون مع اكثر الناس قدماً اذ ان الفرق بينهما عظيم بل  
مع متوحش افريقيا او استراليا القريب الى الحيوان جداً ولن كان يطلق عليه اسم  
الانسان نظيرنا . واذا كان الاساذ يشوف المشرح والفيسيولوجي الشهير برى فرقاً بين  
الانسان والحيوان في ان الانسان له ما عدا الضمير شعور بالذات ايضاً يعرفه « انه »  
قوة يقدر الانسان بها ان يتأمل ذاته و بسائر احوال الاشياء ونسبها الى باقي الخلق «  
فيليق بنا ان نسأله اذا كان يستقد ان ابن زلанда الجديدة او متوحش الامازون او ابن  
جزائر فيليين او الاسكيمو او البو كودي حتى الصعلوك الاودو باوي له ذلك ايضاً  
اي الله يستطيع ان يتأمل سيفه هذه الاشياء الجليلة . لكنه يقول هو عنهم انهم اناس  
تأمهون متوحشون لم تتم فيهم « الصفة البشرية الخاصة » واسوء البخت لا يذكر من  
ابن جابنا بما يسمى « الصفة البشرية الخاصة » ان لم يكن من مراقبة نفس الانسان .  
وهو ينقض كلامه بكلامه اذ ينفي عن اناس هم بالحقيقة بشر الصفة المبهرة للبشر على  
زعمه ولم يبين امكان ظهور هذه الصفة بطريقة من الطرق على اننا نعلم علم اليقين من  
الحوادث الجليلة كما قلنا مراراً ان الفروع السفلى الاقرب الى الحيوان منها الى هذا  
الانسان التصوري الذي خلقه يشوف ليس انها لا تقبل التهذيب فقط بل تهلك اذا  
اريد اخضاعها له ايضاً

ويشوف منفرد وحده بين الفلاسفة الذين حشر نفسه بينهم في تعريفه الانسان  
فالانسان من أي طبقة كان والحيوان كذلك لها هذا الوجدان او العلم بما يسمى  
« انا » او كما يقولون ايضاً الشعور بالذات . ولا ينبغي كما يقول شعور شعور عن الحيوان  
بدون ادنى سبب فظاهر الاً الفلاسفة الذين لا شعور لهم . ويقول ايضاً انه يلزم ان  
يقع احد هؤلاء الفلاسفة بين مخالف التمر حتى يعلم على نفقته كيف يفرق الحيوان بين  
ما هو ( انا ) وما ليس ( بلنا )

والعقل ليس قوة خصوصية بل مجتمعة القوي الماخو كالتأمل والاستفراء والتصور  
يسى عقلاً وهو ليس خاصاً بالانسان وحده بل هو في الحيوان ايضاً قل شعورهم

( ليس من العدل ان نقيم حاجزاً حصيناً بين الانسان والحيوان بقولنا — الانسان عاقل والحيوان غير عاقل — . وكيف يجوز جعل العقل صفة مميزة لسائر البشر على السواء . ونحن نعلم ان بين فروع البشر بل الافراد تفاوتاً من هذا القبيل <sup>للكيف</sup> واحد عقله بقدر ما قسم له من التهذيب وابن العقل البشري اذا يقتل المتوحش عدوة ويشرب من دمها ؟ وان قيل ان ما يميز الانسان عن سواه ان لم يكن العقل نفسه فتأليته لان يصير عاقلاً فلاختبار يكذب ذلك لانه اذا كنا قادرين ان نعقل فالفضل في ذلك لحيواننا ولجميع مسائطنا العقلية . الا ان نحو هذه القوى العالي الذي يضعنا فوق الحيوان ليس واحداً في سائر الناس . ولقد اصاب ايل بقوله « ان عاملاً واحداً روحياً لا فرق في تسميته بدمية او نفساً او عقلاً يتحرك في سائر العالم الحي من اسفل الى اعلى » وعلى رأي شفهون : ان القول بان الانسان يتميز عن سائر الحيوان لاستعانتهم بالالات وحده خطأ مبين . لانا نعلم عن ثقة ان الفرد يكسر الجوز بالحجر وانه يرمي الحجر بين طيقتي صدقة ام الحلال لكي يفتربها

وانا لفي غنى عن اطالة البحث في هذه الاختلافات بين الانسان والحيوان فانها لا تخفى على احد . وهي ذات شأن عظيم في المدارس . وكتب التعليم مشحونة بها والمعلمون يدخلونها جبراً اولاً وثانياً وثالثاً في رءوس التلامذة الذين تأخذهم هزة العزة لعلو مقامهم البشري . واكتفى منها بذكر قضيتين كافيتين وحدهما لتبيين فساد المذهب كله . وهما الاتصاف في المشي والنظر المتجه نحو السماء . والقضية الاخيرة مغلوطة لان الانسان لا ينظر الى السماء دائماً كما ان الحيوان لا ينظر الى الارض دائماً وانما كلاهما ينظران امامهما طبيعياً واما اولئك الذين يوجهون انهم نحو السماء اكثر مما الى الاشياء التي امامهم فما يسخرهم وبكل الاحوال لا يعتبرون من طبقة اصحاب الافكار

(١) بل ربما فقد انما قال كورنيس في رساله عن المود ما نعه لا انما في عين من ان الموع  
الامر لا يستطيع ان يبلغ مبلغ الموع الا ان يفسد قوة الفريد والنفس وادراكه لأمس العقل ككل ذلك  
مفود منه فلا يعرف الحياة العقلية بل كل حياته طبيعية



وأما المشي عمودياً فهو موجود في كثير من القردة وربما كان فيها أكثر لولا أنها  
 قبيح غالباً على الأشجار ولولا أنها ماسكة . فالببون وهو أصغر القردة الشبيهة بالإنسان  
 يكون أكثر قياماً منتصباً إذ يكون على الأرض . وكاستانو يقول عن اللاكونريش<sup>(١)</sup>  
 أنه إذا ربطت يداها وراء ظهره مشى ساعات طويلة على رجله ولم يتعب والانتل أو  
 القرد ذو الصنارة متحرك جداً ونبيه كذلك يقف غالباً منتصباً . والشبانزي  
 والكورلا لا يمشان الأرض في مشيهما إلا بأصابع اليد أو بقفاها وهي تشبه يد الإنسان  
 كثيراً . وقد قلنا في ما تقدم أن مشي الكورلا متوسط بين مشي الإنسان ومشى  
 الحيوان . ويوجد أيضاً كثير من القوم المتوحشين يقبضون غالباً على الأشجار كالقردة  
 وفيهم الرجل كما في القردة أيها ما موضوعة كما في الرجل الماسكة . فرجل اهالي كالادونيا  
 الجديدة على قول روكلس تفيدهم للأمسك كما تفيدهم لتعشر على الأشجار إذ أنهم  
 يتمسكون بها بالفصوص كما تفعل اليد . واهالي جزائر فيليبين<sup>(٢)</sup> لا يتجاوزون أربع  
 أقدام ونصف قدم وهم قوم متوحشون يقومون عمدة أو يشدون على وسطهم فقط منطقة  
 من قشر الشجر ويقبضون نارة على الأشجار ونارة على الأرض وأصابع وجلبهم ولا سيما  
 الأبهام منها موضوعة وضعاً يمكنها من التمسك بها بالأغصان والحبال كاليد واحدة  
 قبائلهم المتوحشة واسمها الاجطاس يقبضون غفرهم على الأشجار . ويوجد في الملايين  
 سكان جاوا الذين يستعملون أرجلهم أيضاً كأيديهم بعض صفات خاصة بالقرد لا وجود  
 لها في الفرع التوقاسي فلا يصيبهم الدور وينامون معلقين في الهواء مستندين إلى  
 غصن أو ما شاكل<sup>(٣)</sup>

(١) نوع من القردة نية ويدجن بسهولة

(٢) م واليابواي اهالي مولانا الجديدة من اصل واحد

(٣) والملايين معروفون أيضاً بأرض يدعى (لانا) كالقردة يعمل ما فيه يظن كمن ما رآه فعل  
 ماله - واحد الا ان كتب على رآه عن الطبقات السلي لشرف في الهند ان كان يريه قال (انهم يشبهون  
 القرد كثيراً في عاداتهم وفي قوتهم وجلبهم وغير ذلك من احوال جسد) . وهم لا يفلتون القرد لانهم  
 يعتبرونه انساناً مسوئلاً واما انهم بالبحري فمجرد مسوئله - والدكتور ادوي لانان يختم رسالته كثرها  
 في انسان الغاب الدوار في اي التوتوكودي يقول (اني قد اشتهت بكل اسف بانة يوجد قردة ميت  
 ذوي اليدين

ولا شبهة ان الرجل البشرية لم تخسر حركتها الا شيئا قليلا لاستخدامها  
لعمل آخر ولا استعمال الخدود. ولما شاع على ذلك في سكن جنو في فرنسا فانعازهم  
على التعرش على الاشجار جمعت عندهم سهولة كلية في تحريك اصابع وجباهم بحيث  
يقابلون ايهاهم لباقي الاصابع كالقروود ويتناولون بارجلهم اشياء شتى من  
على ان وقوف الانسان عموما منتصباً على قدميه ليس كله طبيعياً لان وضع  
العمود الفقري لا يقتضيه لزوماً اذ لا يرتبط الجسد به الا من جانب واحد فقط.  
ولذلك كان الاطفال والشيوخ كثيرى السقوط الى الامام. والاطفال لا يتعلمون المشي  
منتصبين الا بكل صعوبة. والما كان ثقل الجسد كله متعلقاً بهذا العمود من جانب  
واحد فقط كان ذلك فيه سبباً للانحناء الكثير الحاصل لانه كثيراً ما لا يقوى على  
حمل هذا الثقل

ولكى نفرغ من هذا الموضوع لم يبق علينا سوى امر واحد كثيراً ما اعتبروه  
ذا شأن عظيم وعند الفحص الدقيق تسقط قيمته كغيره اعني به غشاء البكورة  
والحيض اللذين اعتبرنا انهما خاصان بالانسان. فكلاهما يوجدان في القروود وفي  
غيرها من ذوات الثدي ايضاً. وقد ذكر الدكتور نورث من سنوات كادت ان بعض  
اجناس القروود ولا سيما قروود العالم القديم تحيض حيثما صحبها كل اربعة  
سابيع وبعضها مرتين في السنة



فيظهر مما تقدم انه لا يوجد فرق مطلق او كفي بين الانسان والحيوان لا  
اجمائياً ولا روحانياً بل الفرق بينهما نسبي او كمي فقط. على ان الفراغ العظيم الكائن  
بينهما يتسع يوماً عن يوم لازدياد التمدن ولموت الاصول المتوسطة. ولذلك كلما بعد  
الانسان عن اصوله الاولى زادت الصعوبة في معرفة الحقيقة فان الاصول العليا للقروود  
والفروع السفلى للبشر صارت في حالة التلاشي منذ زمان طويل وكل منها يتل سنة  
عن سنة بخلاف الانسان التمدن فانه لا يزال يزداد ارتفاعاً وانتشاراً على سطح الارض  
فيستوفى تصوير المسافة التي تفصل الانسان عن الحيوان اكبر جداً منها اليوم بعد وضع



مئات او بضعة آلاف من السنين بحيث يتعذر قطعها على علماء ذلك ذلك العصر البعيد ان لم يروا في الكتب مستندات يستندون اليها .

على ان اكتشافات السياح والفوائد الناجمة للعلم منها نتيجتها تسهيل الصعب من ذلك . فانه في اواخر القرن الثامن عشر وفي اوائل التاسع عشر لم يكن يعلم الا القليل النزر عن القروود الشبيهة بالانسان وما كان يذكر عنها جملة كوفيه على محمل الخرافة وقال انه من مختلفات زميله بوفون . ولما اليوم فنعرف اربعة قروود شبيهة بالانسان : الجييون والشيمبانزي والاوران اوتان والكورلا ومعرفة هذا الاخير حديثة العهد . فالكورلا يشبه الانسان كثيراً بالقدر والميكل وكيان اليد والرجل والتسنين وغير ذلك ومما روي عن قوة هذا الحيوان وشراسته من المبالغة فقد تحقق انه صحيح في اكثره . وهو اقوى القروود الشبيهة بالانسان على القيام والمشي واقفاً الا انها تشبه الانسان في بعض اشياء اكثر منه . فالشيمبانزي له رأس ودماغ قريبان من رأس الانسان ودماغه . والجييون وان كان لا يتجاوز قدمه ثلاثة اقدام الا انه يشبه الانسان كثيراً بقص صدره وانواع جلوسه .



فأوجه الشبه مع الانسان غير محصورة في نوع واحد من القروود بل متفرقة في انواع كثيرة . وهذا كاف لاطهار غلط اولئك الذين يريدون ان يحصروها على ما يفهمون من مذهب دارون في صورة واحدة تصل بينه وبين القروود رأساً وقد يتست هذا الغلط في ما تقدم حيث قلت انه لا يجوز البحث عن صور انتقالية بين الصور الحاضرة ولكن بينها وبين جد قديم انقرض من زمان طويل وكان يجمع فيه الصفات المختلفة للانواع الحاضرة . وقلت ايضاً وقد ذكرت مثال الصور الاربع الحاضرة الفرس وحمار الوحش والحمار والكواجا انه لا شك في ان اصلها واحد الا انه لا يجوز ان نطعم بوجود صور حية متوسطة بينها . قال الامتاذ هليار « ان الاجسام الحية المقيمة بعضها بجانب بعض قد تكون مختلفة جداً ولا حاجة الى ان يكون بينها صور انتقالية لانها لم تكون بعضها

من بعض بل تكونت بعضها بجانب بعض ولئن كان جدّها واحداً إلا أنه يمكن أن تكون مختلفة جداً

كذلك إذا اردنا شق الانسان من عالم الحيوان على مذهب دارون فلا يجوز لنا ان نبحث عن صور متوسطة بينه وبين الكورلا بل بينه وبين جدّه او اجداد مجبولة نشاء منها فرع الانسان من جهة وفرع القرد من جهة اخرى

•••

ورب قائل يسأل هل مثل هذه الصور الانتقالية وجد او وجد ما يدل على وجوده فأجيب نعم . فان الاكتشافات العلمية في هذه السنين المتأخرة قد جادت علينا بكثير من ذلك . على ان هذه الاكتشافات على فرض انها لم تعلم لا يجب ان نحول بيننا وبين اطلاق مذهب دارون على الانسان . لانه كما تقدم في المقالة السابقة جواباً على اعتراض فقدان الصور الاحفورية المتوسطة لا قيمة لهذا الاعتراض لقلة المعلوم لنا من الارض ويتضح ذلك اكثر مما يأتي . فان القارات التي تعيش فيها القرد الشبيهة بالانسان الكبيرة والتي يلزم أن تكون فيها الصور المتوسطة لا تزال محجوبة عن الابحاث الباثولوجية . وهي المناطق الحارة لقارة افريقيا وجنار جافا وبورنيو وصومترا . ولا نعرف شيئاً أيضاً عن ذوات الثدي التي كانت تعيش في طبقة البليوسن والبليوسن الاخير لهذه الاماكن . وأما في أوروبا فقد وجد في طبقات الميوسن أي في متكونات الارض ايام كانت أوروبا حارة اكثر من اليوم بقايا قرد احفورية . وكان يظن من عهد غير بعيد انه لا يوجد قرد احفورية في أوروبا كما كان يظن ايضاً انه لا توجد احافير بشرية لا سبيل اليوم الى الشك بوجودها . وقد استخرج من أوروبا في زمن قصير ستة انواع من القرد الاحفورية بعضها يجمع فيه بعض الصفات الموجودة في القرد والانسان اليوم . وروتيمر وجد في الاراضي الثلاثية لسويسرا قرداً احفورياً يجمع فيه صفات ثلاثة انواع من القرد الحية ( وهي الكترهين والبلاتيرهين والماكي ) . والقرد المسمى دروييتكوس لارتت نوع من الجييون طويل الذراعين وجدت بقاياه في سفح جبال اليرينز الفرنسية سنة ١٨٥٦ في طبقات الميوسن الاعلى وكان اكبر من الكورلا



واسنانه أكثر شبيهاً بأسنان الإنسان من الشبانزي أي كان أقرب إلى الإنسان من  
سائر القردة الحاضرة الشبيهة بالإنسان

فإذا كان مثل ذلك وجد في أوروبا حيث كان الأمل به قليلاً جداً فكم يجب  
أن يكون كثيراً في الجهات الاستوائية التي هي موطن القردة الكبيرة . ولا سيما في  
طبقات البليوسن والبيوسن الأخير . وأما زوال الصور المتوسطة وعدم بقائها زماناً طويلاً  
فلما حصل بينها وبين الإنسان من المنازعة الشديدة في تنازع البقاء



فمن الجهة الواحدة قد وجد إذا قردة احفورية أقرب إلى الإنسان من القردة  
الحاضرة ويرجى وجود أخرى تكون دليلاً أوضح أيضاً . ومن الجهة الأخرى قد وجد  
أيضاً في هذه السنين الأخيرة كثير من صور البشر الاحفورية ومن المصنوعات البشرية  
وهي قديمة العهد جداً . والأربعة أو الخمسة آلاف سنة المعروفة لتاريخ الإنسان ليست  
شيئاً بالنظر إلى وجوده السابق العهد التاريخي . وتكوين هذه الآثار النشربجي يضيق  
المسافة التي تفصل الإنسان عن الحيوان أيضاً . ويطول بنا الشرح إذا أردنا فحص هذه  
المسألة المهمة بالتدقيق فلنراجع في مؤلفات ليل وشارل فوجت وهكسلي وبوشه وغيرهم  
من العلماء الذين بحثوا فيها . فقط أقول أن جميع الجاهل والمفاهيم البشرية القديمة العهد  
جداً خصوصاً الحجمة الشهيرة لنياند رسال والفك السفلي الاحفوري الذي وجدته  
ديون حديثاً في مغارة نولات على الالاس في بلجيكا كلها ذات تكوين دني جداً  
شبيهة بتكوين الحيوان وقرية من القردة أي تدل على أصل حيواني . ثم ولئن يكن  
تكوين الاحافير البشرية السافلة أدنى من تكوين أدنى المتوحشين اليوم إلا أن  
الإنسان القرد كما يقول شفهورن الذي لا بد من أن نعثر عليه يوماً ما لم يوجد بعد .  
والسبب العظيم لذلك — بقطع النظر عن قلة المعلوم لنا من الأرض — هو عدم موافقة  
الأحوال الجيولوجية في الماضي القديم جداً لحفظ العظام البشرية خلافاً للعصر الذي وجد  
فيه الإنسان المعاصر المموت والحيوانات الكهفية . ولهذا السبب كما يقول شفهورن أيضاً  
لا يرجى العثور على آثار الإنسان القديمة جداً إلا في أحوال غير اعتيادية ومع ذلك

فربما لا يحرم العلم من هذه الاكتشافات. وأنا من رأي جورج بوشه في هذا المعنى حيث يقول من رسالة في الانثروبولوجية ما نصه :

« ان الباثولوجية البشرية ربما تظهر لنا يوماً من الايام اجساماً حيّة تختار فيها أبشر هي ام قرود بشرية »

وهو يقول ايضاً من كتاب في كثرة الفروع البشرية ( سنة ١٨٦٤ ) من فصل منه ما نصه :

« من يقول اننا لا نجد غداً جمجمة قد تضطر لوضعها بين القرد الشبيه بالانسان والانسان »

وانه لا امر مقرر في سائر الاحوال ان ما اكتشفه وحصله العلم معها كان قليلاً وناقصاً فجميعه يشير الى معنى واحد اي الى رباط شديد يربط الانسان بالحيوان . واذا كانت غير ذلك فلماذا لم نجد امراً واحداً يدل على الضد منه او شيئاً يدل على الفردوس او على صورة بشرية اكمل من الصورة الحاضرة من الصور الكاملة التي خلقها الله والتي نحن اولاد لها ولحق بهم النقص بسبب الخطية . فالجواب لان ذلك امر مستحيل اذ لا يمكن ان يكون شيء يضاد وحدة الطبيعة قل بوشه « الطبيعة واحدة وسعي العلوم الحديثة انما هو للوصول الى هذه الوحدة »

\*\*\*

واذ ثقرر ذلك لم يبق علينا الا ان نعرف كيف نخلص عقل الانسان وصورته من عقل الحيوان وصورته وبأي الطرق

ليس لنا من المواد ما يكفي للجواب على هذه المسألة جواباً صريحاً أكيداً . الا انه يمكن توضيح بعضها والبحث في هل حصل ذلك فجأة أو رويداً رويداً قليل الذي بحث فيها في كتابه — قدم الجنس البشري — يزعم ان هذا الارتقاء حصل للانسان فجأة مستنداً فيه الى النوابع الذين نبغوا في التاريخ بدون ان يكون في اجدادهم شيء من الذكاء يدل على مجيئهم . فربما حصل هكذا في بعض الافراد او الاصول الحيوانية فثبتت فيه بعض الصفات البشرية فنشأ عنه فرع اقرب الى الانسان وهذا الزعم



فيه شيء من المذهب الذي تكلمنا عنه في ما مر أي مذهب التكوين الكثير الطباع  
للإنسان كوليكر

فمن أراد تصديق هذا الرأي فهو مخبر . وأما أنا فلا أراه ضروريا بل الارتقاء البطيء  
كافٍ للتعليل عن كل امر . والتوابع لا يسقطون من السماء كما يظهر من كلام بل بل  
هم نتيجة فعل النوايس الطبيعية المحدودة الاموال المناسبة كطبيعة الوالدين وامتزاج  
صفاتها المتضادة امتزاجاً حسناً . وأضف الى ذلك التربية والاسرة والمكان والزمان  
وغير ذلك من الشروط التي لا تنبع التوابع بدونها وما عدا ذلك ففي الطبيعة ناموس  
عام هو ان صغار الحيوانات والقردة والبشر الذين هم من اذنى جنسهم يشابهون أكثر  
من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل . فان صغار القردة خاصة يشبهون جداً  
الاطفال باستدارة جمجمتهم ولا تتميز فيهم صفات القردة الا مع السن فتبدو  
الانخفاضات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة . وكذلك يحصل في  
الاخلاق فترداد القردة شراسة وقساوة ولا تدعن للتربية كما طعنت في السن . وهكذا  
ايضاً في اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهم يظهرون في المدارس ذكاء  
وقابلية للتهديب لا مزيد عليهما . فاذا بلغوا اشد هم تخلقوا باخلاقهم الوحشية وخسروا  
كما اكتسبوه بالتعليم كأن لم يكن شيء من ذلك . فمثل هذه الشواهد يعلمنا انه  
يوجد في سن الصبوة استعداد خصوصي لقبول الارتقاء فاذا وافقت الاحوال الخارجية  
فربما شب اصل من الاصول لما فيه من القابلية وهو صغير فيبلغ ارتقاءً عالياً حسباً ومعنوياً

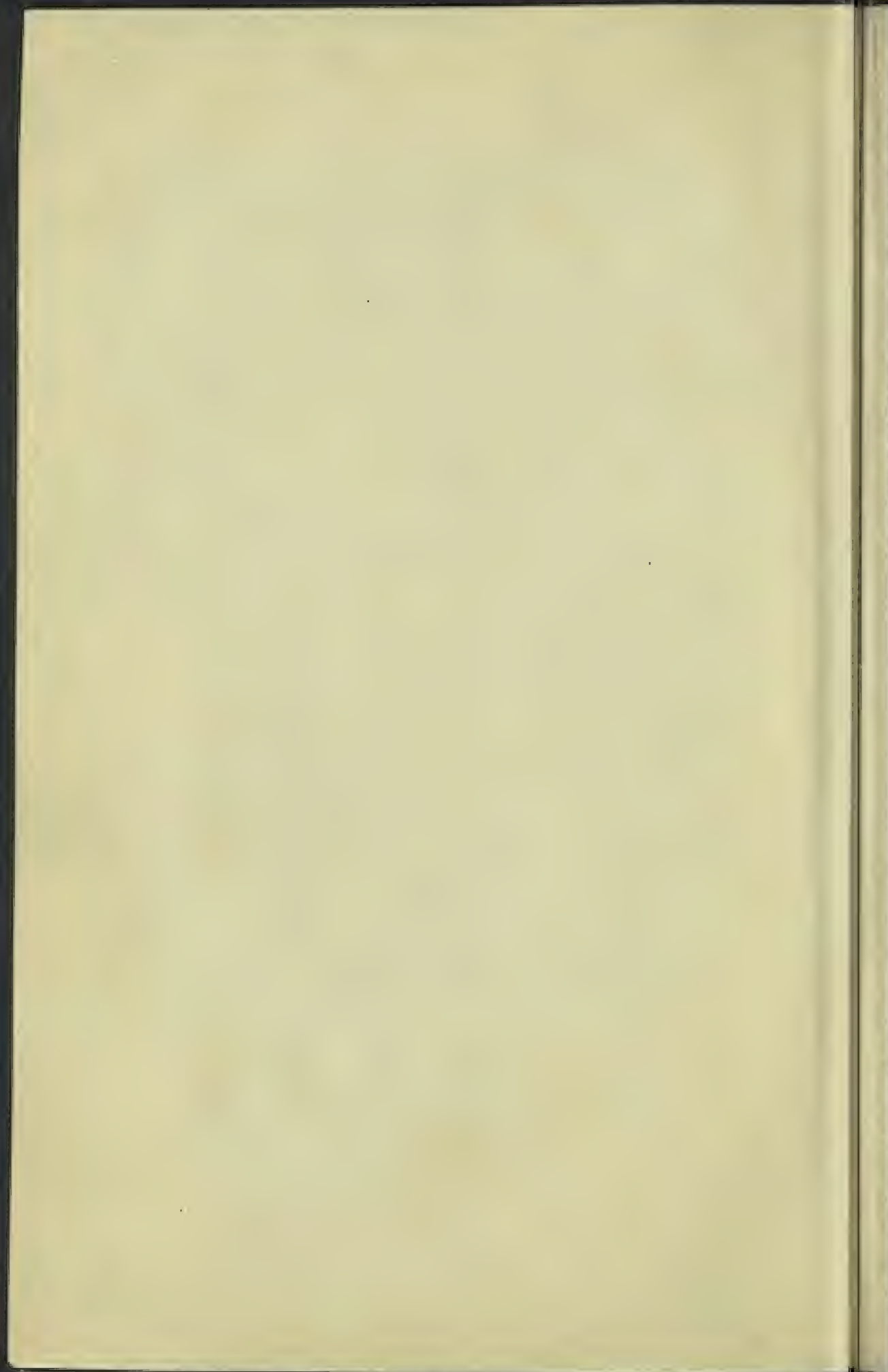
فما هي الآن نتيجة اطلاق مذهب التحول على الانسان هل هي جيدة ام ردية  
معظمة ام محسرة مكروهة ام مقبولة وهل اصاب — وفنجان منزل — في تنديده بي  
حيث صرخ متكرهاً « الانسان ابن قرد . آله مصنوعة للبهيمة » او يجب اتباع رأي  
هكسلي الذي يقول انه عوضاً عن ان نرى في الخطاط اصل الانسان عاراً وسبباً للقطوط  
ينبغي علينا باعتبار اصلنا وما وصلنا اليه بالتربية ان نزداد رغبة ونشاطاً بلوغ غاية  
اعظم فاعظم واعلى فاعلى دائماً

فانا من هذا الرأي واختم مقالتي بكلام استعرتة من كتاب تاريخ الرأي المادي  
للفاضل لانيج حيث قال :

« لا يليق بالفيلسوف ان يحمر خجلاً كما فعل بليزوس من حقارة اصلنا لان ما  
يظهر لنا انه حقير هو بالحقيقة اجل شيء وقد صرفت الطبيعة فيه اعظم صناعة حتى  
لو كان الانسان من اصل ادنى ايضاً لما اقتضى ان ينحط عن كونه اشرف  
الكائنات » (١)

(١) كأن الانسان في مجموع من اصل الانسان لا يتوخى الحقيقة العلمية بل ان يثبت شرف الانسان  
نقط ويرى ان هذا الشرف انما يكون بالارتقاء لما فاخر بعقالي بالبر ولنفضل عليه العصاة النفس  
ولاشتمك اولا بالطرف المكامل لا بالتلبس المغطى







ارشدت حبیکی



## المقالة الرابعة

فهرست : نسبة القول بالتحول الى مذهب الارتقاء — انكار الارتقاء واساس هذا الانكار — اكتشافات صور احياء راقية في طبقات الارض القديمة — بقاء اصول الحيوانات البحرية الحديثة حتى اليوم — وجود صور صفوف الالحياء الهمة في اعلى طبقات الارض بين ارتقاء تكوين كثير من اجناس الالحياء الاولى — شواذ اخرى وامثلة على التفقر — النظر الى التاريخ من هذا القبيل — السير في دائرة واحدة بلا ارتقاء — نسبة هذا القول — الارتقاء ليس سلسلة بسيطة بل هو عدة سلاسل بنشأ بعضها بجانب بعض وارتقى بعضها فوق بعض — مطابقة نواميس الارتقاء في الطبيعة لنواتيس الارتقاء في التاريخ — شعوب واقفة وشعوب راقية — وجود الانسان قبل التاريخ — بقاء الارتقاء — مفعول القرية يشتد اكثر فاكثراً كلما كانت الصور ارق

فخصص في هذه المقالة مذهب دارون بالنظر الى مذهب التقدم ونواميسه في الطبيعة والتاريخ

تقدم في ما مر ان الارتقاء في التحول نتيجة غالبية لا لازمة . وقد ذكرت شاهداً على ذلك الاصول الباقية على حالها للحيوانات البحرية الدنيا فانها لم تستفد شيئاً بالانتخاب الطبيعي او استفادت شيئاً لا يذكر لشدة بساطة تركيبها ولا استواء احوال الاشياء التي من خارج المحيطات بها . وذكرت ايضاً بعض امثلة تدل على تفقر بعض الاحياء وقلت ان الانتخاب الطبيعي قد تكون نتيجته في بعض الاحوال تفقر لا تقدماً . وفي وسعي ان اضيف الى ذلك ايضاً بعض طوائف من الحيوانات الدنيا خاصة كانت في الاصل اعلى تركيباً واكثر اختلافاً منها اليوم

فبناءً على ذلك وعلى امور اخرى قد انكر بعض العلماء الارتقاء في الاحياء ومنهم قوم من مذهب دارون . وليل مع كونه من مذهب الارتقاء مراتب في مسائل كثيرة وخصوصه مع اضطرابهم للاقرار بارتقاء بعض الطوائف والاجناس يزعمون ان ذلك لا يدل دلالة صريحة على ان الارتقاء مطرد في سائر الاحوال

فالعلماء ولا سيما علماء الانكسار الذين بحثوا كثيراً في هذه المسألة منتسبون الى قسمين اصحاب مذهب التحول واصحاب مذهب الارتقاء. فمن القسم الاول من ينكر الارتقاء ومن القسم الثاني من ينكر التحول ومثل هذا الاختلاف حصل بين العلماء في المانيا ايضاً وقد اشتد بينهم الخصام ولا سيما على مذهب جيولوجي وضعه اولاً الأستاذ ييشوف من (يون) فاصحاب هذا المذهب يتكرون كل ارتقاء في العالم العضوي ولا يستغريون وجود آثار بشرية في الصخور السيلورية والمدفونية أي في باطن الطبقات المشهورة انها اقدم التكوينات الارضية وذلك موافق لرأيهم في تكوين الارض اذ يعتقدون ان الارض لم تتغير في احوالها منذ الازل فلم تتغير في موجوداتها وكل دور من ادوارها يعود على بدء — على ان الجيولوجيا لا تستطيع فصل المسألة وحدها بل يلزم في ذلك اعتبار الباليونتولوجيا والتشريخ والفيزيولوجيا والامبريولوجيا ايضاً فلا يصح الحكم الا بعد اتفاق سائر هذه العلوم —

\*\*\*

ومن زعماء هذا الرأي اطوفولجر ظهر اولاً بكتاب سماه « الارض والازل » ( سنة ١٨٥٧ ) ثم برسالة تلاها على مجمع الطبيعيين في ستيين سنة ١٨٦٣ فهو يرى ان المذهب القديم المعمول عليه حتى اليوم اي « العالم الاول للاسماك » و « العالم الثاني للجرذان » و « العالم الثالث لذوات الثدي والطيور » و « العالم الرابع للانسان » تنقضه الاكتشافات الحديثة. وان اصل طوائف الحيوان المختلفة ابدت كثيراً مما يظن فانه تعلم الآن ذوات ثدي وطيور من الدور الثاني. وجرذان من الطبقة الكلسية الصدفية حتى في الشيت<sup>(١)</sup> النحاسي وفي أتراسيت<sup>(٢)</sup> الدور الاول ايضاً الخ. ولا يزال يوجد اليوم صور متوسطة غير الاحفورية مثل الحفاش فانه بين ذوات الثدي والطيور. ومثل طوائف الحيتان قائما بين ذوات الثدي والسمك الخ. ويوجد اليوم ايضاً احياء او طبائع مركبة تعبر اصولاً خاصة بالادوار الاولى تنحل بالنمو. ولا يندر

(١) طبقة معدنية ذات صدىخ شبه بلوح الحجر

(٢) لوح من لحم الحجر



وجود طوائف في الادوار الاولى تكونت قبل طوائف ادى منها . وكأنه يحصل تقدم في بعض الاحوال يحصل تأخر كذلك في البعض الآخر . ويظهر ان الصور العليا تتعاقب مع الصور الدنيا غالباً بدون ناموس ظاهر . فيحصل تجديد دائم في الصور كما يقول فولجر . لا يعلم ناموسه ولا يوجد ناموس عام للارتقاء ففولجر يسلم بالنحول في اهم معانيه ولكنه لا يسلم بالارتقاء .

..

وقد ذكر الدكتور « موهر » في كتابه « تاريخ الارض » ( سنة ١٨٦٦ ) ما يشبه ذلك . قال ان التميز الذي يميزون به تاريخ الادوار الارضية المختلفة بحسب نظامها مغلوطة وان الارتقاء والتقهقر في عالم الاحياء وان كلنا يحصلان في الجزء قبل ملاحظتنا الا انها متشاكلان في الكل فالارتقاء الدائم الى ما لا نهاية له حلم جميل وهكذا يقال عن التاريخ ايضا على رأيه ورأي باقي خصوم الارتقاء والبراهين التي يستندون اليها واحدة في التاريخ والطبيعة والبراهين المأخوذة من الطبيعة هي :

اولاً ان الاحياء والحيوانات البحرية الاولى الدنيا <sup>(١)</sup> هي اليوم كما كانت في ابتداء العالم فابن الارتقاء هنا <sup>(٢)</sup> ثانياً ان طوائف الاحياء الاربع او الخمس الكبرى اي النباتات والحيوانات الاولى والمشعة والرخوة والمفصلة حتى ذوات الفترات توجد منها آثار مجمعة او متجاورة في اسفل طبقات الارض فلو كان مذهب الارتقاء صحيحاً لاقضى ان يكون الاعلى منها بعد الاذن فيكون النباتات اولاً ثم الحيوانات الاولى ثم ونم الى الحيوانات الفقرية التي يقتضي ان تكون في الآخر . وقد يكون اقدم الصور

(١) كالبريزويد والنفقيات والنوراميدفارا ( المنقبه او ذات العين ) والاسفنج والطحالب الخ  
(٢) ان اقدم انواع البراشيود المعروف بعائل الانواع الحاضرة بكل الصفات الجوهريه وانتشر انه كان في الماضي اكثر عدداً منه في الحاضر واكثر اختلافاً في الصور . ويوم هكيلي آت مثل هذا الوقوف عرض ايضاً للاسماك في بعض اذنين الجيولوجية مع تغير كل شيء حواله . واقدم حيوان معروف من الحيوانات الرخوة هو البراشيود ليشكولا وهو نوع من الصدف يوجد في سائر طبقات الارض ويوجد بها اليوم ولكن بدون ان تخرج منه فروع

بالأمن التكوين درجة عالية. فان أقدم النباتات البحرية المعروفة يعادل اليوم  
اعلى صور طائفتها الحديثة جداً في سلم الاحياء كما لا يخفى  
ثالثاً انما نجد في الطبقات الحديثة اجناساً او أنواعاً أدنى منها في الماضي وبعض  
حيوانات حديثة فوق حيوانات عالية جداً. وبعض الاكينودرم والحيوانات المشعة  
على قول اجاسيز ذو تكوين اعلى منه في الرخوة او المفصلة وربما في بعض ذوات  
الفقر ايضاً. ويوجد ايضاً في طائفة الحيوانات المفصلة ذباب يصعب اظهار ارتفاعه  
على القشرية وان كانت أدنى منه جداً في سلم الاحياء. وبعض الديدان قد يكون  
اعلى من بعض القشرية. وبعض عديمات الرأس قد يكون احسن تكويناً من بعض  
البطنية الارجل او الحززون الخ

رابعاً واخيراً ان كثيراً من الاجناس والطوائف كان في الايام الاولى اكل  
منه اليوم فلو كان الارتفاع يحصل دائماً وابدأ لما كان فيه ذلك. والحيوانات الرخوة  
كالسفاليود<sup>(١)</sup> والبراشيود<sup>(٢)</sup> كانت في الدور الاول بالغة في النمو ومتنوعة جداً  
في الصور خلافاً لليوم فانه لم يبق من هاتين الطائفتين الا الشيء القليل المعروف.  
ويلاحظ ايضاً في هذه الادوار القديمة صور نامية جداً وبالغة في التكوين مثل (ليس)  
البحر الموجود في المتكونات الاولى والثلاثية للارض فان صدفته مؤلفة من ثلاثين الف  
قطعة متميزة موضوعة احسن وضع لموافقة سائر احتياجاته. وليس ذلك خاصاً بالحيوانات  
الرخوة بل يوجد في سائر طوائف الحيوان. فان تكوين بعض حشرات الدور الثاني اكل منه  
في امثالها اليوم كالفاسح مثلاً وكان الحشرات انواع تفوق حد الحصر وبعضها كان يبلغ  
كبراً هائلاً. ولم تقل الا بعد حين لمازعة ما كان من ذوات الفقرات اكل منها لها  
وكانت الطيور وذوات الثدي في الدور الثلاثي تبلغ نمواً كبيراً جداً هي في الحاضر  
دونه. وقد ذكرت في ما تقدم تتعقير بعض الانواع كالديدان البطنية والحيوانات  
الحلمية الخ

(١) الرأسية الارجل

(٢) الذراعية الارجل



ومن الامثلة الدالة على تقهقر بعض الصفوف يذكرون الحيات مثلاً لصف  
الحشرات . والطيور الكبيرة والاوز الذهبي بسبب ضار جناحيه مثلاً لصف الطيور  
ثم الحيتان لصف ذوات الثدي الخ

\*\*\*

ويدفعون الارتقاء في التاريخ بنفس الحجج ايضاً قالوا  
اولاً ان بعض الشعوب لا يزالون حتى الآن كما كانوا في الاصل أي لا يزالون  
على عادات الانسان السابق العهد التاريخي المعاصر للموت ولذب الكهوف ولللايل  
العظيم ولوحيد القرن الاول . ومنهم حتى بحارب حتى اليوم بأسلحة من الحجر وله آلات  
مصطنعة من الحجر . ويسكن اكوخاً من ورق الشجر او ما شأ كل . ويعيش  
كالحيوان وهو واقف لا يتقدم لا جسدياً ولا عقلياً  
ثانياً ان بعض الشعوب يقف بعد ان يبلغ درجة معلومة من التمدن ساكناً زماناً  
طويلاً ربما كان ألف سنة مثال ذلك الصينيون

ثالثاً واخيراً ان بعض الشعوب بعد ان بلغ ذرى المجد والتمدن انحطت الى حضيض  
الجهل والغباءة : قابل العصور القديمة الزاهية اليونان والرومان بما عقبها من العصور التي  
انحطت فيها العلوم والصنائع عندهم . وقابل عصر بريكس بالعصور المظلمة بعده .  
وافكر بما كانت عليه بلاد مصر والمعجم والهند واسيا الوسطى وافريقيا الرومانية  
واليونان وايطاليا واسبانيا ومكسيكا الخ وبابل وبنوى واكتان وبرسبولس ورومة  
وغبرها . نعم افكر بما لحق بها من السقوط . واعلم ان الاكتشافات الجديدة ترينا  
التمدن في الماضي أبعد فأبعد يوماً عن يوم كما في بلاد مصر

ولقد تقهقروا كذلك في امور عديدة عقلياً وادبياً . قابل سياسة اليونان والرومان  
الناضجة المستقلة بسياسة العجلاء المذبذبة . والفلسفة الحرة قبل عهد المسيح بما آلت اليه  
بعده اذ صارت خادمة لعلم اللاهوت . او قابل كذلك الفضائل النبيلة للجمهوريات  
القديمة بحب الملاذ الدينية والامبال الذاتية وحب المكسب حلالاً كان ام حراماً التي  
هي صفات بالغة في هبئتنا السياسية والاجتماعية . واعتبر ايضاً ان ارتقاء ما نسميه الحق

لم ينفد بعد أكثر من ألف سنة الألتصيب القوة الوحشية والقساوة البربرية على تحت  
اعظم الأمم تمدناً<sup>(١)</sup>

فجري الأشياء إذا واحد في التاريخ والطبيعة أي أنه يحصل تغير دائم في  
الزمان والمكان والبشر فيحصل تعاقب دائم بين التقدم والتأخر والعمار والخراب  
والنمو والوقوف والولادة والموت. وأما الارتقاء الدائم فيعد من الأماشي التي لا تنال  
بل كل شيء يتحرك في دائرة مصمتة أشبه بالحية الزمزية التي تعض ذنبها. أو أن  
الأشياء تجري كما في مسرح لتغير فيه المناظر والأشخاص على الدوام حيث يظهر أن  
كل شيء يتحرك بنشاط مع أنه لا يزال في مكانه.

\*\*\*

وقد أشار أحد شعراء الألمان روكرت الى مشهد هذا التغير في التاريخ بقصيدة  
غناء جعل موضوعها سياحة أحد أشخاص ميتولوجية الفرس واسمه الخضر<sup>(٢)</sup> في العالم  
وهو نبي لا يزال حياً ولا يفارقه الشباب وقد التزمنا تعريفها بحسب ترتيبها قال  
قال الخضر الشباب الأزلي مورت ذات يوم بأحدى المدن فرأيت رجلاً يقطف  
ثماراً من بستان فسألته عن عمر المدينة فقال وقد رجع الى عمله « المدينة موجودة  
منذ الأزل وستبقى الى الأبد »

« ثم بعد خمسمائة سنة مورت ثانية بالمكان عينه فلم أجده للمدينة الرأى بل وجدت  
راعياً منفرداً يعرف على مزارعه والقطيع يرعى النبات والشجر فسألته من عهدكم  
انخفضت المدينة فقال وقد عاد الى النعش في قصبته « هذا ينبت متى ينس ذلك وهذا  
المكان مرعى منذ القديم »

(١) ان اردت نتائج هذه الحال الاستعداد وحشد الجنود . والامم الذين يسطرو ذلك عليهم لا تفقد  
نردتهم فقط بل هم في خطر من زوال كل مزبة عقلية وادوية منهم ايضاً

(٢) الخضر اسم نبي شرب من عين ماء الحياة الدافئة وقد لا يفرقون بينه وبين اهلها النبي . وعلى  
ما يفصل من رواية العرب ان الخضر قائد لاجد ملوك الفرس الاقدمين خرجوا ياد شرب من عين ماء  
الحياة وصار خالداً . ويبحث الاسكندر عن هذه العين في افوقاس فلم يجدها



« ثم بعد خمسمائة سنة مرتت تالئة بنفس المكان فوجدت بحراً متلاطم الامواج وعلى شاطئه صياد باقي شبكته فسالته وكان قد وقف ليستريح من عهد كم البحر هنا فقال وقد ضحك من سؤالي « من عهد وجود الامواج المزبدة اصطاد الناس ويصطادون في هذا المرفأ »

« ثم بعد خمسمائة سنة مرتت رابعة بالمكان عينه فوجدت غابة ورجلاً يقطع شجرة فيها فسالته عن عمر هذه الغابة فقال « الغابة مسكن ازلي ومنذ زمان اقبل فيها وهذه الاشجار ستبت هنا الى الابد »

ثم بعد خمسمائة سنة مرتت خامسة بهذا المكان فوجدت مدينة زاهرة تتراحم فيها الاقدام فسالته عن عهد بنائها وابن الغابة والبحر وقصة الراعي فقيل لي ولم يعبا بقولي « الحال هنا لم تتغير منذ القديم وستبقى كذلك الى الابد »  
« وسأجد نفس الشيء بعد خمسمائة سنة ايضاً »

فتاريخ الارض وتاريخ الانسان على مذهب الذين ينكرون الارتقاء معبر عنهما بتصور هذا الشاعر . وهذا التصور يوافق ايضاً اصحاب الارتقاء اذ يريهم اعظم التغيرات يتعاقب في الطبيعة وفي تاريخ الانسان الا ان الازمنة التي يقتضيها ذلك لا يدركها الانسان الذي يرى ان كل شيء حولة ساكن ولا يدركها الا من اعطي له علم كل شيء . والله هذا الشاعر حقيقة هو العلم الذي لا يقتصر نظره على الحاضر القصير بل يمتد الى ما وراء ذلك . وما يؤاخذ به على الشاعر زوكرت علمياً انما هو قصر الزمان الذي اعتمد عليه في ادوار سياحة سائحهم فلو قال خمسة آلاف سنة عوضاً عن خمسمائة لكان اقرب الى الحقيقة وزاد شعرة روتقاً ايضاً



فلو صح ذلك وصحت الاعتراضات على الارتقاء لكان في اسوأ الحالات التي كشفها لنا العلم واضعها للعزيمه اذ يكون وجود الشعوب والامم والحياة في عموم الطبيعة منذ ملايين من السنين عبارة عن عود الاشياء على نفسها لا بداية ولا آخر ولا غاية ولا تكيل فتظهر الافراد والشعوب والامم والنظامات ونختفي كأمواج

البحر بدون ان تترك لوجودها اثرًا الا مكانًا فارغًا تملأه موجة جديدة تسحب ثم يأتي غيرها وهكذا الى ما لا نهاية له<sup>(١)</sup>

علي ان ما نعلمه يجعلنا نجزم بان القول بسكون أبدي او بحركة دائمة لا تقدم فيها خطأ واي خطأ فان الاشياء في الطبيعة والتاريخ تدلنا بالضد من ذلك على تقدم دائم ولو بطيء. ولا يراد من هذا القول ان الاعتراضات المذكورة غير صحيحة او لا قيمة لها. كلا وإنما تدل على ان الاشياء ليست بسيطة كما كان يظن وكما لا يزال يظن ايضا كثيرون. فقد كان الاعتقاد زمانًا طويلًا ان جميع الاجسام الحية تؤلف من اعلى الى ادنى سلسلة بسيطة متظمة. وانه لم يكن للنمو في الماضي والحاضر الا سير صاعد. وهذه السلسلة التي اخرها الانسان لا بد ان كان اولها في ذي الكرية الواحدة او الاسفنج او بعض الصور النباتية الحديثة جدًا. وعليه فالتبائنات لا اعتبارها ادنى الاحياء وجدت اولًا ثم الحيوانات الدنيا التي خرجت منها الحيوانات المشعة والرخوة. ثم المفصلة الناشئة من الرخوة. ثم الاسماك من المفصلة. فالحشرات من الاسماك. ثم ذوات الثدي والطيور من الحشرات. ثم الانسان واعتقدوا كذلك ان مثل هذا الترتيب كائن في نفس الصف وان كل صورة ناشئة من صورة ادنى منها فهذا المذهب قد انتقض اليوم اذ لا يتفق مع سائر الاشياء ولا سيما مع تحول طائفة كبيرة الى اخرى

٥٥

فغير النمو العضوي والارتقاء المتعلق به هو غير ذلك واكثر اختلاطًا ايضا. فهو ليس سلسلة واحدة فقط بل سلاسل كثيرة متوازية نشأت في الاصل من اصول واحدة

(١) يخبر مع انه من غلاة الماديين المعاصرين لم يستطع في هذا القول ان يفهم من مفعول تربية الاحلام الخيالية التي مرت عليه في الاجيال واستعمال معانيها. لان كلامه هذا شعري لا معني له اذا نظرنا من خلاله الى مصير الوجود انكلي والمجزي لان المعاد هنا لا بهم الفرد حقيقة. ولو قال ان هذا القول لم يصح لا انتفت غاية العلم وهي الوقوف على اسرار الارتقاء الطبيعية واستخدام الانسان لها في كل امور المعاشية والاجتماعية ولو لم يرد عن كرمي لا صلاح حال لا تصلح هي نفسها. مع ان الحقيقة هي غير ذلك ولو قال هذا القول لمكان كلامه انصح بآثاره وافقوى حجة وابنت حقيقة وبالواقع هو لا يريد به سياء ولكنه استهزئت المعاني الشعرية والمفاظها الفارغة



او من اصل واحد ثم انشبت متشعبة الى ما يفوق حد الحصر عدداً واختلافاً . وقبل  
بسط هذه القضية المهمة لا بد من تفنيد الاعتراضات المعترضة بها على مذهب الارتقاء  
واحدًا واحدًا فاقول

ان الحجة التي يستند اليها او طو فولجراي وجود صور ذات تكوين عال في  
الطبقات القديمة جداً للارض حيث لم يكن يظن — على فرض صحتها — لا تنقص  
مذهب الارتقاء وانما تبعد اصل الحياة ومتفرعاتها الى ازمنا بعد وادوار جولوجية اقدم  
ومن المسلم به ان الحي كما كان ارقى كان زمان تكوينه الطول . ولا صعوبة في قبول  
ذلك اذ ان الزمان لا ينقص الجولوجية . فلا ينبغي ان نتوهم اننا نعرف اقدم طبقات  
الارض . كلاً بل يجب ان نتظر اكتشاف طبقات اقدم فاقدم يوماً . وقطع  
النظر عن النظام الكبير <sup>(١)</sup> السابق الطبقات السيلورية <sup>(٢)</sup> السيكت جداً والذي لم  
تكونه ملايين من السنين والذي ليس للحياة فيه الا آثار مشبه فيها — قد اكتشفوا  
حديثاً في امريكا كما مر في مقالتي السابقة في الكلام على « الايزون كنادس » عدة  
طبقات بلورية سموها الطبقة اللورنسية . وهذه الصخور اسبق من اقدم الطبقات  
الاوروباية التي تسرعوا في اعتبارها الاولى . وقد وجدوا فيها بقايا حيوان اسمه  
« الايزون كنادس » قال السير شارل ليل في خطاب الفاء في افتتاح مجمع الطبيعيين  
الانكليز في باث سنة ١٨٦٤ ما نصه : انه يحق لنا الظن بان هذه الحجار الموجودة فيها  
هذه الآثار الحيوانية هي من عصر طبقات اوروبا المسماة عديمة الحيوان ان لم تكن اقدم  
منها اي انها تقدمت الطبقات التي كانوا يعتبرونها سابقة كل حياة <sup>(٣)</sup>

(١) يراد بواقدم الطبقات الارضية التي اكتشفت فيها آثار الحياة

(٢) وباللاتيني السيلورية اقدم طبقات الحياة الحيوانية وهي فوق الطبقات السيلورية

(٣) قال الاسناد فاه في الجولوجية ما معناه ان السيلوجان اكتشفت في كنادا طبقات يوجد  
فيها الايزون كنادس وهي تحت اسفل حجارها السيلورية نحو ١٨٠٠ قدم . وهي بلورية في بعضها وقد قسموها  
الى لورنسية علواً وسكتها نحو ١٠٠٠ قدم . ولورنسية سائلي سكتها ٢٠٠٠ قدم . وهي مؤلفة من الغنيس  
نوع من الحجر والكوارتز ومضغعات كلسية صلبة والايزون يوجد في الطبقات الكلسية البلورية . واما  
الطبقات التي سكتها نحو ١٨٠٠ قدم واخذت بين الطبقة السيلورية والطبقة اللورنسية والتي تعادل النظام  
السيلوري تقريباً نفسى في امريكا بالحجار الميوسينية

فالحياة لم تبدئ حيث توجد الآثار العضوية بكثرة فقط . ولا بد ان يكون قد مضى عليها آلاف من القرون قبل ان امكنها ترك آثارها في قلب الحجر . فالمكونات الحيوانية الاولى لا تقع اذاً تحت المشاهدة . والحجارة التي اعتبروها حتى اليوم كأنها اول المكونات الجيولوجية والتي ليس فيها اثر او فيها آثار مشبهة للحياة لا بد ان مضى عليها زمان طويل حتى تكونت نظراً لعظم سماكتها . فاذا لم نجد آثار الاحياء الاولى بكثرة فاعدم حفظها لصفوها ولقلة متانتها ولنقص تكوينها من جهة ولشدة تغير الحجر القديمة جداً في جوف الارض من جهة اخرى . وكما تقدم يجب ان نتظر العثور على حجار أقدم فأقدم يوماً عن يوم كما يدل على ذلك اكتشاف الطبقة اللورنسية الحديث



وهكل يقول ان الطبقات التبتونية او السيلورية التي اعتبرت خطأ حتى اليوم أقدم الطبقات . والتي يوجد فيها آثار حيوانات نامية جداً ومتميزة كذلك هي حديثة العهد بالنسبة الى غيرها . ويظن ان الزمان الذي اقتضاه تكون الطبقات السابقة في الجيولوجية العضوية أطول جداً منه في اللاهتة . كما يستدل من عظم سماكة النظامين الكبري واللورنسي . وهذه الاعتبارات تضعف ايضاً قيمة الاعتراض المأخوذ من وجود آثار الاربعة او الخمسة صفوف الحيوانية معاً في اعلى طبقات الارض لانه لما كنا لا نعرف او نعرف ولكن معرفة ناقصة أقدم الطبقات حقيقة ولا نعرف الاحياء التي نضمنها لم يكن يجوز لنا ان نستنتج من طبيعة ما نجده في الطبقات المتكونة حديثاً بالنسبة الى سواها ان التقدم غير حاصل بل بالضد من ذلك ينبغي ان نعلم بان الحياة موجودة منذ ملايين من السنين قبل تكون هذه الطبقات أي منذ الزمان اللازم لبوغ الحياة مبلغ الحيوان العالي في الارتقاء البعدي

وهذه المكونات اللورنسية التي توجد في بافاريا وبيهميا هي أقدم ما يعلم من الطبقات المتكونة على آثار عضوية وتحت الرواسب المتكونة على آثار عضوية معلومة تشبه على سبك عظيم المكونات البلورية الفول الشسني لأقدم الرواسب والآثار العضوية التي كانت فيها تكاد لا تعرف بسبب التغير الشديد .



وفي هذا الاعتراض خطأ آخر أيضاً فإن الصفوف الاربعة او الخمسة الكبرى لعالم الحيوان لم تنشأ بعضها من بعض . ولم ينشأ أذناها من عالم النبات كما يفهم منه بل تكونت بعضها بجانب بعض كغصان الشجرة . فالشعبة ليست اصلاً للرخوة . ولا الرخوة اصلاً للفصيلة . ولا المفصلة اصلاً لذوات الفقر . ولا النبات اصلاً للحيوان . بل كل من ذلك تكون بعضه بجانب بعض من عناصر واحدة . وربما ارتسمت صور الفروع الفقرية الاصلية منذ الاول . وبعد ان تكونت اخذ كل واحد منها ينمو على حدته بدون ان يكون بينها صلة الا ما كان في اول الامر . وكلما خلت خطوة ابتعدت بعضها عن بعض كذلك <sup>(١)</sup>

على ان ذوات الفقر لم تكن موجودة في الادوار القديمة جداً . لان رسوماها او اشكالها الاولى غير موجودة في الطبقات السفلى المعتبرة اقدم التكوينات الارضية . فالتقول ان الفروع الكبرى لعالم الحيوان موجودة في الطبقات السيلورية خطأ . وليل الذي يعتمد عليه في هذه المادة يتفق مع باقي المؤلفين وهو يقول ما نصه « كان يظن قبل سنة ١٨٣٨ ان اصل السمك الاحموري لا يتجاوز طبقات الفحم الحجري . على انه قد وجد في الطبقات الدفوفية حتى في السيلورية ايضاً في طبقاتها العليا لا في طبقاتها السفلى حيث لا يوجد له اثر . ولا في المنطقة « ليرند » الاولى الاقدم منها ويستنتج من ذلك ان الاصل الفقري لم يكن موجوداً او كان نادراً جداً في اقدم الطبقات المعروفة التي اعتبرت خطأ انها اول الطبقات مع انها آخر سلسلة طويلة من الطبقات التي كانت مأهولة بالاحياء

وأعلم ان اقدم السمك المعروف هو من أدنى السمك أي من السمك الغضروفي . ولا يظهر السمك العظمي الحقيقي الا بعده بزمان طويل . ونحن نعلم ان السمك ذا مقام

(١) رسم الاسناد لكل شجرة فروع العالمين في ثمانية مواضع بكل شجرة يخرج من اصلها ثلاثة فروع اصلية . فروع لعالم الحيوان . وفروع لعالم النبات وفروع لما بينهما في العالم البروتوست . ثم ان فروع الحيوان تنفرع الى كوتنار . واكنودرم . ومفصلة . ورخوة . وفقرية . وفروع الفقرية تنفرع الى سمك . ونصف مائية . وحشرات . وطيور . ونباتات لذي اعطاهم الانسان

عال في الاصل الفقري الا انه ابتداء باصل ذي تكوين دنيء جداً بحيث كان يشبه بالديدان أو بنوع من الحلزونات لا صدف له . مثال ذلك الامفيوكوسو والمكسين . فالامفيوكوسو الرمحي أو السمك الرمحي لا يزال موجوداً حتى اليوم في البحر الشمالي ويظهر ان أصله من هذه الصور الاولى الدنيئة . وليس له جمجمة ولا دماغ ولا قلب ولا دم أحمر . وتكوينه التشريحي يضعه تحت أكل أصول الحيوانات الرخوة والمفصلة مع انها من صف أدنى جداً من صفه أي من صف ذوات الفقر (١) . وفي وسعي ابراد كثير من هذه الامثلة التي يتضح منها ان الصفوف المختلفة لا تتصل بعضها ببعض رأساً بل كل أصل متى انفصل من المنبت الاول ينمو نموة الخاصة به . والتي يتضح منها أيضاً ان بعض الاصول أصلح من بعض في قابليته للارتقاء . والاصل الفقري هو في الواقع أصلحها من هذا القبيل ولذلك قد سبق باقي الصفوف جداً ولو انه ابتداء كما قلت بصورة أدنى جداً من أكل صور هذه الصفوف

فلا نستغرب بعد ذلك اذا بلغ بعض الفروع أو الطوائف نمواً أكمل من نمو بعض الطوائف المعاصرة له والاعلى منه . لانه أمر واضح ان مجاميع الاجسام الحية كالافراد لها دورة حياة معلومة . فاذا قطعها فلما ان تقف عند النقطة التي وصلت اليها واما ان ترجع متقبعة ينما يبقى غيرها متقدماً حتى يبلغ درجة أعلى منها سواء نشأ معها أو نشأ بعدها بزمان طويل . كالشجرة التي تيبس فروعها السفلى أو تبقى على حالة واحدة حال كون أغصانها العليا تمتد وتفرخ وتكبر يوماً عن يوم . قال توبل « ان الانحسان تبقى ما دامت قادرة أن تنمو فاذا وقف نموها ضعفت وتلاشت مع الزمان » (٢)

(١) السمك الرمحي شبيه بورقة ريمية الشكل . وهو دنيء لا لون له أو هو ذو لون ضارب إلى الحمرة شفاف . وطوله نحو قيراطين . ويعرف انه فقري من حبله الشوكي ومن الشريطة الغضروفية الموجودة تحته ولا شك ان هذا الحيوان آخر حي من صف ذوات الفقر كانت نائياً كثيراً في احد الادوار الجيولوجية (قبل عهد السيلور) . ولما لم يبق منه آثار احتفوية لعدم وجود عظام فهو

(٢) ان دوام النوع هو بالنسبة الى انتشاره الجغرافي والنوع على موجب ناموس النواع العدي الذي اليه درشيك نظرياً ينشأ وينكثر حتى يبلغ عدداً معلوماً فيأخذ بالانقراض وينقرض ويجب اعتبار هذين الناموسين في منسب دارون



فلا شبهة في ان هذا النوع سار سيراً صاعداً وكل صف ابتداءً بصور  
بسيطة أخذت تنمو بعد ذلك شيئاً فشيئاً كما يعلم من الاختبار في الماضي والحال . والأمر  
لو كان مذهب الارتقاء غير صحيح لحصل ضد ذلك ان لم يكن في الكل في البعض  
.

فهذا التعليل البسيط يفهم لماذا هذه المناقشات الكثيرة وهذا الخروج عن القياس  
وهذا التفهيم أيضاً في الباثولوجية من غير أن يكون في ذلك داعٍ الى انكار مذهب  
الارتقاء . اذ لا شبهة في ان الطوائف العليا من حيث ارتقاؤها الكلي جاءت أخيراً .  
وكلامنا في الكلي لا في الجزئي . وعليه فعالم الحيوان هو فوق عالم النبات الذي سبقه  
بوجه العموم والاصل الفقري أعلى من الاصل العديم الفقر المتكون قبله . وما كان من  
الاصل الفقري اتم واكمل جاء بعد ما كان منه دونه . فجاءت الحشرات بعد الاسماك .  
وذوات الثدي والطيور بعد الحشرات . والانسان بعد الطيور . وهكذا في كل صف  
من صفوف ذوات الفقر . ولا يعلم انه حصل عكس ذلك في الطبيعة ابته . ولئن كانت  
نواميس الارتقاء الجولوجي في الحيوانات العديمة الفقر غير واضحة وكان فيها عدم انتظام  
في التقدم والتأخر كثيراً الا أن الصور الابسط تتقدم دائماً الصور الأكمل كما يتضح  
جلياً من « السفالويد » الذي هو أعلى صف الحيوانات الرخوة . واذا كانت صور  
الحيوانات الرخوة أكثر تنوعاً في مكونات الارض الاولى . فينبغي ان نعتبر ايضاً انه  
كلما كانت تلك الاصول الدنيا تنقص كانت الاصول العليا تزيد كذلك — وقد ذكرنا  
ضد الارتقاء ايضاً ان بعض الانواع الاولى كليس البحر المار ذكره ذو تكوين كثير  
الاختلاط جداً . على ان الاختلاط ليس بنفسه علامة على الارتقاء بل بالضد من ذلك  
المختلط يسبق البسيط غالباً . لان الطبيعة تحاول دائماً ان توزع الصفات المختصة في  
تكوين واحد أولاً وتفصل بينها على صور متميزة . ولئن تسهل بهذه القسمة ارتقاء  
الصورة المتميزة ارتقاءً عظيماً . وهذا المبدأ في قسمة العمل جوهرى في الطبيعة كما في  
حياة الانسان الاجتماعية والسياسية والصناعية . فكل فرد يكون اقدر على قضاء امر  
كلما كان تكوينه أكثر استعداداً له . وكلما تخصصت وظائف جسم اي كان لها

أعضاء خصوصية كان هذا الجسم أرقى . فإن الحيوانات الدنيا ليس لها أعضاء خاصة بل جسمها يتقضي كل وظائفها بتبادل بسيط بينه وبين ما يحيط به . وأما الحيوانات العليا فبالضد من ذلك لها عضو خاص لكل وظيفة فالقلب للدورة . والرئتان للتنفس . والقناة الهضمية للهضم . والكليتان لإفراز البول . والدماغ لوظائف العقل الخ . وهذا ما يجعل هذه الحيوانات راقية <sup>(١)</sup> وبحسب الخذر من الوقوع في خطأ آخر أيضاً وهو أن الأصل الفقري الذي يكون الارتقاء فيه أظهر من الجميع لا يؤلف صفًا بسيطاً بل يوجد فيه تحت صفوف كثيرة أيضاً يرى فيها بعض المجموع أذ يبلغ نموه يفوق مجاميع أخرى مع أنها مستعدة لنمو أعلى منه جداً . وهذا صحيح ولا سيما على مجموع لذوات الفقر العليا بهيئة جداً لأن الإنسان منه . أعني به مجموع ذوات الأربع أيدي أو البريمات كما يقول لينوس وهكسلي . فهذا المجموع الذي يوجد الإنسان في أعلاه والذي فيه عدة صور متوسطة ( مثال ذلك القردة الشبيهة بالإنسان بجانب الإنسان ) تمتد أصوله بواسطة حيوانات الدنيا ليس إلى أعلا طبقات أصل ذوات الثدي المشيمية كما ربما يظن بل إلى أدناها . فمع أن هذا المجموع عال جداً بنفسه فهو يتأخر صفًا دينيًا أيضاً . وهكسلي الذي يقسم البريمات إلى سبعة تحت صفوف أو طوائف بصف ذلك جيداً أذ يقول :

« ليس في صفوف ذوات الثدي ما يتضمن فيه درجات كثيرة أكثر من صف البريمات . فإنه يهبط فيه على نوع غير محسوس من أعلى الخلق إلى مخلوقات لا تفصلها

(١) مكل يرى أن هذا التقسيم المتزايد في الأجسام المجهة كما في أمور الدنيا هو علة الارتقاء فالارتقاء ليس له ناموس موضوع يدفع اليه بل هو نتيجة لازمة ضرورية للأعمال الميكانيكية والكيميائية ونتيجة هذه الأعمال الارتقاء غالباً . وقد تكون انتقار أحيانا . بحيث أن ناموس الارتقاء وناموس النبات ليسا لفظين مترادفين بمعنى واحد . ولا يصح القول بأن الارتقاء ثابت وعام سواء كان في الطبيعة أو في التاريخ إلا بالنظر إلى الكل . وأما في الجزء فقد يحصل لتغير عظيم أحيانا كثيرة . فلا يوجد على رأي مكل لا رسم ولا قصد في الارتقاء الجوهري



عن أدنى ذوات الثدي المشيمية وأقلها ادراكاً إلا خطوة واحدة <sup>(١)</sup> « الى أن يقول  
أيضاً » كأن الطبيعة نفسها شعرت بما سيكون للانسان من العُجب بنفسه فأرادت أن  
تجعل عقل الانسان يتذكر عند انتصاره كما كان يذكر العبيد في رومه الظافر « بأنه  
ليس إلا تراباً »



فلم يبق علينا إلا اعتراض واحد على مذهب الارتقاء أو يد تفنيد وهو وجود  
اصول ثابتة أو واقفة . وقد تقدم في المقالة الاولى ان مثل هذه الصور الاولى الدنيا ما  
زال يتولد في جميع الادوار حتى وان لم يكن كذلك فوجودها لا يفيد شيئاً ضد الارتقاء  
عموماً وان افاد خصوصاً . لانه اذا لم تتغير هذه الصور الخفية لشدة بساطة تكوينها  
ولاستمرار احوالها الخارجية البسيطة . فلا يتكرر ان احياء اخرى اعلى تكويناً واصكراً  
اختلافاً في احوال حياتها ترتقي على الدوام . ولا عجب في ذلك فان في التاريخ ايضاً  
شعوباً واقفين لم يتغيروا عن خشوتهم التي كانوا فيها منذ آلاف من السنين . فيوجد  
في اقاصي القارات الكبيرة كما في جزائر المناطق الحارة شعوب متوحشون قلما يفرقون عن  
الحيوان <sup>(٢)</sup> . وآخرون لا يزالون كما كان في اوربا الانسان السابق العهد التاريخي .  
اي انهم يصنعون اسلحتهم من الحجر ويشغلون الخشب والعظم لاحتياجات شتى .  
يعيشون ويموتون وهم واقفون عند حد واحد . وهذا يرينا انه لا يوجد في طبيعة الانسان  
ولا في الطبيعة الكبرى ميل غريزي للارتقاء بل هو نتيجة فعل بعض الاحوال  
الخارجية والداخلية

(١) ذوات الثدي المشيمية هي ما كان جنين ينفذ بواسطة المشيمة تمييزاً لها عن الممرأة التي تجعل  
منها رماً وترضعها في جراب موضوع تحت بطنها . وذوات الثدي المشيمية اعلى اصل ذوات الثدي الذي  
هو اعلى اصل ذوات الفقرات

(٢) روى الدكتور غليسيرج والمعهد عليو أن في بلاد الحبشة فرعاً من السود له ذنب اما لم نفس  
سنة جمجمته . وله صوت كصوت الحيوان . صغيره اند ديفق العسل لا نسبة بين بدنه واضرافه . فهو يشبه  
الثور ولا يفرق عنه إلا بالعلق والاسنان وتكوين الرجل

على ان وقوف بعض الشعوب في الحثونة الاولى لم يمنع تقدم البعض الآخر في  
التمدن طبقاً لما يحصل في الطبيعة



وكما اننا نجد صورياً بالغة في التكوين في اقدم الطبقات الارضية المعروفة هكذا نجد  
تمدناً بالغاً ايضاً في العصور القديمة للتاريخ . مثال ذلك بلاد مصر التي كانت مهد التمدن  
والعلم . فلا يخفى ما انتهت اليه ابحاث العلماء وقبهم في ارض هذه البلاد القديمة ولا  
سيما ابحاث مارييت الفرنسي الحديثة . فانه <sup>(١)</sup> اكتشف نقوشاً وكتابات واصناماً من  
عهد ٤٠٠٠ الى ٤٥٠٠ سنة قبل المسيح . وقد وجد على جدران قبور هذه العصور  
رسوماً وكتابات تدل على ان مصر كانت في درجة عالية من التمدن <sup>(٢)</sup> فاذا انكرنا  
الارتقاء لاجل ذلك فاننا نسقط في نفس الخطأ الذي يتظاهر لنا في الجيولوجيا . وكل  
ما ينبغي ان نستنتجه من هذا التمدن هو انه آخر المراحل التي بلغها الانسان في سيره  
الطويل والتي لا يخبرنا التاريخ عنها بشيء . وهذا القول لا شيء من الغلو فيه لان  
الابحاث في اصل الانسان وقدمه قد صيرت الاربعة آلاف او الخمسة آلاف سنة التي  
يفرضها له التاريخ لا شيء بالنسبة الى وجوده قبل العهد التاريخي . فان وجود الانسان  
على الارض ليس من عهد الطوفان الذي يصعد الى ما قبل دورنا في تكوين الارض  
بل من عهد ابعد جداً اي من عهد الدور الثلاثي من عهد طبقاته الاخيرة او الوسطى .  
وهذا كما يصح هنا يصح ايضاً على الاشياء في الطبيعة



وهكذا تنقض ايضاً باقي الاعتراضات على الارتقاء في التاريخ . فالامم او الممالك  
التي بعد ان بلغت درجة عالية من التمدن اما هلكت او بقيت واقفة او تقهقرت نسبة  
هذه المجاميع التي ذكرناها في تاريخ عالم الاحياء والتي بعد ان بلغت مبلغاً معلوماً من

(١) ان المكتبة المصرية اربا عروودوس سنة ٤٥٠ قبل المسيح حول جدران هيكل نيبس ٤١٥ مدفناً  
فيها مومياءات المكتبة العظام الذوات تعاقبوا ايها عن اب على ريادة المدينة لهذه السلسلة يقتضي فاما بضعة  
آلاف من القرون



الكمال وقفت وقام مقامها فروع اخرى من جنسها أكثر قوة واعظم قوة. هكذا ايضا في التاريخ. فان بلاد اليونان قامت على اثر مصر ورومه على اثر اليونان والشعوب الجرمانية على اثر رومه متدرجات على سلم التقدم العظيم ولم يصب التقدم الا وقوف زمني فقط. واوروبا بكل مجدها وعظمة قدسها تستقط يوماً ما ويقوم على اثرها فرع من البشر أكثر قوة واعظم قوة تستقط المدن العظيمة وتنطفي الاسماء الشهيرة وتفترق البلاد الغنية ويزول التقدم الرفيع

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسر بمكة سامر<sup>(١)</sup>  
ثم تقوم ايم اقل استكمالاً لهذه الزايا الا انه يكون فيها جرئمة ارتقاء اعلى فلا تلبث ان تبلغها وتزيد عنها فالتحقير ليس سوى ظرف مكان وزمان بخلاف الارتقاء فانه مستمر وعام وان كان ارتقاء الام الحديثة متوقفاً على قيامها على آلتها مستعينة بمتروكانها مفتدية بها بدون ان تكون استكمال اتصالها فارجح الشبه في ذلك واحدة ايضاً مع الطبيعة. لان المجاميع العضوية الحديثة تأخذ معظم ارتقاها من الارتقاء العالي الذي بلغته في تقدمها بدون ان تتصل به راساً. واما باقي الاجسام الحية الموجودة اليوم في الطبيعة كما كانت في الماضي (كالجارية وكثير من انواع السمك) والتي بعد ان بلغت مبلغاً معلوماً من الارتقاء وقفت ولم تتقدم فلنا في تاريخ البشر ما

(١) بخنصر ما نرى قسامة الصحيح وهو مادة الراحة وعاد الى تغزو الشعرية الخيالة. والمحق الذي لا مزية فيه اليوم هو ان الانسان من يوم اعتدى الى مذهب القول انما هو اطلقه على الطبيعة كلها واتجه بباحثيها الى هذا الصوب صار ارتقاؤه في العمران اكيداً مطرداً شاملاً تاماً علماً بحيث ترتقي فيه الامم المخطلة الى مقام الامم الراقية ولا تسقط هذه الى مخافتها منها كان الامر لان المبادئ القائمة عليها العمران اليوم هي غير تلك التي كانت له في الماضي فقد كانت في الماضي اديبة محصورة واما اليوم فقد صارت طبيعة عامة وكانت موجبات اديبة عنها متزعزعة فصارت معقولة حذيفة نائمة وكانت غايتها بعيدة فصارت قريبة وسجدت العمران بعد انقضاء هذه الى كل المعمورة الا ما يقوم فيها دولة من الحيوانات الضعيفة التي لا يستطيع تحريكها الى ملامح من منها لا منه وسقوط فواصل الايمان ايضاً وان كان هناك غلبة للراقي منه فقط بدع فيه المخطئ فيؤيد اليه ولكنه لا يتسحب من امانه فيعطي له المكافاة ويخطئ هو نفسه. وهذه هي مزية ارتقاء العمران بالمبادئ الطبيعية الراسخة على انواع ارتقاها بالمبادئ اديبية والدينية المتنافسة بحيث صار ارتقاء العمران اليوم مطرداً غير متذبذب كبيراً غير محدود. وهذا وحده كاف لافتناع العقلاء بهذه المزية لا الاغراب الذين هم دائماً عطبات في سبيل كل اصلاح يعينونه ولكنهم لا يعمونه

بحاكيها أيضاً . فان مملكة الصين القديمة العيد في المدن بعد ان بلغت منه ما بلغت منذ زمان قديم وقفت ولم تزل واقفة لا تتقدم حتى اليوم وربما لم يعد في طاقتها ان تتقدم فهي ستهلك مع الزمان من دون ريب <sup>(١)</sup>

وقد شبهوا الارتقاء البشري الذي ليس هو حقيقة حسب مذهب التحول الاستمرار ارتقاء العالم العضوي منذ الازمان الاولى بلولب صاعد يظهر بدورانه انه يتقهر والحال انه يرتفع دائماً وعلى نوع متظم ويمكن تشبيهه بالشجرة على ما ذكر في ما مر اذ تثبت اغصان جديدة على اغصان قديمة وكل ثابت جديد اكثر قوة واعلى مما ثبت عليه <sup>(٢)</sup> وربما شبهوه بغير ذلك أيضاً

وهذا الارتقاء لا يتم بسرعة بل ببطء كلي . وكما ان تاريخ العالم الماضي لا يحسب الا بالملايين من السنين هكذا اسباب الارتقاء لا تتيسر الا مع الزمان الطويل جداً ولكن ما هو الزمان بالنظر الى السير الطويل في الطبيعة والتاريخ . فلانسان يحل بالم دقائق لانه يرى نفسه يقترب من نهايته ساعة عن ساعة ويوماً عن يوم واما العالم فيسير من الازل والى الابد والملايين من السنين كيوم واحد فيه

\*\*\*

وللفروع من هذا الباب لا بد من التنبيه الى ان مبدأ الترية يكون اشد واقوى كلما كانت الصور الفاعل فيها اكمل . وسبب ذلك بسيط وواحد في الطبيعة والتاريخ فكلاً كان التكوين واحوال الحياة الخارجية اكثر اختلافاً كان العقل والاحتياجات والافكار وكل ما يتعلق بها اعلى مطلباً وكانت المعيجات ووسائط التكيل اكثر

(١) ان عليك فالنياس طبعي وان لم تهلك اليوم كما هو الأرجح فانما يكون ذلك بارتقاءها الى مقام سواها من الامم الرافقة بدون ادنى خوف من الخطا ط هذه الى عاداتها

(٢) دارون يعتمد جداً على هذا التشبيه في وصف سير الارتقاء العضوي فويشبه الاغصان الصغيرة بالانواع المحاصرة والاغصان القديمة بالانواع المنقرضة وكل الفروع التي تعبت تتنازع بعضها مع بعض والاغصان الكبيرة كانت في الاول اقل فائدة صغيرة ولم ينم من الافاين الكبيرة التي كانت في الاصل سوى اثنين او ثلاثة شمل الباقي وفروع كثيرة يبدت او زالت او لا تزال واقفة غير نائمة ملح . فالفروع اليابسة او الساقطة عبارة عن الصفوف والعلقات والانواع المنقرضة والباقية في الاطراف وهذا الترتيب حسب دارون لا يقتضي بغيره لا ارتقاء ولا تكاملاً بل هو حركة دائمة بحيث تتغير الانواع بدون ان ترتقي ضرورية



واقوي كذلك . قال ليل في ذلك ما معناه أن الارتقاء الصناعي والعلمي في عصرنا هو على نسبة هندسية مع التمدن والمعارف العمومية وينقص على نفس هذه النسبة كلما تقهقروا في الماضي بحيث أن التقدم الحاصل في عشرة قرون في الماضي لا يقتضي له أكثر من قرن في ما يأتي بعده . وقال أيضاً : أن الإنسان في القديم كان يشبه الحيوان أكثر جداً بالميل الغريزي لأن يتفقد كل فرع من فروع الفرع الذي تقدمه أي يشبهه بميله للوقوف . وإذا فابلنا تقدم المدن بتقدم القرى ترى أن الأشياء تسير فيها على نفس هذا الناموس فإن القرى لقلة المييجات الداخلية والخارجية فيها ترى أنها شديدة الحرص على الأشياء المقررة كثيرة الاحترام لنظامها

فلا غرو أن مر على الإنسان في العهد السابق التاريخ الوف من السنين وربما أوف من القرون قبل أن بلغ درجة راقية من التهذيب أو صار له تاريخ فقط . وأما بعد ذلك أي بعد أن رسخت قدمه في التمدن فصار ارتقاؤه أسرع فأسرع يوماً عن يوم . وما قيل عن الإنسان صحيح أيضاً على سائر العالم العضوي . فإن الارتقاء في الحيوان لا يكون واضحاً ومتظاً وسريماً إلا في ما كان منه أكل من غيره كذوات الفقر وذوات الثدي خاصة . وأعظم ارتقاء في الطبيعة والتاريخ هو ما حصل في الإنسان إذ تفادت من الأصول العليا لذوات الثدي حتى صار بينها وبينه بون شاسع . ولا نستغرب هذا الفرق بينهما لأن من أمكنه أن يتقطع العقبة الموصلة إلى الإنسان لا شك أنه قابل لضروب متنوعة من الارتقاء . وبعد أن سار على طريق التمدن صارت كل خطوة من خطواته تبعده أكثر فأكثر عن صورته الأولى

والإنسان أخوة كثيرون لا يزالون متأخرين جداً . فلا يظن من كان بالغا شيئاً كبيراً من الارتقاء أن ذلك موهبة مجانية معطاة له من فوق . بل فليعلم أنه نتيجة تربية متعبة وارتقاء صعب . وعلمه هذا أعظم منشط له يحثه للسير في هذا السبيل . ولا يعلم إلى أين يبلغ به هذا الارتقاء . على أنني متيقن بأنه لا يوجد امر مستحيل على الإنسان إذا احسن استعمال ما فيه من القوى وما له من العقل . فتزداد قابليته ويتسع نطاق سلطانه على الطبيعة إلى ما وراء الحد الذي يظهر أنه مفروض له الآن

وقبل الفراغ من هذا الموضوع لا بد لي من بسط الكلام قليلاً على رأيي حد علماء الانكليز «الفردولاس» في مستقبل الانسان وهو قريب جداً من دارون في المبدأ والافكار قال : —

« ان الانسان في اول امره وقبل ان تنمو قواه العقلية اذ كان بلا ريب يقطن الاماكن المحرقة في المنطقة الحارة في زمن الايوسن والميوسن<sup>(١)</sup> كان خاضعاً للانتخاب الطبيعي كالحَيوان. ثم لما اخذ عقله ودماعه وقواه الاجتماعية ترتقي اخذ يتخلص ايضاً من فعل هذا الناموس. وربما لم يتغير في جسده من بعد ان صار قادراً على التكلم لان التكاثر الذي يحصل في الجمعية وتهيئة الكساء والاسلحة والمساكن كل ذلك قوي به الانسان على مقاومة الاحوال الخارجية الى حد معلوم فأضعف فعل تنازع البقاء فيه بحماية الضعيف منه والاعتناء به عوضاً عن قتله وسهل لقليل النشاط سبل الكسب في الحياة الاجتماعية اذ قسم الاعمال. فالانسان يداوي المريض ويعني بالمسكين عوضاً عن ان يتركها لهلكاً كما يفعل الحيوان. كل ذلك يجعله في حالة موافقة لطبيعة ما يحيط به بدون ان يتغير جسده تغيراً جوهرياً. »

واول ما اتخذ جلد الحيوان كساء واصطنع السهم للصيد وبذرت الحبوب وزرع النبات حصل في الطبيعة ثورة عظيمة لا مثال لها في ما تقدم من تاريخ الارض اذ ظهر فيها كائن لا يلزمه ان يتغير ضرورة مع العالم له سلطان على الطبيعة. وان كان محدوداً. لانه يدرك عمله ويزنه ويتفق معها لا بتغير جسده بل بتقدم في عقله « ولا يقتصر الانسان على الخروج بنفسه من تحت حكم الانتخاب الطبيعي بل يخرج معه غيره ايضاً من تحت حكمه وسوف يأتي زمن لا يبقى فيه سوى الحيوانات الاهلية والنباتات المزروعة اذ يقوم فيه الانتخاب الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي الا في البحر »

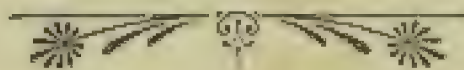
« على ان ما تحرر الانسان منه جسدياً لا يزال يفعل فيه عقلياً ونتيجة ذلك ان الشعوب التي ترتقي بعقلها فوق غيرها تبقى وحدها أخيراً اذ تلاشي غيرها وتحكم على

(١) انفس الاول والمتوسط للدور الثلاثي



الأرض حتى لا يبقى إلا شعب واحد اضعف افراده عقلاً يعادل أكبر عقولنا وربما كان اعلى منه ايضاً. وكل واحد حينئذ يجد ان سعادته قائمة بسعادة قريبه وتكون الحرية كاملة اذ لا يتعدى الواحد على الآخر. ولا يعود لزوم للشرائع الصارمة وتقوم مقامها الجمعيات الاختيارية للقيام بالمصالح العمومية المفيدة حتى تستحيل الأرض اخيراً من وادي البكا وميدان المطامع غير المرتبة الى فردوس جميل لم يخطر على قلب ملهم ولا تصوره فكر شاعر»

فهذا المذهب الذي لا اسلم به صكته حرةً بحرف والذي لم ابسطه هنا إلا اجمالاً اذا كان صحيحاً فلعل فيه ما يعوض على الانسان في مستقبله ما قد خسره من أصله باطلاق مذهب التحول عليه. ولئن لم يكن فيه شيء يجعل فينا أملاً بأن سنصير يوماً ما ملائكة بأجنحة الآ أن نظرنا به الى مستقبل الجنس البشري أرضى حينئذ أكبر باننا من النظر الى ماضيه في كل حال



## المقالة الخامسة

نهرست : نسبة مذهب دارون الى مذهب الماديين والفلسفة المادية — اقوال في الخلق — مذهب  
الماديين عند القدماء — عند الهنود — عند المصريين — في بلاد اليونان — طالس — انكزيمندوس —  
انكزيمتوس — كراتوستوس — برميندوس — هرقليطس — امبيدكل — لوسيب — ديموقريطس —  
بروتاغوراس — ارسيب — ستراتون — اينورس — لرجوزة لوكريس في الطبيعة —  
انتقاد الفلسفة القديمة بوجه عام

اني أبسط في هاتين المقالتين الاخيرتين الرابط الذي يربط مذهب دارون بالرأي  
المادي وبالفلسفة المادية للماضي والحال . وهذا الارتباط واضح كما انه طبيعي . والانسان  
اذا تأمل قليلاً نفسه وبالأشياء التي تحيط به فأول ما يعرض له بعد السماوات والارض  
هو نفسه وعالم الاحياء الذي يقرب منه . وأول سؤال يخطر له هو هذا : من أين أتت  
هذه الاحياء وكيف أتت ومن خلقها ؟ . والانسان الذي هو سلطان الارض وأكمل  
المخلوقات من اين أتى هو ايضاً ؟

ولما كان الجواب على هذه السؤالات جواباً مقنعاً يتنوع بدون واسطة العلم كان اقدم  
الروايات في الخليفة عند الشعوب المختلفة مشحوناً بالخرافات مملوئاً من كل عجيب وغريب  
من التصورات الخاصة بالشعوب اذ كانوا في مهد الطفولية  
وهذه رواية الخليفة عند الارمن على ما في كتاب ارمان

ان انكائن الاول الازلي غير المنظور والذي لا يدرك الا بالعقل أراد أن يجعل  
بكل قدرته وبكل مجده . فخلق اولاً الماء من فكر واحد ووضع فيه بذرة الخليفة  
فصارت البذرة بيضة تلمع كالذهب وتضي كالشمس . ثم دخل في هذه البيضة على  
صورة بارام براما اي الانسان الاله . ثم انفلقت البيضة فلتقتين بعد ملايين ملايين من



السنين الشمسية. فخلق من الغلقة الواحدة السماء ومن الغلقة الأخرى الأرض التي فصل  
اليابسة منها عن المياه. ثم شطر نفسه شطرين خلق من الشطر الواحد الذكر ومن الشطر  
الأخر الأنثى. أي أنه تقلد طبيعتين طبيعة فاعلة وطبيعة قابلة. ولذلك كان الارمن  
يتهادون البيض في رأس السنة. ثم أجاز النصارى هذه العادة وقد نقلوها إلى عيد الفصح  
ورواية سكان جزائر البحر الجنوبي في الخليفة على ما نقله لنا المرسل نورنر اسط  
من ذلك. فاتهم يعتقدون أن الأرض كانت أولاً منطاة كلها بالماء ثم انسحب الماء  
شيئاً فشيئاً. فأرسل أبو الالهة ابنته على صورة حمامة ومعهما قبضة تراب ونبات حي  
فوضعت التراب على الحجار وغرست النبات ولما امتدت أصوله نطقت بالذياب ومنه  
تكون الرجال والنساء. وبعض السك الذي كان في الماء حيث اليابسة اليوم تحول  
إلى حجار. ولهذا السبب كنا نجد حجاراً كثيرة كانت من قبل أسماكاً أو حيوانات أخرى

..

وعند اليهود خلق الله العالم وأتمه في ستة أيام. وبعد أن خلق النور في اليوم الأول  
خلق الشمس والقمر والكواكب في اليوم الرابع فقط لا وأخيراً خلق الإنسان على  
صورته. وهو أي الله فوق كل مادة وفيه أصل كل شيء. وقد خلق العالم من العدم  
خلافاً لمعتقدات الشعوب غير السامية الذين عندهم مادة أولى أزلية هي أصل كل شيء  
والذين يتبدى عقائدهم بتأليه النور أو الشمس<sup>(١)</sup>. وفي كل عقائد الهنود على قول  
الاستاذ «ديانريشي» الخلق كان من مادة أزلية فيها قوة أزلية متصلة بها أي عبارة  
عن غراب (كاوس) أزلي تنمو فيه القوة الخالقة

(١) أن في لغة العائلة الآرية أو الهند وجرمانية العظمى لفظة أصلية (ديف) ومعناها النور أو  
اللامع يشق منها سائر الأسماء المستعملة عند الشعوب المذكورة للدلالة على الله. ففي لغة السنسكريت يعبر  
عنه باللفظة (ديفاس أوديفاس أوديو) . وعن السامية باللفظة (ديوس) هو عند اليونان (ديوس) . وعند  
اللاتين (ديوس أو ديونيس) . ثم قالوا (جوفيس) ومنه (جور) . والفرس يعبرون عنه باللفظة (نيوس)  
وعند الفرنساويين (ديو) مرخمة . وعند الألمان (ديو) . وعند الأسبانيول والپورتغال (ديوس)  
كها مشتقة من أصل واحد . وفي اللغة الانمانية القديمة يعبرون عنه باللفظة (ذيو) . وفي السلاف الناماني  
دياس . وفي السكندريان الآدي (تيوار) . وفي شعراء الكلاسيكية لفظة تيوار تعني الهة أو إلهاء  
إلهة . واللفظة (تيو) المشتقة منها تعني اله الحرب عند اسم الشمال

وعند الفرس الخلق كائن من مادة أولى كذلك ذات قوة أولى متصلة بها . أي من الكاوس الذي ينشأ فيه حرمن واهرمن إلهاهم المظلمان فيهرمن إله النور خلق العالم في ستة أيام كما في رواية التوراة مع انفرق في الترتيب . خلق في اليوم الأول النور والسماء والكواكب . وفي اليوم الثاني المياه والغيوم . وفي اليوم الثالث الأرض والجبال والسهول . ثم في الرابع النبات . ثم في الخامس الحيوانات . وفي السادس الإنسان وأهل بابل يعتقدون أن كل شيء كان في الأصل ماء وظلمات مسكونة بالجن . ثم فصل الإله « بل » من هذا الكاوس السماء والأرض وصنع الكواكب . ثم كلف الآلهة لخلق البشر والحيوانات .

والصربون كانوا يعتقدون أن الإله « فتا » كوّن العالم من بيضة خرج منها وهذا الانقسام في العقائد والتصورات إلى قسمين موجود في تاريخ العقل البشري من أوله إلى آخره . أحدهما يجعل أصل كل شيء في المادة . والآخر في إله حي ومستقل . وهذه الثنية لا تزال اليوم كما كانت في القديم ويعبر عنها تارة بالقوة والمادة . وطوراً بالروح والجسم . وبالطبيعة وبما وراء الطبيعة

\*\*\*

وما عدا هذه الروايات الدينية فإنه يوجد أيضاً آراء فلسفية بحثة قديمة تقترب أحياناً من آراء العلم اليوم في ما يخص ظهور العالم وسكانه . وربما كانت سبب هذه الموافقة أن أكثر الفلاسفة في القديم كانوا أطباء أو طبيعيين لا يعتمدون إلا على المراقبة والاختبار إلا أن الفلسفة ما لبثت أن استقلت بعدهم وصارت علماً قائماً بنفسه . فأخذ الفلاسفة يتقلبون في تيه التصورات وكثرت الآراء كثيراً واختلفت . على أنه وجد في كل زمان قوم منهم ميانون للرأي المادي وسناني على بيان ذلك في ما يأتي . وإذا كان الفلاسفة الماديون لم ينفذوا على خصوصهم فلسفة الدين على الفلسفة من جهة ولقلة ما كان لهم من المعلومات الصحيحة من جهة أخرى . فإنه لما لم يكن للماديين من البراهين الحسية ما يؤيدون به رأيهم في مادية الوجود ولا سيما ظهور العالم العضوي طبيعياً كانت دعوى الروحيين أن لم تكن اقنع فأرضى . حتى أن فلاسفة كارسطو



وقولهم لم يهتموا ان يستعملوا ضد الرأي المادي الحجة القديمة التي لا تزال تكرر لما لها من الوقع العظيم على الجمهور وهي ان العمل يقتضي له عامل ضرورة واليتم بان كذلك واما اليوم فقد اختلف الامر لما بين مذهب دارون والفلسفة المادية من الارتباط الشديد. اذ يبين هذا المذهب ان التعليل الطبيعي ليس بالمتع كما كان يظن من قبل. على ان الذين اعتقدوا وحدة الكون قبل دارون قد بينوا فلسفياً ان ظهور الاحياء امر طبيعي وكذلك ظهور الانسان. واني من الذين قالوا بهذا الرأي مع التاكيد الممكن اذ ذاك وذلك قبل دارون بسنين عديدة



على ان مثل هذه النتائج الفلسفية المستخرجة من مبادئ عامة لا قيمة لها الا لعدد قليل من ذوي العلم والافكار الراقية. واما القسم الاكبر (الذي كما يقول الفيلسوف بركلي لا يتفكر لنفسه ويريد له رأياً) فيقتضي له ادلة حية واضحة وتعليلات كذلك. وهذه موجودة في مذهب دارون الذي انتقلت به كل الافكار الفلسفية المبنية على النظر لحالا الجو الفلسفة الطبيعية او المادية التي تستند في براهينها الى الطبيعة والمواد نفسها

وهو واضح بعد ذلك ان الفلسفة المادية استنادت كثيراً من مذهب دارون ولا سيما ان تحرف عنه لا لتنسبة الكائنات بينها والتي ذكرناها فقط. بل لان هذا المذهب هو الذي مهد السبيل اولاً لتشييد فلسفة في الطبيعة صحيحة. والفرق بين الفلسفة المادية على ما صارت اليه اليوم وما كانت في الماضي واضح كذلك. فلما كانت في الماضي تستند الى بعض التشابهات وربما اهملت اكبر الاختلافات. ثم تبني نتائجها في امر الكون على ما لا يخرج عن حد الاراء والمخمين فكانت نعدم قيمتها لذلك. واما اليوم فصارت بمذهب دارون ليس فلسفة فقط بل علماً ايضاً وعلماً ومليداً

واذ قد نقرر ذلك وعرفنا ما لمذهبنا من الشأن في فلسفة الطبيعة في علمنا ان ننظر الى اولئك الذين كان لهم هذه الافكار او مثلاً وقد جاهروا بها في ما تقدم من العصور. وسنرى انهم نظراً لمبدعهم الطبيعي والبسيط هم يتوافقون في الامور الجوهرية

ولذلك كانت فلسفتهم واضحة جداً ومتقنة كذلك . بخلاف سواهم الذين تكثر عندهم  
الناقضات وتكاد لا تجد اتفاقاً بينهم في أمر من الأمور وانك لتضيق في مذاهبهم حتى  
يقول أخيراً كما قال التلميذ في رواية فوست للشاعر غاي

واني ليعروني دوارٌ لذكرها كأن رحي قامت برأسي تدورُ

ولا يرضى بذلك الفلاسفة الذين يقولون ان كل ما يقال عنهم من هذا القبيل انما  
هو من باب الوقعة. ولكن قل لي الى اين وصلوا مع كل اجتهداهم. فقد وصلوا الى حيث  
قال احد مشاهيرهم اذ قال « ان تاريخ الفلسفة هو تاريخ خطأ يتخلله اشعة ضئيلة من  
النور قليلة جداً <sup>(١)</sup> » وهو قول لم يقل اصح منه . واما الفلسفة التي لا يتالحا هذا القول  
فهي الفلسفة التي نحن بصدد ها . ولنبحث اولاً في



### (الرأي المادي القديم)

جرت العادة ان يبحثوا عن اقدم الفلاسفة الماديين بين اليونان لانهم هم حقيقة اول  
من وضع المذاهب الفلسفية وبحث في اكون . ولهذا السبب سمي فلاسفة اليونان قبل  
سقراط كوسمولوجيين <sup>(٢)</sup> . الا اننا نعلم اليوم انه كان في الشرق قبل اليونان شعوب  
بالغون في الهند وهذا يجعلنا نتفكر ان تمدنا اليونان العظيم لم يكن من مستبطنهم كما  
ظن زماناً طويلاً بل انما جاءهم اكثره من الشرق ولا سيما مصر

فلنبحث ابرى اذا كان للافكار الفلسفية المادية وجود في القديم في بلاد مصر  
والهند. على اننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن فلسفة الهند وما نعلمه قليل جداً. قيل ان بعض  
فلاسفة الهند بلغ في المادية حتى زعم ان العالم نتيجة افعال متضادة لمبدأين اولين  
زلبين هما المادة والصورة . ومن الأمور الغريبة ان المادية والوجود هما اقل في فلسفة

(١) من كتاب للفيلسوف جروب في الفلسفة في المانيا في المحال والمستحيل

(٢) نسبة الى الكوسمولوجية اي علم الاكون



الهند منها في دينهم اشير بذلك الى تعاليم بودا<sup>(١)</sup> او جوطاي<sup>(٢)</sup> التي وضعها بودا  
او جوطاي ابن ملك الهند سنة ٦٠٠ - ٥٤٣ ق.م

فهذا المذهب الذي لم ينتبه الى البحث فيه الا حديثاً مع انه ممتد جداً في  
الشرق هو دين بدون اله ولا ضحايا ولا طقوس ولا صلوات اي ليس فيه شيء مما  
هو مصطلح عليه في الاديان. وأساسه الادب والانسانية وعبارة اخرى الفضيلة.  
وهو مأخوذ من تعاليم سنكجاء الذي ليس فيه اله ولا آلهة ولا ما يسمى العالم. بل  
يعلم بادة ازالة لا تلاشي بحركها عاملان هما الطبيعة والنفس. وهي تتغير بالقوى  
الطبيعية المتصلة بها. فالموت ظاهري فقط ولا يوجد في الحقيقة الا تغير دائم ما خلا  
نفس الانسان فانها موجودة لنفسها ومنفصلة عن الجسد فالطبيعة والروح امران  
متضادان.

فهذان العاملان موجودان في مذهب بودا الذي لا يسلم بالوجود الحقيقي الا  
لبرا كرتي العظيم اي المادة الاولى الكائن بها قوتنا السكون والحركة او الراحة والعمل.  
والحركة هي التي كونت العالم الذي لم يكن بد منه طبيعياً كنتيجة لسبب والذي هو  
كائن بتخريب ما كان موجوداً وتحويله على الدوام

•••

ومذهب بودا على ضد مذهب براهما الذي ينكر وجود المادة ويعتبرها اتما وهم  
من الخواص وهذا الوهم اصل الثنية اي الجسد والروح اصل امانة الجسد وانكار  
العالم وكل وجود<sup>(٣)</sup>

(١) وفي الغل يد ومعنى انه عدم شخص في هذا العالم لم يولد ولا يكح ولا يعلم ولا يشرب ولا  
يهرم ولا يموت

(٢) وفي الغل - اول يد ظهري العالم اسمه شاكين وتفسيره السيد انشريف ومن وقت ظهوره  
الى وقت الشجرة خمسة آلاف سنة

(٣) يظهر ان روحانية مذهب براهما ليست اصلية فيه بل دخلت عليه بعد زمان طويل من وجوده  
لانه ابتداء كائن الاديان بناءً لقوى الطبيعة وان براهما كان في الاصل مردافاً للمادة في المعنى اي انه مادة  
وخالي المادة او محركها. جاء في الودا اي كتاب شريعة الهند ما نصه : لا اله الا من كرهه من  
الجنس يعرف كمن الجنس وكما انه لا يوجد حقيقة الا بجنس واحد وكما انه يا صاح من حلي واحد من المذهب

ويعظم الفرق أكثر بين هذين المذهبين من حيث الفروض فإن تعليم بودا يهمل  
الشعب أكثر وغايته تحرير الانسان . والفروض التي يفرضها عليه هي الفضيلة والمحبة  
والشفقة والانضاع والرحمة والحسنة والصبر والعنة ومحبة الغريب ومساعدة المسكين  
والرأفة ولا سيما بالحيوانات وعدم الحقد والعروض عن الانتقام الخ . ويأمر بها حباً  
بالخير لا طمعاً بالكفاة ولا خوفاً من القصاص . ويعلم أيضاً المساواة والاخاء بين جمع  
البشر وينفي سائر الامتيازات من جهة المولد والمقام . وبودا يقول « ان جسد الامير  
لا يساوي أكثر من جسد العبد »

وقد تميز بودا عن سواه بأن كتب تعليمه بلغة العامة لا بالسنسكريت اي لغة  
الخاصة خلافاً لباقي الاديان في ذلك الزمان . وقد أنكر الودا اي الكتب المقدسة للهند  
وطرد الالهة والارواح البراهيمية بدون ان يرتكب التعصب او يتهور بسوء المعاملة .  
وكان يقتضي ان يسلك هذا المسلك لانه كان يريد ان يجعل دينه ديناً عاماً . ولذلك  
انتشرت رسالته في سائر اقطار المسكونة كرسول الدين المسيحي اليوم . لان غايته الاخاء  
والتسوية بين جميع الناس وانهاض جميع الشعوب الذين يعدم بالخلاص من جميع  
الآلام والمصائب بدخولهم في « النيروانا » اي العدم . فغاية بودا ان يزيل من العالم  
كل ضيق خلافاً للبراهيمة الذين لا يهتمون الا بأمر انفسهم . ولذلك انتشر مذهب  
بودا كثيراً وسريعاً

ذكر دونكر في تاريخه القديم ان اسوكا ملك مقداد ( ٢٥٠ سنة ق م ) اقام دين  
بودا في مملكته ولم يعامل المخالفين بالقسوة بل بالحنى كما يأمر به التعليم المذكور . فلم  
يضطهد البراهيمة او الكهنة ولم يقتل اسيراً خلافاً للعادة في الشرق . قيل انه منع القصاص  
بالموت . وقد زرع الاشجار على عرض الطرق واقام السبل لراحة المسافرين واستقامتهم  
واعنى كثيراً بالفقراء وانشأ مستشفيات ليس للبشر فقط بل للحيوانات العاجزة  
والمریضة ايضاً

يعلم كل الذمب او من جارحة كل الفولاذ ممكناً براعاً ايضاً هو مادة كل شيء وقوة كل شيء . وهو المادة  
التي نقول من نفسها وليس هو مسبب كل شيء فقط بل هو كل شيء ايضاً . ثم دخلت فيه الارواح شيئاً  
فشيئاً خلافاً لفلسفة سنيكيا . والمذهب البوذي انشئ منها فانيها ما زالوا يعظمان المادة



ولما خاف البراهمة على مذهبهم ان ينقضه مذهب بودا حركوا الامراء على اضطهادهم . ودام هذا الاضطهاد الشديد من القرن الثالث الى القرن السابع للمسيح . وبعد هراقة دماء كثيرة انحصر مذهب بودا في الهند القديمة اي في مكان مشتات وفي ما جاوره من البلدان كبلان والصين واليابان وتبت ومنكوليا حتى انه اليوم اكثر الاديان انتشاراً بعد دين المسيح فان البوديين يبلغون ٤٥٠ مليوناً والمسيحيين ٤٧٥ مليوناً

ولم يتخلص ظل البودية <sup>(١)</sup> من الهند كلياً بل ادخل البراهمة في دينهم بعض مبادئ منه كازلية المادة والنبروانا وهما القاعدتان الجوهريتان في مذهب بودا

\*\*\*

واما النبروانا فهو غاية مذهب بودا . وقد اختلفوا في معنى هذه اللفظة والصحيح انها تعني لا شيء او العدم . وعليه فيكون مذهب بودا عبارة عن العدمية في انهم معانيتها وعن الوجود العام . فالعالم على رأيه مركب من الوجود وكل شيء فيه باطل وسوف يهلك . والالوجاع الكبرى عند اربعة : الولادة . والشيخوخة . والمرض . والموت . والحياة كلها عذاب والخلاص من هذه الالوجاع ومن هذا العذاب ينبغي على الانسان ان يتحرر شيئاً فشيئاً بواسطة الدين والفلسفة من كل حاسة ومن كل فكر حتى يرجع اخيراً الى راحة العدم . والنبروانا غاية اخرى ايضاً وهي الخلاص من عذاب البعث

(١) وفي الفل البوديسمية قال ودون مرتبة البد مرتبة البوديسمية وسماها الانسان الطالب سبيل الحق . واما يصل الى تلك المرتبة بالصبر والعظمة وبالمرغبة فيما يجهل ان يرغب فيه وبالامتناع والتخلي عن الدنيا والعروض عن شهواتها ولذاتها والتمتع عن محارمها والرجوع على جميع الخلق والاجتناب عن الذنوب العشرة : قتل كل ذي روح . استغلال اموال الناس . والزنا . والكذب . والغيرة . والبذاء . والشتم . وشاعة القاذب . والسفه . والتجدي لجرائم الآخرة . وباستكمال عشر أعمال : احداها الجود والكرم . الثانية العفو عن المسي ودفع الغضب بالحلم . الثالثة التعفف عن الشهوات الدنيوية . والرابعة الفكرة في التخلص الى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا العالم الفاني . الخامسة رياضة العقل والعلم والادب وكثرة النظر الى عواقب الامور . السادسة التفرغ على تصريف الناس في طلب الحيات . السابعة لين القول وطلب الكلام مع كل واحد . الثامنة حسن المعاشرة مع الاخوان بايثار اختيارهم على اختيار نفسه . التاسعة الاعراض عن التحقق بالكلية والتوجه الى الحق بالكلية . العاشرة بطل الروح شرقاً الى الحق ووصولاً الى جناب الحق . هـ . ثلث والوصايا العشر على شكل الذنوب العشرة ضد الفطرة بالذات

والبعث له مقام عظيم في عقائد الهند . فالنيروانا هو إذا تخلص من كل فكر وشعور  
وعود الى السكون العام اي الى العدم الاول ( سونجا ) الذي هو عبارة عن  
السعادة العظمى

ثم ان البراهمة قد حولوا النيروانا عما هو عند البوذيين حتى استخلصوا منه  
البطالة عن كل عمل فالانسان يقول أم أم <sup>(١)</sup> وبالتأمل الشديد ونكران الذات يتحول  
شيئاً فشيئاً الى الله او الى براهما . على ان هذا التحول غير مستطاع الا للبراهمة فقط  
وكما ان دين البراهمة استعار كثيراً من دين البوذية هكذا دين البوذية استعار  
كثيراً من دين البراهمة . ثم فقد ما كان عليه من البساطة وفقد بانتشاره في الشعوب .  
فاكثر من القديسين والصور والقون والاديرة والامانة والكنية والرتب . ومن هذه  
الحية يشبه الدين الكاثوليكي جداً مع شدة ما بينهما من التناقض في المبدأ ثم صار  
بودا نفسه إلهاً يعبدونه

ومبادئ هذا الدين رغماً عن فساد لا تزال حتى اليوم ذات مفعول عظيم ظاهر  
في حسن معاملة المتدينين به حتى البراهمة انفسهم لاصحاب الاديان الاخرى . ذكر  
الدكتور هوج استاذ السنسكريت في مدرسة بوما الانكليزية ( قصة بومباي ) ان  
البراهمة قالوا له منددين بترفض النصارى الديني ما نصه <sup>(٢)</sup> « ان هذا الترفض فيهم

(١) وهؤلاء اصحاب الفكرة يعظمون امر الذكر ويقولون هو المتوسط بين الموصى والمفعول .  
فالصور من الموصيات ترد عليه . والخفاتي من المفعولات ترد عليه ايضاً . فهو مورد الملين من العالمين .  
فيصعدون كل المجهود حتى يصرفوا اليوم والفكر عن الموصيات بالرياسة البليغة والاجتهادات الجتهدة .  
حتى اذا تجرد الفكر عن هذا العالم تخيل له ذلك العالم . فربما يخرج عن مغريات الاحوال . وربما يقرب على ميسر  
الامطار . وربما يرفع اليوم على رجل حي فيقتله في الحال . ولهذا كانت عاداتهم اذا دعهم امر ان يجمع  
اربعون ورجلاً من الهذيين الخفاصين المنفقين على رأي واحد في الاصابة فيقتل ثم لهم الذي بهضمهم حمله  
ويندفع عنهم اليلاء الملم الذي يكادهم ثقلاً . انه من كتاب المال والفعل ما قلت وعندهم ليلاء بهضمهم هذه العادة  
التي لا تزال عند بعض الملل حتى اليوم وتعرف بالذكراية

(٢) والبراهمة ينسبون الى رجل منهم يقال له برهام قد مهد لهم في النبوات أصلاً . فقرر الحالة  
ذلك في المفعول يرجوه منها ان قال ان الذي يأتي هو الرسول لا يتلو من احد امري ان يكون  
معقولاً . واما ان لا يكون معقولاً . فان كان معقولاً فقد كفانا العفل الشام يادراكه والوصول انه فاي



دليل على ضعف العقل وضيقة لأن العاقل لا يضطهد أحداً لدينه إلى أن قالوا انهم  
تجعلون كل انكالمكم على الله واما نحن فلا تكمل الا على انفسنا والدين المسيحي  
مصدره من شعب من اصل سامي وهذا الاصل ادنى من اصلنا وليس عنده فكر  
فلسفي غير مستعار فنحن لا نقبل مثل هذه العقائد البتة « ولم يستطع البراهمة ان يفهموا  
التكوين بحسب نص التوراة

»

فالتعليم بالحجة ونشر الدين في سائر الاقطار ليس خاصاً بالدين المسيحي وحده  
كما يظن وربما اخذ ذلك عن الهند . قال شو بنهور وهو يزعم ان النصرانية اخذت  
تعاليمها من الهند عن طريق مصر ما نصه . « ان النصرانية لم تعلم الا ما كان يعلم في  
اسيا زماناً طويلاً قبلها » . ولا يخفى ان التعاليم الادبية للتوراة كانت موجودة عند  
البوذيين . وقد قال بودنوف ان حكاية الابن الشاطر موجودة في الكتب البودية مع  
بعض اختلاف فيها . وما عدا ذلك فان النصرانية تشابه جداً مع البودية في مسائل  
شتى كالامانة وانفصال الطبيعة والروح ونضادها واحتقار الجسد والحياة الدنيا والنسك  
والزهد والاعتزال في الاديرة وما شاكل

فلا يوجد اذاً شيء في النصرانية لم يكن موجوداً قبلها . وقد قال المؤرخ  
الانكليزي بوكل « ان القول بان النصرانية جاءت بمقتضى ادبية جديدة لم تكن

حاجة لنا الى الرسول . وان لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد  
الانسانية ودخول في حرم الهيمنة . ومنها ان قال انه اكبر الذكائر في الرسالة اتباع رجل هو ملك في الصورة  
والنفس بأكثر ما تأكل ونسرب ما نشرب حتى نكون بالذاتة اليه كعباد يتصرف فيك رعباً ووقوعاً او  
كبراً وان يصرفك اماماً وخطلاً او كعبيد يذم اليك امرأ ونهباً . فاني شجرة عليك واية فضيلة اوسيت  
استخدمك وما عليك على صديق دعواه . فان اغترروهم بمرد قومه فلا يميز قول على قول . وان اغترروهم  
بمجهز ومجهز فعندنا من خصائص الجواهر والاجسام ما لا يحصى كثيرة . ومن الظهور عن مميزات الامور  
من لا يساري غير . اهـ - من كتاب الملل والنحل - قال صاحب الكتاب المنصور والعرب والهند  
يتقاربان على مذهب واحد واكثر منهم الى تقرير غرض الاشياء والحكم باحكام المائيات والمخالفات  
واستعمال الامور الروحانية والروم وانهم يتقاربان على مذهب واحد واكثر منهم الى تقرير طبائع الانبياء  
والحكم باحكام الكليات والكليات واستعمال الامور المحسوسة

موجودة اختلاق محض او جهل بالتاريخ . والقضايا التي يزعمون انها خاصة بها مستعارة ايضاً كسألة الجبل بلا دنس فانه قيل مثل ذلك من نحو الف او الف سنة عن ابنة احد ملوك مصر . والثالث على قول « ريث » كان في عتائد الشعب المصري



والمصريون كانوا يعتقدون وجود اربعة عناصر جوهرية او اسباب اولى لا تدرك ذاتيتها : المادة . والروح . والمخلأ . والزمان من مجموعها يتكون الاله الاول . فالمادة الاولى تقتصر عليها هنا وتسمى عندهم « نيث » كانوا يشخصونها حية ذات قوة كائنة من نفسها ومتحركة بدون انقطاع . والكتابة الموجودة على صنم نيث في مدينة سايس القديمة والمكتوب فيها « انا ما كان وسيكون » اشارة واضحة الى ذات المادة . وهذا يظهر اكثر ايضاً في الاسم المعطى لنيث وهو « الام العظمى »

وهذه رواية الخليفة على مذهب المصريين قالوا ان الاله الاول فصل جزءاً من مادته وكون العالم منه فالعالم على رواية هذا المذهب ليس بشي جديد وانما هو نحو او استحالة في ما كان موجوداً منذ الازل . وهذا العالم ذو شكل مستدير ويسمى بيضة الكون ايضاً . وفيه تتكون الآلهة صادرة من مادته لا خالقة لها ثم يتكل هذا العالم رويداً رويداً في الدهور الطويلة



واذا انتقلنا من الرأي المادي الديني في الشرق الى الرأي المادي الفلسفي في الغرب نجد أولاً في بلاد اليونان جمهوراً من الفلاسفة بعد واضع كل فلسفة وقد ظهر في مدة نحو قرن ونصف من اول القرن السادس الى زمان سقراط الذي ولد سنة ٤٤٩ قبل المسيح . وجميع هؤلاء الفلاسفة اشتغلوا بمسألة تكوين العالم ولذلك سموا كوسمولوجيين وقالوا فيه باسباب مادية طبيعية وجعلوا اصل كل شي من مادة اولى <sup>(١)</sup> . ولا احد منهم ذكر الثنية التي وضعت بعد ذلك اي الروح والمادة والجسد

(١) قد تقدم في اول هذه المقالة ان نقول بمادة اولى كان كبير الانتشار في القدم فربما اخذ اليونان افكارهم في الطبيعة من هذا القول



والنفس . وهم في كثير من المسائل متوافقون مع العلم الحديث . وسبب ذلك ان  
فلسفة اليونان لم تنشأ عن التيولوجية وانما نشأت عن مراقبة احوال الطبيعة . واول  
فلاسفتهم على قول دونكر كان طبعياً وهو طاليس من ميلت . واليونان يعتبرونه  
ابا الفلاسفة وهو واضع اساس المدرسة اليونانية

ولد طاليس سنة ٦٢٥ ق . م وقرأ أولاً على الكهنة المصريين واطلع على حكمهم .  
وعلى ظفيات النيل باسباب طبيعية . وقاس ارتفاع الاهرام من ظلها . وقسم السنة  
كالمصريين الى ٣٦٥ يوماً . وانبأ اهل وطنه بكسوف اعترى الشمس فاندهلوا من  
هذا الامر جداً . ولم يتعلم من اليونان الا ان القمر يستمد نوره من الشمس . وقد  
قدر انه اصغر منها بسبعائة وعشرين مرة . وقسم السماء الى خمس مناطق .  
واعتبر النجوم اجساماً شبيهة بالارض ولكنها مألقة ناراً . ورجع بقومه من سماء  
تصوراتهم الشعرية وقد ملأوها بالآله الى عالم الحقيقة والوجود ونفى الارواح من  
الارض . وقال ان اصل كل شيء من الماء . وان الارض كروية وسابحة على الماء  
وان الزلازل <sup>(١)</sup> فيها من فعل هذا الماء تحتها . وتابعة كثير من اهل وطنه . وبحث  
عن اصل الكون في المادة

ومنهم أنكر ثيمند (ولد ٦١٠ ق . م) فصنع اول مقياس للوقت . ورسم البحر  
والارض على لوح من نحاس احمر اي انه اول من رسم خارطة جغرافية . واعتنى بضبط  
خطوط الانحناء للكواكب ومسافتها ومساحتها . وزعم ان الارض كقرص مستدير  
معلق في وسط الكون وان المخلوقات الحية فيها من ادنى الحيوانات البحرية حتى  
الانسان تكونت بالتتابع . ولم يوافق طاليس على ان الماء اصل كل شيء بل اراد ان يحد

(١) نقل عن ان المبدع الاول هو الماء قال الماء قابل لكل صورة ومنه ابدع الجواهر كلها من السماء  
والارض وما بينهما . وهو طه كل مبدع وطه كل مركب من العناصر الجسدية . فذكر ان من جود الماء  
تكونت الارض . ومن الحلاوة تكون الهواء . ومن صفوة الماء تكثرت النار . ومن اللدخان والابخرة تكونت  
السماء . ومن الاشتعال المحاصل من الاثير تكونت الكواكب فدارت حول المركز دوران السحب على يد  
بالشوق المحاصل فيها اليه . قال والماء ذكرًا والارض انثى وما يكونان سلا . وانما ذكرًا وانثى  
وما يكونان علوا . قال مؤلف الكتاب وانما على القول ان الماء مبدأ المركبات الجسدية لا المبداء  
الاول ( شبيه اشبه بالماء الذي عليه العرش وكان عرشه على الماء ) - من اخطى -

شيئاً أبسط . فجعل المادة نفسها قبل كل شيء « واصل كل شيء » . وقال انها غير متلاشية وغير متناهية وانها دون رقة الهواء . وارق من الماء متحركة نامية من نفسها . قال « ان المادة الاولى تشمل كل شيء » وتدبر كل شيء « وقال ايضاً « كل شيء » سيهلك ضرورة ويعود الى حيث آتى »

\* \*

ثم جاء أنكر يمانيس . وهو الثالث من الفلاسفة الميلتيين . وانكر على أنكر بمندر مادته الاولى انها لا تقوى على توليد الحياة لانها ساكنة واخذ يبحث عن مادة اخرى تكون اقرب لذلك . فرأى ان حياة الانسان متوقفة على دوام نفسه والانسان يتنفس الهواء فقال ان الهواء اذا شرط الحياة في الانسان والحيوان . وانه اذا كانت الحياة تتوقف على الهواء في المخلوقات العليا فبالاولى ان تكون كذلك في المخلوقات الدنيا . واذا كان الهواء شرطاً لها فيصح ان يكون سبباً لها ايضاً . فالهواء غير منظور ونفس الانسان كذلك . والهواء يتحرك ونفس الانسان كذلك . فربما كان الهواء نفس الانسان ونفس كل حي في الطبيعة ولذلك اعتبر النفس او النسمه والحياة والنفس شيئاً واحداً . وقال ان الهواء ليس نفس الانسان فقط بل نفس العالم اجمع . اي انه مادته الاولى وقوته الاولى كما هو ظاهر من قوله « انه » كما ان نفسا التي هي هواء تشملنا وتسلط علينا هكذا الهواء يشمل كل شيء » فالهواء على رأي هذا الفيلسوف لا ينفك يتحرك ولا يزال يتغير من مادة الى مادة ومن صورة الى صورة . فاذا رق استحال الى نار . واذا تكثف استحال الى غيم وماء وتراب وحجر . واذا رق ايضاً صير الحرارة واذا تكثف صير البرد . والارض ليست سوى هواء متكثف . والاجرام السماوية اللامعة عبارة عن اجزاء تطايرت من الارض ولسرعة حركتها رقت فتولدت فيها الحرارة والنار

فكم تقرب هذه الآراء الفلسفية التي لا تستند الى شيء من المعارف الحقيقية في الطبيعة من نتائج العلم اليوم . ولا يخفى ما اقتضى للعالم من البحث والزمان الطويل حتى بلغ هذا المبلغ . فانا نعلم اليوم كما كان يعلم طاليس ان الارض كرهة . وان كل شيء على



سطح الأرض وفي السماء طبعي . وفلم كما كان يعلم « أنكريندر » أنه توجد مادة أولى أزلية لا تتلاشى فيها قوة الحركة والنمو . وفلم كما كان يعلم « أنكريندريس » أن كل الأجسام هواء متكشف أو متلف . وفلم نظيره أن أرضنا والأجرام السماوية متكونة من الهواء أو من مادة هوائية . ونحن نعتبر أيضاً أن النيازك التي لا تزال تحصل في السماء أجسام من أصل هوائي أو غازي تتكشف عند دخولها في الهواء وتسخن وتنقص على الأرض . ونعتبر الماء هواء متكشفاً . وفلم عن الحر والبرد بحركة انقباض وانسساط في المادة . وفلم أيضاً أن الغازات باجتماعها على ضروب من التركيب تفوق الحصر والعد تؤلف جسداً وكل الأحياء وسائر مواد الكون . نعم أننا تقدمنا جداً عن الفيلسوف اليوناني وصارت لفظة هواء عندنا اعم جداً مما كان يظنه إذ صار عندنا مركباً ما كان عنده بسيطاً



ثم أنه بعد هؤلاء اليونان الذين لم يقتصروا على الفلسفة فقط بل اعتمدوا أيضاً على المراقبة والذين ادخلوا في العلم القواعد الكبرى الثلاث — الماء والهواء والمادة — قامت المدرسة البيثاغورية التي أسسها بيثاغوروس المتوفي سنة ٥٤٠ ق م . واصحاب هذه المدرسة لا يعدون من هذه الطبقة فانهم هم الذين ادخلوا الأشياء الغامضة في الفلسفة . وعوضاً عن أن تكون قاعدتهم مراقبة الطبيعة كالليونان كانت الاستناد الى المسائل الحسية . فيثاغوروس رسم أركان الفلسفة المصرية الاربعة وهي المادة الاولى والروح الاول والحلا والزمان الاولين في واحد مربع . والبيثاغوريون اشتغلوا كثيراً بالحساب والمهنة والموسيقى . وقد وضعوا قضايا من مثل « جوهر كل شيء في العدد » أو « كل شيء عدد » . وهكذا ادخلوا أشياء كثيرة لا قياس لها في الفلسفة وافكارهم في التكوين غير واضحة على أن أحدهم أو كلوس لوكاوس قال ما معناه

ومما عشت في دنياك هذي فلما تخليتك من قمر وشمس

وقد علق الكاتب الشهير بيرن على القاعدة الشهيرة لبيثاغوروس « أن مربع الضلع المقابل للزاوية القائمة في مثلث قائم الزاوية تعدل حاصل مربع الضلعين الآخرين »

العبارة الآتية قال « ان يثاغورس لما اكتشف قاعدة الكبري ضحي للآلهة مائة ثور — فكلمنا اكتشفت حقيقة جديدة تملأ الثيران الجو بخوارها »

•••

أما المدرسة الالياوية فتمهنا أكثر من مدرسة يثاغورس ومؤسسها الشهير اكرينوفانوس من كولوفون (آسيا الوسطى) وقد اخذت اسمها من مدينة آليا في سيسيليا ووجودها كل في سنة ٥٤٠ ق. م.

واكرينوفانوس اول من قام ضد الاوهام الدينية. وينسبون الى الفيلسوف لوفيس فورباخ العبارة الآتية « كل تصور بالله محول عن الانسان » اي انه منسوخ عن صورة الانسان وذاته. والحال ان اكرينوفانوس هو السابق الى هذا المعنى حيث قال لاهل وطنه وقد غاصوا في بحر الاوهام هذه العبارة الشهيرة « يظهر للبشر ان الآلهة لها صورة البشر وانواهم ولسانهم فالأسود آلهته سود وانفها افطس. وابن طراس يصور آلهته بعيون زرق وشعر احمر. ولو ان للبقر والاسود يدين لصورت آلهتها على صورتها » ولقد مر في مقالتي الاولى ان اكرينوفانوس عرف المتحجرات في بطن الارض كما هي حقيقة اي انها احافير حيوانات كانت موجودة سابقاً ووطن انه توجد عوالم لا نهاية لها الا انه لم يحسب انكواكب الظاهرة في السماء من عداد العوالم وانما اعتبرها تصعدات نارية من الارض

•••

ومن مشاهير هذه المدرسة ايضا پارمنيدس من اسيا. ولد سنة ٥٢٠ ق. م. فانه في ارجوزته في الطبيعة ينكر العدم والفراغ. فوجود شيء من لا شيء امر مستحيل عنده وهو يقول « ان ما يفكر فينا وتكوين الكل شيء واحد » ويقول بوز (تاريخ الفلسفة) ان الالياويين صرحوا بالبنتايسم ومعناه ان الله في الكل والكل هو الله لمضادة اصحاب الدين في اكون

•••

واحد تلامذة اكرينوفانوس هرقليط انفصل عن المدرسة الالياوية واقام تعالماً



جديداً هرقليط ويسعى بالفاض لغموض كتابه في الطبيعة عاش سنة ٥٠٠ ق. م. وكان عبوساً يحب العزلة. فالأليايون كانوا يعتبرون الكينونة خاصة. ولما هو فلم يكن مهمه إلا الصيرورة. وقد قال « أن الأشياء هي دائماً في حالة المصير فانها تظهر وتزول ولكنها غير كائنة في وقت ما » وقد زاد على عناصر اليونانيين الهواء والماء والمادة عنصراً رابعاً النار ويعتبرها اعظم من الثلاثة الاولى. وقال ايضاً ( ان العالم الواحد انكل لم يصنعه احد لا آلهة ولا بشر. وانما هو كان وكائن وسيكون الى الابد نارا دائماً تشتعل وتتمد الى حد محدود فهو لعبة يلعبها جوهر مع نفسه.

ونفس الإنسان على قول هرقليط نار ويعمل عنها بانها تصدر من النار الاولية الالهية<sup>(١)</sup> ويقول انا ظن اننا نرى اشياء ثابتة والحال انها في حالة التغير والمصير. فعارفاً اذا ناقصة وقارغة. والحياة نفسها باطلة ولا غاية لها

وهذا العدم في الاشياء الارضية يذكرنا بتعليم بودا ولقد اسهب هرقليط فيه حتى اطلق عليه لاجله اسم « الباكي او المتحب »

\*\*\*

ثم ظهر امبيدقلس ( سنة ٤٥٠ ق. م. ) وكان طيباً فاجتهد في التوفيق بين كينونة الأليايوين وصيرورة هرقليط. والذي يزيد اعتباره عندنا كونه الاب الاول لمذهب دارون. وللوصول الى هذا الغرض اعتبر الصيرورة عبارة عن تجديد ما كان اي انه ضرب من ضروب الكينونة. وقد زاد على العناصر الثلاثة الموجودة النار والماء والهواء عنصراً رابعاً وهو التراب. وعلى ذلك فهو صاحب العناصر الاربعة التي دامت زماناً طويلاً في العلم. وتسميتها عناصر ارسطو خطأ لان ارسطو لم يضعها وانما اثبتها في فلسفته. وقد اضاف اليها الجوهر الخامس وهو عنصر اثيري لرق منها وربما كان على رأيه سبب الظواهر الروحية

(١) قال ان مبدأ الموجودات هو النار فانكثف منها وتجمهر فهو الارض وما تحلل من الارض بالنار صار ماءً وما تحلل من الماء بمرارة النار صار هواءاً فانكثف من ذلك وبعدها الارض وبعدها الماء وبعدها الهواء والنار في المبدأ والنها المنتهى فهنا الفكر والنها السادس اه - المحل -

واميدوقل كبرقليط يعتبر العالم ازلياً وغير مخلوق  
 ثم قال ان جميع العناصر المتجمعة كرة واحدة بالشوق الذي فيها كانت في اول  
 الامر ساكنة ثم حصل التناثر والانتظام اللذان يصادفهما الشوق وهذا هو سبب  
 التجاذب والتدافع اللذين كونتا العالم فيما بعد  
 وبعد أن تكون العالم يقول ان الارض والعالم العضوي تكونتا شيئاً فشيئاً الاكمل  
 من الانقص وربما كان في هذا النمو صور غير قياسية او غير منتظمة لا طاقة لها على  
 الثبات على ما هي عليه فتخلصت من هذه الموانع ونالت تركيباً انسب  
 وهو يعتقد تحول المادة لانه يقول ان العناصر المتركب منها الانسان ربما كانت  
 قد مرت بسائر المركبات الممكنة  
 ويمتد ايضا مفارقة الانفس وينسب ذلك الى غاية معنوية ترجع النفس فيها  
 الى الحالة الاولى من الراحة والشوق او الحب

•••

على ان اهم الفلاسفة لتاريخ الفلسفة المادية قبل سقراط هم اصحاب القول بالجواهر  
 الفردة واعظمهم لوسيب ودموقريط. واصل دموقريط من القاطنة اليونانية في ادير  
 حيث ولد سنة ٤٥٠ ق.م  
 فلوسيب او لوسيوس ايضا لا يعلم عنه شيء كثير. والظاهر انه ابو مذهب  
 الجواهر الفردة وان يكن الفيلسوف انكراجوراس قال قبله بوجود بذور اولى او دقائق  
 مادية متساوية لا اعداد لها. وهذا المذهب الجوهرى له شأن عظيم في العلوم الطبيعية  
 ولا يزال حتى اليوم وقد تعاظم جداً  
 فيوجد على رأي لوسيوس « فراغ تتحرك فيه منذ الازل دقائق لا تدرك بالحواس  
 لا اعداد لها. والاشياء تظهر وتختفي بحسب ما تجتمع هذه الدقائق او تنفصل وهي  
 لا تتجزأ ولا تلتصق »  
 واما تلميذه دموقريط فاشهر منه وتعليمه ان الدقائق منتشرة بسيطة لا تتجزأ  
 اذلية تفوق الحصر ولا تدرك لصغرها. وقد شبهها بالغبار الموجود في الهواء والذي



لا يدرك عادة ولا يظهر إلا في شعاع الشمس . ومن اتحاداتها المختلفة تكون سائر المواد من جاد وحي . واختلاف المواد متوقف على اختلاف هذه الدقائق أو الجواهر في العظم والصورة والوضع . وهي منفصلة بعضها عن بعض بمساحات فارغة أكبر منها ولها بعضها بالنظر إلى البعض الآخر حركتان حركة دائرية وحركة اصطدام مستقيمة . وعدد العوالم لا نهاية لها كسعتها . ولا تزال تولد عوالم وتلاشي عوالم . والنفس مركبة من جواهر فردة لطيفة جداً كروية شبيهة بجواهر النار تولد حرارة الجسد . وكل جسد نفس وحرارة معينة . والنفس لا تنفك تطلب الانفصال عن الجسم إلا أنها ممنوعة عن ذلك بتصمد النفس فإذا وقف النفس وقع الموت

ولد بمقربط مذهب في ما يخص ادراك الحواس خاص به قال النفس تأثر وحركاتها الافكار . ولكن الافكار لا تحصل إلا عن انفعال جسدي أو عن ادخال صور جسمية إلى النفس . وهذه الصور المنبعثة من كل جسم تدخل النفس وتؤثر فيها عن طريق الحواس وتأثيرها في النفس غير مطابق لطبيعة الأشياء إذ لا تدرك حقيقة الجواهر والجواهر وحدها حقيقة . فأننا نرى الألوان ونسمع الاصوات الخ حيث لم يكن يلزم ان ندرك إلا صوراً هندسية فلا يصح الاكتفاء بادراك الحواس بل يلزم الاعتماد على العقل أيضاً — والآلهة كذلك ليسوا سوى جواهر فردة منجمعة والفرق بينها وبين الانسان ان جواهرها أقوى وأكثر حياة من جواهر الانسان . والنفس ليست خالدة لأنها مؤلفة من جواهر محترقة فإذا حصل الموت انحلت هذه الجواهر وصارت جواهر نار

وهو كبار منيوس وضع هذه القاعدة (لاشي من لا شيء ولا يتلاشى شيء) وهذه القاعدة الأخرى أيضاً وهي « كل شيء بالاضطرار لا بالاختيار »



وإدب ديموقريط بسيط جداً فهو يقول أنه يلزم عمل الفضيلة لأن الفضيلة تجلب السعادة . وهذا شأن أكثر الأقدمين فانهم يعتبرون أنه يلزم عمل الخير لا خوفاً

من شيء بل لانه واجب . وانه يلزم ان ينجل الانسان من نفسه لا من غيره .  
فالحياة التي لا قلق فيها ولا غم اكبر سعادة في الارض

وقد كن للموقر بط شيخوخة طويلة وهنية وعاش جليل القدر عند الناس طول  
حياته . وقد عرفوا فضله وغزارة معارفه ولا سجا في القلب فيظهر انه كان طويلا  
الباع فيه . والنصائح التي وضعها في ما ينبغي ان تصرف الحياة فيه لا تدل على سعة  
اختباره فقط ( لانه صرف كل ماله في صباه على السياحة حباً بالعلم ) بل على ما له  
من الوقار ايضاً . وفي فلسفته من الدقة والارتباط والتحديد ما لا يوجد في فلسفة من  
تقدمه من الفلاسفة وهي اقرب منها الى العلم اليوم وهذا صحيح :

اولاً في مذهب الجوهري الذي يشبه مذهبنا في الجواهر بجميع الامور الجوهرية  
والفرق بيننا وبينه ان الجواهر عنده ليس لها الا اشكال هندسية مختلفة واما عندنا  
فالاختلاف بينها بالصفات الكبارية . وهو ينسب لها حركة اولى واما حركتها عندنا  
فمن تضاد قوتي الجذب والدفع اللتين نعتبرهما غريزتين في الجواهر . وجواهرنا اصغر  
جداً من جواهره التي يشبهها بالغيبار المنير في الهواء <sup>(١)</sup> ولا يخفى ان جواهره  
تصورية لتسهيل التعليل عن احوال الكون . واما جواهرنا وان كانت تصورية ايضاً  
الا انها تستند الى ملاحظات وامتحانات علمية شتى

ثانياً مذهب في كثرة العوالم الى ما لا نهاية له وزوال بعضها وقيام آخر يشبه  
مذهبنا في علم الهيئة اليوم

ثالثاً . قاعدته التي يقول فيها لا شيء كان من لا شيء ولا شيء يتلاشى هي  
كذهبنا في عدم تلاشي المادة وفي حفظ القوة

رابعاً . هو ينكر الاسباب الغائية نظيرنا . وهذا جلب عليه في القديم من الطعن  
ما لا يزال يحمله المادون اليوم كجعله « الصدقة العمياء » ربة أنكون وفي الحقيقة هي

(١) قال فالنتين حبه الخ الذي لا تكاد نسمع نطقها فيها مبادرات من جميع الجواهر النورانية التي

لا تبصرها عيننا



الضرورة لا الصدقة الحاكمة في الكل . فدموقريط لا ينكر أنه يوجد ناموس . لكنه لا يعلم بان هذا الناموس يفعل لغاية ويسمى الصدقة عند جهل الانسان خامساً . مذهبه في ادراك الحواس الذي ليس العالم بموجبه الا جواهر متحركة وليست الاصوات والروائح والالوان الا شعوراً ذاتياً لوجداننا او لحواسنا هو مطابق للمذاهب المعول عليها في الاحساس اليوم سادساً . واخيراً رأيه في جوهر النفس هو كراينا والفرق بيننا ان جواهر النار لدموقريط يعبر عنها عندنا بافعال الدماغ والاعصاب المجهولة في زمانه فيري مما تقدم ان دموقريط اقرب الى افكارنا من سائر الفلاسفة الاقدمين . وقد اشتهر رأيه المادي في عصره واضطهد كثيراً كما لا يزال يضطهد رأي الماديين اليوم . ومن مضطهدين ارسطوطاليس فقد قسى عليه القول ثم نسبوا اليه في المستقبل كل شائبة واوسعوه كل طعن وهو براءة من كل ذلك كما يتضح مما ذكرناه عنه

\*\*\*

ثم بعد دموقريط جاء السفسطائيون والقوا الشك في قلب الانسان بحقيقة ما هو معلوم وما سيعلم وليس لهم اهمية في نظرنا الا باستطاعتهم في شكهم حتى الى الآلهة منهم بروثاغوراس ( ٥٤٠ ق . م ) قال انه لا استطاع ان يقال عن الآلهة انهم موجودون او غير موجودين . فانهم بالاحجود وطرد من اثينا واحرق كتابه فلا اضطهاد الذي ملأ العالم مظالم لاجل الدين قديم جداً حتى من عهد ميثولوجية اليونان ثم تجاسر السفسطائيون مع الزمان واحدهم كريتاس الملقب برئيس الثلاثين ظالماً شرع يعلم جهاراً ان الآلهة ليسوسرى اختراع اناس دهاة ليخدعوا الشعب الجاهل ومعلوم ان السفسطائيين ينكرون الخير المطلق ويحملون العدل والظلم من اصطلاح الهيئة الاجتماعية . ثم تطرف اريستيب الذي كان في القرن الرابع قبل المسيح ووضع علماً جديداً في الاخلاق اسمه على اللذة التي اعتبرها غاية الوجود . فاللذة عنده هي السعادة ولا يستطيع ان يجمع بين التأمل وضبط النفس ويكون سعيداً الا العاقل ولذة الجسد افضل من لذة النفس . وعذاب الجسد اشد من عذاب النفس

وكان أريستيب يغشى كثيراً مجالس الأكابر في ذلك العصر حسن المعاشرة  
كثير التردد كذلك على الحكماء وقد اتفق له أن اجتمع مراراً كثيرة بخصمه العظيم  
« بلاتون » الحكيم عند « لائيس السيراقوسي » وقد خرج من مدرسة أريستيب  
ثيوذورس الجاحد



وأريستيب كان آخر الفلاسفة الماديين قبل سقراط ثم خلا الجو للفلسفة النظرية  
واشتهر فيها الفيلسوفان الشهيران بلاتون وأرسطوطاليس ونضرب هنا صفحاً عن  
ذكرهما وعن ذكر معلمهما سقراط لأنه ليس في فلسفتهم شيء يختص بتاريخ  
الفلسفة المادية

الأ أن أحد تلامذة أرسطوطاليس وهو ستراتون صاحب الفلسفة الطبيعية الشهير  
يظهر من تعاليمه التي لم يلفنا منها إلا القليل أنه كان له مذهب مادي . فإن القوة أو  
العقل الذي عند أرسطو يدير العالم لا يعتبره ستراتون إلا العلم المبني على الاحساس .  
وهو يعتبر أن كل شيء بل كل حي مشتق من المادة بقوة طبيعية متصلة بها . ولا  
يجد لزوماً للبدن الروحي الذي يضعه أرسطو في باطن كل شيء . بل كل الطبيعة اله  
والعقل عنده قوة حية لأن كل فكر يقتضي شعور الخواص قبله ضرورة



ثم بعد سقراط بمئة سنة ظهر الفيلسوف العظيم أبيقوروس ولد سنة ٣٤٢ ق . م  
في قرية من أطليكا وحدث له إذ كان ابن ١٤ سنة وهو يقرأ في المدرسة تكوين  
زبور<sup>(١)</sup> حيث يجعل أفكاوس مبدأ كل شيء فسأل معلمه حينئذ من أين أتى أفكاوس  
فأجاب في الجواب . ومن ثم هام في الفلسفة وأخذ ينظر بنفسه فقرأ ديمقريط وتعليقه في  
الجواهر الفردة . وفي اثنا قرأ على تلامذة أرسطو . ثم عاد إلى وطنه هرباً من

(١) اسم شاعر يوناني كان في القرن التاسع قبل الميلاد ويقول البعض أنه كان معاصراً لهوميروس  
نظم عدة أشعار في موضوعات مختلفة منها شعره في تسلسل الآلة وتكوين العالم وقد ترجم إلى أكثر  
اللغات الحديثة



الارتباك السياسية التي وقعت فيها اثينا بعد موت الاسكندر الكبير . ولم يرجع اليها الا وقد تقدم في السن فاشترى فيها بستانا وعاش محاطا بتلاميذه كأنه بين ذوي قرباء وكان يحترم الآلهة على ما هو متواتر في اعتقاد أهل بلاده ولكنه كان يخرجها دائما من مباحث الفلسفة وكان يمثلها كائنات ازلية خالدة لا عمل لها مقيمة في المساحات الكائنة بين العوالم لا يهيمها شيء من الارض ولا من مجرى الطبيعة وعنده ان احترام الآلهة غير واجب الا بالنظر تكليفا . ولا يعتبرها الا بشرا اكمل من البشر عائشة في حالة شبيهة بما يتصوره في فلسفته وهو وجود سعيد خال من كل وجع . وهذا هو غاية القصد من مدرسته التي كانت موفقة من الاحبة المجتمعين على صدق الولاء المتبادل بينهم على ان المدرسة وموسسها اصبحا عرضة لاتهم الكاذبة ونسب اليهما كل شناعة ولكن بدون اسناد صحيح . لانه مقرر ان حياة ايتورس كانت طاهرة جدا وقد توفي في سن ٧٢ سنة و بقي تلاميذه مجتمعون في البستان الذي تركه لهم في اليوم العشرين من كل شهر زمانا طويلا بعد موته وكان ايتورس قد قرر مبلغا معلوما لهذا التبرؤ

وقد كتب ايتورس نحواً من ثلاثمائة كتاب ليس لنا منها الا ملخصاتها واحسن الموارد التي يعتمد عليها لمعرفة تعاليمه هو ارجوزة الشاعر اللاتيني « لوكراسيوس كاروس » اعظم زعماء هذا المذهب بعد ايتورس (٩٥ — ٥٢ ق . م .) في « طبيعة الاشياء » وهذه الارجوزة وبما كانت نسخة من بعض كتب ايتورس وقد تغير اسمها



واعلم ان الرومان لم يعرفوا من فلسفة اليونان الا على مذهبين فقط وهما المذهب الستويسي او مذهب زنون<sup>(١)</sup> ومذهب ايتورس وكثير من رجال رومة العظام

(١) مذهب يجعل السعادة في عمل الفضيلة ويأمر بالصبر على الشدائد ومن الفلاسفة زنون الرواقين سمي كذلك لانه كان يلقي تعاليمه تحت احد اروقة اثينا المسي (بسيل) ومن هذا سببه فلسفته بالفلسفة الرواقية وهي فلسفة في الفضيلة عالية جداً وكان مؤسسه فيها يقرن القول بالعمل . ومات شيخا شجاعا من الالام ومحاطا بكل اسباب الوفار من أهل وطنه

كان يفتخر بكونه من مذهب ابيقوروس كهوراس فانه كان يصف نفسه بتوله  
« انا خنزير من قطع ابيقورس الخ » وأما شيشرون فكان من خصوم هذا المذهب  
وقد بذل جهده في تحقيره. واثنان من كبار الجمهوريين اعداء قيصرا أحدهما  
برونوس كان ستوبسيًا. والثاني كاسيوس كان ابيقوروسيًا. وقد بلغت فلسفة  
ايبيقورس اوج مجدها على عهد الامبراطور اوغسطس ولم يكن احد من شعراء  
عصره غير تابع لها

وفضل فلسفة ابيقوروس ظاهر في ما تعلق منها بعلم الاخلاق الذي اعتبره اهم  
المسائل. وقد راعى ايضاً في فلسفته الاقسام الثلاثة المعتمد عليها في فلسفة اليونان وهي  
المنطق والطبيعات وعلم الأدب الا انه لم يجعل المنطق والطبيعات سوى مساعدين  
لهذا العلم اللازم ضرورة في الحياة حتى تكون الحياة سعيدة على قدر الامكان بتخفيف  
مصائبها بالحكمة والتخلق بالاخلاق الحسنة

وقد حذا ديموقريط في الطبيعات وقال نظيره بالجواهر الفردة والفراغ غير  
ان الجواهر متحركة حركة دائمة في فراغ هذا الخلاء الذي لا نهاية له وحركتها فيه  
بأنحراف بعضها على موازاة بعض بحيث تصطدم بعضها ببعض وتحدث حركة لولية  
مخروطية كحركة الزواجع وهذه الحركة تؤدي الى تراكم وصور عديدة متنوعة  
ومتغيرة. ومن هذا استنتج البعض ان ديموقريط كايبيقوروس لم ير في جميع ظواهر  
الطبيعة الا فعل الصدقة العمياء

وابيقوروس لا يعتبر اللذة الجسدية كاريستيب بل يفضل عليها جداً اللذة  
العقلية (١) ويقول اني برغيف من خبز الشعير وقدح من الماء اقدر ان اكون سعيداً

(١) اما ابيقورس الذي تأسس في ايام ديمقراطيس فكان يرى ان مبادئ الموجودات اجسام  
تتحرك عتلاً وهي كانت تتحرك من الخلاء في الخلاء لا نهاية له وكذلك الاجسام لا نهاية لها الا ان لها تلك  
المبادئ الشكل والعظم والقل وديمقراطيس كان يرى ان لها شعبين اعظم والشكل نقط. وذكر ان تلك  
الاجسام لا تتحرك ابي لا تتحل ولا تتكسر. وهي معنوية اي موهومة غير محسوسة. فاصططكت تلك الاجزاء  
في حركاتها فاصططكت في حركتها من اصطكاكها صور هذا العالم واشكالها وتحركت على انحاء من جهات  
تتحرك. وذلك هو الذي يحمي عنهم انهم قالوا بالاتفاق فلم يتبنوا لها صانعاً لوجب الاصطكاك واوجده  
الصورة فلزم حصول العالم بالاتفاق والمخيلة. اهـ. (القول)



كجوتير . ومن كلامه كما قلت احتياجات الانسان كمن القيام بها سهلاً وكانت السعادة اعظم . والمحبة كثر ثمين والانسان ينبغي عليه ان يقدم على الموت لاجل صديقه . واما الفضيلة فهي اعتيادية نسبية عنده اذ يقول انه لا شيء جيد او ردي بنفسه بل كل شيء يتوقف على الموافقة والمناسبة . واما الشرائع وحدها فهي ذات فائدة . وعند ابيقوروس ومدرسته تقف الفلسفة المادية في القديم <sup>(١)</sup>

(١) ابيقوروس قال المادى الثمان الخلاء والصور . واما الخلاء فمكان فارغ واما الصور فهي فوق المكان والخلاء ومنها ابدعت الموجودات وكل ما كَوْن منها فانه يغفل اليها . فمنها المبدأ والنها المعاد . وليس بعد المراق عذاب ولا قضاء ولا مكافاة وجزاء بل كلهم انفسهم وتدنر . والانسان كالحيوان مرسل مهمل في هذا العالم . والتحالات التي ترد على الانس في هذا العالم كلها من تلقائها على قدر حركاتها وانما عملها فان فعلت غيراً وحسناً فبرد عليها سرور ونرج . وان فعلت شراً وقبيحاً فبرد عليها حزن ونرج . واما سرور كل نفس بالانفس الاخرى وكذا حزنها مع الانفس الاخرى بقدر ما يظهر لها من انافعها له — انقل —



## المقالة السادسة

نهرست : النصرانية والنهضة العلمية في القرن الخامس عشر — مذهب الماسانيين الحديث —  
 بومبوتانيوس — جيوردانو برونو — كون — كزيمس — هوبس — لوك — كولس —  
 بيل — تولان — رسالة في وجود النفس — لاف — سوش — دلامزي — نظام الطبيعة —  
 الانيكليديون — ديسرو — دلامز — كزيمس — كيانيس — هفتيوس — داروغوم —  
 جيبون — بريستي الخ — مذهب الماديين في ألمانيا ومذهب الماديين في القرن التاسع عشر —  
 الفرق بين مذهب الماديين في القديم — لغرض الفلسفة اليوم

ان الرأي المادي في الفلسفة بقي عاجلاً من عهد ايقوروس حتى القرن الخامس عشر للمسيح. وفي بحر هذه المدة الطويلة سادت الفلسفة المجردة ولا سيما فلسفة ارسطوطاليس. ومما ساعد جداً على تأييدها في العصور الوسطى انتشار النصرانية في المملكة الرومانية وقد تداعت المملكة المذكورة الى السقوط. فارسطوطاليس قلما يعتد بالمادة وينفي عنها كل حركة ذاتية. ويجعل الصورة الضرورية للمادة خارجة عنها ومضادة لها. ويقول بضرورة وجود محرك اول. والفرق بينه وبين فلاسفة النصرانية في ذلك ان النكائن الاول عنده غير خالق للعالم او صانع له لان المادة لها ذلك وانما هو محرك له (١)

وبقيت الافكار الفلسفية في النصرانية على هذا النهج لا غرض لها الا خدمة الغاية اللاهوتية حتى اكتشفت اميريكافقام كوبرنيك وكوبلر ووضعنا نعالجهما في

(١) يزعم بلاثون ان المادة ليس لها بنفسها صفات ولا خصائص وليس لها ذلك الا بالتحاد مع الصورة فالاجسام عنده قائمة بحضرة المادة والصورة احدهما التي والاخر ذكر بولدان بابتدائها صور الوجود



علم الهيئة. عند ذلك حصل في الافكار ثورة غيرت وجه الفلسفة اذ اقتضى لها ان تتبع مجرى العلوم الطبيعية والذين تبعوا مجراها هذا أطلق عليهم اسم علمين او طبعين او ماديين

وفي اول الامر لم يستطع الفلاسفة الماديون المحدثون ان يتحرروا دفعة واحدة من فلسفة ارسطو لانه ليس من السهل هجر مبادئ اختبرت بها الافكار مدة خمسة عشر قرناً فلم يندوها كلياً بل اجهدوا في توضيحها بدعوى تأييد الصحيح منها. واول من ضرب معولاً في اساسها فيلسوف طلياني اسمه بطرس بومبوناتيو

نشر هذا الفيلسوف سنة ١٥١٦ كتاباً في خلود النفس بين فيه ان خلود النفس امر يستحيل التسليم به حسب ارسطو لان الصورة والجسم او الصورة والمادة صفتان لا تفترقان قال « اذا اريد التسليم بخلود الانسان يقتضي اولاً ان يبرهن كيف ان النفس تحيا بدون جسم يعمل فيها او تعمل فيه فانه بدون افكار لا يمكن لنا ان نفكر والافكار نفسها تثقف على الجسد واعضائه. ولا ينكر ان الفكر بذاته ازلي وغير مادي الا انه مرتبط بالحواس فلا يدرك انكلي الا بالجزئي. وهو ليس مجرداً عن الزمان ولا في وقت من الاوقات لان الافكار تعيب وتحضر فتنسا اذا مائة اذ لا يبقى فيها علم ولا ذكر

وقال ايضاً « ان عمل الفضيلة لانها فضيلة لا نبل جداً من عملها طمعاً بالمكافأة على انه لا يذم ارباب السياسة الذين لاجل مصلحة العموم يعلفون خلود النفس حتى يسر الضعاف والاشرار خوفاً او رجاء في السبل القويم الذي يتبعه سواهم عن لذة وهوى. لانه غير صحيح ما يقال انه لا يوجد سوى علماء اشرار ينكرون خلود النفس ولما الحكمة الافاضل فيقرون به فان اومبروس وبلينوس وسيمونيد وسناك لم يكونوا اشراراً لانهم لم يعتقدوا ذلك بل كانوا احراراً وليسوا اغراضهم »

ومع ذلك فيومبوناتيو يؤكد رضىه عن شريعة المسيح. ويقول ان الوحي يجلب نغزية وقيناً لا تستطيعها الفلسفة ولا تدري امرها ذلك منه ام اقتناع. الا

ان جميع فلاسفة هذا العصر حتى نصف القرن السابع عشر كانوا نظيره . وربما كان ذلك لخوفهم من الحريق بالنار الذي لم ينج منه من صرح بأفكاره ولعل السبب ايضاً شدة تأصل الايمان في نفوس اهل ذلك الزمان  
ثم في سنة ١٥٤٣ ظهر كتاب دوائر الاجرام السماوية لتيقولا كوبرنيخ فزعزع به اركان الايمان واطعن الثقة بارسطوطاليس ومن هذا حذوه اذ بين حركة الارض المزدوجة على نفسها وحول الشمس

\*\*\*

ومن اعظم زعماء هذا التعليم الحديث جيوردانو برونو وهو فيلسوف طلياني ايضاً من مذهب البانتايسم<sup>(١)</sup> الا انه يتفق مع الماديين في مسائل شتى وقد جمع الى دقة النظر الفلسفي سعة الاطلاع وعنده ان الارض والعالم والمادة شي واحد والعالم وجود لا نهاية له حي في كل اجزائه وهو مظهر من مظاهر الله ونفس الانسان جزء من العقل الالهي ولذلك هي خالدة نظيره . فكوبرنيخ كان يعتمد على يثاغوروس وأما برونو فخل اعماقه كان على لوكرس . وهو مثله يرى ان العوالم لاحد لها وقد وقف بين هذا الرأي ونظام كوبرنيخ وفسر النجوم الثابتة بانها شموس تفوق العد والحصر تحيطها سيارات . والمادة على رايه لم كل شي حي وتحتوي فيها كل الاصول وكل الصور قال « ان ما كان في اول الامر بذرة صار سنبلة ثم خبزاً فكيلوساً فدماً فنباً فجنيناً فانساناً فجثة هامة والجثة تتحول الى تراب او حجر او مادة اخرى غشيمة ثم يرجع هذه الدور وهكذا على الدوام . فيوجد على ذلك شي يتحول الى سائر الاشياء

(١) مذهب المسي وديني مما يجعل الله والكائنات شيئاً واحداً مع اعتبارهما صورتين مختلفتين ولكنهما غير منفصلتين عن الوجود المطلق . فعلى موجب هذا المذهب الله المطلق التصرف وغير الشئاني يخلق الكائنات المندمجة منه بالفيض او بالتحول او بالتشارف ثم يردّها اليه . وهو على نوعين البانتايسم التصوري او الدكري الذي ينظر الى الطبيعة كأنها مجموع شواهد وصور من صور الله من دون وجود مادي متميز وعليه مذهب الصوريين المعروف والثاني البانتايسم العلهي الذي يجعل الله صورة عامة منتشرة في الطبيعة والطبيعة نفسها ليست الا هو . والاول يميل الى الاعتقاد بالاسرار والثاني يؤدي الى القول بمادية الكون كما في مذهب الماديين ناسخ



وهو واحد لا يتغير . فلا شيء ثابت حقيقة خالد وجدير باسم المبدأ الا المادة فقط فانها تتضمن فيها وحدها كل الصور وكل المقادير والصور التي تلبسها المادة وتغرق كل حصر لا تأتيها من خارج بل تتولد في باطنها . وحيث يقع موت لا يحصل حقيقة الا توليد وجود جديد او انحلال مركب وتركيب آخر »

فهذا الرأي في الحقيقة مادي لان المادة فيه الجوهر الصحيح لكل شيء وهي التي تكون الصور خلافاً لارسطو فان الصورة عنده هي التي تحدد المادة كما رأينا واضطهد برونو كثيراً فدخل الى انكلترا وفرنسا والمانيا ووقع اخيراً في ايدي قضاة الدين في فينسيا فحكم عليه واحرق بالنار في رومه سنة ١٦٠٠ وقد كان لتعاليمه تأثير عظيم في مجرى الفلسفة



على ان الفضل الاعظم في تجديد الفلسفة راجع الى باكون ودكارتمون والرأي المادي الى جاندي وهو يس وذلك في اوائل القرن السابع عشر فيناكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) ويلقب بابي العلوم الطبيعية الحديثة بصاحب طريقة الاستقراء يجعل جل اعتماده في معارفه العلمية والفلسفية على المعاينة والاختبار . وهو قريب جداً من الرأي المادي . والبرهان على ذلك انه لم يتبع من مذاهب الفلسفة القديمة الا مذهب دموقريط حيث يقول ان الطبيعة لا يمكن التعليل عنها الا بالجواهر الفردة . ولم يكن متعصباً ضد الدين لانه يقول ان الحقائق الدينية قد تظهر لنا باطلة نظراً لقلة علمنا . ولم يهمل في فلسفته شأن الملائكة والارواح . ويقول ان درس الانسان المصنوع على صورة الله لا يراد به توسيع معارفنا فقط بل غاية ارفع من ذلك وهذا الميل الروحاني فيه مع ماله من النظر الطبيعي في الاشياء كثيراً ما يوقعه في تناقض مع نفسه . وهو يذهب الى ان اللاهوت علم . ويقسم النفس الى عاقلة وبجملها روحاً منفصلة عن المادة . والى غير عاقلة تتولد عن المادة ويطلقها على الحيوان ايضاً . فوقد قال كونيشر ان باكون يقربان فلسفته تعجز عن ادراك الروح لانه يفصل

الروح عن النفس اذ يجعل الروح شيئاً لا يدرك واما النفس فتعلقة بالجسد ومقرها الدماغ. وقد ظن بعضهم ان ذلك منه سياسة لبث افكاره في المادة

واما دكارنوس — ١٥٩٦ — ١٦٥٠ — فيفصل بين الروح والجسد فصلاً تاماً فهو صاحب مذهب التثنية الحقيقي في الفلسفة والمذهب الروحاني وهو الذي يتى عنه قوله الذي صار مثلاً « انا افكر اذ انا موجود » وهو يعتمد في فلسفته خلافاً لما كُن لا على الاستقراء بل على الاستدلال أو التجريد على انه في امور كثيرة هو من الرأي المادي. ويطول بنا الشرح اذا فصلنا ذلك هنا فنقتصر على القول بان دلامتري اعظم مادي في القرن الثامن عشر أسس فلسفته في بعضها على مبادئ دكارنوس

فما كُن ودكارنوس اذا هما غير متفقين في فلسفتهما وكل منهما سار في طريق لا يزال مفتوحاً حتى اليوم. أحدهما عملي او مادي او حسي. والثاني نظري او روحاني وعن سار في طريق دكارنوس بعده « سبينوزا » و « لبنيتز » و « كنت » و « فيخت » و « شلين » و « هجل » وغيرهم كثير. وفي طريق ما كُن « جسدي » و « هوبس » ولوك. حتى نصل الى الرأي المادي للفرنسيس في القرن الثامن عشر ومنه الى اليوم



جسدي ولد في فرنسا سنة ١٥٩٢ ويعتبر انه مجدد الرأي المادي لما كتبه عن ابيقوروس منتصراً له لا على سبيل البهر ولكن على سبيل الخفية كسائر معاصريه من الطبيعيين الذين كانوا قبل بسط مبادئهم المادية يفتشون كلامهم بالتصريح بانهم راضحون الرضوخ المطلق للدين نظير دكارنوس مثلاً. فانه قبل الشروع في بسط مذهبه في ظهور العالم يقول ليس عندي شك في ان الله تعالى خلق العالم دفعة واحدة الا انه لا بأس من معرفة كيف كان يمكن العالم ان يتكون من نفسه

جسدي ومعاصره دكارنوس كانا على طرفي قبيض ولم يتفقا الا على كراهتهما لارسطو. فدكارنوس يعتمد على العقل. وجسدي يعتمد على الاختبار وقد اجتهد في تأييد المذهب الجوهري ضد مذهب جسيات دكارنوس. ولم يسلم بانفصال الجسد



عن الروح على رأي دكارنوس ولا بالفصل بين جوهر فاكرو حال وجوهر مخلول فيه .  
ولا حاجة الى بسط الكلام عنه أكثر من ذلك لأنه يستند في كل مذهبه  
الى ايتنوروس



واما توما هويس <sup>(١)</sup> المولود سنة ١٥٨٨ فبحث في فلسفته ليعرف اي شيء هو  
ذاك الذي يولد الشعور والصور في الكائنات الحية ومذهبه في الشعور حسي محض اي  
انه يرد كل شيء الى الحواس . فلاحساس عنده حركة في اجزاء الجسد مسببة عن  
حركة الاشياء من خارج . وهو يفصل صفة الاحساس التي انما تحصل فينا كالتصور  
واللون والصوت عن حركة الاشياء نفسها . وهو يقول ان كل معرفة آتية من الاختبار  
الخارجي . والعقل والادراك ليسا الا مقابلة في نسبة الصور والافكار المتولدة من  
افعال الحواس . وتبلغ هذه الانفعالات الى باطن الحيوان يكون بواسطة الاعصاب  
وتصور الاشياء الخارجية الذي يحصل عن ذلك ليس الا « رد فعل في الحيوان كله »  
واما في ما تعلق بالعالم فيقتصر على ما تدرك اسبابه منه ويترك ما بقي لعلماء اللاهوت  
وينظر الى الله في تعليله عنه كأنه كائن جسماني

وهو يس هرب من انكثرا خوفاً من الشعب والتجأ الى باريس حيث عاش  
بالانصال مع جسدي وقد اخذ عنه كثيراً . وهو يعرف الفلسفة بقوله انها  
علم موضوعه الوصول بالاستنتاج الصحيح الى معرفة الاسباب بالسيئات والسيئات  
بالاسباب . وقد اراد ان يكون لفلسفة فائدة عملية فقال انها يجب ان تخدم السياسة  
والصناعة . ولا يعتبر الدين الا اوهاماً ونتيجة الخوف . فاذا صادقت الشريعة على  
هذا الخوف وحافظت الحكومة عليه صار ديناً والا فهو خرافة  
وقد أثرت تعاليم هويس وبأكون تأثيراً حميداً جداً في انكثرا التي استفادت

(١) هويس من اعلم فلاسفة انكثرا في تاريخ الفلسفة المادية ويعتبرون (يوكل) في تاريخه  
قد انكثرا من الدعاة الاكلهوس في القرن السابع عشر ومن اعلى الكتاب كها ومن بعد  
المكثرين نظراً

منها في معاملاتها كما هي العادة عندها أكثر من سواها. فإنه لما انقضى فيها عصر القسوة والضغط على الأفكار وانتفى موجب الزبء اشتد الميل في حكمها الى تنشيط العلوم والمعارف الاختبارية. وكارلوس الثاني الذي كان يود هو بس جداً حتى أجرى عليه الرواتب وعلق رسته في غرفته كان طبيعياً ماهراً وكان عنده في قصره معمل للاختبارات الطبيعية وقد انتشر حب العلوم الطبيعية والكبائية بين الجميع وصارت السيدات النبيلات تتردد على حلقات العلماء وتحضر امتحاناتهم المغنطيسية والكهربائية وهكذا تقدمت انكثرا في العلوم الطبيعية تقدماً سريعاً ونهجت بها منهجاً مادياً عملياً حميداً حصلت منه على فوائد عظيمة حتى أصبحت في قرون قليلة أغنى الأمم واقواها



ومن الذين تميزوا في الفلسفة المادية في انكثرا بعد هو بس الشهير جون لوك (المولود ١٦٣٢) وهو وان لم يكن مادياً إلا أنه مهد السبيل للفلسفة المادية بمضادته الأفكار الغريزية والعقل المجرد عن الحواس. ثم بعد ان اشتغل بالفلسفة اشتغل أيضاً بالطب. ولم يتدخل في الامور السياسية خلافاً لهو بس وكان على ضد مبدأ هو بس في الامور الاجتماعية ديموقراطياً بخلاف هو بس فكانت من انصار الاترة الارستوقراطية وعاش زماناً طويلاً متغيباً عن وطنه لمضادة الحكومة له بسبب افكاره حتى حصلت ثورة سنة ١٦٨٨ فعاد اليه. وكتابه — في الادراك البشري — او في اصل معرفة الانسان وحدودها الذي ظهر سنة ١٦٩٠ واضح جداً وجلي للغاية بحيث انضم اليه سريعاً كل متور في انكثرا. وهذا ملخص اهم ما فيه :

لا يوجد افكار ولا مبادئ ولا معلومات غريزية خلافاً لبلاتون ودكارتوس. وفي الجملة لا يوجد فينا افكار اولية ولا حقائق ادبية او منطقية غريزية. لاننا لانعلم حقيقة ادبية او قضية منطقية ذات اعتبار واحد في كل مكان وزمان وفي الشعوب المختلفة. والذين لم تهذب عقولهم لا يعلمون بوجود قضايانا المجردة ولا باكثر حقائقنا الادبية فكيف تكون اذن غريزية. وفضلاً عن ذلك فاننا في معارفنا التي نتحصل عليها بالاختبار لا ندرك الكلّي قبل الجزئي بل بالضد ندرك الجزئي أولاً ثم الكلّي



فعقل الانسان أشبه بلوح صقيل او قرطاس ابيض تنطبع عليه المحسوسات الآتية من خارج. وهذه المحسوسات الخارجية هي مصدر ما يكتسبه عقلنا من المعلومات. قال كوك « كل معلوم متوقف على الاختبار. ومراقبتنا التي موضوعها إما الاشياء الخارجية المحسوسة او اعمال عقلنا الباطنة الحاصلة بالتأمل هي التي تقدم لعقلنا كل مواد التفكير وفي سوى هذين المصدرين لا يوجد فكر ». والولد لا يكتسب معرفة بعض الصور التي هي مواد معرفته في المستقبل الا بواسطة حواسه شيئاً فشيئاً فلو اردنا لا يمكن لنا ان نربي ولداً بحيث لا يكتسب الا شيئاً دون الطفيف من الافكار المألوفة وفي حدائتنا يفرسون في رؤوسنا كثيراً مما يسمونه مبادئ او اوليات لا اصل لها الا وهم جدتنا او عجوز اخرى. فاذا بلغنا سن الادراك نجد فيها افكاراً لا نعلم كيف نشأت فيها فتقول انها من الله او من الطبيعة اي انها غريزية. وخلاصة هذه الملاحظات هي في هذه القضية وهي « لا شيء في العقل لم يكن في الحواس من قبل ». ولوك يسلم بان للمعرفة نوعين كما تقدم احدهما حسي والثاني تأملي أي معرفة الاشياء الخارجة عنا ومعرفة الاشياء الباطنة فينا. الا انه يعتبر هذا الاخير من طبيعة حسية ايضاً اذ لا يسلم بمعرفة آتية يغير الحواس فالافكار التأملية ليست غريزية ولا روحانية بل نتيجة الاختبار

ثم انطوني كولونز تلميذ كوك ذهب الى أبعد من معلمه وفي كتابه « الفكر الحر » المنشور سنة ١٧١٣ طعن في التوراة وفي الدين وانهى على علم اللاهوت ولم يسلم بشريعة غير شريعة العقل

ومن ذهب هذا المذهب في الوقت نفسه أحد المفكرين الفرنسيين المدعو بطرس ميل. توفي سنة ١٧٠٦ في سن ٣٢ وهو صاحب قاموس كبير في التمهيد التاريخي له افكار من مثل قوله « الجحود أفضل من الاستمسك باللاهوت وتقوم الامة بدون الاعتقاد بالله وبخلود النفس »

والى تأثير فلسفة كوك ينسب الكتاب الذي ألفه جون تولد الانكليزي وموضوعه — النظرانية بلا أسرار — والطبعة الثالثة منه كانت سنة ١٧٠٢. وقد

انتشر هذا الكتاب جداً وكان له تأثير عظيم بين الناس . فتمتقب اهل السلطة مؤلفه حتى اضطر ان يهرب من انكلترا . ولم يكن في كتابه هذا شيء ضد الدين الا من حيث الاسرار ثم تطرف اكثر فاكثرت حتى انه في رسائله الى سيرينا ( شارلوط ملكة بروسيا وكانت من الفلاسفة ) صرح بالرأي المادي وجعل اصل كل شيء في القوة والمادة . فالمادة عنده حية ومتحركة من نفسها . وكل شيء تبادل في المواد والصور لا يقتر . ولا يوجد جسم <sup>(١)</sup> ساكن مكوناً مطلقاً . والفكر ليس سوى حركة جسمية دماغية مرتبطة بالعالم المادي

ومن سار على خطوات لوك دافيد هوم الانكليزي وكونديليياك الفرنسي وكلاهما من رجال القرن الثامن عشر الذي انتشرت الفلسفة المادية فيه جداً . وقبل الخوض في هذا العصر يليق بنا ان نحول نظرنا الى المانيا في القرن السابع عشر لانه لم نذكر في ما تقدم الا اسما فلسفة من الطليان والانكليز والفرنساويين فنقول :

\*\*\*

ان المانيا في هذا العصر لم يكن فيها أحد يعادل من ذكره . وليس لنا منها سوى رسالة في جوهر النفس مجهولة اسم المؤلف ركيكة العبارة بين اللاتينية والفرنساوية . وقد قام فيها مؤلفها ضد الافكار الفلسفية اللاهوتية المتعلقة بجوهر النفس وضد الآراء المتضادة في ما خص مقرها في الجسد . ويعترف العقل انه حركة في الياف الدماغ الدقيقة . ولا يسلم بوجود نفس منفصلة عن الجسد

نم ان الطبيب الالماني بنكراسيوسOLF — سنة ١٦٩٧ — قال ان الافكار ليست من اعمال النفس الروحانية بل هي اعمال مادية للجسد وبالتخصيص للدماغ

(١) روي تولد عن اللورد شنتسبوري وهو فيلسوف وكاتب حر الفكر يذهب الى ان الذين لا يوجب التفكير ضرورة ولا يبعث عليها انه قال في مجلس من اصداقاته في عرض كلامه على اعتلائه الاديان ( ان جميع العقلاء من دين واحد ) فسالته إحدى السيدات الحاضرات قائلة ( اي الاديان هو ) فاجابها شنتسبوري ( هو الذي لا يصرح بالعقلاء ) وكانت بهذا الجواب حتى قول المعري

اذا قلت الخيال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اسللت همي

واما اليوم فلنن المحظ لم بعد التصريح بوجه ذلك المحذر



ومثله قال ايضاً فريدريك ستوش ١٦٩٢ فانه انكر خلود النفس وروحانياتها وذهب الى ان نفس الانسان ليست الا اعتدالاً بين الدم والاخلاط التي تجري في العروق السليمة وتولد جميع الاعمال الارادية وغير الارادية



### ﴿الرأي المادي﴾

( في القرن الثامن عشر )

الرأي المادي في هذا القرن والرأي المادي في القرن الذي تقدمه يتفقان ويختلفان معاً . يتفقان من حيث اقتصارهما على الخاصة . ويختلفان من حيث ان الرأي المادي في هذا القرن لا يقف عند حدٍ خلافاً لسابقه . واصحابه هم الذين هبوا الثورة الفرنسية التي قلبت وجه العالم بتغييرها مجرى السياسة والافكار . ومن زعمائهم في فرنسا الكاتب دلامتري وهو من اعظم الماديين الفرنسيين وكان طبيباً ماهراً . وفلسفته من الطبقة العالية خلافاً لقول بعضهم انها دينية وربما قال هذا القول من دون ان يطالع عليها . واطواره انبل جداً من اطوار خصميه فولطير وروسو . وفريدريك الكبير الذي ضمه الى بلاطه يقول عنه انه حسن المعاشرة بشوش الوجه ويمدح طهارة نفسه ونبالة اخلاقه . فلا نعلم كيف وصفه بعض المؤرخين كمنز بالفضش وانه لم يتبع الرأي المادي الا لكي يجد عذراً لشبهه . ولعله كتب عن هوى ونعصب



ولد دلامتري سنة ١٧٠٩ في سان مالو . وقرأ العلوم والآداب . وتميز في المدرسة منذ حداثة اذ نال كل جوائز صفه في السنة الاولى . وكان فصيحاً يحب الشعر . وانصب في اول الامر على آداب اللغة وترشح اخيراً للتبسية ثم تحول عنها . ودرس الطب ومارسته حتى سنة ١٧٣٣ . فرحل الى هولاندة ودخل في مدرسة ابيد حيث قرأ على بوهراف الشهير وترجم الى الفرنسية كثيراً من كتبه . وبسبب ذلك حصل

بينه وبين ارباب السلطة في باريز خلاف ونفور وقد هجوا مراراً . ولما اضطر الى الحرب من باريز عاد الى ليد . وهناك طبع تاريخه الطبيعي في النفس وبعده سنة الف كتابه الشهير « الانسان الآلة » قيل انه اصاب بحمى محرقة فاستدل من مراقبتها على نفسه ان الفكر نتيجة تركيب الجسد

وقد بين في اول كتابه « تاريخ النفس الطبيعي » ١٧٤٥ ان لا احد من الفلاسفة قدر ان يقول ما هو جوهر النفس . وسبقني هذا الامر مجهولاً . وان القول بنفس بدون جسد ضرب من الهذيان<sup>(١)</sup> فالنفس والجسد متصلان غير منفصلين وليس من مرشد الى المعرفة اصح من الحواس فهي فلاسفة الانسان كما يقول هو . ولا يمكن تجريد المادة والقوة الا بالعقل ولما في الواقع فهما شيء واحد وبناء عليه فللمادة قدرة ان تحس<sup>(٢)</sup>

وقد فتد فلسفة دكارتوس مشيراً الى ما فيها من القضايا الضعيفة . ويعول في الحس على امور تشريحية وفسيولوجية ويعمل عن كيفية وقوع التأثير على الاعصاب والدماغ يبراهين قريية للعقل واذا شط احياناً فلفقدان الادلة العلمية

ويذكر في آخر فصل من كتابه امثلة كثيرة من النقص البكم والعميان المولودين هكذا ومن اناس لم يتعلموا ليين بها ان « كل الافكار صادرة عن الحواس » فان الانسان الزاوي في حجر الوحدة والهدوء محجوباً عن سائر المؤثرات الخارجية لا ينمو عقله ولو كان العقل جوهرأ مستقلاً ينمو بقوة فيه خاصة به لما كان كذلك.

(١) قال فولتير ( اني جسد وانا افكر ولا اعرف عني اكثر من ذلك ) اه

(٢) ودلا مني في هذا القول البسيط الصحيح بعد من اعظم الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين المهتم الا في نظراتك الذين لا يرون لم من الفلاسفة الا الكلام المبهم المعقد الذي لا معنى له والذي نرى على كل عبارة من اثر الاجتهاد والتفكير كالفلاسفة النفسيين وعلماء اللاهوت وعلماء الكلام وغيرهم ممن يصنون تلك الكلام في مجلدات ليتولوا لك شيئاً ولا يقولون شيئاً وصانع صوت مطرقة الحداد الذي من كل عظيم ومراقبة دواليب الاطفال على مجاري المياه احدى من كل كنهم ولا يتصلح شأن الامم ويندفعون في طريق الارادة الصحيح الا متى تكلموا ومزفوا كل هذه المؤثرات التي لا تزال كل امة تعدها كثرها الذين وهي بالحقيقة تاريخ جهلها المنهين



وكذلك يدحض القول بالافكار الغريزية خلافاً لـ دكارفوس ومعارضة له قول العبارة الآتية « لا حواس اذن لا افكار »

\*\*\*

ويقول في كتابه « الانسان الآلة » ( ١٧٤٨ ) ما نصه « لا ينبغي ان نفتقد الا على المراقبة والاختبار وهما خاصان بالطباء الفلاسفة لا بالفلاسفة الذين ليسوا اطباء . ولا يحق لسوى الاطباء الذين يراقبون النفس في مجدها وفي تفاسنها ان يتكلموا في هذا الموضوع »

فيم يستطیع ان يثبتوا سواهم ولا سيما اللاهوتيون ؟ أليس من المضحك المبكى ان نسمعهم يتبنون ولا ينجحون في امور يجهلون بها وانصرفوا عن البحث فيها لتعلقهم على مباحث مبهمه أدت بهم الى الاستمساك بالاديان ودفعتهم الى التعصب فوق ما بهم من جهلهم تركيب الجسد

وهو بين كذلك كيف يتعلق العقل باحوال الجسد المختلفة تعلقاً شديداً باختبار المرضى والمجانين والمعاتيه وافعال الافيون والخمر والقهوة الخ فاذا عمل دماغ انسان جن . واذا كانت العلة المادية في الدماغ لا تظهر لنا في بعض انواع الجنون فلو قوعها في اعضاء دقيقة جداً لا نراها قال « ان اقل شيء كيفة صغيرة او غيرها مما لا يستطيع التشرح الدقيق جداً ان يدركه كلف في امكانه ان يعمل ارازموس وفونتال (١) مجنونين » ويقول ايضا ان عمل الدماغ امر لازم فيلزمه ان يفكر اي ان يراقب ويقابل ويستنتج حالما يقع تأثير الاشياء الخارجية عليه . كما يلزم العين ان تبصر اذا وقع عليها النور والاذن ان تسمع اذا بلغتها التوجات الصوتية . ولا فرق جوهرى بين نفس الانسان ونفس الحيوان . فالحيوان يحس ويفكر ويقابل ويستنتج كلالنسان والفرق بينها ان الحيوان دون الانسان في الكمال قطع . فهما مركبان من عناصر واحدة متألفة على نواويس واحدة . غير ان جسد الانسان اشد اختلاطاً من جسد الحيوان كآلة الساعة الفلكية فانها اكثر اختلاطاً من آلة الساعة الدارجة

وأما كون المادة مخلوقة أو أزلية فهو يقول أن ذلك فوق ادراكنا . ولا يتعرض لنفي وجود الله وربما أقر بوجوده أيضاً لأنه يزعم أن لا دخل له في راحتنا وسلوكنا وعلمنا به لا يزيد في سعادتنا والاخلاق لا تعلق لها بالآيمان ولا بالدين . وهكذا يقول في خلود النفس فربما كانت خالدة أيضاً

ويقول أيضاً أن مبدأ الحياة ليس في الكل فقط بل في كل جزء كذلك ويذكر لذلك امثلة فيزيولوجية . كقابلية العضلات للتهيج بعد الموت . وبقاء حركة بعض الاعضاء كالقلب مثلاً بعد قطع الرأس وعود بعض الاعضاء بعد نزعها في الحيوانات الدنيئة وغير ذلك

وربما اخذ على دلامتري نشره بعض كتابات متعلقة بالملاذ والشهوات الجسدية . لكنه لم يذكرها الا لكي ينبه الى وجوب معاملة الهائم بها معاملة المريض . وقد اراد بذلك ان يشير الى قسوة شريعة ذلك العصر . واما سيرته الشخصية فلم يكن فيها شيء من الخلاعة او عدم الاستقامة وخصومه الذين شنعوا عليه فيها كثيراً لم يستطيعوا ان يذكروا له شائبة صحيحة من الشوائب التي لم يخل منها كثير غيره من كبار الرجال . فلم يرم باولاده بين القطاء كروسو . ولا غش خطيتين كسويقت . ولا باع ضميره كما كونه . ولا زور كتابات كفولطير بل عاش كرجل هذبته العلوم وطبخته الفلسفة <sup>(١)</sup> وتوفي في برلين سنة ١٧٥١



ثم في سنة ١٧٧٠ ظهر كتاب « نظام الطبيعة » للبارون هولباخ وهو الماني الاصل

(١) ليس لهذه المدافعة عن سيرة دلامتري كبير معنى في صحة نظره في الطبيعة وعندها وكثيراً ما يحاول خصوم الماديين تشنيع سيرتهم امام اتباعهم كما بهم الذين يدعون الهدى عنوان الفضيلة دائماً ولو انصف الزاوي لعرف ان العيوب التي تنسب الى ضعف الطبيعة حتى في اقوم الرجال مبادئ متشاورها الارث الذي اتصل اليهم من التربية الاجتماعية السالفة والمسؤول عنها هم اصحاب المبادئ الروحانية لان التربية كانت في يدهم حتى اليوم . ولا يشكر ان الحالة الاجتماعية اليوم بعد انتشار المبادئ الطبيعية اسلم منها جداً في الماضي من كل الوجوه . هكذا تكون المفاصلة في التربية لا بالنظر الى افراد مخصوصين اذا سادت افكارهم فالتدرب فيها ليس عليهم بأكثر منه على سلفائهم



قطن باريز وكان غنياً جداً محسناً الى الفقراء محباً للعلماء كثير العلم غير معجب بنفسه. ولد في هدلشيم سنة ١٧٢٣ وتوفي في باريز سنة ١٧٨٩

وهذا الكتاب مقسوم الى قسمين انساني ولاهوتي. فالقسم الانساني اهمها وقاعدته ادبية كذهب ايتورس. ويفتح الكلام بهذه القضية وهي ان الانسان اذا كان تيمناً فلجهله طبيعته. فيقتضي له اذن حتى يصير سعيداً ان يتحرر من الاوهام المتكبل بها منذ طفولته فانها سبب النير الثقيل الذي يلقيه الظالمون والروساء على عاتق الامم وسبب الاضطهاد والترفص والحروب الدائمة واراقة الدماء وما شاكل. وفيه ايضاً ما نصه « فلنجهل بان نزيل شر الاوهام وبان نرد على الانسان نشاطه ونجعله يحترم عقله. اما الذي لا يستطيع ان يعدل عن احلامه فلا أقل من ان يدع غيره يشكر نفسه ويقنع من نفسه فان ما بهم اهل الارض خاصة ان يكونوا عادلين ومحسنين ومحبين للسلم ». والفضيلة عند هولباخ مرادفة للسعادة

وبحث في الفصول الخمسة اللاحقة عن نظام الطبيعة وعن المادة والحركة وانتظام الاعمال الطبيعية الخ على المبادي المعروفة للرأي المادي. وخص الفصل الاخير منها بتفنيد القول بالاسباب الفائية وجعلها الحد الفاصل بين الماديين واللاهيين الذين منهم فولطير ولاجل ذلك انبرى فولطير لمعارضة « نظام الطبيعة » وأثار ضده حرباً عواناً

\*\*\*

قال هولباخ ان كل شيء محصور في الطبيعة وليس وراءها من موجود غير ما جاء به التصور. والانسان ليس الا صنع الطبيعة فهو كائن طبيعي خاضع لنواميسها ولا طاقة له حتى ولا بالفكر على مجاوزة الحدود التي وضعها له. وقواه المعنوية حالة خصوصية من طبيعته المادية ليس الا وبالفاعل بينه وبين الطبيعة المحيطة به وبالفهم التدريجي بلغ رويداً رويداً مبلغه اليوم. الى ان قال في آخر الفصل العاشر من القسم الاول ما نصه « فالانسان لا حق له اذن ان يعتبر نفسه فوق الطبيعة اذ انه خاضع لنفس التغيرات التي تقع على سائر الكائنات. فليرفع بالفكر الى ما وراء حدود هذا العالم ويرى بعين واحدة جنه وانكوائه الاخرى ير أنه يعمل اعمالاً على

حكم الضرورة كما تثبت الشجرة الثمرة. ويعلم ان غروره بنفسه ناشيء عن كونه شاهداً  
وجزءاً من العالم معاً وان التفضيل الذي يجعل شخصه موضوعاً له سببه محبة ذاته  
ومصلحته الخصوصية

فالعالم عنده ليس الأ مادة وحركة وسلسلة اسباب ومسببات لانهاية لها فكل  
ما فيه متحرك ومتغير والسكون فيه ظاهري فقط واثبت الاجسام يتغير على الدوام.  
والمادة والحركة ازليتان. والخلق من لا شيء لفظة لا معنى لها واما في ما يخص جوهر  
المادة فهو غير متمسك جداً به بل يقول ان هذا الجوهر مجهول قال ما نصه « ذلك  
هو سر الطبيعة الذي لا يتحول او هو الدائرة التي يدورها كل موجود فالحركة تكون  
اجزاء العالم وتحفظها ثم تلاشيها شيئاً فشيئاً وبعضها يعض مع بقاء انكية على حالها.  
فالتبيعة تولد الشمس ونظامها والسيارات التي تدور حولها والحركة تغيرها جميعاً على  
نوع غير محسوس وربما بددت اجزاءها يوماً من الايام » (١)

وخطأ هولباخ في اعتباره تغيرات المادة هو انه كهرقليط وايتقوروس ولوكس  
وجسندي يجعل النار مبدأ كل حياة. ثم بعد اربع سنوات من ذلك اكتشف  
بريستلي الاكسيجين وفي هذا العهد اشتهرت امتحانات لا فوازيه العظيمة التي اتضحت  
بها ظواهر الاشتعال وكانت قاعدة مذهب التغيرات الكيماوية الواسع



وعلى هولباخ حركة الاجزاء الصغيرة المادية بالجذب والدفع كما عليها اميد قل  
بالحبة والنور. وقال ان كل ما يحدث في الطبيعة شديد الانتظام وسبب هذا الانتظام  
قوى الطبيعة الاساسية الازلية. ولداعي الاسباب والمسببات كانت الضرورة ناموس  
الاعمال في العالم الحسي كما في العالم المعنوي اي كل حادث حادث بالاضطرار  
وقد بين في فصل النظام ان المراد بهذه اللفظة تعاقب الظواهر الناشئة عن  
النواميس الطبيعية الثابتة تعاقباً منتظماً. ولا يصح اطلاق لفظة عدم النظام على شيء

(١) وكان العلوم الطبيعية شرعت تحقق هذا المبدأ اليوم ولا سيما بعد ان ثبت فيها ان كل شيء  
محول نحو ثابت حتى الجوهر الدرد نفسه كما تقدم في المقالة الثانية



من حوادث الطبيعة كما انه لا يصح اطلاق الصدفة العمياء عليها ولا صحة لذلك الا في جهلنا . فكل ما تفوتنا اسبابه نطلقه صدفة . وهذا النظام في الطبيعة ليس فيه شيء من المعجزة . « فليس في الطبيعة امر عجيب الا للذين لم يدرسوها جيداً » والحيد والزدي اعتباران نسبيا في الوجود مثل النظام والصدفة وما شاكل

وقد نفاها ضد ديكارتوس وتلميذه لانه جعل ما يتفكر منفصلاً عن المادة . قال لو جعلت المادة ذات خاصية لان ترتفع في الانسان الى درجة الافكار لكان ذلك ايسر واصح . وسائر تغيرات النفس على رأيه متوقف على عمل الدماغ . وهذا العمل تنبيه المنبهات وتدعوه الى خارج . قال في هذا المعنى ما نصه « ان الذين يفصلون النفس عن الجسد لا يفصلون عنهم الا دماغهم . والدماغ هو المركز الذي تجتمع اليه الاعصاب من جميع جهات الجسد . وكل الاعمال التي ينسبونها للنفس يعملها هذا العضو . وهو يفعل للحوادث الخارجية فيحرك اعضاء الجسد . او يفعل على نفسه ويولد انواعاً مختلفة من الحركة سميت قوى النفس »

فالنفس ليست سوى خاصية من خصائص المادة او عملاً من اعمالها وبالحصر من اعمال الدماغ . قال « اذا حركت النفس ذراعاً على فرض ان لا يكون هناك مانع يمنع ذلك وحمل ثقلاً كبيراً فلا تعود تقدر على تحريكه فيتعطل عملها اذا بسبب مادي ولو كانت النفس روحاً لا نسبة بينها وبين المادة لما كان يقتضي ان يكون كذلك لان الروح لا ينبغي لها ان تجد صعوبة في تحريك العالم اعظم منها في تحريك ذرة منه . فكل هذا الروح اذا وهم »

وبالنتيجة لا يوجد افكار غريزية ولا اميال اديية غريزية ولا ارادة حرة مطلقة بل كل شيء ناتج من الخواص والتربية والتشبه والعادة . وتعليم الارادة الحرة يجعل الانسان بجعل ضرورة ارتباطه الكلي بالطبيعة . فارادة الانسان لا تطلب النافع وتفر من الضرر لما لها من الحرية بل لما في ذلك من الضرورة لكيانها فاننا نعلم انها تختار مما بين الاشياء عن حرة . والحال ان في الامر سبباً قوياً على الارادة فال بها من

حيث غلبت . وإذا كان يصعب علينا معرفة الاسباب الاخيرة التي نعتمد عليها في افعالنا فلكثرة الاسباب التي تنازعنا قبل اعتقادنا ولشدة اختلاطها وقال فيما خص خلود النفس ما معناه ان من يزعم ان النفس لا تزال نحس وتفكر بعد الموت يلزمه ان يقول ان الساعة المكسورة لا تزال تعين الوقت بعد الكسر كما كانت قبله . ومن القريب انك ترى شديدي الاعتقاد بخلود النفس احرص الناس على الحياة الدنيا واجنبهم لدى الموت . على ان هذا الاعتقاد لا فائدة فيه اذ لا يمنع الاشرار عن ارتكاب الشر . واما الذي لا يعتقد الحياة الاخرى فيسعى بانه يجعل الحياة الدنيا سعيدة وهذه السعادة لا يجدها الا بنيل محبة قريبه .



وفي الفصول السياسية من هذا الكتاب يندد كثيراً بالأحوال المقررة ويبسط افكاره وآرائه بكل جسارة في ما هو كائن وما يلزم ان يكون . ولا شك ان تعليمه كان من جملة بواحي الثورة الفرنسية قال في هذا المعنى ما نصه « اننا لا نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الا لتضافر كل شيء على جعل البشر اشراراً جانحين فان دياناتهم وحكوماتهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر . فما عسى ان ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايته وتحل قدر المسيء واسااته ولا تقاص اقبح الذنوب الا اذا كان مرتكبها ضعافاً . فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك للذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كباراً . وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتميز شأنها »

واما القسم الثاني للكتاب ففيه معارضة للدين ولوجود الله . والراي المادي مبسوط فيه بجسارة لم يسبقه اليها احد ممن تقدمه . ومعارضة هولباخ للدين لاسباب علمية وادبية . فاراد نقضه لانه يراه اصل جميع مصائب الانسان . واما حجته لتبطل الادلة على وجود الله فضعيفة ومملة وربما كان ذلك لان هذه الادلة لا قيمة لها فلسفياً . فان المؤمن بالله يؤمن به لاسباب خارجة عن الفلسفة . على انه لم يقتصر على نفي



وجود الله بل عارض مذهب البائتاسم. وبين أنه يصح وجود اناس لا يعتقدون وجود الآلهة وهو من رأي بيل ان الجحود لا يضر بالفضيلة ولكنه يقول ان الجمهور لا يقدر على الجحود لأنه لا يستطيع لاختلاف المشرب وضيق الوقت ان يستغرق البحث في هذه المسألة الصعبة ويقتنع بها بواسطة العلم. الا أنه يطلب الى الحكومة ان لا تقيد حرية الفكر. ويقول ان الافكار المتناقضة يقدر ان يكون بعضها بجانب بعض بدون ضرر واذا لم تستعمل القسوة لتأييد البعض وابادة البعض الآخر فيتيسر لمعوم الناس مع الزمان ان يرسوا على الحقيقة ويختم كلامه بالقول ان الاحترام لا يجوز إلا لنبات الطبيعة الثلاث الفضيلة والحكمة والحقيقة ولا آلهة سواها



ويلحق « بنظام الطبيعة » مشاهير الانيسكلو يذيين الفرنساويين الذين عدوا هولباخ منهم. ووجودهم كلف بين ظهور كتاب « الانسان الآلة » وكتاب « نظام الطبيعة »

فالانيسكلو يذية او موسوعة العلوم او دائرة المعارف للكتبي لابرتون براد بها مختصر المعارف الموجودة وصاحب هذا المشروع شامبرس الانكليزي فانه نشر في سنة ١٧٢٧ مؤلفاً سماه « سيكلو يذية او قاموساً عاماً للصنائع والعلوم » فاراد لابرتون في اول الامر ترجمته ثم رأى ان يؤلفه فاستدعى اليه الكاتب الشهير ديدرو وسلمه عهدة تحريرها وانضم الى ديدرو دلامبرت وجمهور من مشاهير ائكتبة منهم فولطير الذي ساعد فيه كثيراً

والمجلدان الاولان ظهرا في سنة ١٧٥١ وسنة ١٧٥٢ تحت هذا الاسم « انيسكلو يذية او قاموس مبرهن للعلوم والصنائع تأليف جماعة من الكتبة رتبته ونشره ديدرو. والجزء الرياضي منه تأليف دلامبرت الخ » فيجاء ضد هذا الخواطر الكتبة ومن على شاكلتهم من العلماء. ولولا مساعدة الحكومة ولا سيما احد وزراءها المدعى ملاارب لما امكن تكميل نشر الانيسكلو يذية. وقد انتشر هذا المؤلف انتشاراً عظيماً على الرغم

ارتفاع سعره . وطبع منه في المرة الأولى ثلاثون ألف نسخة . وترجم أربع مرات الى سنة ١٧٧٤ . ورجح به الكثيرون نحواً من ثلاثة او أربعة ملايين فرتك وقد اثرت الانسكلوبيديّة جداً في افكار ذلك العصر ومعتقداته . وقد سماها كاتانيس « الاتحاد المقدس ضد الوهم والظلم » وهي السبب على قول روزانكراز في تحول افكار الفرنسيين عن التثنية الديكارنية ( نسبة الى ديكارتوس ) وانتقاض رأي ما وراء الطبيعة وانتشار فلسفة الانكبيز العملية

\*\*\*

والرجلان اللذان تميزا في الانسكلوبيديا هما ديدرو ودلامبرت  
فديدرو وكفولطير يقتبس من نيوتون ولوك . لكنه اعلم من فولطير واثبت منه في المادية والجحود . وحياته كانت عيشة سكون وانعزال شأن العلماء . ولا خلاف في انه كان شريف الاخلاق حميد الخصال . ولد سنة ١٧١٣ . ولم يتخذ صناعة معلومة بل وقف نفسه للعلم . وكان كثير الاعتماد على باكون ولوك وبييل . ومن سنة ١٧٤٥ حتى سنة ١٧٤٩ نشر عدة رسالات مهمة سجن لاجلها مائة يوم في قسطن . ثم في سنة ١٧٤٩ ظهر مشروع الانسكلوبيديّة فاشتغل به عشرين سنة محاطاً بأنواع الصعوبات والاضطهادات والمعاكسات . ثم ان امبراطورة روسيا كاترينا الشهيرة دعته مراراً الى بلاطها فذهب الى بطرسبورج سنة ١٧٧٣ حيث نزل على الرحب والسعة واجازلت له الامبراطورة الصلات والمدايا . الا انه لم يستطع لمريضه ان يبقى هناك فعاد الى وطنه . فأي فرق بين ذلك العصر واليوم حيث لا نرى سوى الخسة والدناءة والموالسة والافكار الدنيئة مقربة من الرؤوس المتوجة (١)

وتوفي ديدرو سنة ١٧٨٤ وآخر ما قاله هذه العبارة « الكفر اول خطوة نحو الفلسفة » وقد رتب امبراطورة روسيا معاشاً لارملته مدة حياتها

(١) اذا كان ذلك في الغرب فكيف الحال في الشرق وامراء جهلاء وانعلم اندرسن الكبير من الانحرص صعداً وحتى صار انيق بذلك الانطلاق السافله منتهى اللصحاء وسلباً للعلماء منارة اصالب الغراء



وقد وصفه بعض واصفيه قال « لو اراد المصور ان يصور رأس بلاتون او ارسطو لما وجد البق لذلك من رأس ديدرو . قلت جيبته العريض الصلت يدل على ذكاء فائق وهو وان كان في هيئته تراخ الا انه لما كان يتحدث في الكلام كان يكتسي وجهه هبة وجلالاً . وربما دلت هيئته وهو في حالة السكون على اضطراب او سداجة او تعب ايضا ولكن ديدرو لم يكن غير ديدرو لما كانت قوة فكره تخلطه »

وكان على جانب عظيم من الرأفة والدعة حلياً غير متعصب ضد الذين ليسوا من مشربيه قيل ان الدوك دورليان اقترح رسالة في هجومه وعين غمها خمسة وعشرين ذهباً تدفع لمؤلفها فكتب ديدرو رسالة هجائها نفسه ونسبها الى احد المعوزين ليكتب هذا المال . وقد وصف ديدرو نفسه في بعض كتاباته قال « اني لا احقر لذات الحواس في خلق يحجب الاطعمة الشبهة والحفرة الجيدة . ولي قلب ولي عيان وأحب ان يكون لي امرأة جميلة انصبا الى صدري واقبل شفيتها بشفتي . ولا اكره الاجتماع بالاحباب في ليلة طرب بل في ليلة متهتكة . الا اني لا اخفي عنك ان مساعدة مسكين وانام عمل شاق واعطاء نصيحة جيدة وقرأة كتاب مفيد والتزهد مع صاحب صديق وصرف اوقات مفيدة مع اولادي وكتابة صفحة جيدة وذكر اشياء رقيقة لطيفة تخليطني تجعلني استحق منها قبلة لأحب الي من ذلك كله »



وقد مر ديدرو بدرجات ثلاث فآمن أولاً بالوحي ثم بالله وحده ثم صار مادياً معطلاً . وجعل اصل كل شيء في المادة وادق اجزائها المتحركة منذ الازل . واهم ما لا في هذا الموضوع ( ١٧٧٠ ) رسالة في « المادة والحركة » . ورسالة موسومة « مباحة دلامبرت وديدرو وحلم دلامبرت » وهذه الاخيرة لم تنشر حتى سنة ١٨٣١ ومن جملة ما يذكره ديدرو مثال البيضة كيف انه بالحرارة فقط يخرج من كتلة لا حركة فيها ولا حس كائن حي قال « انك بذلك تنقض كل تعاليم اللاهوتيين وتهدم كل هياكل الارض » فالوجود عنده اختار دائم وتبادل في المادة لا يتغير وحركة في الحياة لا تسكن . فلا شيء ثابت بل كل شيء متغير . والافراد ليست سوى اجزاء

لكل عظيم هو واحد. ولا موت فالولادة والحياة والموت تغير في الصورة فقط. والنفس ليست سوى نتيجة التكوين والبيولوجية أو علم النفس ليست إلا فيسيولوجية الاعصاب. ولا يوجد ارادة حرة ولا نفس خالدة. وخلود الانسان في عمله لان عمله لا يزول ويبقى الى الابد. والسعادة والفضيلة شيء واحد ولا يجب مقاومة الامبال لانها سبب الاعمال المظلمة. وبالجملة لا توجد مسألة من الرأي المادي الا وقد بحث ديدرو فيها وبلغ بها الى قمتها. والرأي المادي الحديث يسعى بواسطة تقدم العلوم الطبيعية لتأيد هذه القم التي هي واحدة بنفسها.



أما دلامبرت فمن أشهر كتبة فرنسا بسبب تعليق اسمه على الانسيكلوبيدية. وشهرته في العلوم الرياضية. وكان من أعضاء الأكاديمية ومن أخصاصه فرديريك الكبير والامبراطورة كاترينا. ولد في باريس سنة ١٧١٧ واشتهر منذ حداثته بكتابات في العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية ثم في علم الهيئة. وكان نبيل الطبع حسن الاخلاق محسناً كريماً عفيفاً مكتفياً بنفسه على انه كان ضعيفاً قليل الحزم حتى في حجة. وهو على مذهب باكون ولوك في الفلسفة والمنطق اي مادي حسي الا انه لا يتعرض لله ولا لخلود النفس ولا لروحانياتها ولا للارادة الحرة او بالحرى يشك فيها لانه بالحقيقة شكوكي او من اللادريين كما يظهر من كلامه حيث كتب الى فولطير سنة ١٧٦٩ قال « اقسم بي اني لا أجد في ظلمات ما وراء الطبيعة الا الشك امرأ معقولاً فاني لا أفهم المادة ولا اي شيء آخر وأتبه كلما افكرت بذلك واراني ميالاً للتصديق بان كل ما نراه وهم من الخواص والله لا يوجد شيء خارج عنا يشبه ما نظن اننا نراه وكثيراً ما أردت في نفسي سؤال الملك الهندي لماذا يوجد شيء ؟ فهذا هو بالحقيقة العجب العجيب » وفي سنة ١٧٧٠ كتب الى فرديريك الكبير يقول له « يظهر لي ان عبارة مونتن « لا ادري » هي المعقولة وحدها في المسائل الفلسفية ولا سيما في امر الله على ان في نظام العالم ما يدل على صانع صنعه كما تدل الساعة على صانع صنعها. ولكن كيف هو هذا الصانع ؟ وهل خلق المادة ام نظمها فقط ؟ وهل الخلق ممكن ؟ وان لم يكن



ممكناً فهل المادة أزلية ؟ وان كانت أزلية فهل هذا الصانع متصل بها او منفصل عنها ؟  
وان كان متصلاً بها فهل المادة لله والله المادة ؟ وان كان منفصلاً عنها فكيف  
الصانع الذي ليس مادة يفعل في المادة ؟ فلا جواب على ذلك سوى « لا ادري »  
وهكذا يقول في امر النفس وخلودها على ان في شكه هذا من المادية ما هو ظاهر  
في كلامه.



ويلحق بالانسكلوبيديين ومدرستهم اثنان آخران احدهما الاب كونديليak  
المولود قبل دلا مبرت بستين اي سنة ١٧١٥ تعلق على البحث في مسألة الادراك  
وانتهى بها الى نتائج حسية والثاني الطبيب كبانيس المولود سنة ١٧٥٧ هذا حذو  
كونديليak ولا سيما في المسائل الفسيولوجية. وكتابه في « نسبة الجسد والنفس في  
الانسان » سنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩ ترجم الى سائر لغات اوروبا وما زال يطبع حتى  
اخيراً. فكبانيس يقول ان الجسد والنفس لا يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً شديداً  
فقط بل هما شيء واحد. فالفسيولوجية والبيكولوجية اي علم النفس وعلم الاخلاق  
فروع ثلاثة لعلم واحده هو الانثروبولوجية اي علم الانسان. والنفس والعقل ليسا الا  
حركات الاعصاب والدماغ واحاسانها. واليه ينسب المثل الشهور « الانسان كله  
اعصاب ». ويؤكد ان الدماغ عضو الفكر. وهو كشارل فوجت حيث يقول « الدماغ  
الفكر كالمعدة للهضم او الكبد لافراز الصفراء من الدم. والمؤثرات الداخلة اليه تحركة  
كما تحرك الاطعمة المعدة. ووظيفة الدماغ حفظ صورة لكل تأثير وجمع هذه الصور  
ثم المقابلة بينها واستخراج احكام منها كما ان وظيفة المعدة حل الاطعمة وتحويلها  
الى دم

وكما يكون الانسان كذلك يكون إلهه وامر الله ليس سوى النظام اللازم للكون  
أي ناموس المادة الطبيعي. قال « ان جميع ظواهر الكون لم تكن ولا هي كائنة ولن  
تكون سوى نتيجة لازمة للمادة او للنواميس التي تسوس جميع العوالم فسبب كل شيء »

في هذه الصفات او النواميس وهي التي يسميها فان علمونت أمر الله  
وبواسطة كونديليلاك وكبائيس والانسكلويديين تأيد الرأي الحسي في فرنسا  
وصار له اتباع في عهد الجمهورية الاولى عند سائر المتتورين وامتد تأثيره ايضاً جداً  
في القرن التاسع عشر

ومن مشاهير انفرنساوين ايضاً هلفتيوس واسمه لا يفصل عن اسم دلامتري  
لثومس بالمادية نظيره. ولد بباريز سنة ١٧١٥ من ابوين المانيين وكلت يحب المجد  
جداً فترك كل شي وتعلق على العلم. وبعد ثعب عشر سنين نشر كتابه « في العقل »  
فاشتهر به جداً وبين ان الحس مصدر كل معرفة. وهو يعبر عن قوة الحس بالنفس.  
وعن جملة التأثيرات والمعارف المتحصلة للنفس بالعقل. فالعقل نتيجة النفس وحالة  
تكويننا من الدقة والحسونة وكل الافكار ناشئة عن الحواس وبدون الحواس لا فكر.  
والطفل له نفس أي هو قادر ان يحس. وليس له عقل لان العقل ينمو شيئاً فشيئاً بما  
يفصل للنفس من المعلومات بواسطة الحواس. فالانسان يولد اذاً مع كل نفسه  
ولكن ليس مع كل عقله

فحبة الذات والمصلحة الخصوصية هما حسب هلفتيوس مصدر كل اعمالنا  
واحكامنا. فالانسان لا يصل عملاً الا لمصلحته. واما عمل الخير لانه خير فتقول  
فاسد كعمل الشر لانه شر. وقاعدته الادبية هي هذه « فتن عن الراحة وابتعد عن  
الشقاء » والفضيلة عنده قائمة بتقديم مصلحة الحكومة والجمعية والانسانية على  
المصلحة الذاتية

وهو يعتبر ان التربية اعظم شي اذ يتوقف عليها كل شي. فالافراد كالام  
هم كما صيرهم مشرعون ومعلوم. وقد قاوم بشدة طرق التعليم الموعول عليها في عصره  
وهذا الطعن العنيف الذي تضمنه كتابه في الهيئة السياسية والدينية جلب عليه  
اضطهاداً شديداً. واحرق كتابه بالنار جهاراً بامر الحكومة سنة ١٧٩٥ وقد اضطر  
ان يهرب من فرنسا على ان كتابه طبع خمسين مرة في مدة قصيرة وترجم الى سائر



لغات أوروبا. وقد اعتبر خطأً اصدق بيان حالة فرنسا من اتباه الافكار في القرن الثامن عشر. ويظهر ان يوفون وفولطير وديدرو ودلامبرت اعتصبوا ضد هذا الكتاب وكان كسائر ما دى ذلك العصر حلياً محسناً كريماً ملجأً الفقير وملأ ذوي العقول والاستحقاق وقد عين رواتب كبيرة لكثير من العلماء. وسعى بتنشيط الزراعة والصناعة. وكان له مكانة عالية عند فريدريك الكبير وتوفي سنة ١٧٧١



ولا يسعنا تعداد الفوائد التي حصلت للانسانية قاطبة بواسطة تعاليم رجال القرن الثامن عشر لفرنسا. فهما اطينا فيها فائنا لا ندرك شأوها. فانها كانت سبباً قوياً لتهوض الفهم وانتعاش العقول وتغير مجرى الآراء والافكار تغيراً شديداً ليس له نظير في التاريخ. والثورة التي حصلت بسبب ذلك في البيولوجية اي علم اللاهوت حصلت ايضاً في الفلسفة فاستردت مقامها بعد ان اصبحت نسبياً منسياً. ولا يعلم عصر سادت فيه الفلسفة نظير هذا العصر. والرجال الذين اشتهروا فيه كانوا كلهم يشون المحبة متقدمين بنار الغيرة على الانسانية وحرية الفكر وحرية المعتقد والتعليم معتصبين عصبية متدسة ضد التعصب والظلم وتقييد العقل. قال هنتر ما نصه "فلو كان هؤلاء الرجال مفدين منتهكين قائمين بنصرة الرذيلة كما يقول بعضهم لما كنت قاتل لهم ان يتركوا آثامهم في معتندات الاجيال الذين جاءوا بعدهم وفي افكارهم وسلوكهم". اهـ

وانا لا نخطي اذا قلنا ان خلاصة الرأي المادي في القرن الثامن عشر محصورة في تعاليم رجال فرنسا لان فرنسا كانت في هذا القرن في مقدمة الامم في هذا الامر واما انكلترا والمانيا فكانتا في المقام الثاني من ذلك وهالك طرفاً مما كانتا عليه



انه كما كان كبار رجال انكلترا كما كون ونيوتون ولوك وغيرهم سبباً لا يقاد شعلة

الافكار في رجال فرنسا هكذا كان رجال فرنسا سبياً في رد فعل هذه الشعلة على انكلترا .

واشهر رجال الانكليز في هذا العصر « دافيد هوم » ولد سنة ١٧١٤ وقرأ العلوم في باريز سنة ١٧٣٤ ثم عاد الى « اوكسا » ونشر كتابات في مواضع مختلفة من سنة ١٧٣٩ الى سنة ١٧٥٧ . ثم في سنة ١٧٦٣ رجع الى باريز بصفة كاتب اسرار السفارة . وتوفي سنة ١٧٧٦

وفلسفة دافيد هوم كفلسفة لوك ويختلف عنه بأنه لا يعتبر النفس روحاً خالدة ولا بصدق الوحي ولا يؤمن بما وراء الطبيعة . ويقول انه ما من دين خال من التناقض ومنزه عن الشك وما عدا كونه فيلسوفاً كان مؤرخاً ومن رجال الحكومة ايضاً

ومن اثرت فيه ثورة الخواطر الفرنسية المؤرخ الانكليزي جيبون ( ١٧٩٤ ) اقتنى لوك وبييل وفولطير ومونتسكيو في تأريخه الشهير « سقوط السلطنة الرومانية » يجعل نشأة النصرانية سبب هذا السقوط . وقد افرغ سهام جميعه طعناً في المعجزات والوهابان والرهبة

على ان اعظم زعماء الرأي المادي في انكلترا هو يوسف بريستلي ولد سنة ١٧٣٣ وكان اعظم طبيعي في عصره . واكتشف اكتشافات مهمة في الطبيعيات وانكيا وهو من اتباع دافيد هرتلي الطبيعي والفيلسوف معاً . كان يقرب عهد الانسكلوبيدية ( ١٧٠٥ — ١٧٥٧ ) وجعل اعتماداً في الفلسفة على الفسيولوجية . فبريستلي هذا حذوه الا انه بالغ عنه في النتيجة وجعل الفكر والحس من اعمال الدماغ المادية وانكر الارادة الحرة . وكان يعتقد وجود الله ولذلك ندد بكتاب « نظام الطبيعة » ثم اضطر ان يهرب فرحل الى اميريكا وتوفي في فيلادلفيا سنة ١٨٠٨

•••

واما المانيا فليس لنا عنها في هذا العصر شيء كبير . والفلسفة التي كان عليها



المعول فيها هي فلسفة لينتز بما فيها من الارواح والتقص في نظام الحيوان . ثم سادت  
فلسفة كريستيان ولف الذي قال فيه لانج « انه رجل جليل وحر الافكار الا انه  
من صغار الفلاسفة . وليس في فلسفته شيء » من المادية وقال « ان النفس جوهر  
بسيط روحي » . ثم كثرت الابحاث في بسيكولوجية الحيوانات على منهاج لينتز .  
وجعلت نفس الحيوان خالدة كنفس الانسان . واشهر ما اتصل بنا من ذلك مؤلف  
لريماروس « مراقبة اميال الحيوان الصناعية » سنة ١٧٦٠ . وآخر للاستاذ ماير ( ١٧٠٩ )  
الذي حاول وضع مذهب جديد في نفس الحيوان وماير من المعتصين ضد الرأي المادي  
وقد نشر سنة ١٧٤٣ رسالة بين فيها ان المادة لا تستطيع ان تفكر . وكذلك الاستاذ  
مارتن كوتونزن كتب نظيره . ولا يزال اصحاب ما وراء الطبيعة اليوم متمسكين بهذه  
الحجة . وقد فاتهم انه لا يزال ينقصهم الدليل اليقيني . بل الادلة ضدهم كثيرة . ولقد  
اضحكت هذه الحجة دلامتري فقال « ان قولهم المادة لا تقدر ان تفكر على حد  
قولك المادة لا تقدر ان تدق الساعات » . وقال الفيلسوف شوبنهاور « اذا كان في  
امكان المادة ان تصبح تراباً في امكانها ان تفكر ايضاً » . فالمادة كما هي مادة لا تفكر  
كما انها لا تدق الساعات ولا تصبح تراباً ولكنها اذا تراكبت على حالات معلومة كان  
في امكانها ان تدق الساعات وان تصبح تراباً وان تفكر ايضاً

وكتاب دلامتري « الانسان الآلة » صادم في المانيا مقاومة عنيفة وليس ما  
يستوقف النظر في المناقضات الكبيرة التي وجهت ضده

ومع ذلك فلم تكن المانيا خلواً من الرأي المادي كلياً . بل مال فيها اليه رجال  
نظير فودستر وليختبرج وهردر ولواتر او بالحرى ادخلوا في فعاليتهم بعض مبادئه  
وكل يوم كان يمتد عن يوم ولا سيما في العلوم الصحيحة . وهو وان لم يعم الفلسفة الا  
انه مهد السبيل لنقض التعاليم القديمة لما وراء الطبيعة . فان ليننج وغاني وشيلر وان  
لم يكونوا بالحقيقة ماديين الا أنهم تحولوا عن الفلسفة القديمة المقررة واعتاضوا عنها  
بالبحث عن الحياة والانصباب على الشعراوي اقرب الى المادية من غاني حيث

يقول : « لما كانت المادة لا تقدر ان توجد وتعمل الا بالروح ولا الروح الا بالمادة كانت المادة اذا فادرة ان تتحرك كما ان الروح لا تتخلى عن قوتي الجذب والدفع » الخ وان لم يكن في هذا العصر في المانيا كتاب مادي بحث الا ان اعظم زعماء الرأي المادي فيه كان ملك بروسيا فريدريك الكبير الذي ضم الى بلاطه كل نوابغ عصره وقد اشتغل معهم بالفلسفة والآداب ونظم حكومته على مبادئ حرية المعتد والضمير وكتابات تدل على انه مادي محض ومثله كانت ابنة عمه العظيمة كاترين الثانية امبراطورة روسيا في اكرام وفادة العلماء كما مر

\*\*\*

### الرأي المادي

( في القرن التاسع عشر )

لا فطيل لك الشرح على الفلسفة المادية لهذا القرن لانك رأيت بنفسك كيف نشأت وانتشرت ولا افنك تجهل مبادئها ومفعولها وما هو محتوم لها في المستقبل . واعلم ان المانيا هي القائمة بها هذه المرة في مقدمة الامم بعد ان وقضت قرنين او ثلاثة قرون ناظرة لا تبدي عملا . ففي القرن السادس عشر كانت ايطاليا في مقدمة الامم في ذلك . ثم في السابع عشر انتكسرا . وفي الثامن عشر فرنسا . واما في القرن التاسع عشر فالسابقة المانيا . ولقد ابطأت المانيا السير جدا ولكن عن حكمة فلم تنهافت على الرأي المادي او الفلسفة المادية الا بعد ان وجدت في العلوم الصحيحة مستندات قوية لم تكن لها من قبل

والن كان الاعتماد في الماضي على الاختبار الا ان مواده لم تكن بالحقيقة كفاة الواجب . وكل ما انت به التعاليم المادية السابقة ناتج عن النظريات الفلسفية لا عن التجربة والاختبار خلافا اليوم فان الرأي المادي اليوم يستند الى جملة معلومات صريحة لم تكن في السابق . كعدم ملاشاة المادة او الجواهر الفردة . وحفظ القوة . وعدم انفصال القوة عن المادة ومعرفة تبدل المادة . معرفة واضحة . وعدم نهاية الاجرام



الساوية . وثبوت تواميس الطبيعية . ووحدية المواد والقوى في كل العالم المنظور . ومذهب الخلايا . والتاريخ الطبيعي للأرض والعالم العضوي . وشدة ارتباط الظواهر العضوية وغير العضوية بعضها ببعض . والاكتشافات في عمر الانسان واصله . والدلالة الفسيولوجية على ان الدماغ عضو النفس . ونفي المبدأ الحيوي والاسباب الغائية . وبالجملة نفي كل القوى السرية من العلم والطبيعة وتحديد معنى البدهية وعدم الفرق جوهرياً بين نفس الانسان ونفس الحيوان الا من حيث الارتقاء فقط الخ

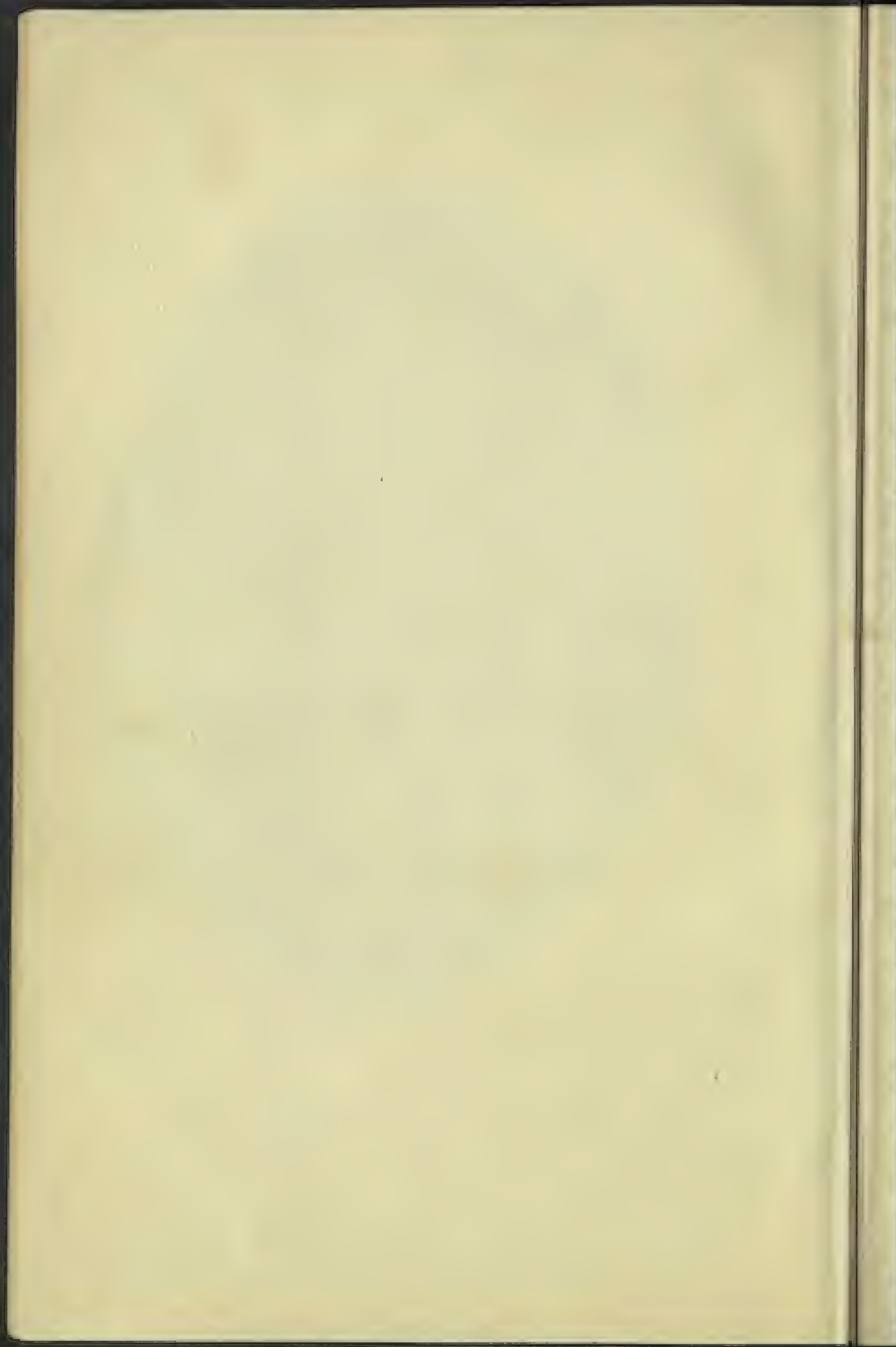
فبرى من ذلك ان قول القائلين ان الرأي المادي اليوم رأي فقد ونفي منذ زمان طويل فاسد لسببين: احدهما انه لا يعلم ان الرأي المادي نفي ابدًا بل كان بهجوع ويشور بحسب احوال الامم المتغيرة وهو قديم جداً . وثانيًا لان الرأي المادي اليوم ليس الرأي المادي لا ييتوروس او الانسيكلوبيديين لما حدث من الاكتشافات العلمية . وبخلاف عن التعاليم القديمة بانه ليس مذهباً فظيرها وانما هو حقيقة فلسفية موضوعها البحث عن المبادئ الواحدة في عالم الطبيعة والروح وبيان الارتباط الطبيعي المنتظم بين جميع خواص الكون . فاطلاق اسم الرأي المادي على هذا الانصباب العام بمعنى انه مذهب معلوم لا يصح او هو بالحري قاصر جداً لا ينبغي بالمقصود . فالرأي المادي اليوم لا يجعل المادة وحدها فوق كل شيء . بل يعتبر القوة والمادة غير منفصلتين كأنهما شيء واحد ولا فرق عنده في جعل القوة او المادة قاعدة كل شيء اذا كان اقتضاء لذلك . او هو كما يسمونه ايضاً الرأي « الحقيقي » . وهذا الرأي لا ينفي الفلسفة كما يزعم بعضهم بل بالحري يجعلها روح كل علم مع الفرق بان الفلسفة ليست معه كما كانت قبل علماً مستقلاً بمقدماته ونتائج . بل هي مركز تجتمع اليه نتائج كل العلوم الاخرى حيث يصير محورها « وهذا المحصر بعلمها علواً صحيحاً » كما يقول سيس . وهذه الفلسفة لا تدعي لقضاياها العصمة المطلقة ولا تستنزل من سواج الافكار في ذرى سماء الخيال تواميس الكون بل بالضد من ذلك تقف عند حد ابحاث العلوم الصحيحة . وهذا الحد غير ثابت بل يزداد بعداً سنة عن سنة كلما تقدمت هذه العلوم . وقد يقع

الخطأ فيها أكثر من مرة إلا أن هذا الخطأ لا يضر بل يفيد لاكتشاف الحقيقة على حد ما في المثل الألماني القائل « لا ينتقل من الخطأ إلى الصواب إلا العاقل ولا يقف إلا المجنون »

واعلم أن زعماء الرأي المادي اليوم لا يزالون يضطهدون كما كانوا يضطهدون في الماضي إلا أن أهل المستقبل سيرفضون شأنهم ويعلمون مكانهم وقيمون لهم الثأيل والأنصاب كما فعلوا اليوم لشاعرنا شيلر إذ انتقوا لأجله الملايين ولشد ما كان مهملًا في عصره حتى أنهم لم يهتدوا إلى قبره وجمع رميمه إلا بعد جهد جهيد وعناء شديد

( انتهى شرح بخنر ويليه كتاب الحقيقة )







هرت سبنسر



# الحقيقة

وهي رسالة تتضمن ردوداً

لأثبت مذهب دارون

في

النشوء والارتقاء

ألكسندر

شيلي شميل



## الفصل الاول

### (في المادة والقوة)

ان العالم الطبيعي والحاسب الرياضي والعالم  
الميكانيكي اقصر كلاماً وانصح بياناً وبسط  
السلوك وأثبت حجة واحقق كذلك من الادب  
الهندي والعالم اللاهوتي والفيلسوف المتعالي  
وسائر علماء الجدل الكلاميين لانه الفلاسفة  
الطبيعي الرياضي الذي لا يقبل المغالطة والقوة

أما انت ايها الفيلسوف الداخلى ميدان النزاع من ابواب الطالب الجدال بأسبابه  
فاهلاً وسهلاً بك ومرحباً لقد سقطت على من يحل قدرك ولا يحسب فضلك  
ولكن ما لي اراك لا تثبت على حال ولا يقر لك قرار شأن من يزعم ان المعتول يقوم  
بدون المحسوس. وافقتنا على مبدأ لم تلبث ان تقضه بما بنيت عليه من النتائج. جعلت  
المادة قديمة ثم خلقتها ولا تبين لك فساد ذلك عدلت عنه وحاولت التستر بقولك  
ان موافقتك لنا افتراضية لا حقيقية وان مذهبك هو غير ما ذكرت. فصرح لنا  
على أي مبدأ تعتمد أملك لا تعلم ان التردد في المبادئ يوجب الاضطراب في القياس  
وانفساد في الاحكام. فانك لا تقر هزيمة على المحسوس حتى تظهر على جناح الافكار  
في سماء الخيال ولا تلبث لحظة على الفلسفة العملية حتى تنبه في مضائق الفلسفة النظرية  
فتستنجع على غير مبدأ وتحكم على غير قياس الا ما صورته لك حدة الذهن وقوة الخيال.  
ولا يخفى ان البحث على هذه الصورة خبط عشواء في ليل بهيم ولا يمكن متابعتك في  
هذا التيه الذي لا يمكن السلوك فيه الا بطريق الهداية وهي نعمة وان خص بها البعض  
لكنها لا تعم وانما يمكن متابعتك اذا سلكت معي سبيل العلم. الا ما رجعت معي من  
سما غيبك الى ارض المحسوس ومن فضاء فلسفتك النظرية الى دائرة الفلسفة العملية.  
ولا يخدعك عقلك المجرد وارادتك الحرة وافكارك الغريزية فدقق النظر طويلاً وتاهل  
قليلاً ثم ان ما تظنه كذلك خاضع لاحوال المادة ومكتسب كسائر الاعضاء.



والوظائف . فبحثك في الطبيعة بدون الاستناد الى المحسوس اعتقاداً منك ان العقل وحده قادر ان يتوصل الى حل هذه المسائل حلاً يقرب من الصحة وهم وأي وهم  
لقد بحثنا هذه المرة بمذهب غير مذهبك الاول وقلت لنا ان الوجود في عرفك  
نوعان معنوي سابق ومادي مسبوق . وبعبارة أخرى معنوي خالق ومادي مخلوق  
وضربت لذلك مثل المعاني والالفاظ الموضوعه لها . وقبل ان تعرض لثني هذا القياس  
وتبين وجه فساد لا بد لنا — وقد عدلت الآن عن قدم المادة — من بطل شيء  
عما يعلم عن المادة والقوة نجعله تمهيداً للكلام على الوجود المعنوي والوجود المادي  
كما تقول (١)

لا حاجة بنا الى ان نعرفك ان العلم قد توصل في الامور الطبيعية الى هذه النتيجة  
الكبرى وهي : ان القوة والمادة لا تنفصلان البتة . ولا اخذك تستطيع ان تعرفنا بمادة  
مجردة عن كل قوة او حركة او تطمع ان تبين لنا قوة او حركة مجردة عن كل مادة . فالقوة  
لا تعرف الا بالمادة والمادة لا تعرف الا بالقوة فلا تدرك الواحدة بدون الاخرى .  
لتصور ادق الدقائق المركب الجسم منها خالية من كل قوة اي من رباط قوتي الجذب  
والدفع الذي يتكفل بحفظها ويؤلف صور الاجسام وتفترض ان قوى الالفه قد زالت  
فماذا ينبغي ان تكون النتيجة . ألا يلزم ان تدخل المادة في عدم لا صورة له ولا يدرك .  
على اننا لا نعرف في عالم الطبيعة جوهراً فرداً بلا قوة فهو انما يظهر بفعل القوة فيه تارة  
على صورة وطوراً على صورة أخرى وآونة مركباً من اجزاء متشابهة وأخرى من  
اجزاء متباينة . ولا يستطيع العقل ان يتصور المادة بلا قوة فاننا اذا تصورنا مادة اولية  
مهما كانت فلا بد ان تكون دقائقها تحت فعل الجذب والدفع والا فلانها لتلاشي  
من ذهننا

كذلك القول بقوة بلا مادة فارغ ولا اساس له . واذا كان من المقرر ان  
القوة لا تقدر ان تظهر الا بالمادة فلا تكون القوة اذا سوى الصفة المتصلة بالمادة وكل  
صفات المادة كالنقطة فيها جوهرياً الا انها قد لا تظهر فتكون هاجمة فيها اي في حالة

الكون . فالقوة في المادة تنبئها لا انها تحل فيها حلولاً جديداً . فالمغناطيسية مثلاً لا تنتقل من جسم الى آخر كما يتوهم وانما تهيج فتظهر بتغير حالة دقائق الجسم المنهيجة فيه فهي متصلة باجزاء الحديد وهي في قضيب ممغنط مثلاً متجمعة خاصة في المكان الذي لا تظهر فيه او تظهر فيه قليلاً

لتصور اذا امكن كهربائية او مغناطيسية بلا الحديد ولا الاجسام التي رأينا ظواهرها فيها ولنفرض ايضاً الاجزاء التي نسبها المتبادلة واوضاعها الجوهرية هي بالحقيقة اسباب الظواهر الكهربائية والمغناطيسية فلا يبقى والحالة هذه سوى تجرد لا صورة له . وعلم لا معنى له بمحد نفسه وانما نتذكر به جملة ظواهر خصوصية معلومة لانه لو لم تكن اجزاء قابلة لان تكهرب لم يكن كهربائية ولما استطعنا بواسطة التجرد وحده ان نعلم عنها شيئاً او ان نتصورها ولم يكن لها وجود لولا هذه الاجزاء . فكل الاجسام المسماة عديمة الوزن كالحرارة والكهربائية والنور والمغناطيسية وغيرها ليست شيئاً آخر سوى تغيرات مادية اي تغيرات في وضع الدقائق المؤلفة المادة منها فالحرارة والنور والصوت انما هي اهتزازات ارتجاجية في الاولين وتوجية في الاخير . والظواهر الكهربائية والمغناطيسية ثم بتغيرات نسبية في اجزاء المادة وجواهرها الفردة . ولاجل ذلك عرف العلماء القوة بانها خاصة من خصائص المادة او هي الحركة او هي حالة من حالات المادة وانه يستحيل ادراك القوة بلا مادة كما انه يستحيل البصر بلا عين او الفكر بلا دماغ او القول بقوة مفردة بلا غدة او بقوة انقباضية بلا ليفة عضلية . فلا شيء امكنه في زمان من الازمنة ان يدلنا على وجود قوة سوى التغيرات التي ندركها في الاجسام بواسطة حواسنا . وعلى هذه التغيرات المرتبة حسب نسبها والمسماة باسماء مختلفة يطلق اسم الجنس « القوة » . وليس سوى هذه الوسطة لفهم المعنى المراد بهذه اللفظة . فما هي اذا النتيجة الكبرى الفلسفية لهذه المعرفة البسيطة الطبيعية

لا شك ان الذين يقولون بوجود قوة ابدعت العالم من لا شيء لا يستندون في قولهم هذا الى شيء من العلوم الطبيعية والفلسفة العملية التي تتبع العلم في سيره وتغير مع تغير الافكار بتغيره وانما يفعلون ذلك انقياداً لفلسفة موهومة نشأت عن نقصان



الاختبار في سالف الازمان ورسخت في العقل حتى كادت تكون ثابتة فاعتبرت غريزية. وحجبتهم الكبري هي انه لا بد لكل معلول من علته. وقد فاتهم انه في هذا الدور المتسلسل لا بد لهم من الوقوف عند نقطة يثبتون فيها حصول الوجود بالمعجزة. الا انهم عوضاً عن ان يقفوا فيه عند حد الابحاث الطبيعية المؤيدة بالاختبار ويثبتوه للمحسوس يفترون بد الى ما وراء الطبيعة ولو فاتهم الدليل ونقصهم البرهان. فمن أين عرفوا ان القوة قد توجد مجردة عن المادة والحال ان المادة لا تنفصل عن قواها. ام كيف جاز لهم التصديق بوجود شيء من لا شيء وهل ضلال اشد من هذا الضلال على العقل. فتكون العالم من العدم امر مستحيل لا يقبله العقل ولا يثبت الاختبار والعدم لفظة لا معنى لها. ومن المقرر ان المادة دائمة الوجود لا تتغير وهذا يقتضي كونها قديمة. ولو فرضنا وجود قوة مبدعة لما امكن وجودها باعتبار الزمان لا قبل الخلق ولا بعده. لا قبل الخلق لان ذلك يقتضي بقاءها مدة من الزمان بلا عمل وفي حالة السكون امام المادة اللاصورة لها والساكنة ايضاً وهذا غير سديد. ولا بعده لان هذا ظاهر البطلان. فاذا كانت القوة المبدعة لا تقدر ان توجد قبل الاشياء ولا بعدها واذا كانت المادة لا تدنو واذا لم تكن مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة فلا شك ان العالم قديم فما لا ينفصل لم يكن منفصلاً وما لم يدثر لم يبدع

## الفصل الثاني

( في الوجود المعنوي والوجود المادي )

وأما مثل المعاني والالفاظ الذي ضرب به الوجود المعنوي السابق والوجود المادي المسبوق فقول غير سديد وفيه من السفسطة ما كان يغنيك تدبره عن اسهاب الشرح عليه لان اسبقية المعنى على اللفظ نسبية كما لا يخفى عليك. وانت تريد بتقديم الوجود المعنوي على الوجود المادي اسبقية مطلقة والأفأى مثل غير هذا المثل يقوم مقامه.

وهو لا يفيد شيئاً في تأييد ما تذهب اليه كمثل الاسباب والمسببات عموماً فان ما كان منها علة لشيء فهو نفسه معلول لشيء آخر . فالسبق هنا نسبي لا مطلق وانت لم تنكر علينا ذلك حيث استدركت على نفسك بما معناه « وربما اعترض علينا ان المعاني حاصلة من تأثير المادة في الدماغ » وانما نحن ننكر عليك اعتقادك عليه بعد عرفانك ذلك فانت هنا تسلم معنا بان المعاني في العقل ليست غريزية بل مكتسبة وصادرة عن المادة بواسطة الحواس . وان كان عندك ادنى شك في ذلك فنحن نقول لك ان المعنى العقلي ليس الا تأثيراً مادياً او هو صورة المادة المرسمة في الدماغ كما ترسم الصورة في المرآة . فالنور لولا العين لم يكن له في عقل الانسان معنى ولم يفكر الانسان ان يضع له علامة او لفظة تدل عليه . ولو صح هذا القياس على الوجود المطلق لكان الاولى ان تعتبر المادة قبل معناها في العقل لانها اسبق منه من حيث هذا الوجود النسبي . فاسبقية المعنى على اللفظ كاسبقية المادة على المعنى نسبياً واما اذا اعتبرت الحقيقة فالمادة لا تنفصل عن معناها ولا يقصد بالمعنى ما ندركه فقط فالاعنى لا يبصر النور فهو لا يتصوره ولا يعرف له معنى في عقله ومع ذلك فمادة النور متصلة بمعناها وعدم ادراك الاعنى لها لا يسلب عنها وجود المعنى فيها . وعدم وجود المعنى في اركان لفظة أي الحروف عوضاً عن ان يكون حجة علينا فهو حجة لنا . فالالفاظ تدل على معاني لا تدل عليها حروفها دلالة صريحة كما ان المواد المركبة تكون ذات خصائص لا تدل عليها عناصرها دلالة واضحة . فقياسك هذا اذا فاسد . واعلم ان الدلالة على المعاني لا تقتصر على الالفاظ فقط بل تناول كل حركات الجسد وربما اقتضرت عليها في الحيوانات الدنيا التي لا يسمع لها صوت . وبهذا الاعتبار تكون الحركات من قبيل اللغات فاللغات اعم من ابداء المعاني بالالفاظ التي هي حركات خصوصية صوتية يشترك في تنطيعها اعضاء الخلق والاسنان والشفيتين ورافقها حركات موافقة لها في مائر اعضاء الجسد تظهر لك في البعض وتختفي عنك في البعض الآخر . اقول واذا توسعت في حقيقة هذه المعاني رأيت فيها من البساطة ما يدل على تقارب الاشياء في الطبيعة ووحدة اصلها . فان صفات المادة اذا حلت الى بسيطها دلت على



صفتين أو خاصيتين وهما الجاذبة والدافعة. وهكذا المعاني الذاتية إذا حلت  
الى بسيطها دلت على احد معين جاذب أو دافع ومحبوب أو مبغض ومرغوب أو  
مرهوب ومقبول أو مكروه وترسم صورة ذلك على جميع حركات الجسد. ألا ترى كيف ان  
حركات الانسان او الحيوان المتكررة من شيء تدل كلها على محاولته ابعاد ذلك الشيء  
عنه وإذا أحب شيئاً دلت حركته على محاولته ضمه اليه. وكما يكون ذلك في  
الحركات يكون كذلك أيضاً في اللغات فان اللغات كالحركات في الدلالة على المعاني  
واللغات كالحركات موجودة في الحيوان والانسان كوجود المعاني فيهما. إلا ان اللغات  
اوسع في الانداز لانتساع المعاني واكتمال الآلات فيه أكثر منها في الحيوان. ومن  
دقق النظر رأى المعاني مرسومة على الالفاظ ومبانيها كما ترسم على سائر الحركات  
فان اباءك للشيء جملتك تعبر عنها في اللغة العربية مثلاً بالفظه « لا » وقبولك له  
بالفظه « اي ونعم ». ولا يخفى ما في لفظ هاتين اللفظيتين من الحركات الدالة على معنى  
كلٍ منهما فانك بلفظك « لا » تحاول بحركات الفم كل علامات التباعد وبلفظك  
« اي ونعم » كل علامات التقريب وقس على ذلك سائر الالفاظ في سائر اللغات  
إلا ان هذه الدلالة لا تكون دائماً بسيطة وواضحة كما في هاتين اللفظيتين البسيطتين بل  
تنوع وتتركب كثيراً بقدر تنوع المعاني وتركيبتها وربما فعلت فيها اسباب مختلفة جداً  
بحيث لا تظهر لك هذه النسبة الا عند التدقيق الكلي. اقول وربما كان في الموضوع  
مبحث دقيق جداً والذي لا غاية عند من يحب الخوض فيه

### الفصل الثالث

( صد ورد )

ولا تعلم كيف جاز لك الاعتراض على قولنا « ان الصفات الموجودة في الاجسام  
المركبة موجودة بالقوة في المادة البسيطة ووجودها فيها بالقوة لا يستلزم وجودها  
بالفعل » بقولك « ان ذلك غير مشبع ومناقض لرأي الطبيعيين انفسهم » ألا ان

تكون قد فهمت القوة في قولنا « بالقوة » كما تتصورها انت . والأفليس في كلامنا ما يوجب ذلك ولا سيما بعد ان عرفنا ان القوة والمادة في عرف الماديين شي واحد والظواهر او الصفات او القوى ليست سوى تغيرات مادية كما قد تبين فيما تقدم وكما يتضح ايضاً مما يأتي . فانه في شخص جميع الظواهر الكهربية المعروفة لسنا نعرف ظاهرة واحدة لا تدل على تغير في ادق اجزاء المواد المتحركة كهربائياً . فانا اذا اطلقنا محمول قينة ليدن في سلك من البلاتين نرى هذا السلك يقصر حتى يتجمد لحصول تغير في ادق اجزائه وكذلك يحصل في سلك من الرصاص فتكون فيه عقد يضطرب بعضها بعضاً . وسائر الاسلاك المعدنية المستعملة في الاعمال الكهربائية اذا طال استعمالها في ذلك يحصل تغير جوهري في اجزائها فقد تتصلب وقد تصبح سهلة القص وكذلك يجري المغناطيس يؤثر في مرونة الحديد والفولاذ فان قضيباً من الحديد ملئواً من ثقوب يتقوم اذا تمغط . وهكذا تفعل ايضاً سائر القوى في الاجسام كما يسهل تبينه فان القوى الميكانيكية كالموجات التي يحدثها الصوت في الهواء مثلاً قد تحدث تحليلاً كإيوائاً في المواد المركبة تركيباً ضعيفاً

واما قولك ردنا علينا « ان وجود الزوائد في بعض الحيوان ( والصحيح في عالم الحيوان والنبات ) التي لا لزوم لها لا يلزم منه عدم الانتظام ( ولعلك تريد القصد والغاية لانا لا نذكر انا جئنا بهذه اللفظة والانتظام عندنا امر نسبي لا حقيقي كما تقدم في مقالاتنا السابقة ) اولاً لعدم امكان الانسان ان يحيط علماً بكل شي . وربما ادرك الخلف ما لم ندركه نحن » فلي ذلك نحب ان علماء طبائع الحيوان والنبات لا يدعون انهم بلغوا علم كل شي بل هم لا يزالون يبحثون وكل سنة بل كل يوم يكتشفون حقائق كانت غير معروفة عندهم وما لا يثبتونه يطرحونه بين المسائل الخلافية وهي ليست بالعدد القليل عندهم . الا ان ما لا يعلم سببه الطبيعي لا يزالون يعالجونه حتى تنجلي لهم الحقيقة فيه بجهد التنقيب والتفكير فلا يظفرون فيه حالاً الى ما وراء الطبيعة كما يفعل جرافاً سادتنا الفلاسفة النظريون الذين لا يصعب عليهم وجود سبب لكل شي . وهم في ساء خيالهم تائمون . على ان عدم الاحاطة علماً ببعض مفردات الاشياء لا يقتضي



منه نفي ما تحقق عن أكثرها وما يترتب عليه من الكليات . ولو جاز ذلك لكان الأولى أن تسقط كليات النظريين بأسرها فأنها لا تكاد تتفق مع شيء من قضايا العلم الذي لا تزال تعرضه في سيره . وكم دأبناها مشبكة معه في نزاع شديد ولم نر العلم دان لها ولا مرة واحدة . فلننرم أخيراً أن ندل له متصرفه في المعاني والألفاظ لأن دائرتها كما لا يخفى عليك واسعة فلا يضيق بها مجال . وإذا كنا نعرف من المسائل تسعين مسألة مثلاً ولكل مسألة سبباً طبيعياً وكنا نحيل أسباب عشر مسائل أفمن العقل أن يحملنا جيلنا على أن نتحل لهذا المجهول قوى ما فوق الطبيعة أم من الحكمة أن نقيسه على أخواته ونلحقه بها أملاً بأن ينكشف لنا سره الطبيعي يوماً ما . على أن الأعضاء الأثرية التي نحن بصددتها ليست في شيء من ذلك فقد تقرر وجودها وعرفت الأسباب الطبيعية لكثير منها ووضح أمرها وقل غامضها وهي تنقض الغاية وتبني القصد وثبت القرين بين الإنسان وسائر الحيوان . وربما بعدت هذه النسبة بين الإنسان والحيوان بالعلم وقربت بالجهل فكان أقربهم إليه أجهلهم بمعرفة أصله وأبعدهم عنه أعلمهم به .

ومن العجب أنك أثبت مذهب دارون وأنت تحاول نقضه بقولك « وقد تكون هذه الأمور فئات طبيعية مستفادة من الظروف والحوادث والاهوية والأقاليم ونحوها » إذ لا يخفى عليك أن الخلق على مذهبك ومذهب انصارك كائن بالانواع وهذا يقتضي أولاً ثبوت الانواع وثانياً اشتمال كل نوع على الأعضاء اللازمة له لا أكثر ولا أقل . لأن كل نوع خلق خصوصي مختصر في جبرئومة قابلة للنمو ومتضمنة كل صفاته الجوهرية والأفلا يكون في الخلق معنى لحدوث نقصان أو زيادة فيه ثاباتها الحكمة وقد تنزه الصانع الحكيم عن كل عمل لاحكة فيه . على أن معاني هذه الأعضاء الأثرية ظاهرة بنسبة التكوين المتسلسل كما يظهر لمن يدقق النظر في طبائع الحيوان والنبات أو ينظر فقط إلى كلياتها نظراً عاماً دقيقاً فلا يسعه والحالة هذه أن ينكر ما بين الانواع والنباتات من النسبة الشديدة والقرابة والتسلسل وسائر ما هو مقرر في مذهب دارون إلا أن يكون سابق اقتناعه حاجباً بينه وبين ما يرى . وقولك « وهي يحملها أمور عرضية » غير سديد لأنه يلزمك أن تعلم أن الأعضاء

المعارضة في الجسم من المعيشة والاقليم والحاصلة عن اسباب اخرى اكثر اختلاطاً  
تستقل بالوراثة والانتخاب الطبيعي وتضيق جوهرية كما في الالوان وتشتق الجلد وازدياد  
عدد الاصابع والامراض والاميل العقلية وغير ذلك مما لا يسعك انكاره  
○ واغرب ما في ذلك قولك « لانه يوجد في الطبيعة قوة مهدبة مربية وفي بعض  
الاحوال مولدة بادرة » فانت تعترف هنا بان الطبيعة فيها قوة التوليد والابداع الا  
انك تجعل هذه القوة مودعة فيها من بادرة الوجود فيا للعجب كيف جاز لك هذا  
القول اما رأيت ما فيه من التناقض فانك زعمت اولاً ان المادة البسيطة يجب ان  
يكون فيها من الادراك الكلي ما في الانسان من الادراك الجزئي . وبعبارة اخرى ان  
الحجر يجب ان يكون فيه قوة تدرك كالانسان وان لم يظهر لنا ذلك فيه ولا يجب  
الاعتماد على المحسوس فانه قد يضل ولما بينا لك ان البسائط لا يلزم ان تكون متضمنة  
نفس الخصائص والقوى التي في المركبات وان كانت قابلة للظهور فيها عند بلوغها  
مبلغها قلت فاذ القوى الفاعلة في البسائط ليست القوى الفاعلة في المركبات ولا يخفى  
ما في هذا القول من الاضطراب . ثم جئت لنا بتعليل آخر اي الوجود المعنوي  
والوجود المادي وقلت لنا انه المذهب الذي تذهب اليه هذه المرة وقد رأيت ما له  
من القيمة . ثم ما لبثت ان هدمت كل ما بينه بقولك « ان في الطبيعة قوة مولدة  
مهدبة » فكأنك قد اثبتت لها ما يثبت لها الماديون أي اثبتت لها التوليد الذاتي والفرق  
بينك وبينهم ان هذه القوة عندك ليست اصلية فيها بل مودعة فيها من بادرة الوجود  
وهذه العبارة الاخيرة لم اقدر ان افهمها لانه كما لا يخفى عليك بعد اثباتك قوة التوليد  
للطبيعة لم تذكر ما دليلك على انها مودعة ولعل ذلك من المسائل التي تعلو فوق طور  
المقل والتي لم يعط حلها الا الراسخين في العلم بطريق الالهام والوحي فانا معذور اذا  
كنت لا افهمها فانه لم يعط لي حل الرموز والاقتناع بالالفاظ المخبوفة والكلام المتعبر  
ومن العجب العجيب انك لم تشترط حينئذ على طبيعتك ما اشترطته على طبيعة الماديين  
من ضرورة وجود صفات المركبات في بسائطها كما هي فيها مع انه لا فرق بينها الا  
من حيث الحركة الاولى او بادرة الوجود . واما بعد ذلك فكل واحدة منها تعمل



اعمالاً من نفسها على نظام معلوم وسنن واحدة. فبما للفراسة كيف يقع كل هذا التناقض في كلامك وانت به مرتضى قانع

على ان الذكاء وحدة الذهن لا يقتضي ان يكون صاحبها في مأمن من ضلال الافكار بل العقل يتصرف في المعاني بحسب قوته سواء كانت المبادئ المؤسس عليها صحيحة او فاسدة. فالمبادئ لا تؤثر في قوة العقل بل في مجرى افكاره ولا في قوة استنباط الادلة العقلية بل في صحة احكامه وعدمها. ففي كل عصر وفي كل مذهب ينبغ رجال معدودون من افراد الزمان لما لهم من الذكاء وحدة الذهن وسعة الصدر ولا يصح ان يكون جميعهم على هدى لتباينهم في الآراء والمذاهب. فالعقل يسير في الطريق التي يألفها وينمو على المبادئ التي ينشأ فيها صحيحة كانت او فاسدة وينبع فيها بحسب ما له من الذكاء فلا غرو اذا كان ضلال الافكار في العالم نشأ عن اناس متوقفي الذهن كثيرون الثفن في اساليب الكلام شديدي قوة التصرف في المعاني وان كانوا كثيرون الخطاء في الاحكام بسحرون العقول التي لا تقوى على مناضلتهم بما يظهر لها من ساحر بيانهم وفتنون الالباب التي لا قبل لها بمجادلتهم بما تراه من قائن برهانهم. ولا يغير مجرى الافكار الا تغير المبادئ واقرب المبادئ الى الحقيقة ما وافق الاختبار

قال احد الحكماء لا ينبغي قبول آراء آباءنا كما يفعل الاولاد بحجة ان آباءنا قبلوها ونقول ان جهل الانسان لحوادث الكون كان سبباً لانخداع عقله واستحكام الخطاء من افكاره واستئصال الاوهام فيه. فان من كان قليل الخبرة في شيء كان شديد التوهم فيه كالطفل الذي يحاول ان يتناول بيديه ما يراه بعينه فيمد يده الى القمر كما يمدها الى فيه ولا يعلم ان القمر بعد المسال ولا يتيسر له معرفة الابعاد الا بتكرار التجربة. فهذه المعرفة في العقل ليست اصلية بل مكتسبة بالاختبار وقس عليها سائر معارف الانسان الصادرة عن سائر الحواس. واذا علمت ان جميع معارف الانسان مكتسبة حكمت معنا بان افكاره مكتسبة ايضاً وعقله مكتسب كذلك واذا كان العقل مكتسباً كان عرضة للانخداع لعدم تبيينه الاشياء كما هي في كل الاحوال ولاول وهلة

فلا قيمة أداً للحجة التي يستند إليها النظريون بقولهم ان ذلك مطابق للعقل او غير مطابق له الا اذا اتفقت هذه الحجة مع سواها من البراهين الحسية . قلنا واذا تكررت هذا الانخداع على العقل شب عليه ونما حتى يغدو فيه من الغرائز فيصير عنده كل امر مخالف لما تربي عليه خطأ وان كان صحيحاً . وكل خطأ استحكم امره صعب استنصاله لانه لا يقتصر على نفسه ولا يقف عند حده بل يتناول كل شي دونه فيطلب في استنصاله استنصال كل ما تخرج عنه وربما اقتضى نقض بيان الهيئة الاجتماعية نقضاً تاماً ولا يخفى ما دون ذلك من الموانع

على ان كل عصر لا يعدم انساناً متقدين ذكاً نطاول همهم الافلاك وان بعدت وبسبرون بثاقب عقولهم الاسرار وان خفيت . ولو اردنا تعداد مثل هؤلاء الرجال الذين قاموا في كل عصر وكان لهم في تاريخ الانسانية يد بيضاء لضاق بنا المقام فنقتصر على اسماهم عقلاً واوسعهم فضلاً واعلامهم همّة الذين قبلوا بتعاليمهم وجه الهيئة الاجتماعية اذ زجروا الانسان من سماء الخيال وردوه الى ارض الحقيقة غير محترمين تقليداً ولا راهبين وعيداً لا ملاذ لهم الا العلم ولا دين لهم الا الحق ولا غاية لهم الا تخفيف مصائب الانسان وتقليل ويلاته . ياتهاضهم اياه من حضيض الجهل الى سماء العلم

## الفصل الرابع

( في اصل معرفة الانسان )

ان من الازهام التي تقاضت الانسان حياته زماناً طويلاً وكانت اعظم اسباب شقائه ودواعي عنائه اثنين عظيمين وهما اولاً اعتقاده القديم في الارض انها مركز تدور حوله الافلاك وثانياً اعتقاده في نفسه انه من اصل سماوي فاهبطه الخالق من فسيح جناته ( ولماذا ) واسكنه ضيق ارضه وانما خلق له كل شي من منظور وغير منظور . وعلى هذين الاعتقادين نشأ الانسان في الاخلاق والعادات والسياسة . فتقوض هذين الركنين يلزم منه انتقاض البنيان العظيم الذي شاده الانسان عليهما



ولذلك كان انتشار الحقائق المخافة للألوف الناس صعباً جداً فكوبرنيكوس وكبلر  
وغيليلي سخطوا بتعاليمهم الأفلاك البلورية التي اختلقها أوهام الأقدمين وأصلحوا علم  
الهيئة من هذا الخطأ المين وقرروا أن السماوات ليست قبة زرقاء مرفوعة  
فوق الأرض ومرصعة بمسامير من ذهب وأن الجلد ليس فاصلاً يفصل المياه التي  
فوق الجلد عن المياه التي تحت الجلد كما توهم أسلافنا وإنما هي فضاء فيصح تسبح فيه  
الأجرام السماوية ومنها أرضنا هذه المتحركة حول الشمس خلافاً لما كان يظن من أن  
الأرض ثابتة والشمس تدور حولها خدمة لها. وأن العوالم خاضعة في مجراها لسنين  
ثابتة لا معلقة تمسكها يد خفية وتدبرها كما تشاء وبحسب ما لها من الأهواء. ولا يخفى  
عنك ما اقتضى نشر هذا التعليم من العناء وما اعترض في سبيله من الموانع وما أوجب  
على ذويهم من الاضطهاد حتى بلغ ما بلغ اليه من الاقتتار وقيل إن سكن كل نائر  
ضده وقد كل قائم عليه. ولا يخفى عنك ما أوجب أيضاً من الثورة في تاريخ الإنسان  
فشمروا الإنسان عن ساعد الجد وأرسل طرفة إلى الأفلاك يستجليها نواميسها ويستقصيها  
مادتها ومد يده إلى جوف الأرض يستلها كنوزها ويستكشف أسرارها. فأنجلت له  
غوامض الطبيعة وانكشفت له أسرار الكيمياء وعرف المواد والعناصر وما لها من  
الشرائع وما حوته من الخصائص ودان له النبات وذل له الحيوان وانكشفت أسرار  
البيولوجيا وبرزت دقائق البلينتولوجيا فسأل عن أصل الحياة في آثارها

وما الفضل في معرفة أصل الإنسان بأقل من ذلك ومرجع هذا الفضل إلى لامارك  
وداروين اللذين ردّا الإنسان «الهابط من السماء» والذي لا يزال يصور إليها إلى  
مقامه الحقيقي في الطبيعة. ولا انتشر هذا المذهب قامت عليه قيامة أصحاب التقليد  
المحافظين على المقرر وإن كان خطأ الكارهين لكل مستجد وإن كان صواباً. على  
أن سرعة انتشار هذا المذهب مع ما هو عليه من الحداثة تبين منها ما له من القيمة  
الصحيحة والحركة التي أثارها في الخواطر ليس لها مثيل في تاريخ الإنسانية. وقد  
ظهرت مفاعيلها ويتظر منها شيء كثير في المستقبل فإنها لا تقتصر على تقرير هذه  
الحقيقة بل لا بد لها من تغيير الإنسان تغييراً جوهرياً بحيث يتجدد كلياً كأنه وجد

وجوداً جديداً فتنغير اخلاقه وفلسفته وسياسته وشرائعه وحكوماته وغير ذلك مما يتعلق بهيئته الاجتماعية

ولا يسبق الى فهمك على سبيل الجد او المزاح ان هذا التغير تكون نتيجة رجوع الانسان الى الاخلاق الوحشية او كما قالت احدى السيدات الانكليزيات لداروين « ان الساعة التي يتأيد فيها هذا المذهب ينقض ببيان الفضيلة في البشر » كلاً بل بالضد من ذلك بقوى بيان الفضيلة ويستقيم أمرها عما هي اليوم عليه اذ هي اليوم غائبة لا يعملها الانسان الا خوفاً من عقاب أو طمعاً بالثواب وأما تلك فتكون اضطرارية قياسية لاستقامة أحكام العقل بميزان العلم الصحيح ( ولا يوهنك ما جاء في احدى المجلات وقد قسمت الصدق الى أربعة أقسام . منها اثنان صدق بالنظرة وصدق بالخوف من الدين منفصلة هذا الاخير على الاول تفضيل الشرير المخلول الذي لا يقدر على عمل الشر لتقيده على الصالح المطلق الخريقة الذي انما يصنع الصالح لانه تعود ولا أعلم كيف صح في قياسها هذا التفضيل ولعل السبب ما نحن في صدد ) ولا يحق عليك أن مصائب الانسان الكثيرة الالوان منشأها الجهل ولولا الجهل لما رأينا الزارع الذي هو أهم أركان الهيئة الاجتماعية يتصور جوعاً حال كون الملك يكاد ينشق من تخم . ولولا الجهل لما سنّ الناس الشرائع التي بهضم بها الكبير حقوق الصغير ( ولما رأيت بعضهم يعربد علينا كالبعير ) ولما كثر تعامل الناس بعضهم على بعض ولما فشا الكذب في نوع الانسان وظال لسان الربا وقصر لسان الحرقة وزاد الشر في بني البشر فالانسان كالشجرة لا تستقيم اذا نمت عوجاً ولا تعوج اذا نمت مقومة لان صفات الانسان تنمو فيه قوية اذا استقامت بالعلوم الحقيقية والمبادئ الصحيحة ومعوجة اذا تعوجت بالمبادئ الكاذبة . فاذا كانت مبادئ الانسان صحيحة كان صحيح القياس صحيح الحكم والأفان كانت فاسدة كان فاسد القياس فاسد الحكم قضية مسلمة لا يصح فيها خلاف . وكأني بك وقد تأملت صحة هذا القول تنقبض نفسك يأساً اذ تقنط من صلاح الهيئة الاجتماعية لعلك ان الحقائق سلطانها قليل وان السائد انما هو سلطان الاوهام . نعم ان صلاح الهيئة الاجتماعية صلاحاً تاماً عاماً لا يكون الا اذا كان العلم



الصحيح تأمناً عامّاً ولا بد منه يوماً ما إلا أن ذلك الزمان بعيد جداً وربما لزم له  
ميثاق من الاجيال لان ازالة ما رسيخ في العقل من المبادي في الوف من الاجيال  
ليست بالامر السهل على ان ما لا ينال كله لا يترك كله والطفرة في كل شيء محال  
فانتقال الانسان من الجهل التام الى العلم التام يستحيل في نظام هذا الكون دفعة  
واحدة الا على سبيل المعجزات ولا اظنك تجهل مبلغ المعجزات من الحقيقة . فلا بد  
إذا من السير البطيء في ارتقاء درج التكامل . فحال الانسان من ذلك ادباً كحال  
طبيعياً فهو لم يوجد كما هو الآن دفعة واحدة بل اقتضى له ملايين من السنين حتى  
خرج من الحيوانية الى الانسانية وهكذا لا بد له في قطع المسافات البعيدة التي تفصل  
بين احواله الادبية من السير البطيء المتعطل

### ملحق بالباب الاول

كان حضرة المعارض المشار اليه وقد ستر اسمه قد نشر قبل رسالته الثانية  
التي ظهرت في العدد ١١٧٩ من جريدة المحروسة والمردود عليها هنا رسالة اولى في  
العدد ١١٧٥ منها يعترض بها على المذهب المذكور وقد رددنا عليها في العدد ١١٧٨  
من الجريدة المذكورة بمقالة مختصرة وهي هذه

### رد على رد

محصل ما في الرد المنشور في العدد ١١٧٥ من جريدة المحروسة على ما جاء في  
كتاب بختر على مذهب دارون ان حضرة صاحب برافتنا في امور وبخالفنا في امور .  
برافتنا في كون المادة ازلية ابدية وان الموجودات متكونة منها ومنحولة عنها بقوة فيها  
ملازمة غير مفارقة . وهذا ما فذهب اليه ويذهب اليه جمهور الماديين فلا خلاف بيننا  
من هذا القبيل ولذلك فلا حاجة لنا الى اعادة الكلام عليه . وبخالفنا في ان القوة  
اللاية المادة والمنحولة فيها تحولها في الاجسام كافة من جماد ونبات وحيوان هي على

زعمه عاقلة مدركة تعمل في المادة اعمالاً مغيية على نظام مقصود وهذا ما لا توافقه عليه ولا يتحصل من مبداه فانه جعل القوة والمادة اولاً ازلتين ثم جعل القوة متسلطة على المادة . وكيف يصح التوفيق بين القولين لانه في القول الاول جعلها موجودتين معاً وفي القول الثاني فضل القوة على المادة وسلطتها عليها لتصرف فيها كما تشاء ولا يخفى ما في هذا القول من معنى الفاعلية التي فيها معنى السبق ايضاً فتكون القوة في قوله سابقة المادة ولو بالمعنى واذا صح ذلك فكيف يصح ان تكون المادة ازلية كالقوة . اما الماديون فليس عندهم فرق بين القوة والمادة اذ ليس بينهما عندهم فاضل ومفضول وسابق ومسبوق او فاعل ومنفعل فهما بالحقيقة واحد لا ينفصلان . فهو من هذه الحيشة غير متفق مع اصحاب ما وراء الطبيعة وعلماء الاديان لانه جعل القوة الفاعلة والعاقلة محصورة في المادة ولا مع العلماء الماديين لانه مع حصرة القوة في المادة ضمنها معنى السبق عليها ولا مع علماء الكلام لما في كل ذلك من التناقض

واما كون القوة المذكورة ذات ادراك كلي في المادة الاولى البسيطة كادراك الانسان الجزئي في المادة المركبة فهذا يوجب على مبداه ان تكون المادة البسيطة مدركة ايضاً اذ لا يجب ان يكون فرق بين المادة والقوة على ما سلم به من ملازمة الواحدة للآخرى بل يوجب ايضاً ان تكون المادة الاولى ذات خصائص اكمل منها في المواد المركبة . ولا شيء مما نعلمه عن مواد الطبيعة يجوز لنا هذا الوهم . ونحن في بحثنا لانصب ان نتخلى الطبيعة ولا ما ترشدنا اليه ظواهرها . فقبول المادة الاولى البسيطة للتركيب على احوال مختلفة والظهور بظواهر مختلفة لاسباب ربما كانت اختلاف وضع في جواهرها الفردة لا يلزم منه ان تكون فيها صفات سائر انكاثات المتولدة عنها بالفعل وان كانت فيها بالقوة . فالقابلية لا يلزم منها الفاعلية والقوة التي ترجع اليها سائر القوى وهي الحركة على ما اتفق عليه عموم علماء الطبيعة من كل المذاهب وان يكن في امكانها ان تتحول الى جميع القوى الطبيعية كالحرارة والكهربائية والنور وغيرها الا انه لا يسعنا القول انها تيرة بالفعل كالنور وان كان لها ذلك بالقوة كما انه لا يسعنا ان نقول ان



الحرارة كالكهربائية والكهربائية كالنور لا مكان كل منهما ان يتحول الى غيره . ولذلك  
 فلا يسوغ لنا ان نقول ان القوة التي ترجع اليها جميع القوى تدرك كالانسان لانه في  
 امكانها التحول الى ما فيه من الصفات . فجعل المادة والقوة لا القوة وحدها ( خلافاً  
 لما يستفاد من كلام حضرة المعترض ) كلاً عاقلاً يتصرف في الاشياء كما يريد لا نجد  
 في الطبيعة ما يسوغ لنا القول به ولا ينطبق على القياس . فان صكان مراده بقوته  
 المدبرة المتصرفه في الكون السفن التي تجري عليها الطبيعة فلا يكون بيننا خلاف في  
 ذلك الا انها لا تكون عاقلة ومريدة كما يريد هو وماذا تفيدها ارادتها وهي حينئذ  
 لا تفعل مخافة اي انها لا تقدر ان تتهيأ وتخرب وتبني وتهدم وتحرق نظام الكائنات  
 كيف شاءت ومتى شاءت بل تفعل مضطرة على حكم الضرورة . وحينئذ لا يبقى له  
 ما يخالف به الماديين سوى الاسم وهذا لا ينازع احد منهم فيه فليسبها ما شاء وهو لم  
 يتكلف هذه المشقة الا لكي يتذرع بها لالقاء اساس — كما يقول — يوافق اهل  
 الاديان وعلماء الكلام . ولقد احسن السير وليم طمس حيث قال ان الضلال الذي  
 نشأ عن علم الكلام اغرق انساناً اكثر من جهل رباني السفن على ان حضرة المعترض  
 منفرد في ما ذهب اليه ولا نجد بينهم من يوافق عليه وهو مع ذلك لو سلم له لا يكسبه  
 شيئاً فيما نرى لانه يبقى عليه ان يفصل نفس الانسان عن نفس الحيوان وكيف يتأتى  
 له ذلك وقد جعلها من مصدر واحد روحانياً وجسمانياً بل يبقى عليه ان يفصل في  
 الانسان كل نفس عن نفس في هذا الوجود الكلي حتى يجوز له ان يخبرنا على مذهب  
 الاديان بمعاد وجزاء في نعيم وعقاب في جحيم في هذا الوجود المشهود او في غيره .  
 وعلى ما ارى ان هذا المذهب الذي ذهب اليه حضرة المعترض لا يدانيه مذهب في  
 الغرابة على ان الباحث في العلم لغاية غير معرفة الحقيقة لا يؤمن شططه فنحن ليس  
 غرضنا ان نبحث في العلم لنجد فيه ما تؤيد به افكاراً واوهاماً نشأت في الانسان اذ  
 كان في مهده الطفولية وصارت بطمه من جهة وجهله من جهة اخرى حقائق أدخلت  
 في رأسه رغبة او رهبة تارة بالوعد وتارة بالوعيد . وأما غرضنا الوحيد البحث عن  
 الحقيقة نقبلها كما تنجلي لنا على صفحات كتاب الطبيعة لا نصعد الى فوق ولا نهبط

الى اسفل لنبحث عن اشياء موجودة امامنا وواقعة تحت حواسنا  
وقال ايضا انا ذكرنا الحياة ولم نعرفه ما هي والحال ان موافقته لنا في ملازمة القوة  
المادة والمادة للقوة لا تجوز له هذا السؤال وهل ياترى في امكانه ان يعرفنا ما هي  
الحياة على مذهبه او مذاهب اصحاب ما وراء الطبيعة ببيان مشيع اقرب الى العقل  
من بيان الطبيعيين فان علماء الطبيعة لما كان غرضهم في البحث عن اشياء هذا ان يكون  
تقرير خصائصها ومعرفة احوالها لم يكن يهمهم من ذلك كله الا الوقوف على اسباب  
ظاهرة كافية للتعليل عن كل ما يحصل فيها . وقد عرف بالاختبار ان المواد كلها ذات  
خصائص او قوى تتحول فيها وتكون بسيطة في البسيط ومركبة في المركب سموها  
قارة طبيعية وقارة كياوية وقارة حيوية بحسب خواصها في المواد المختلفة لا انها  
قوى مختلفة بعضها عن بعض بالطبع فكذلك بالحقيقة طبيعية . فكما انه في امكان المادة  
الاولى التحول الى مواد كثيرة مختلفة جدا في الصورة كذلك في امكان القوة الاولى  
المتصلة بهذه المادة التحول الى قوى كثيرة مختلفة في الخصائص

اما الماهة الى الغاية والنظام المقصود فنقتض بما في الحيوانات والنباتات من  
الاعضاء الزائدة التي يسمونها اثرية والتي لا فائدة لها وفيما يسمونها حكم الضرورة  
فمثال الاعضاء التي لا فائدة لها الاسنان القواطع في اجنة كثير من الحيوانات المجترة  
فهذه تكون في سمك عظم ما بين الفكين ولا تبرز ابداً ولذلك لا فائدة لها  
فما الغاية من وجودها . والانسان في غنى عن تحريك اذنيه فما الفائدة من  
العضلات المرتبطة بهما وربما اكتسب الانسان بالمزاولة والتمرين القدرة على  
تحريكهما واما فائدتها فظاهرة في بعض الحيوان . ومن هذا القبيل ايضا العيون الاثرية  
التي لا تبصر في بعض الحيوانات التي تقطن الكهوف او تقيم تحت الارض . وفي  
اكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج امامي وزوج خلفي ويكون احد  
هذين الزوجين ضامراً غالباً وفي النادر يكون الاثنان ضامرين كما في الحيات على ان  
بعض الافاعي ( كالبويايتون ) له زائدتان عظمتان في القسم الخلفي لا فائدة لها وانما  
هما اثران لطرفين كلنا موجودين في اجداده . وامثلة ذلك كثيرة جداً في الحيوان



والنبات كما لا يخفى على علماء هذين الفنين . وفي هذا القدر كفاية لفرضنا فلو كانت  
 الغاية موجودة لما وجب ان يكون في هذه الكائنات شيء لا فائدة له وربما كان  
 مضرًا ايضًا . وكما حار علماء طبائع الحيوان والنبات بهذه الاعضاء الاثرية قبل دارون  
 وذهبوا فيها مذاهب شتى حتى ظهر مذهب دارون فقطعت جهيزة قول كل خطيب  
 لان كل عضو لازم تما بالاستعمال وكل عضو لا لزوم له ضم لعدم الاستعمال فعرف  
 ان الاعضاء الاثرية كانت اعضاء نامية في اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم  
 يبق لها لزوم وفي البعض زالت بالكلية فلا دخل للغاية هنا وانما الدخول للضرورة . وما  
 نراه من النظام فهو كذلك ضروري لا مقصود لان التغير الحاصل في جزء من اجزاء  
 هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء على حكم الضرورة كنتيجة لسبب فاذا كانت  
 العوامل موجودة على النظام الذي نراها فيه فلانها هي من الارتباط بعضها مع بعض  
 بحيث لا يمكن ان تكون على خلاف ذلك . فلو تغير نظام احدها لوجب ان يكون  
 التغير شاملاً لعموم النظام . ولذلك لم يكن الكون بعضه بالنسبة الى بعض ولا هو  
 كائن وان يكون الا مستظلاً وان اختلف في الازمنة الثلاثة لارتباطه ببعضه بعض  
 وجريه على سنن شاملة لجميعه وكذلك يقال في الارتقاء فان العالم لا يسير الا متقدماً  
 لضرورة تغلب الانسب في منازعة هذا الوجود كما هو مقرر في مذهب دارون



## الباب الثاني

في ثبوت مذهب دارون وفساد نقيضه

( وفيه ديباجة وسبعة فصول )

### الديباجة

ألا قل لمن عدّ مذهب دارون وسائوس واجتهاد أصحابه دسائس فحمل عليه يريد طعنه بأسنة إيمانه وذبحه بقواطع برهانه . ورو يدك انك لقد استسهلت الصعب وما الصعب بهيّن . ألا راعاك بعد الثقة . أم لم تدبر ما أوجبت على نفسك من المشقة . أم كيف ساع لك طعن تلميذ دارون وقد بحث فيه السنين الطوال ونقض ما شُيّد عليه وهو أرسى من الجبال أم بأي قوة نسفت نسفاً وتركته قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا امناً . بل كيف ساع لك هدم أبحاث علماء الأرض بالطول والعرض ألك فلتنتها شذرات أفكار فدفعتها بشذرات أفكار لم تكلفك البحث إلاّ سواد الليل وياض النهار ثم قلت انك مُشبعنا ولم تطعمنا إلاّ ضاهساً ومروينا ولم تسقنا إلاّ قارساً . دع عنك هذه الوسائوس فما كانت الحقائق لتطرس بترهات البائس

ذكر بعض ادباء اللغة مذهب دارون في النشوء والارتقاء وقضى عليه بما معناه انه مذهب باطل بالأدلة العقلية والطبيعية . قال بعد تعريفه له ما نصّه « ان ركن النشوء والارتقاء عند دارون — الانتخاب الطبيعي — وهو فرض بلا اثبات ورأي من صور الوهم . اهـ . » ثم حصر اعتراضاته عليه في ثلاثة

أولاً أنكر الارتقاء بدليل أن كثيراً من الاحياء لم يظهر فيه شيء من علامات التدرج . ثانياً أنكر الصور المتوسطة اللازمة في مذهب التسلسل . ثالثاً طول الزمان اللازم للانتقال من أدنى صور الحياة الى أرفعها بالنشوء والارتقاء المنقوض بالابحاث الجيولوجية كما قال وهي أهم اعتراضات خصوم هذا المذهب



وفي كل ذلك من النظر ما يحتمل بحثاً طويلاً ربما ضاق عنه الكلام ان لم ينشأ  
صدر المقام فنجزي بذكر شيء من كليات هذا المذهب دفعا للاعتراضات المذكورة  
ومن تبقى عنده أدنى ريب نرده الى مطولات القوم . ونحن الآن لا نطعم بالفوز  
في طريق كهذا كثير العقبات وانما نقول كما قال الامام الغزالي « ولو لم يكن في ذلك  
الا ما يشككك في اعتقادك المبروث لكفى به نقعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر  
لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العسى والحيرة » . اهـ

## الفصل الاول

( في تغير الانواع )

نقول لقد كان الاعتقاد سابقا ان الانواع خلقٌ خصوصي كل نوع مخلوق وحده  
الا ان الطبيعيين رأوا في الاحياء اشياء كثيرة لا تتفق مع هذا القول بل ولا قابلية كل  
فرد بل كل نوع للتغير تبعا لنواميس حيوية حقيقية لا فرضية كتغير الجماد تبعا  
لنواميس طبيعية . ثانيا وجود أعضاء كثيرة لا فائدة لها في الحال ولا تفهم غايتها الا  
انها كانت في الماضي أو ربما صارت في المستقبل ذات فائدة في أحوال أخرى . ثالثا  
وحدة الناموس الرابط للاحياء بعضها ببعض وهذا كله يجب أن لا يكون في مذهب  
الانواع الذي يقتضي أن تكون ثابتة وان كل نوع منها يتضمن فيه وفي جرنومه كل  
الأعضاء اللازمة له لا أكثر ولا أقل . فقام في ذهن بعض المحققين انه ربما كانت  
الاحياء كلها من مصدر واحد متكونا بعضها من بعض متحولا بعضها عن بعض كما  
تكون أصناف الحجارة في عالم الجماد

وأول من قال هذا القول وأسده الى بعض مستندات علمية لامرئ الفرنسي .  
الا أن قوله هذا صادق وقطيد من التقاليد ونقصان الابحاث العلمية موانع حجة حالت  
دونه ودون انتشاره فتوبل بالأعراض شئت كل أمر لم تستعد له القول ولبث

مطويًا في زوايا الاهمال حتى قام دارون في هذا العصر وأخرجه الى عالم البحث والنظر . وقد عزّزه بأن بسطه بسطًا كافيًا وشرحه شرحًا وافيًا مستندًا فيه الى اكتشافات العلماء المتفرقة وكانت قد كثرت فصادف هذه المرة أرضًا معدة وعقولًا مستعدة فثبت ونما وتعالى وطأ حتى كادت أبحاث العلماء تقتصر عليه ولا تنظر الا اليه ولا تقول انه لم يتم له خصوم فخصومه كثيرون فبعضهم خاف منه على اعتقاد موروث وهم أصحاب التقاليد . فشرعوا الاسنة وأطلقوا الاعنة ونادوا الجهاد الجهاد في سبيل الحقيقة والهدى لانه كما لا يخفى عليك كل واحد يدعي الحقيقة له وهي واحدة والناس منقسمون فصاروا يقومون ويقعدون ويحارون ويزأرون ويكفرون ويعطلون وهم يخطئون مرة ويصوبون أخرى حتى وهنت منهم القوى فتحصن عقلاؤهم وراء حصن الحياة وأعتلهم وراء حصن الخلق الكلي تحت نظام كلي وسنن كلية وتركوا الطبيعة تدبر أمرها بأذن بارئها . وقد أثبتوا بذلك حكمة الخلق أكثر من سواهم من فرقهم اذ أثبتوا وحدة الخلق في الطبيعة أو كادوا واتفقوا مع الواقع أو كادوا وبعضهم وهم فرقة من العلماء رأوا ما رأوا وعلموا ما علموا ولكنهم حاروا بين المتقول المتأصل والمتقول المنحصل . وبعضهم وهم فرقة من العلماء أيضًا رأوا ذلك وعلموه جيدًا الا أنهم نصبوا فيه فطليبا أن يروا بالعيان انسانًا منشقًا من حيوان وربما كان السبب الاكبر لعدم انضمامهم اليه رفعة مقامهم في عالم العلم . والعين قالوا لا تحب نظيرها فكان ذلك فيهم مصداقًا لما في مذهب دارون ألا وهو تنازع البقاء

## الفصل الثاني

( في تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي )

ان مذهب دارون بسيط جدًا ويقدر كل انسان أن يدركه اذا نظر الى الاشياء كما تعرض له وتأملها بعين العقل التي لا يشوبها كدورة سبق الاقناع . وأنا فعجب من اولئك الذين يشقون حجب الغيب بقوة عقولهم ويدركون ما وراءها من



الاسرار كيف انهم لا يتدرون على ادراك ما هو امامهم وواقع تحت حواسهم كما هو حقيقة. والغريب انهم يومياً في زرع النبات ونزيرة المواشي يحرون على قواعد هذا المذهب عملياً واذا سألهم عنها نظرياً أنكروها. وذلك دليل من أقوى الأدلة على ما سبق الاقناع من السطوة وما للعقل من القابليات المختلفة الخاضعة لاحكام الحياة من مثل التغذية والوراثة. فمن يجهل يا ترى اختلاف أفراد النبات والحيوان وهل يستطيع احد زارعا بسيطاً كان ام عالماً ان ينكر ان من هذا الاختلاف ما هو صالح لبعض الاحوال وغير صالح للبعض الآخر. او ينعكس ما للغذاء والاحوال الاخرى الطبيعية من اليد القوية في احداث هذا الاختلاف تبعاً لناموس (المطابقة) وما للوراثة من القوة في نقل صفات هذا الاختلاف في النسل وكيف ان هذه الصفات تقوى اذا ناسبها الاحوال وتضعف اذا لم تناسبها. لا لعمرى فالزارع كالعالم يعرف ان البذار الجيدة أي انتبهة ببعض الصفات لمناسبتها لبعض الاحوال احسن من البذار الرديئة التي ليس لها ذلك فيفضلها عليها. ويعرف كذلك ان الارض الجيدة انسب من الارض الرديئة فيفضلها عليها او يعني بها فيقدم لها المواد اللازمة لصلاحها ويقتلع منها كل الاعشاب لعلها بما يحصل بينها وبين مرزوعه من التنازع على الغذاء والمكان وما يلحق بمرزوعه من الضعف بسبب هذا التنازع فيمهد له الارض حتى تنصرف كل قواه الى التغذية والنمو. ويعرف كذلك ان المواشي الحسنة للنظر والصحيحة البدن والشديدة انسب من سواها مما ليس فيه هذه الامتيازات فيعني بتربيتها وتوليدها فهل رأيت امراً يريد شراء دابة ولا يلقبها ظهراً وبطناً وما غايته بذلك سوى قية ما يعتبره انسب له. ثم اذا اقتناها ألا يستني بذاتها ومسكنها وما شاكل مفضلاً مبدلاً. وماذا هذا التفضيل والتبديل لولا معرفته بما لذلك من التأثير في تغيير صفاتها في الشكل والقدر والحسن والقوة الخ. واذا اراد استبدالها ألا ينتخب لها الاحسن من نوعها ولم ذلك لولا يقينه بما لعمل التوليد من القوة على نقل الصفات المختلفة حسنة كانت أم قبيحة. فالزارع البسيط لا يجهل مثل هذه الامور بل هو من أشد الناس اعتباراً لها وكل طبيعي عارف بالفسيولوجية يعلم أن التغذية كالوراثة من قوى الحياة

## الحقيقة المثبتة لا الفرضية

واذا تقرر ذلك فاسمح لنا أن ننظر الى نتيجة. فالاختلاف الذي ينشأ عن (المطابقة) أي عن انفعال القوة الغذائية بالاحوال الخارجية الطبيعية وان كان قليلاً يجعل في الاحياء قابليات وجودية مختلفة فيطلب الضعيف القوت فينازعه القوي عليه. واذا كان القوت قليلاً يهلك الضعيف. أو اذا اشتد البرد أو قل الماء فلا يثبت إلا ما كان أقوى على تحمل البرد واصلح لتناول الرطوبات من الهواء ولا يخفى عليك ان عدد البيوض أو الجراثيم التي تولدها الاحياء والتي يقدر كل منها ان يولد حيّاً اذا وافقته الظروف هو أكثر كثيراً من عدد الاحياء المتولدة حقيقة فالعدد الأكبر من هذه الجراثيم يهلك في اوائل حياتها ولا يسلم إلا القليل المميز ببعض صفات تسهل له قطع هذا الطور من الحياة الكثير الاخطار كما يتضح لك من مقابلة عدد بيوض كل نوع بعدد الاحياء فيه أو من مقابلة عدد الاحياء الكثيرة الجراثيم أو البيض بنيرها من التليل الجراثيم فلا نجد نسبة بينهما. فلن عددًا كبيراً من الحيوانات النقرية القليلة الوجود بيوضاً كثيرة حال كون غيرها من النقرية أكثر منها وجوداً مع انه لا يبيض إلا بيوضاً قليلة. وكما في الحيوان كذلك في النبات أيضاً فان كثيراً من الطائفة الثعلبية يلد الوفاء من الجراثيم وهو مع ذلك قليل جداً حال كون بعض المشبعة من الطائفة المركبة كثيراً جداً مع ان بزوره قليلة فعدد الاشخاص التي نحيا لا يتوقف ضرورة على عدد الجراثيم بل على احوال مختلفة غالباً على نسبة متبادلة بين الحي والاشياء التي من خارج. فما كان من الاحياء انسب من غيره سلم وبالعكس وقس على ذلك سائر الاحياء مع سائر الاحوال الطبيعية الحيوية. فهذا ما يسمى في مذهب التحول (تنازع البقاء) فهل يشك الآن في ان تنازع البقاء حقيقة وجودية كحقيقة الاختلاف ثم اذا سلمت بهذا التنازع بين الاحياء وجب عليك ضرورة ان تسلم ببقاء البعض وفناء البعض للاسباب المار ذكرها. وهذا ما يراد (بالانتخاب) ويسمى (طبيعياً) اذا كانت بين الاشياء التي من خارج وبين الاحياء أو بينها بعضها مع بعض (وصناعياً) اذا كان بواسطة الانسان كما في الزراعة وتربية المواشي كما مر. فالانتخاب



الطبيعي ليس فرضاً بدون اثبات أو رأياً من صور الوهم كما قدمت وكما يدعي خصوم دارون لأن دارون كما رأيت لا يقول في تحول الاحياء بأسباب طبيعية مجهولة حتى يكون الانتخاب فرضاً بل يجعله نتيجة لازمة لأعمال حيوية معروفة كالمطابقة التي هي نتيجة التغذية والاختلاف الذي هو نتيجة المطابقة والتنازع الذي هو نتيجة الاختلاف . فالانتخاب الطبيعي نتيجة لازمة للتنازع ولا يصح في قياس عاقل أن يجعل الانتخاب الطبيعي بعد ذلك فرضاً ولا سيما اذا كان عنده أقل المام بمبادئ الفسيولوجية

وربما سلم خصوم دارون بالاختلافات المذكورة ولكنهم لم يسلّموا بصبرورتها جوهرية بحيث تكون عنها الانواع فقالوا ان الاختلافات لا تتناول إلا الاعراض فقط . فنقول لهم انه لا يلزم لاثبات مذهب الانتقال غير التسليم بحصول الاختلاف لاختلاف الاحوال . فالاختلاف الذي يكون بين الاحياء يجعل الاولاد تختلف فيما بينها وتختلف عن الاصل المتولدة منه . ويتنازع ابقاء الانتخاب الطبيعي يهلك بعض الاولاد ويبقى البعض الآخر . فهذا الباقي مختلف عن أصله كما رأيت ومختلف فيما بينه ولا يخفى ان في البيولوجية ناموساً معلوماً كثيراً الاعتبار جداً هو ناموس ( الوراثة ) فهذا الباقي المختلف والتميز ببعض صفات مناسبة لاحوال المكان والزمان تنقل صفاته المتميز بها في بذارته أو نسله وتوضح أكثر وتكيف بكميات أخرى تختلف عنها في الاصل . وقيل مثل ذلك أيضاً عن بذارة هذا الباقي وهكذا عن بذارة بذارته وانظر الى ذلك بتلكسكوب الزمان في الوف الاجيال . بل ربواتها ثم قل لي اذا كان يمكن بعد ذلك ان تبقى الابناء كالآباء وان لم تستطع فاهس لي في أذني فاني أقبل عفرك فليس جميع الناس سواء في التصريح عن آرائهم وأكثرهم على ما وصف الامام القرآني في بعض كتبه حيث قال « ان الآراء ثلاثة أقسام : رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد ورأي يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطالع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده اهـ . »

قال ابن خلدون متكلماً في التاريخ « وأهل الملك والسلاطان اذا استولوا على الدولة فلا بد وأن يفرغوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا ينفقوا عوائد جيلهم

مع ذلك . فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم وبرزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء . وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي الى المباشرة بالجملة « اهـ » وهذا القول اذا أطلق على أثر الطبيعة وأطوارها في الاحياء لم يلزم أن يضاف اليه شيء لتعليل المباشرة في مذهب داروين

قلنا واذا لم يمكن بعد قطع هذه المسافات الطويلة أن تبقى الابناء كالأبائهم فلا يصير الاختلاف بعيداً جداً واذا بعد أفلا يصير جوهرياً ( لا نفس ربات الاجيال ) أولاً تكون نتيجة تكون النباتات والانواع وما شاكل . مثال ذلك لو نمت نباتات مختلفة في أرض يابسة لاقتضى أن تتنازع أولاً مع اليوسفة ونانياً بعضها مع بعض . ولما كان الوبر المدقيق الذي يكسو الورق يفيد لامتناع الرطوبة من الهواء كان من الضروري أن يفوز في هذا التنارع ما كان هذا الوبر في ورقه كثيراً ويهلك ما سواه ثم يتولى هذا الوبر في الجيل الثاني بالورانة والانتخاب والتنازع ويتبرز جيلاً عن جيل حتى يتكون منه نوع جديد . ثم ان نتائج الاختلاف لا تقتصر على عضو واحد بل تمتد الى سائر الاعضاء فيحصل عن زيادتهم وبر الورق نقصان في سائر أعضاء أخرى كالزهرة مثلاً لا تصرف جزء من غذائه في نمو الاوراق فيكون لتنازع البقاء نتيجة أخرى غير الانتخاب الطبيعي وهي « التحويل » أيضاً . وهذا كل ما يلزم لتحويل الاحياء وتكون الانواع فكان الاولى بهؤلاء الخصوم الحريصين على الموروث أن يقصروا تشبثهم على مبدأ الحياة لا على فعلها في تحويل الانواع لان الاتفاق على الحياة — أقوة طبيعية هي أم قوة فائقة الطبيعة — ربما كان أبعد من الاتفاق على تحويل الاحياء ولا يخفى انه كلما بعد الاتفاق كان ذلك أنسب لهم





## الفصل الثالث

( مسائل على الخصم مشاكل )

وان بقي عندك ريب فقل لي

أولاً لماذا هذا الاختلاف في الاحياء باختلاف جنس المعيشة والاقليم وما شاكل  
ان لم يكن فيها ميل الى التفسير بحسب الاحوال الخارجية ولماذا نفس هذا الميل الى  
التفسير ان لم يكن هو أصله ناشئاً عن مثل هذه الاحوال

ثانياً لماذا هذا التنازع بين الاحياء ان لم يكن هذا الاختلاف يكسبها قابليات  
وجودية مختلفة بعضها اصح من بعض في بعض الاحوال وغير صالح في البعض الآخر  
ثالثاً ان لم يكن الانتخاب الطبيعي نتيجة لازمة للتنازع فلماذا كان هذا النوع  
مثلاً لا يقوى على الثبات في مكان ويقوى عليه في مكان آخر أو لماذا كان بعض  
الانواع يضعف وربما تلاشى امام البعض الآخر

رابعاً ان لم يكن للوراثة الطبيعية يد قوية في نقل الصفات فلماذا كانت الصفات  
الطبيعية والادوية العارضة كالعيوب والالوان والامراض والامبال العقلية وسائر الصفات  
المسماة أدوية تنتقل في النسل واذا توفرت لها الاسباب الطبيعية كجنس المعيشة  
والاقليم والتوليد فلماذا كانت تنحصر في النسل وتصبح لازمة ضرورية أي جوهرية

قال ابقراط في كتاب الالهوية والمياه والبلدان « اني أفضى النظر عن الامم التي  
تختلف قليلاً فيما بينها واقتصر على ذكر الاختلافات العظيمة الناشئة اما من الطبيعة واما  
من العادة واذا ذكر أولاً جبل الميكروسفال ( ذا الرأس المتطاول ) فان هذا الجبل لا يوجد  
جبل يشبهه في تكوين الرأس ... وفي الاصل كانت العادة سبباً لطوله وأما الآن فقد  
صار للطبيعة يد في ذلك واصل هذه العادة انهم يعتبرون طول الرأس من علامات  
النباة ... واول ما يولد الطفل اذ تكون اعضاؤه مسترخية ورأسه ليناً يضعفون الرأس  
بين اليدين حتى يتطاول ويشدونه بربط وآلات مناسبة يفقد بها شكله الكروي

وتزيد في طولهم . . . وهذا التكوين نشأ في الاصل عن العادة ثم صار مع الزمان طبيعياً لا حاجة فيه الى العادة . فان المني يأتي من كل اجزاء البدن صحيحاً من الاجزاء الصحيحة وغير صحيح من الاجزاء غير الصحيحة . فاذا كان الآباء الصلح يلدون اولاداً صلحاً وذوو العيون الزرق يلدون اولاداً بعيون زرق مثلهم والحول حولاً نظيرهم الخ . فما المانع ان اناساً طوال الرؤوس يلدون اولاداً طوال الرؤوس نظيرهم . . . واما اليوم فانقرض هذا الجيل لان العادة قد ضاعت بمخالطة الشعوب الاخر له » اهـ

خامساً لماذا كانت الاعضاء والصفات تضعف وربما تلاشت بالاعمال والتروك وتنمو وتقوى بالاستعمال والتمرين ان لم يكن للعادة تأثير ظاهر . ولولم يكن للعادة مفعول لما اقتضى ان يكون شيء من ذلك كاهراً . اذكر اني من ثلاث سنوات شاهدت رجلاً المانياً اقطع الذراعين خلسة من عند قرب مفصل الكتف وسائر جسده تام جداً وكان طويلاً ضخماً فكان يستعمل رجله لقضاء جميع حاجاته كاستعمال امير الناس ليديه وبأكل بالسكين والشوكة برجليه وهو جالس على المائدة ورافعها عليها حتى كان يتعذر على من يجوله ان يعرف انها رجلاه ورأيتُه يلعب بهما على ( المندولينا ) وهي آلة كالتانجون عندنا واصغر منه بما يطرب القلوب ويذهل العقول . وفتح بهما زجاجة بيرا بالآلة المعروفة ولعب بالورق مع احد الحضور باللعبة المعروفة ( بالاكركته ) فكان يخلط الورق برجليه وهو رافعها على مائدة اللعب خلطاً يعجز عنه مهرة اللاعبين وزد على ذلك انه كان يجمعه بصناعة غريبة حتى انه غلب خصمه مع كونه من سرك الماهرين بهذا الفن وقد اطلق برجليه ريفولفراً واصاب الهدف بالرصاص وعند تأملي اصابع رجله وجدت ان الابهام اكتسب بالعادة قوة الانقباض الى سائر الاصابع كالابهام اليد والاصبع الثاني بعد الابهام اكتسب طولاً يكاد يبلغ طول السبابة ولا ريب ان هذا الرجل اذا ولد اولاداً بلا يدين مثله وولد اولاده مثلهم على بضعة اجيال تحول الرجل فيهم بالوراثة والمطابقة بدءاً بكل صفاتها . لان التغير الذي حصل في رجله كآرائنا مهم جداً والزمان الذي تم فيه ذلك ليس شيئاً بالنسبة الى الاجيال الطويلة لتاريخ الحياة فانه لا يكاد يحسب معها طريقة عين



سادساً كم هي الأنواع وهل جمهور الطبيعيين متفق على عددها وإذا كان غير متفق فلماذا هذا الخلاف . وهل من فاصل يفصل النوع عن التباين فصلاً تاماً وإذا كان هذا الفاصل لا يوجد فما سبب هذا الارتباط ان لم يكن تكون الأنواع من التباينات والتباينات من الافراد

سابعاً واخيراً . لو كانت الأنواع نتيجة خلق خصوصي لما اقتضى ان يكون فيها شيء من الاعضاء المسماة اترية او لم يكن من الواجب ان كل نوع يتضمن فيه وفي جرثومته كل الاعضاء اللازمة له لا اكثر ولا اقل . والأخيراً ( معنى الخلق على هذه الصورة وابن الحكمة وما هي الغاية وهل يمكن تعليل هذه الاعضاء تعليلاً يرضي العالم ويقنع العاقل بغير مذهب دارون أليست رابطاً يربط الصور بعضها ببعض وبما تقدمها من الاجداد البالية التي تقادمت عليها العصور وتقلبت عليها الدهور . أيجتاج بعد ذلك الى دليل على كون الحي متصلاً ببعضه ببعض بسلسلة اتصالات وان خفيت في البعض لاسباب طبيعية معلومة الأتما ظاهرة في البعض الآخر بما يصح معه القياس ويتأيد به البرهان او ياترى لا يجوز للطبيعيين القياس على الاختبار ويجب لسوام بدون ذلك ام هل يعد مثل هذه المعلومات افتراضات واهاميل واضاليل وغيرها مما لا يستند الى شيء من العلوم الطبيعية بحسب حقائق ام لعل اعظم الحقائق ما يبنى على الاوهام كما يقول الفارياق في كتاب الساق على الساق

## الفصل الرابع

( في الانسان وسائر الحيوان )

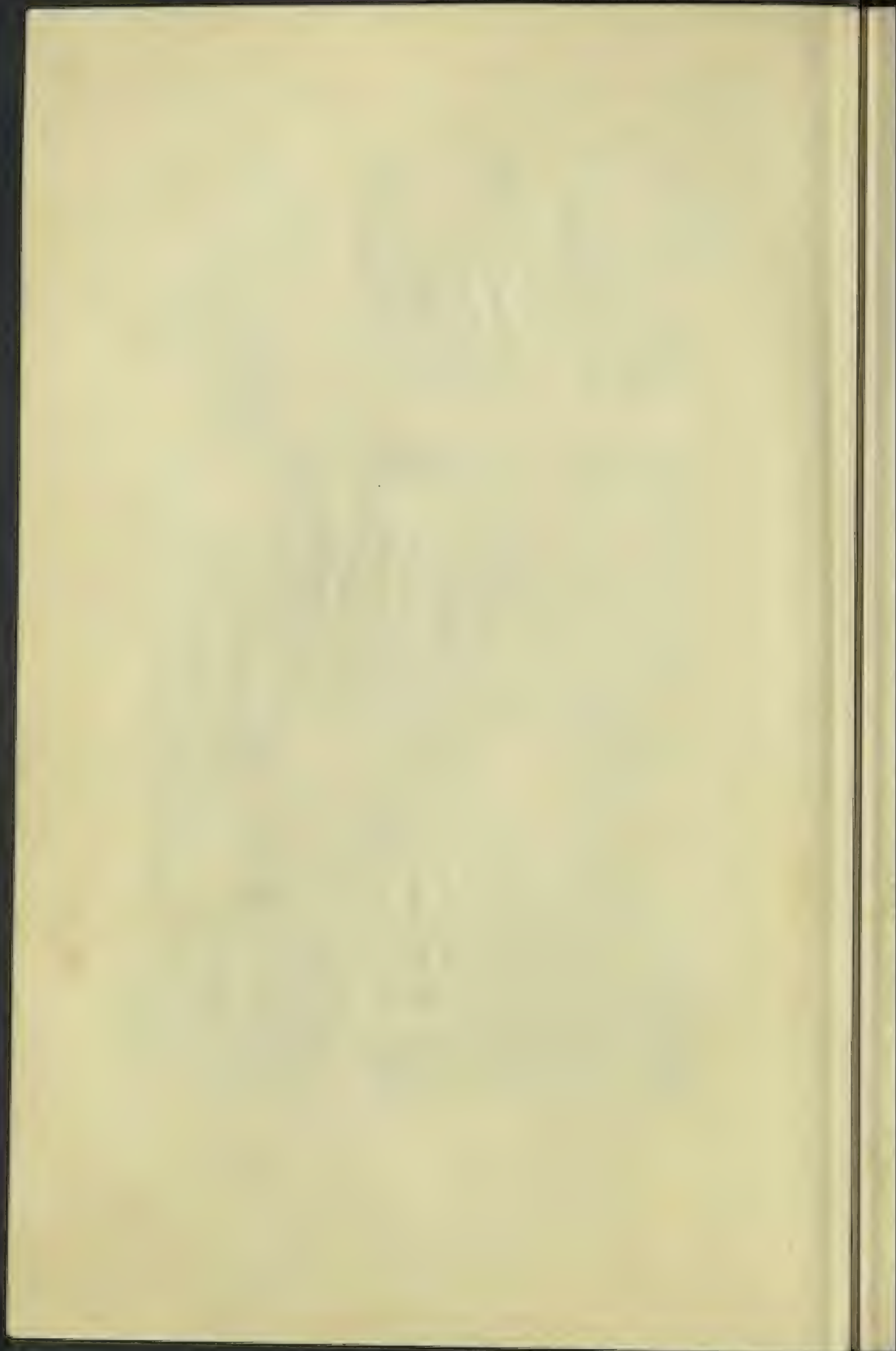
ان الانسان كالحیوان متكون على نفس النوايس التي تكون بموجبه عالم الاحياء والاوتروبولوجيون بعد تشرح اعضائه ومراقبة قواه العاقلة ومقابلتها بالحيوانات الاخر الاقرب اليه لم يروا بدا من اثبات حيوانيته اي اثبات الاصل الحيواني له . وقد اجتهد خصوم التسلسل كثيراً لكي يقيموا بينه وبين الحيوان فاصلاً تشريحياً

يجعله نوعاً قائماً بنفسه لا صلة بينه وبين القرد فلم ينجحوا . واقرى حججهم ان الانسان له عضلة طويلة خصوصية قابضة الابهام متميزة عن سائر القوابض والقرد ليس له ذلك . فقالوا ان بناء الابهام العضلي كاف وحده لجعل الانسان منفصلاً عن الحيوان الا ان هذه الدعوى باطلة فقد جاء في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٨٨٤ ما نصه « لقد بالغوا كثيراً بالتسمية التي يمدونها لهذه الصفة . ويصح لنا ان نرد على ذلك كما رد عليه كارل فوخت ودلي بقولنا ان هذه الصفة وان صحت لا تفيد سوى وصف يصح على التباين فقط لولا ان لنا ادلة تشريحية تكفيها مؤونة هذا القول » ثم بسطت ذلك بكلام تؤثره عنها قالت :

« ان اصابع الانسان تنقبض بواسطة عضلتين منفصلتين الواحدة عن الاخرى احدهما قابضة مشتركة تنشأ من الوجه المقدم للزند ومن النصف الانسي للرباط بين العظمين وتنتهي في سلاميات الاصابع الاربع الاخيرة . والثانية قابضة خصوصية للابهام تنشأ من النصف الوحشي للرباط بين العظمين ومن السطح المقدم للكعبرة وتندغم بسلاحي الابهام الظفرية . فهذا الوضع يجعل حركات الابهام مستقلة فلا يشترك بحركة الاصابع كما في بعض القردة ولا ينقبض اضطراراً لا تقباض السبابة كما في بعض القردة الشبيهة بالانسان كالكوريل والشبانزي »

« فخصوم مذهب النشوء يسألونك دائماً ان تريمهم في القرد اوضاعاً تشريحية خاصة بالانسان على ان احتجاجهم هذا فاسد كالاحتجاج من ينكر ان الفرس آت من الهيبوريون فيطلب اليك ان تريمه هيباريوناً ذا ظلف واحد كحافر الفرس . على ان الهيباريون الوحيد الظلف لا يكون حقيقة الهيباريون نفسه وانما يكون الفرس او الاصل المشتق منه وهكذا القرد ذو القابضة الابهامية المستقلة لا يكون القرد بل الاصل المرئى عنه الانسان . ولكن لو رأوا فرساً ذا ثلاثة اظلف ( وهذه الحالة التفهيرية كثيرة ) لما أمكن فهم ذلك فيه الا بناموس الاتافيسم ( اي الترجمة كما اصطالحنا عليه في كتاب بخنروبراد بها ظهور صفات في النسل غير موجودة في آباءه القرية ولا توجد الا في اجداده البعيدة ولا حاجة الى القول بان هذا الناموس ثبت القرى )









فلما اذا كان مثل ذلك يوجد في الانسان »

قالت « وفي القروء الشبيهة بالانسان ترى الخزمة العضلية للابهام تنفصل عن جسم العضلة القابضة الفائرة للاصابع اكثر فاكثر كلما ارتفعت في سلم هذه القروء كما انك ترى في الانسان في حالات شاذة العضلة القابضة الخاصة بالابهام تختلط بسائر القوابض. وهذا الاختلاط يكون على درجات مختلفة وقد ذكره كثير من المؤلفين فلا سبيل للريب فيه وقد ذكر ثوانه راءه في عشرين حالة وفي ثلاث منها كان تاماً وقد ذكر ولشم حالة من هذا القبيل وكذلك رأى كل من جرور و جستاف وججنور وشذرلشي مرة واحدة امتزاج العضلتين القابضتين الفاضتين امتزاجاً تاماً مع فقد وتر الابهام كما في الاوران اوتان »

أفلا تكفي هذه الشواهد لان نقنعنا بأن استقلال العضلة القابضة للابهام في الانسان نتيجة الارتقاء والاستعمال. ولنا دليل آخر على صحة هذا الرأي في الفروع البشرية السفلى كالسود حيث هذه العضلة ليست مستقلة كما في الفروع المرتقية وعليه فالهاوية التي ارادوا ان يقيموها بين الانسان وسائر البرمات لا حقيقة لها

ولا يخفى ما بين أيدي الحيوانات الالبونة من اختلاف الشكل في الظاهر واما في الباطن فهي متكونة على قياس واحد ومتفقة في عدد العظام التي تكونها وفي وضعها كذلك كما يظهر لك من النظر الى الاشكال التسعة والسابقة هي صور الهيكل العظمي لا يدي الحيوانات الالبونة التسعة. وليس العجب انك ترى هذه المشابهة بين يد الانسان (ش ١) وانكوريل (ش ٢) والاوران (ش ٣) لكن العجب انك تراها كذلك بين يد الانسان والكلب (ش ٤) وزعنفة الفقمة (ش ٥) والدلفين الصدرية (ش ٦) حتى جناح الخفاش (ش ٧) ويد الخلد الشبيهة بالمعول (ش ٨) والطرف المقدم لاول هذه الحيوانات وهو الارنيشورنكوس (ش ٩) ايضاً. فبم يعلل هذا الاتفاق في عدد العظام ووضعها وارتباطها العضلي مع هذا الاختلاف في شكلها الظاهر الاً باشتراك اصلها واطروراة والمطابقة فيها. واعجب من ذلك كله ان هذا الاتفاق محفوظ ايضاً في سائر ذوات الفقر التي هي ادنى من الحيوانات الالبونة كما في اجنحة الطيور والامطراف

المقدمة للحشرات والنصف مائة مما يدل على ان اصل الجميع واحد ايضا  
 فهل مثل هذا القول « هلج يضحك الاذكياء ويكي العقلاء بل البلداء » لا  
 لعمرى ولكن هي غايات معدودة في النفس وأميال موروثة في العقل ان لأن الواحد  
 لم يكن الآخر فبضحك خصوم مذهب دارون أو فليكوا ما استطاعوا وليسخروا به ما  
 شاءوا انه ليبلغ به البحث مبلغاً ينقلب له وقته سكية قصير الخطوف مألوفاً والوميض  
 شهاباً ساطعاً ويعلم انه هو الحق الذي لا حجة فيه . وهل يسخر بالعلم وأفراد رجاله  
 احتراماً لأمور لم تؤيدها الا الاكثريّة المؤلفة غالباً من عامة الناس . وان كانوا  
 يضحكون الآن من دارون ومن هذا حذوه فقد ضحكوا من قبله على كبلر وغليلي  
 ونيوتون وغيرهم من أكابر العلماء . وان كان لا يزال بعض العلماء الاعلام الذين يصعب  
 عليهم في شيخوختهم تغيير ما نشأوا عليه وشابوا فيه غير موافقين لدارون في مذهبه فقد  
 خطأ نيوتون وغليلي وكبلر علماء كثيرون من معاصريهم ومناظريهم وثبوتهم في مبادئهم  
 من أهوى الآلة على صحة مذهب دارون بل تغييرهم لمبادئهم ربما انتقض به ركن  
 عظيم من أركانهم اذ يضاف مفعول العادة والوراثه وتنازع البقاء وكلها ذات شأن  
 عظيم فيه

## الفصل الخامس

( في الارتقاء )

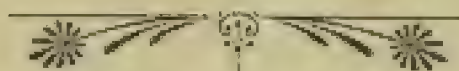
تقول والارتقاء في مذهب داروين امر مقرر أخذاً بشهادة البالينولوجيين  
 والطبيين المعول عليهم وهو نتيجة لازمة للانتخاب الطبيعي . والخصم لم ينكره الا بناء  
 « على أن من الاحياء ما لم يظهر فيه شيء من علامات التدرج في سلم الارتقاء فبقاياها  
 منذ ألوف ودرجات من السنين لا تختلف عنها اليوم » وهو انكار اصم لا يصح لاعتبار  
 الجرح في مقام الكل ونحن نزيد على قوله ذلك ان من الاحياء ما يتقهقر ايضا لكن



نقول له ان انكاره الارتقاء عمومًا لعدم ارتقاء البعض كإنكارنا الاسماء المتعنة من الصرف  
 لانصراف البعض في بعض الاحيان فهل يمنع صرف البعض امتناع صرف الكل. كذلك  
 وقوف بعض الاحياء او تفهتها لا يمنع الارتقاء عمومًا. وان قال لنا ان صرف ما لا  
 ينصرف جائز للضرورة قلنا له ان تفهتها يرتقي انما يكون للضرورة ايضًا والألما كان  
 لفظة الانتخاب الطبيعي معنى في تنازع البقاء فان المناسبة في التنازع ليست واحدة في  
 كل الاحوال لان التكوين الموافق في بعض الاحيان قد لا يوافق في البعض الآخر  
 فيقتد مثال ذلك لو تعودت احياء حياتها مستقلة ان تعيش على غيرها كالحميات لا عاد  
 بها لزوم لحواشها الحادة وأعصابها الشديدة وحركاتها القوية فتفقدتها بل قد يكون الكمال  
 قصصًا. فان مثل هذه الاحياء تكون فيها اعضاءها المذكورة في حياتها الحلية سببًا  
 لضعفها لا قضاؤها غذاء لا حاجة بها اليه بدونها وفقد هذه الاعضاء يحسب فيها والحالة  
 هذه امتيازًا في تنازع البقاء مع الحميات المختلفة اذ يتوفر لها هذا الغذاء فتستخدمه  
 لاعضاءها الاخرى. لان الاحتياجات في مثل هذه الحال كلما قلت زاد امتياز اصحابها  
 فتقوى وترتقي وغيرها مما هو دونها يضعف ويتأخر. وما يقال على الجسم يقال ايضًا  
 على كل عضو من اعضائه. وثلا يادرنما بما ربما يحصل له عن ذلك من الارتباك  
 ويزيد في الطيور نعمة تقول له ان الارتقاء نوعان خاص وعام ولا يجب الخلط بينهما.  
 فالخاص قد يكون قصصًا للزوم مناسبته لاحوال خصوصية كما في مثال الحميات المار  
 ذكره واما العام فارتقاء مطرد للزوم مناسبته لسائر الاحوال ونتيجة ذلك كله  
 الارتقاء عمومًا ولا ينكره الا من يجمل مبادي التاريخ الطبيعي ولا يدري حقيقة مذهب  
 دارون او يعلم ولا يريد ان يعلم او يدري ولا يريد ان يدري. فقول اصحاب مذهب  
 دارون ان الارتقاء غالب لا مطرد انما يعني به ارتقاء الافراد والا فالارتقاء مطرد  
 وما استشهد به من كلام بخترتوهم منه او تصرف في المعاني والا فهذا كلام بختر في  
 ذلك قال « فالتقوى الى الكمال بصاحب الفرد غالبًا لا دائمًا » فارة القوم ليست كما ادعى  
 مجموع فروض وتصورات واهام — وبلايت شعري بما ذا يجيب لو وقف موقف  
 المطالب بالبيئة عن حقيقة دعواه

والطبيعة بذلك لا تفعل لغاية كما توهم حيث قال في بعض كلامه ما معناه : ان  
 الماديين يثبتون القصد للطبيعة وينفونهُ عن سواها . فما هذا الخط وهل يبلغ التواء الفهم  
 هذا المبلغ في من نصب نفسه في مقام المعارض . فالماديون بل الطبيعيون اجمع لا  
 يثبتون للطبيعة قصدا ولا غاية وانما يثبتون لها امحالا لازمة ضرورية لنواميس معلومة .  
 والارتقاء لا يخرج عن هذا الحكم فانه لما كان التنازع يحصل لوجود الاختلاف في  
 قابليات الاحياء المتنوعة والاحوال الخارجية كان لا بد من الانتخاب الطبيعي اي بقاء  
 البعض وزوال البعض . ونتيجة ذلك في كل الافهام بقاء الانسب ونتيجة النتيجة  
 الارتقاء عموماً . ولو كانت الطبيعة تفعل لقصد او لو كان القصد موجوداً في اعمالها لما  
 اقتضى ان يحصل فيها شيء من الوقوف او التثبوت ولوجب ان يشمل الارتقاء كل  
 متولداتها . فسيرها المعرج من اقوى الادلة على نفي القصد فيها من كل نوع وثبات  
 الضرورة . أحتاج بعد ذلك الى دليل على كون الارتقاء امرأ طبيعياً واجباً ضرورياً  
 لا قصد فيه ولا غاية

وهنا ملاحظة لا يحسن الانغناء عنها وهي متحصلة من اقراره في انكاره الارتقاء  
 بأن الاحياء قديمة جداً أي منذ آلاف ودرجات من السنين عملاً بشهادة الجيولوجيين  
 والبايولوجيين الذين استند اليهم فانكاره الارتقاء لم يثبت وانما ثبت عليه التسليم بأن  
 الاحياء اقدم جداً مما يعتقد هو والمذهب المتصور هو له اللهم الا ان يعود بكر ثانية  
 على هؤلاء العلماء كرتة على اصحاب مذهب دارون ويطعن تعاليمهم وتعاليم سائر علماء  
 الارض باشعة ايمانهم ويزججها بقواطع برهانه فلا حول ولا قوة الا بالله





## الفصل السادس

( في الادلة على الارتقاء والتسلل )

ادلة الارتقاء كثيرة جداً نذكر منها تقسيم الاعمال في الاحياء فكما ارتقى الحي  
تقسمت الاعمال وتميزت الاعضاء القائمة بها وهو واضح . فتقليل عدد الاعضاء المتماثلة  
بعد ارتقاء . قابل الحيوانات المفصلة الدنيئة ذات الارجل الكثيرة بانواع الزبابة التي  
لها ثمانية ارجل وبانواع الذباب التي لها ست . وقلة عدد الارجل في الحلقية ارتقاء  
وكثرة عدد الفقرات المتماثلة في الاسماك والنصف مائة تأخر ولذلك فهي دون الطيور  
وذوات الثدي . وعلى هذا الناموس الازهار الكثيرة العُسوب انقص من الازهار  
الشبيهة بها والتي عسيها قليلة وبالجمله كلما نقصت الاعضاء المتماثلة في الحي عد  
ذلك فيه ارتقاء

ومن الادلة ايضاً الحالة الخشوية فان هذه الحالة تكثر كلما هبطت في دركات سلم  
الاحياء وتقل كلما ارتفعت في درجاته حتى يستقل الذكر والانثى كل منهما في فرد  
وحده . قال مكس وير في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٨٨٤ م.  
نصه « وما ينبغي اعتباره ان الحالة الخشوية الكثيرة في الاسماك تقل كلما ارتفعت في  
سلم ذوات الفقر اذ يتضح تميز الجنس اكثر فاكثر . على ان بعض النصف مائة  
كالملجوم الذي هو بالحقيقة خنثى فان فيه عدة غير صغيرة امام الخصية هي بالحقيقة  
مبيض وبيوضه صحيحة التكوين لكنها لا تلقح ولا تبلغ درجة النضج » قلنا وهذا  
دليل من الوف على سبب الاعضاء الاثرية وعلى الانتقال والارتقاء

ولعل من يتوهم ان الارتقاء سلسلة متصلة الحلقات متصلة من الجداد الى الثبات  
ومنه الى الحيوان على خط مستقيم — كما يريد خصوم مذهب دارون ان يفهموه —  
يعترض علينا فيقول ان الحالة الخشوية لو كانت دليلاً على الارتقاء لما اقتضى ان تكون

في الحيوان او لوجب ان لا يكون سواها في النبات . فنقول له ان ذلك دليل على عدم فهمه لمذهب دارون فذهب دارون لا يعلم هذا التعليم وانما يعلم ان الاحياء كلها من اصل واحد ومن اصول واحدة كالأغصان للشجرة كما شبهها دارون نفسه فكل منها يسير في جهة ولا تتصل الأغصان بعضها ببعض الا بالاصل فقط فلا ينشأ بعضها من بعض رأساً . فنمو البعض غير متوقف على نمو البعض الآخر التاماً باعتبار كونه ناشئاً منه رأساً . ولذلك قد يكون في البعض المرتقي كل حالات تكوينية ناقصة عن البعض الأدنى منه كلياً وبالعكس كما ان بعض الحالات الكالية في البعض لا توافق الآخر فتقل ويكثر ما سواها واما من حيث النوعية والجنسية والكالية فالأكل دائماً ارفع وفي النظر الى مذهب دارون يجب اعتبار احوال كثيرة مهمة مختلطة جداً تفوق حد الحصر كيف كل شيء بحسب الزمان والمكان وما شا كل فالتفضية الواحدة التي توجب شيئاً تحت احوال معلومة ينشأ عنها شيء آخر تحت احوال اخرى وهكذا تنوع الاشياء الى ما لا حدة له خلافاً لما يتوهمه البعض من ان الطبيعة تفعل ببساطة كالية ولا يخفى نتيجة كل ذلك في البعض واما في الكل فالنتيجة واحدة وفي بقاء الانسب وارتقاء الكل

والارتقاء تؤيده الابحاث الباثولوجية خلافاً لما قال من انها تنقضه<sup>(١)</sup> ومن العجيب ان تدرج رتب الحيوان في طبقات الارض قد اثبتت اغاسيز نفسه مع انه من الد اعداء مذهب التسلل وهو من اكابر علماء الطبيعة الذين يقولون بخلق الانواع فمن المقرر ان اقدم احافير ذوات الفقر المعروفة هي من ادنى رتبة الاسماك وبعدها النصف مائية وهي اكمل ثم الطيور وذوات الثدي وهي اكمل الجميع . واول احافير ذوات الثدي من رتبة ذوات الثدي العديمة المشيمة وما كان من هذه الرتبة انقص جاء اولاً ثم تبعه ما كان اكمل وهلم جرّاً ولم ينشأ الاصل الذي خرج منه الانسان الا في اواخر الطور الثلاثي الارض

(١) قال البريث جودري استاذ الباثولوجيا في موزيوم التاريخ الطبيعي بباريس ( اننا نقول ماذا كان قبل الطور الكمبري ولكن تاريخ الاحياء من هذا الطور الى اليوم يدل على الارتقاء )



وهكذا في النبات فقد تكون منه أولاً أنواع الفطر ثم السراخس ثم ذوات  
الزهور أو البادية أعضاء التناسل وأولاً المتعريّة البرزور منها ثم البادية أعضاء التناسل  
المنطاة البرزور وأولاً العذبة التويجات منها ذات الغلاف الواحد ثم التويحية ذات  
الغلافين وأولاً الكثيرة البتلات منها ثم الملتصقة البتلات وهذا الترتيب دليل قاطع  
على الارتقاء

وهكذا يقال أيضاً عن تاريخ الانسان المتقدم دائماً في سبيل تقسيم الاعمال  
والتدرج في سلم الارتقاء. ومن ينكر ارتقاء الانسان في التاريخ يلزمه أن يقيم اليقة على  
أن العصور الماضية كان فيها ما يعادل عصرنا فإنه لا يستطيع احد أن يقول ان التاريخ  
في طوره أن يذكر عصرًا من العصور الحالية بلغ فيه الانسان درجة تعادل درجته  
اليوم من الارتقاء في العلوم والمعارف. ولا يتوهم انه بلغ الغاية في الكمال والنهاية في  
الحسن ولكن كل شيء نسبي فالقرن التاسع عشر لا يفاخره قرن ما بعد المسيح ولا  
قبله من التاريخ المعروف. على انه لا يقتضي أن يكون الفرق كبيراً اذ لا يخفى عليك  
ان المدة التي تفصل بين أطوار تاريخه تكاد لا تحسب لحظة بالنسبة لتاريخ العالم  
العضوي وتقهقر بعض الامم ووقوف البعض لا يتخذ حجة علينا لانكار الارتقاء فيها  
مردود عليها بما قيل من تقهقر بعض الاحياء ووقوفها اذ لا يكون ذلك الا مع  
ارتقاء المرتقي عنه وهذا باعتبار الكل بحسب ارتقاء

## الفصل السابع

( في دفع اعتراضات على مذهب الارتقاء والتسلسل )

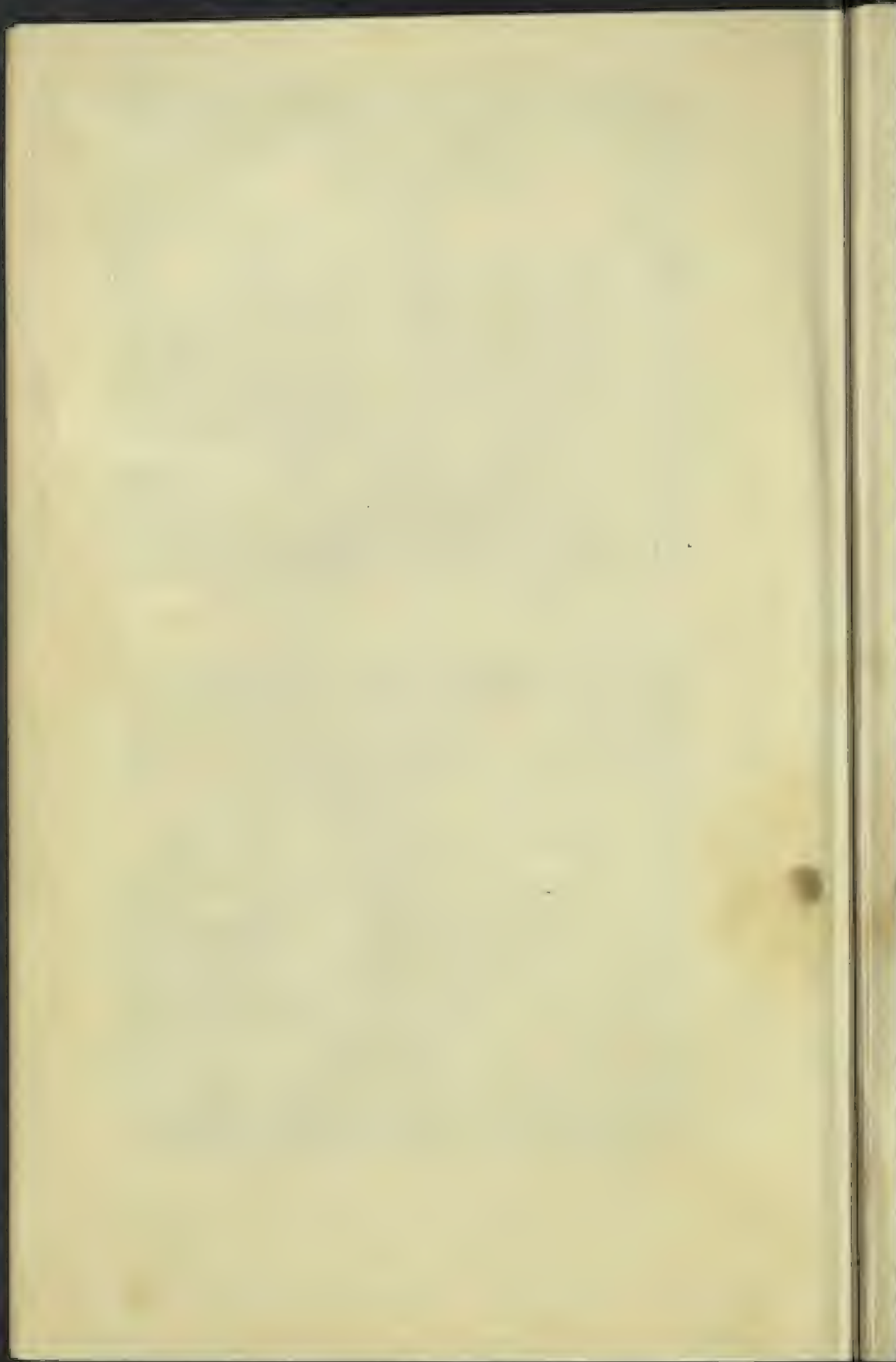
أما اعتراض فقدان الصور المتوسطة التي يقتضيها مذهب التسلسل فاما أن يراد  
به الصور الحية أو احافيرها. فإن كان الاول قلنا له ان الصور المذكورة موجودة بكثرة  
والذين يعترضون هذا الاعتراض وهم اصحاب الانواع كثيراً ما يقفون محذورين بين

نوع ونوع ولا ينكرون الصعوبات التي تعترضهم في ترتيب الانواع ولذلك هم غير متفقين على عددها . فقد عد بعضهم الجنس الهيراسيوم الكثير جداً في اوربا ٣٠٠ نوع في المانيا وحدها وأما فرييس فجعلها ١٠٦ ولوك ٥٢ نوعاً صحيحاً فقط . والاختلاف بينهم كثير كذلك على عدد انواع علق الجبل فقد عددها بعضهم ١٠٠ نوع وغيره نصف ذلك وغيره أقل . وجعل بختين طيور المانيا ٣٦٧ نوعاً وريخباخ ٣٧٩ ومابرولف ٤٠٦ وبرم رفع عددها الى ٩٠٠ فلماذا هذا الاختلاف بين الطبيعيين على عدد الانواع ان لم يكن لكثرة الصور المتوسطة التي تجعل الفصل بينها صعباً

وإذا خفيت الصور المتوسطة بين كثير من الانواع فلا تخفى أسباب ذلك على الناقد البصير . فمن المعلوم ان تنازع البقاء يكون أشد كلما زاد تقارب الصور بعضها الى بعض . ونتيجة شدة هذا التنازع سرعة انقراض الصور المتوسطة فان نوعاً واحداً اذا ولد تباينات مختلفة فالتنازع بينه وبين تبايناته يكون أشد في الأقرب اليه منها وأضعف في الأبعد عنه . ونتيجة ذلك بقاء الصور المتباعدة وفقدان الصور المتوسطة . ولذلك لم يكن صور متوسطة بين الصفوف التي هي في حالة الانقراض او الوقوف كالنعام والفيل والزرافة وعديدات القواطع والارثورنكس . فانها لا تولد تباينات جديدة ولذلك تؤلف انواعاً مستقلة بخلاف طوائف الحيوان التي في حالة النمو فانها تعمل الى عدة انواع جديدة بالتباينات التي تنشأ منها ولذلك يوجد صور متوسطة كثيرة يحار فيها المرتبون ككثير من المجترات والقرود الصحيحة وقرود امركا ذات الاذنان الماسكة واكثر القواضم وغيرها بحيث ان الحد بين الانواع فيها وهمي لا حقيقي

وان كان الثاني أي ان كان المراد به فقدان الصور المتوسطة الانحورية فهو ايضاً غير صحيح لانه يوجد صور انحورية متوسطة كثيرة وكل يوم تكشف صور جديدة كالاركيوترنكس الذي يصل بين الزحافات والطيور كما يئسن ذلك هكسلي والهياريون الذي يصل بين الفرس والانخيريوم المشتق هو نفسه من الباليوترنوم كما يئسن ذلك جودري (البرت) في كتابه تسلسل عالم الحيوان في الاطوار الجيولوجية . وكذلك يئسن ولدمار كوالسكي وحدة اصل الخنزير والمجترات وقد عرف كوفيه ان





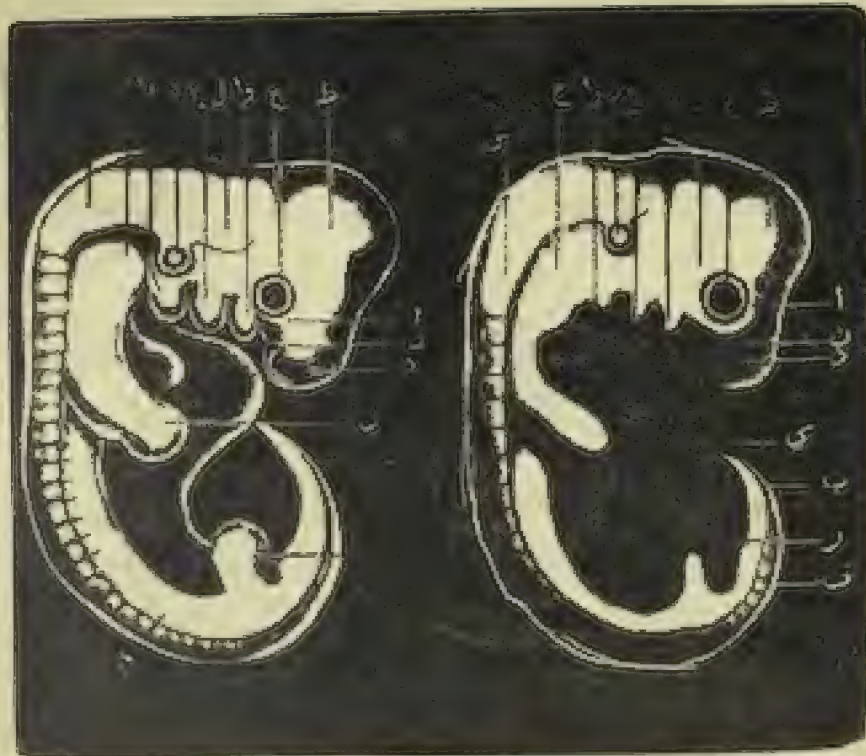


جنين الدجاج في اليوم الرابع      جنين السلحفاة في الاسبوع الرابع



جنين الدجاج في اليوم الثامن      جنين السلحفاة في الاسبوع السادس

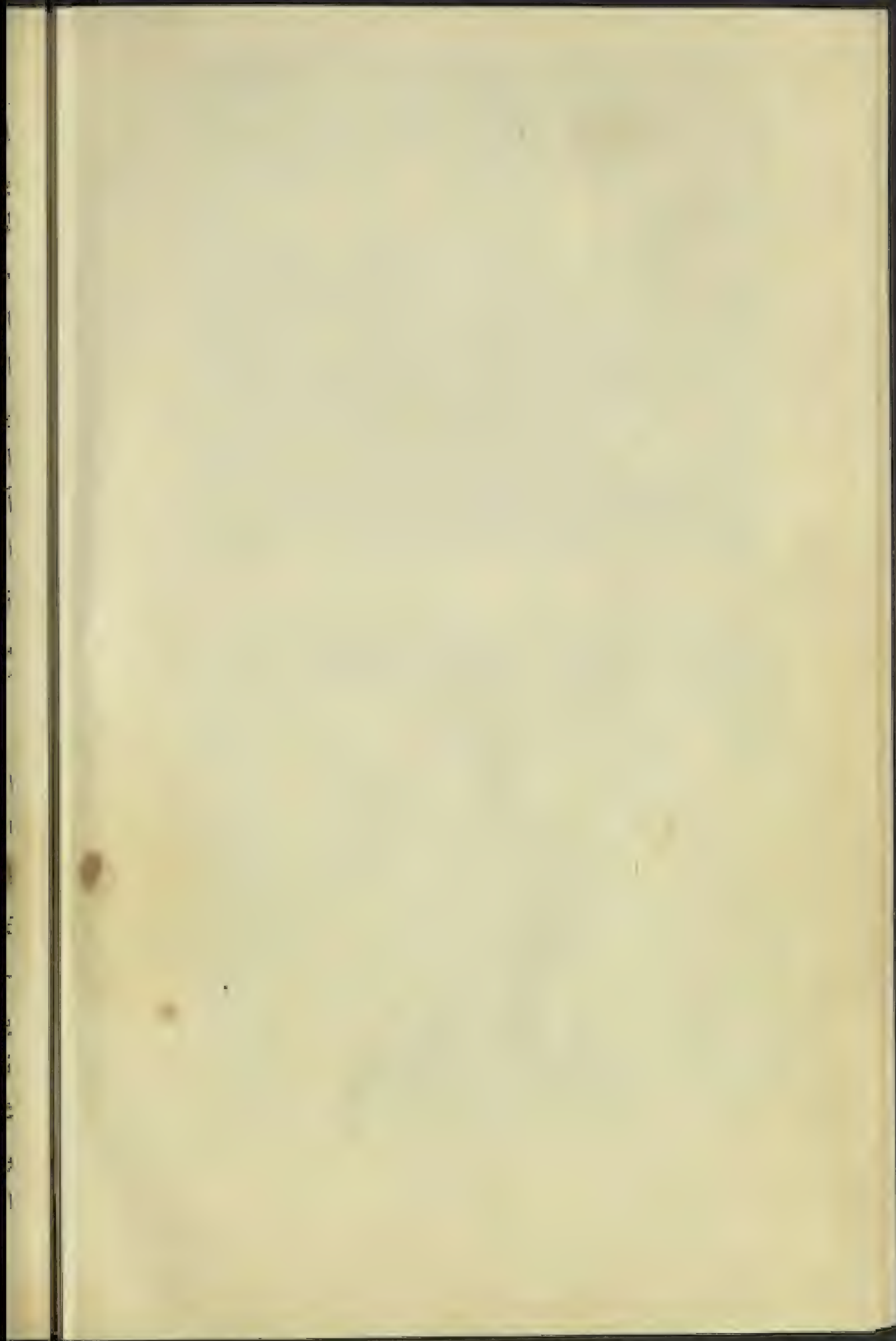




جنين الكلب في الاسبوع الرابع      جنين الانسان في الاسبوع الرابع



جنين الكلب في الاسبوع السادس      جنين الانسان في الاسبوع الثامن





الباليوثيريوم يشبه الطائر (حيوان اميريكاني شبيه بالخنزير) باطرافه ويختلف عنه باضراسه ويقترب من الكركدن باضراسه ويختلف عنه بقواطمه والانوبلوثيريوم لا يشبه شيئاً مما يوجد اليوم. وكثيرين مرتين الذي اكتشفه حديثاً الموسيو كريني في طبقات البليوسن لجافا والذي ذكرته جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ١٦ آب من هذه السنة فانه يصل بين التين الملوي لطبقة الميوسان والتين الحشن الموجود اليوم في تلك البلاد وغير ذلك كثير. نعم ان المكتشف من الصور الاحفورية المتوسطة ليس شيئاً بالنسبة الى كثرة الاحياء على ان كثرة المكتشف وقلة لا تفيدان سوى كثرة الادلة او قلتها وانما المفيد وجود مثل ذلك ولو مرة حتى يعلم انه موجود واذا اعتبرنا الموانع الكثيرة التي تحول دون الابحاث الباليولوجية كبعد الزمان وصعوبة التمكن وعوامل الدمار وقلة المعلوم لنا من الارض نجد ان هذا القليل المعروف من الاحافير مع ما فعله من الصور المتوسطة في الاحياء اليوم كما تقدم كاف لان يقتنع كل عاقل بصحة مذهب الانتقال ومن يرى ذلك كله ولا يقتنع بذلك لانه لا يريد ان يقتنع لا لسبب آخر. فقل الآن من افكار انصار هذا المذهب او خصومه

ومن ادلة اتصال الاحياء وارتقاها تكوين الجنين فلا يخفى ان كل جنين صادر اولاً من بيضة او بذرة لا يختلف بناؤها الجوهرية ولا يختلف بعضها عن بعض الا في اللحم والشكل فقط وهذه البيضة اشبه بالخلية في تكوينها وتنمو نظيرها بالانقسام. ثم ان اجنة الحيوانات اذ تنشأ من هذه البيضة تكون متشابهة. وفي الاطوار الاول يصعب تمييز اجنة ذوات الثدي من اجنة الطيور وسائر اجنة الحيوانات الفترية. قال فون باير حفظت جنينين صغيرين في الكحول ونسيت ان اكتب اسم كل واحد عليه واليوم يتعذر علي ان اعرف من أي صف هما أمن صف القواضم أم الطيور أم ذوات الثدي نعم ان اطرافها لم تكن قد تكونت وهب انها كانت فوجودها في اول تكوينها لا يفيد شيئاً لان اطراف القواضم وذوات الثدي واجنحة الطيور وارجلها متشابهة حينئذ ولا تختلف الا بعد ذلك كما ترى من مقابلة صور الاشكال السابقة وهي صور جنين الانسان والكلب والدجاجة والسلحفاة في اطوار مختلفة ومعلوم ايضاً ان الاجنة تمر في

زمن تكونها قبل ان تبلغ كمال نوعها على اطوار تحاكي الصفوف التي مرت بها انواعها في سلم ارتقاها. فحين الانسان قبل ان يكمل بمرطاطوار موافقة لصفوف كوفيه الاربعة وبين انتقال كل جنين والصفوف التي مرت بها نوعه نسبة شديدة بحيث تطول اقامته على مشابهة صف كما كان نوعه اقرب الى ذلك الصف وهذا من اقوى الادلة على صحة مذهب التسلسل كما لا يخفى

وأسخط الاعتراضات ما تعلق منها بالزمان فمن المقرر في مذهب دارون كما في مذهب ليل ان الزمان المقتضي للارتقاء وتكوين طبقات الارض طويل جداً الا أنه غير متفق على تحديده وربما كان تحديده ممتعاً بالوسائط التي لنا لان اقل خطأ يقع في اعتبار اقل شيء تكون نتيجته مع الزمان الطويل كبيرة جداً ربما بلغت الملايين من السنين فقوله « ان بلوغ الانواع الحية الى طورها حسب مبادئ الارتقاء المديوني يقتضي ان الاحياء كانت على الارض قبل ان تصلح الارض للحياة » غير سديد لان تحديد السير وليم طمس لعمر الارض وتحديد المستر ميفار لعمر الحياة لا يفيدان سوى قضية واحدة وهي طول الزمان ولا يفيدان سواها وهو كل ما يلزم في مذهب النشوء. وأما كون تحديد ميفار يلزم منه ان تتقدم الحياة على تكوين الارض حسب تحديد طمس فغير نظر قال دارون « ان صح مذهبي فلا بد ان الزمان الذي مضى قبل تكون الطبقات الكبرية السفلى والذي نهجه كان طويلاً جداً وربما اطول منه بينها وبين اليوم ولا بد ان كانت الاحياء في هذا العهد كثيرة كذلك . الا أنه يعترضنا هنا اعتراض صعب فان السير وليم طمس يزعم ان يمس قشرة الارض لا يمكن ان يكون قد تم في اقل من عشرين مليون سنة ولا اكثر من اربعائة مليون سنة وانه يقتضي ان يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتي مليون سنة وهذا الزمان كما ترى غير كاف لبلوغ الحياة الى اطوارها اليوم بالنشوء والارتقاء » وهذا ما دعا السير وليم طمس الى القول بان الحياة انما نشأت على الارض من جراثيم انتها محمولة على رجم الاجرام السماوية لما فرضه من عمر الارض كما تقدم ولما علم من وجود مثل هذه الجراثيم الحية في هذه الحجارة المنقضة فقول طمس بها كما ترى ليس تخيلاً حتى



يرى بقولك « انه طار في مركبة الخيال » وهو تعليل طبيعي في الفرع والاصل الا ان دارون في ملاحظته على تحديد طمس يقول ايضاً « على ان الفرق العظيم بين هذه الحدود يدلنا كم هي الادلة ضعيفة » الى ان يقول ايضاً « وقد يمكن كما اشار اليه السير طمس قصداً ان الارض كانت في اطوارها الاول معرضة في احوال الطبيعة لتغيرات اسرع وأشد مما هي الآن فحصلت تغيرات اسرع كذلك في الاحياء التي كانت تقطن سطحها في هذه الازمان البعيدة » اهـ

والحق يقال ان مذهب الانتقال وان كان يعمل به اشياء كثيرة لا تفهم بدونه لكن لا ينكر انه ناقص كما بسطه دارون . قال بربر في كتابه — طوائف الحيوان — المطبوع بباريز سنة ١٨٨١ « ان الاسباب الاولى التي احدثت الاختلافات الشخصية والتي لا بد من ان كانت كثيرة جداً لا تزال مجهولة ويلزم تعيينها وتعيين سبب العقر في الناتج من تصالب الانواع وكذلك المسافات التي يلزم قطعها من التفاعلات حتى الانسان شائعة جداً » لكنه يقول ايضاً « ان تلك مسائل يلزم اكتشافها ولا يصح ان تكون اعتراضات على مذهب التسلسل واي مذهب كباوي او طبيعي لا اعتراض عليه . »

ولا يخفى ان المشهور عن الناتج من تصالب الانواع كالبغل انه عقيم لكن يظهر ان هذا العقم ليس مطلقاً واذا اعتبر ذلك تضمف القيمة التي تبنى عليه من حيث فصل الانواع . ذكر ماتياس دوفال في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٢٦ ك ٢ سنة ١٨٨٤ ان « سنسون ذكر حوادث كثيرة ثابتة فيها حملت البغلة من الحصان وقال ايضاً انه من بضع سنين كان في بستان المايجنات بباريس بغلة مع اولادها الثلاثة اثنان مولدان منها ومن حصان جزيري والثالث من حمار مصري قال وكذلك ذكر بوفون ان كلباً وطى في ٢٨ اذار سنة ١٧٧٣ ذبابة لاجد الامراء المسعى سيوتين بوفون فوضعت الذبابة في ٦ حزيران من السنة عينها اربعة اجراء اتى واحدة وثلاثة ذكور وقد حملت الاتى المذكورة من احد الذكور في كانون اول سنة ١٧٧٥ ووضعت في ٢١ اذار سنة ١٧٧٦ اربعة اجرية ذكرين واثنين . واعنتى بوفون بتربية زوج منها فحملت الاتى

من الذكر في كانون الاول سنة ١٧٧٨ ووضعت في آذار سنة ١٧٧٩ سبعة اجرية  
تتبعها . وامثلة ذلك كثيرة وهذا يقوينا على تصديق ما ذكره الدميري في حياة  
الحيوان الكبير قال في وصف البغل « وهو لا يولد له لكن في تاريخ ابن البطريق  
في حوادث سنة اربع واربعين واربعمائة ان بغلة بنابلس ولدت في بطن حجرة سوداء  
وبغلاً ايضاً قال وهذا اعجب ما سمع انتهى » ولعل الاحياء الاولى كان عقيمها  
اكثر من متبعها لاسباب لا نعلمها ثم انفصلت النتيجة بالانتخاب الطبيعي وغلب فيها  
ذلك بالوراثة فتكاثر الانواع وهو ظاهر

### خاتمة

( في ان مذهب دارون لا ينقض ايمان المؤمنين )

لقد ضيق خصوم هذا المذهب المذاهب على انفسهم بتعاملهم عليه من اجل الايمان  
وهذا ليس من الحكمة في شيء ولا سيما ان هذا المذهب اخذ بالامتداد يوماً فيوماً وكرما  
لا يمر ربع جيل حتى يخلو له الجو من كل معارض . على ان مجال الايمان اوسع من  
ان يضيق بمذهب النشوء كما اشرت الى ذلك في رسالة وضعتها في الاخلاق بحسب  
مذهب دارون وارسلتها الى المقتطف في ١٢ مارس سنة ١٨٨٣ لنشر فيه ولما نشر  
وكان ذلك على الخلاف الذي حصل في المدرسة الكلية وانتهى بفصل بعض  
اساتذتها بسبب مذهب دارون في الظاهر واما في الباطن فقل ان السبب كان غير  
ذلك او كان كما قال لي بعضهم « ليست رمانة ولكن قلوب ملائكة » . وقد قصدت  
فيها وقتئذ التوفيق بين هذا المذهب والدين حسناً لهذا الخلاف الذي لم تكن نتيجته  
لتحمد . وقلت من كلام في ختامها ما نصه : —

« وهذا المذهب قد هاج الخواطر ضده في نفس انكناز وطن دارون وقد اورد  
دارون كلام امرأة ساءها مذهبه في مقابلة اخلاق الانسان باخلاق النحل قالت « ان



الساعة التي يتأيد فيها هذا المذهب ينتقض ببيان الفضيلة في البشر « فاجابها دارون بقوله » من الواجب ان نرجو ان لا يكون دوام الفضيلة على هذه الارض قائماً على قواعد واحدة بهذا المقدار « على ان هذا الخوف في غير محله ولا يشف كلام دارون عنه لانه ان صح ان اصلنا يعود الى ذوات الايدي الاربع التي كانت تقطن غابات العالم القديم فلا خوف علينا ان نرجع نعرش على الاشجار ولا ينقص قدرنا عما نحن الآن اناس بين الملائكة والحيوان اقرب الى الملائكة تارة واقرب الى الحيوان اخرى كذلك ايضاً اذا صح ان الضمير نولد في الانسان كما يقول دارون فلا خوف علينا ان نرجع الى الضحايا البشرية والى اكل بعضنا بعضاً وقتل اولادنا »

« على ان مذهب دارون قد جعل في ضائر كثيرين خوفاً آخر حقيقياً وهو نفسه قلق منه قبل غيرهم ألا هو الخوف على خلود النفس وعلى كل الافكار الروحانية التي هي رجاء الانسان وعزائمه . لكنهم في خطأ من شدة خوفهم فانهم كانوا سابقاً يقولون بخلق خصوصي لكل نوع والانسان خاصة وهو قول لا يمكن تأييده فهم بمس جانب الله اذا يسن العلم الذي لا ينطبق هذا القول عليه ان الانواع ومنها الانسان قد تكونت بفعل التواميس الطبيعية الواحدة أليس في التعليل عن العالم بتواميس الخاصة زيادة عظيمة للقوة التي سنت هذه التواميس . ما ذا يدع مجد الله اكثر أفلك الاقدمين الدور الذي هو سقف مرصع بمسامير من ذهب لم العوالم التي لا تحصى الخاضعة لتاموس الجاذبية العام »

« ألا اننا قد تعودنا ان تصور الله يصنع الانسان كما يصنع الناحات النمل بحيث ان كل شي يفقد اذا ناقض العلم هذا الفكر الخفي . وانها لدعوى غريبة ان نعارض العلم بفكر تصوراتنا في حال جهلنا فكان يلزم ان لا نذهل عن ان الله اذا كان قريباً من قلبنا فهو بعيد جداً عن عقلنا »

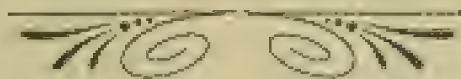
« واذا كان في الامكان ان ينتقل من الحيوان الى الانسان بسلسلة انتقالات غير محسوسة فهل يلزم من ذلك أن تكون حالتنا حالة المذباب والنمل واذا لم يلزم ذلك ففي اي زمن من هذه السلسلة تظهر النفس فدارون يقول — لا اعلم لكن هل سألت نفسك

في أي زمن تدخل النفس الإنسان في زمن الحبل أم بعد ثمانية أيام أم بعد شهرين .  
وإذا كان هذا السر لا يزعم أيمانك في ما خص الفرد فلماذا تخاف منه في النوع .  
انتهى فمثل هذا القول خير وأبقى

وقد شعر بعض المذاهب بذلك فاستدركه واستعد له فقد جاء في كتاب اللاهوت  
للدكتور جيمس انيس الأميركاني في فصل النشوء بواسطة عناية الله ما نصه « ولا يخفى  
أن جمهوراً من أفاضل العلماء المسيحيين مستعدون لقبول مذهب النشوء على هذه  
الصورة متى أثبتت بأدلة أقطع وأوضح مما لنا . إلى أن يقول وعلماء الطبيعة الذين يأبون  
الكفر يرومون النظر إلى الطبيعة بموجب مذهب النشوء على هذه الصورة لما فيه من  
تسهيل فهم أمور كثيرة لا يوضح أسرار الخليفة »

وهذا يدل على مبلغ هذا المذهب من عقول أهل العصر حتى أعدائه . والفضل  
ما شهدت به الأعداء . ولعله يقول أنه استدرك ذلك في آخر ما كتب اقتداءً بمثل  
هؤلاء الأفاضل فنقول له أن استدراكه ذلك لا يوازي ضحكه وبكائه وهراءه به  
في أولها كما في صفحة ٦ حيث قال « وما ذلك إلا هليج تبكي أوائله العقلاء وتضحك  
أواخره الأذكاء والبلداء بل تكاد القروء تهزأ به والنقاعيات والكيسات الخلامية  
تسخر منه » وهو نقض لبدء ولعله من معجزات الاستنتاج أو هو ارتقاء في المذهب  
وتقهقر في اليقين ولا نعلم أن الضدين اجتماعاً في غير ذلك . فعلى الذين ارتب لا يقف  
معترضاً في سبيل العلم وأن لا يشتبك معه في خصام مضر للآئين ولا يستطيع الدين

أن يثبت فيه





## الباب الثالث

( في آراء علماء الطبيعة في اصل العوالم وفيه ثمانية فصول )

### الفصل الاول

( في الجوهر الفرد )

وبعد ان نفي مذهب دارون بسط الكلام على آراء الفلاسفة «الماديين» في اصل العوالم . « قال ان مذهب اولئك الفلاسفة ان الجواهر الفردة اي اصغر اجزاء المادة التي تنتهي اليها قسمة الاجسام اصل كل ما في السماء وعلى الارض وانها ازلية انشأت كل ما يرى بالتفاعل » ثم ذكر مذهب ديموقريطس في الجوهر الفرد وقال انه لا فرق بينه وبين مذهب هولا . « المتفلسفين » اليوم واستطرد الى ذكر تعريف سبنسر للارتقاء انه تغير المتماثلات ونحوها الى مختلفات واستغاث على غرابة هذا القول بجمهور الكيميين اذ صرخ « فليتأمل الكيمييون ويعجبوا ما شأوا » ثم ذكر مذهب دلتون الموئل عليه في الكيمياء وقال « ان كلاً من مذهب ماديين هذا العصر ومذهب الكيميين في الجواهر الفردة ينفي الآخر » وذكر ان الجوهر الفرد عندهم متحرك الباطن وان شكله متغير قال « ويستحيل الحركة الداخلية ( كذا ) وتفسير الشكل بلا تبدل اوضاع الاجزاء وهو القسمة بالفعل فلزم من اقوالهم ان ما لا يتجزأ فعلاً يتجزأ فعلاً وهو محال لانه اجتماع النقيضين » وتذرع بذلك كله الى نفي الجوهر الفرد لينفي ما يترتب عليه حيث قال « ان الجواهر الفردة لم يثبت وجودها فلا يثبت لها عليا ولا قدم ولا حدوث » الى ان قال متظاهراً بالظفر « وعنا نلتمس من ساداتنا الماديين ان يأذتوا لنا بأن نقول ان

الفلسفة المادية كلها خبط وان مبدأهم الاول وأس فلسفتهم واصل عالمهم وهم ما لهم من حجة لا ثبات وهو منفي من مبادئهم عينها فكل ما شادوه عليه من فلسفتهم صروح او هام على اساس موهوم .

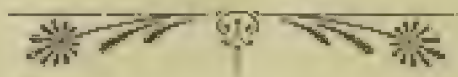
وربما وهم البعض من هذا القول ان مذهب الماديين في أصل العوالم والجوهر الفرد هو غير مذهب سائر علماء الطبيعة والكيمياء المعول عليهم اليوم فتحن لا تعرض في هذا الفصل الا لذكر لمع من هذا المبحث منبهين الى الاغلاط التي ارتكبوها مقتصرين على الاشارة فقط الى اوجه الاتفاق والاختلاف بين الماديين وسواهم فنقول :

ذهب علماء الطبيعة الى أن العوالم مؤلفة من اجزاء في غاية الصغر لا تقبل القسمة سموها جواهر فردية . وهم وان كانوا لم يروها الا أنهم لم يروا بدءاً من التسليم بها لموافقها للعلوم الطبيعية والكيمياء خاصة فلا يخفى ان التركيب الكيماوي هو دائماً على نسب معينة فالهيدروجين يتحد بالاكسجين على نسبة ٢ الى ١ فيركب ماء . ولا يتركب الماء على غير هذه النسبة البتة . واذا اختلف التركيب بين العناصر الواحدة فنسبه انما تكون على نسبة عددية فالنيتروجين يتحد بالاكسجين على نسب مختلفة فيركب مركبات مختلفة وهذه النسب هي دائماً كنسبة ١ الى ١ مثلاً او ٢ او ٣ او ٤ او ٥ . واذا اتحد عنصران يتحد احدهما بالآخر على نسب معينة بعنصر آخر فنسب اتحادها بهذا العنصر هي نفس نسب اتحادها ببعضها بعض وهذا كله لا يجب ان يكون ان لم يكن في المادة اجزاً لا تقبل القسمة قالوا وهذا ليس وهماً بل حقيقة وهو « حجتنا لا ثبات الجوهر الفرد » . ثم ان لم تكن الاجسام مؤلفة من اجزاء منفصلة غير متلاصقة لها خاصة التذاف والتجاذب فلا بد ان تكون مؤلفة من مادة متصلة متلاصقة ولا يمكن غير ذلك . فان لم تكن اجزائها منفصلة فلا يبقى وجه لتعليل الحالات الطبيعية كالمسامية والانضغاط والاقسام والتعدد والمرونة والجمودة والسيولة والغازية ولا يعرف ما التركيب الكيماوي فان قيل انه يتداخل شديد بين المواد المختلفة قلنا ما حقيقة هذا التداخل ولم يكن دائماً على نسب معينة ثابتة ولماذا كانت النسب العددية والمكافئات او المعادلات الكيماوية فتعليل التركيب الكيماوي على هذا الغرض لا ينطبق على الحوادث



التي لا بد من الاعتراف بها وانما ينطبق عليها على الفرد الاول . فلا بد اذا للطبيعي  
وطالب علم الكيمياء من التسليم بالجواهر الفرد ولو صعب عليه تعيينه كما انه لا بد  
لطالب علم الهندسة من التسليم بالنقطة ولو صعب عليه تعيينها  
والجواهر الفرد اليوم ليس الجواهر الفرد الذي قال به ديموقريطس لاختلاف  
اسباب القول به . فتقول ديموقريطس به من قبيل الخدس واما اليوم فالقول به ليس  
من قبيل الخدس بل نتيجة لازمة لحقائق علمية كما مر . وهذا سبب الاختلاف بين  
مذهب الكيميين اليوم ( لا الماديين وحدهم ) ومذهب ديموقريطس وابيقورس <sup>(١)</sup>  
فمذهب ديموقريطس ليس « عين مذهب بخترومن وافقه من الماديين » والماديون او  
كما يقول صاحبنا « هؤلاء المتفلسفون » لم يجرؤوا في مضائق فلسفة بعض الاقدمين  
الوهية وانما جروا على مبادي علم الكيمياء . ولعله لم يرمهم بالوهم الا لجوز له « دفع  
الاورهام باورهام ادنى منها » كما يقول ايضا والا فابن الوهم في التعليل عن العالم بمادته  
وعن الطبيعة بسننها

(١) قال ديموقريطس الكيميائي الشهير الرأي الميجومري الذي وضعه فلاسفة اليونان وجدده فلاسفة الاعصار  
المتأخرة قد اخذ صورة ينة في اوائل هذا القرن اذ ادخله دلتون اولاً في الكيمياء لتعليل نوايس المركب  
الكيمائي . ثم تعزز باكتشافات غيلوساك مبنية على ودولونغ وبييت اذ ربط حوادث كثيرة مختلفة كيميائية  
وطبيعية بعضها ببعض . وهو اليوم الرأي المعمول عليه في بناء المادة وقال ايضا وهو كاشف الآراء الصحيحة  
قد لما وافقهم مع الزمان ولم يصد عن الآراء الخاطئة وكاشف الآراء الخاطئة قد كان واسطة للتفاهم حتى في  
الذي يخفون وهو لا يذرون اليوم والرأي المذكور ثابت لا تزعمه مناقشات البعض التقليدية واعتراضات  
البعض الاخر الدقيقة



## الفصل الثاني

( في رأي طمس في الجوهر الفرد )

ذهب السر وليم طمس الإنكليزي الى ان الجواهر الفردة انما هي زوابع حلقية في الاثير او الهبولى . قال ورتر « وقد شاع في هذه الايام مذهب بين فيه بالبرهان كيف ان الجوهر الفرد لا يقبل القسمة بل كيف انه ذو وجود مستقل اذلى ابدى وهو مذهب السير وليم طمس في الجواهر الزويعية : قال فالعالم على رأي طمس مؤلف من سائل تام الاتصال مالى للخلاء ومن هذه الحلقات الزويعية المنتشرة فيه وهي ليست سوى اجزاء هذا السائل المتحركة فيه حركة زويعية . وكل حلقة منها محدودة ومتيزة عن نفس السائل وعن الحلقات الاخر ايضا لا بجوهر مادتها بل بحركتها وحركاتها . وهذه الخصائص تبقى الى الابد والحلقات المذكورة هي الجواهر الفردة » فالجواهر الفردة كما ترى وان تكن متماثلة في الذات لكنها مختلفة في الصفات وهي كذلك لانها لا تقبل القسمة الامر الذي لا يعقل . كلاً . وانما لو انقسمت لزالَت خصائصها الجوهرية فهي كالهبولى تقبل القسمة فرضاً لا فعلاً لان الهبولى لا تقسم فعلاً مع انها ذات امتداد والآن ان يقسم جسم متصل مالى للخلاء لا فراغ حوله ولا مسامية فيه وذلك مستحيل فعلاً . والجواهر من حيث انها ذات خصائص معينة لا تنقسم مع بقاء هذه الخصائص فيها كما ان الكريات الحية لا تقبل القسمة طبيعياً لا حيويّاً مع بقاء خصائصها كما هي . وبهذا الاعتبار تكون الجواهر الفردة للعوالم كالكريات الحية للحي

فهذه المعلومات ليست من اوهام الماديين بل نتيجة اجتهاد فحول الفلاسفة الطبيعيين والكجاريين . فمن أي الكجاريين يطلب صاحبنا ان يعجبوا من قول سبنسر أم من ايهم يطلب ان يطالبوا بخنر بنا افسد من عباراتهم . أيلزم من تناثر الذات



ثمائل الصفات ام هل تزول نسب التركيب المعينة ام لا تبقى اعداد التركيب كاملة .  
فذهب الجواهر المتماثلة في الذات لا ينقض المذهب الجوهرى لدثون ولا يفسده وإنما  
يعتبر تأييداً له وتوسيعاً . قال ورتز ( ان مذهب الجواهر الزوبعية تُتضح به بعض  
خصائص المادة وكل الاقوال في طبيعة الجواهر الفردة ويظهر انه اقرب المذاهب الى  
الحقيقة ) نقول وان كان العالم قيمة صحيحة فلا يسعنا ان نترك آراء مثل هؤلاء العلماء  
التي هي نتيجة اجتهاد العلم وتمسك بآراء سوامم التي هي نتيجة الحرص فاقتدائنا بهم  
كافتدائنا غيرنا بسوامم ولا فرق بيننا الا فرق المنقل عن الواقع

## الفصل الثالث

( في وحدة العناصر والقوى )

ذهبوا الى ان الجواهر الفردة متماثلة في الذات مختلفة في الصفات وانها متحركة  
وشكلها متغير ولا يخفى ان العناصر التي وصفها الكيميون تبلغ نحواً من ستين عنصراً  
واذا تأيدت اكتشافات البيكترسكوب فرما بلغت ٧٣ عنصراً وقد اعتبروها بسيطة  
من اتحاداتها المختلفة ثنائى الاجسام المختلفة . واجتهدوا اولاً في تعيين صفاتها التي  
تتأخر بها ثم ما لبثوا ان تساءلوا عما اذا كانت هذه العناصر بسيطة حقيقة او كان لها  
صفات مشتركة تجمعها ونزدها الى اصل واحد . فرما كان الكيميون الاقدمون  
مصيبين في بحثهم عن تحول المعادن . فقام دوماس وهو من اكابر علماء الكيمياء في  
هذا العصر وقرر اولاً انه يمكن ترتيب هذه العناصر صفوفاً تتفاعل كيمياوياً تفاعلاً  
واحداً وقد بين تبعاً لرأي بروست ان اوزانها الجوهرية اعداد كاملة كأن جواهر  
العناصر المزعومة بسيطة هي بالحقيقة مركبة من اعداد مختلفة من هذه الاجزاء المتماثلة  
ولا تختلف فيما بينها الا بعدد هذه الاجزاء فقط . ثم اشار مندلف ولونار مايز الى تسب  
شديدة بين الاوزان الجوهرية للعناصر وصفاتها الخاصة وقال بوجود خلل في جدول

هذه العناصر . وقد نبأ أبان هذا الخلل لا بد من أن يسدّ ووصفا العناصر التي تنقص والتي يلزم اكتشافها . وقد اتصل لكوك الكياوي الى نتائج شبيهة بتلك بعد درس الحل الطبقي لهذه الاجسام البسيطة اي درس طبيعة النور المنبعث عنها وهي مشعلة . وقد جاء اكتشاف الغاليوم له والسكندريوم لغلاف مصداقاً على صحة هذا الانباء العلمي ثم ان لو كبر لاحظ في طيف بعض البسائط كالكلسيوم والفسفور انقساماً يدل على بداية انحلال . فترجح لهم ان الاجسام المزعومة بسيطة ليست انيات مستقلة بل انها ربما كانت صوراً مختلفة لمادة واحدة هي الهيولى الواحدة والغير المتلاشية كالاثير

وقد تقوى هذا الترجيح بما كان قد علم من وحدة القوى فلا يخفى ان القوى كانت عندهم في السابق متعددة فالنور والحرارة والكهربائية والمغناطيس كانوا يعتبرونها سوائل مادية مستقلة بعضها عن بعض تغذ مادة الاجسام وتجتمع فيها على نسب مختلفة والجاذبية والالفة الكياوية والاتصاق كانت قوى تحرك دقائق هذه الاجسام . وبقي هذا القول معولاً عليه في العلوم الطبيعية حتى قام رمفور وقال ربما كانت الحرارة متحولة عن الحركة ثم بين فرسنل ان النور حركة اهتزازية وكذلك بين ماير وجول وهرن وتدل ان الحرارة ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وقد برهنوا ان الحرارة تتحول الى حركة والحركة الى حرارة تبعاً لقواعد معينة . ثم بين امبر وحدة الكهربائية والمغناطيس وبين سبك كذلك انه 'يكفي احماء نقطة ملتحمة معدنين لتوليد مجرى كهربائي . ولا يخفى فعل الحرارة في توليد المغناطيس والفرك في توليد الكهربائية . ونحوها الى نور وحرارة ومن ثم الى حركة صار امرأ معروفاً عادياً مستعملاً في الصنائع واثارة الطرق في المدن الشهيرة فالتفت مذهب السوائل المادية من مدار العلم الطبيعي واذا ارتأب صاحبنا بصحة هذا القول فليراجع (صفحة ١١ و ٢١ و ٦٥ و ٤٢٨ وخاصة ٢٩٨ و ٢٩٩) من كتاب الدروس الاولى في الفلسفة الطبيعية للفاضلة السيدة الن جكسن

فلم يبق عند الطبيعيين بعد هذا سوى مادة لطيفة هي الاثير المالى الخلاء والنافذ في كل الاجسام والمحرك لها وانتفت القوة كذلك وعوض عنها بالحركة . فليس



الحركة سبب سوى الحركة نفسها ولا واسطة لا يصلحها الى الاجسام سوى الاصطدام  
والتحول للحركة سوى الحركة المكتسبة. والحركة نفسها غير متلاشية كالمادة ومقدارها  
في الكون واحد كمقدارها الا انها قابلة التحول الى ما لا نهاية له بحيث يصعب  
معرفة في استحالاتها البعيدة فاجب ذلك نظراً جديداً في بناء الاجسام الجوهرية  
فالجوامد والسوائل والغازات التي كان يظن انها مؤلفة من اجزاء صغيرة ساكنة هي  
بالحقيقة متحركة حركة باطنة شديدة وحرارتها كما نحس بها بحواسنا ليست سوى  
التأثير الواقع علينا من اهتزاز اجزائها. ويظهر لهم حسب الاكتشافات الحديثة ان  
شكل الجواهر الفردة متوقف على الاهتزازات التي تحركها وان الحركة هي التي كونت  
جواهر الاجسام الفردة ودقاتها في وسط الاثير وان الاثير ليس سوى الهيمولي في  
ابط ما يمكن تصويره وان الصور التي تلبسها الهيمولي انما هي ناشئة عن الحركة التي  
تحركها وان المادة والحركة غير منفصلتين لان وجود المادة يتتفي الحركة كما ان الحركة  
تطلب المادة. وهكذا ردوا هاتين الاليتين اللتين ترجع اليهما المواد والقوى الى  
شيء واحد.

هذه هي خلاصة ما دلت عليه مباحث مشاهير الفلاسفة وعلماء الطبيعة والكيمياء

في هذا العصر

فيري مما تقدم ان القول بالجواهر الفردة ونماثلها وحركتها وتغير شكلها وتحول  
القوى هو من مقتضيات العلم لا من مختلفات الوهم لا تطابق على قضايا طبيعية وكيميائية  
لا تعقل بدونها. على ان الكيميائيين لم يتمكنوا من حل العناصر وردها الى الهيمولي كما  
تمكن الطبيعيون من رد القوى كلها الى الحركة وانما حكوا بذلك من باب الترجيح لما  
راوه اولاً من الدلائل على ان العناصر ليست بسيطة كما تقدم وثانياً لان وحدة القوة  
تطلب وحدة المادة كذلك. واذا صح تحول القوى بعضها الى بعض وصح ان اصلها  
الحركة — وهي واحدة — وصح ان الحركة اهتزاز اجزاء المادة فكيف لا يصح  
ان تكون المادة واحدة وان تتحول وتظهر بمظاهر مختلفة

## الفصل الرابع

(في اختلاف الطبع باختلاف الوضع)

وأما كون المتأثرات لا يحصل من تركيبها سوى متأثرات فهذا لا يصح إلا إذا  
تماثل الكم والكيف والذات والصفات والأشياء فتعطي مختلفات. ولعلّ المعترض لا يعد  
الاختلاف اختلافاً حتى يكون في الطبع فيقول ان اختلاف الكم والكيف لا يحصل  
عنه اختلاف الطبع. وهذا وهم فان أسماء العقود كالعشرة بتقطع النظر عن الشيء المدلول  
عليه بها هي غير الواحد المؤلفة منه والتي تنحل اليه والمثلث بهذا الاعتبار نفسه هو  
غير النقطة المؤلف منها والتي ينحل اليها. ثم ان مزيج عنصرين كالنيروجين والأكسجين  
مثلاً هو غير مركبهما ولا فرق بينهما إلا في نسب جواهرهما وفي ترتيبها بعضها بالنسبة  
إلى بعض لا بادخال شيء جديد او تغيير في طبائعها الخاصة. قال ورتز «ان التركيب  
ليس ناشئاً عن تداخل جواهر المادة بعضها ببعض بل من ترتيبها بعضها حول بعض»  
ولا يخفى كذلك ان العناصر الجوهرية التي تتركب المواد الحية هي الأكسجين  
والنيروجين والهيدروجين والكربون ونسبها في المواد المذكورة لا تختلف إلا في الكم  
والوضع. ومع ذلك فما أكثرها وما أعظم اختلافها. ولا يرد علينا بأن الكيمياء الآلية  
هي غير الكيمياء الغير الآلية فالأحياء ليس لها كيمياء خاصة ولا بقول المعترض «ان  
هذه المركبات ليست من هذا الباب لانها مركبة من عناصر مختلفة» لان هذا القول  
غاية في الغرابة وماذا عساه ان يقول في الخشب والصمغ والنشا مثلاً فان تركيبها لا  
يختلف إلا في وضع هذه العناصر او ما هو قوله في الكحول والخامض الخليك كذلك  
فان تركيبهما لا يختلف إلا في الكم. فلو لم يكن اختلاف الوضع والكم يحدث اختلاف  
الطبع لا اقتضى ان تتغير طبائع هذه المواد تغيراً جوهرياً فحماً اذاً كافيان وحدهما  
لاحداث الاختلاف وهذا كل ما يلزم لتعليل سائر الاختلافات ولا سيما اذا اعتبرنا في  
ذلك تغير شكل الجواهر الفردة



او ما ذا يقول المعترض في المواد البوليمرفية أي التي تختلف هيأتها ولا تختلف ماهيتها ولا تركيبها . وفي المواد الالوتروبية أي التي تختلف صفاتها ولا تختلف ذواتها . فلم يكن اختلاف الوضع كافياً لاجداث الاختلاف لما اقتضى ان تختلف خصائص البساط كالكبريت والفصفور والاكسجين والكربون وتفاعلات مختلفة ولا شك ان الفرق بين الماس والقصع هو اشد جداً من الفرق بين الحديد والنحاس . ومن ينكر هذا الفرق يلزمه ان ينكر الفرق ايضاً بين الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيس وبينها وبين الحركة . أليس لهذه صفات خاصة فارقة ومع ذلك ليست كلها مظاهر مختلفة لقوة واحدة

## الفصل الخامس

( في ان القوة والجوهر ميان )

ولما كون الحركة الباطنة وتغير الشكل تقتضيان القسمة بالفعل ( وهو اجتماع التقبضين ) فهو صحيح اذا اعتبرت الحركة شيئاً مستقلاً بذاته غير الجوهر الفرد . وربما عنوا بالحركة الباطنة الذات ايضاً فكانت الحركة والجوهر الفرد شيئاً واحداً . ويلزم ان يكون ذلك كذلك لان المادة في ادق اجزائها اذا فرضت ساكنة لم تعقل وكذلك الحركة اذا فرضت بدون شيء متحرك لم تعقل او تلاشتا معاً وهذا لا يعقل ايضاً . قال ورتز « ان القوة لا تكون وحدها بل يلزم ان تصدر من شيء وان تفعل على شيء » وان يظهر بحركة وكيف تكون حركة بدون شيء متحرك » واذا صح رأي طمس في الجواهر الفردة فربما زال هذا الاشكال . قال المصنف في الكلام على الهيمولي « واما خصائص الحلقات الزوهمية فقد اثبتنا ههنا الجرماني بالبرهان على فرض كون الحلقات في جسم تام السبولة لا يقبل الانضغاط مطلقاً متجانس الاجزاء أي ان كثافته واحدة في كل جانب من جوانبه تام الاتصال اي انه غير مؤلف من جواهر منفصل

بعضها عن بعض لا يتغير قسم جرم منه ولا كثافته اذا تحرك ( القسم ) وانما يتغير شكله . وقال ورتز « وهذه الزوايا مرة وشكلها متغير ولا يتوازن الا في الدائرة فاذا تغيرت عن هذا الشكل فلا تزال تتحرك حتى تعود عليه واذا اريد قطعها بمديّة فانها تهرب من امام المديّة او تلتف عليها فهي مثل شيئاً مادياً لا ينقسم . واذا تحرك حلقتان في جهة واحدة بحيث يكون مركز كل منهما على خط واحد وسطحه كذلك على موازاة هذا الخط فالحلقة المتأخرة تنقبض على نفسها وتزيد والسابقة تنسع وتزيد وتقل حتى تسبقها المتأخرة ثم يحصل ما حصل اولاً ولكن ذاتيتها لا تنقد بتغير شكلها وسرعتها »

## الفصل السادس

( في كشف الخلط واظهار الغلط )

واما قول صاحبنا « انه يلزم من فرض الجوهر الفرد على كل مذهب عدة غرائب منها انه لو وضع جوهر من النيتروجين مثلاً على جوهر من الحديد وضغطا يقال العالمين ما نفذ احدهما الآخر وما تجزأ » فليس فيه من الغرائب سوى هذا القول نفسه ولعله يذهب الى انهما يتافدان . واما تعجب منه كيف ان معدته لم تنو على هضم ما عده من هذا القبيل سفطة مع ان عقله قوي على هضم مالا بهضم وشرب مالا يشرب مما لو اجتمعت افعال العالمين وضغطته لدخل الى الذهن لم يدخل

وهل يرتاع من خوض السواقي فتى قد خاض في البحر الكبير وقوله « ومنها ان كل دقيقة من دقائق المركبات لا تقسم الا بالحل للكبي والا اوجب الضغط على دقيقة الماء قسمة جوهر الاكسجين الفرد الخ » فساله وهل تقسم بدون ذلك واذا قسمت فهل تبقى ماء . ثم هو يعلم فيما نطق ان الفعل الطبيعي قد يصاحبه فعل كيمي لما في طبع القوى من امكان التحول بعضها الى بعض حتى



ان القوى الميكانيكية البهنة تجعل تحليلاً في المواد المركبة تركيباً ضيقاً . وكذلك قوله  
 « ومنها ان الانزويين وان كان يدوب في الكحول فالدقيقة منه لا تدوب فيه » فلا  
 ندري ما مراده به لان التدويب اما هو عبارة عن اجتماع دقائق سائل بدقائق جسم  
 آخر فلما ان يقع بين الدقائق فيكون مثل هذا القول لغواً واما ان يقع عليها فيكون  
 التدويب فعلاً كبيراً وحينئذ يحصل عنه تحليل وتركيب لا يوجب قسمة في الجواهر  
 بل تحليلاً . فإيم الحق اننا لم نكن نتوقع منه مثل هذا الخط لما يعهد من علمه وذكائه

نعم ما الغرض يا ترى من نفي الجوهر الفرد فان كان الغرض من ذلك نفي المادة  
 اصلاً فكيف نصنع حينئذ بوجود العوالم وهل ما نراه وهم من الخواص وان كان القصد  
 نفي وحدتها وإثبات تعددها فذلك لا ينفي وحدة ولا يثبت تعدداً . واذا كان لا بد  
 من وجود المادة متعددة كانت ام واحدة فما المراد من نفي الحركة عنها أثبت لها  
 السكون وما الدليل عليه ( والسكون المطلق لا علم لنا بوجوده ) واذا كنا لا نعلم بوجود  
 السكون فكيف استطعنا ان نحكم به او نتصوره . وان كان الغرض من ذلك نفي النشوء  
 وإثبات الخلق فهذا لا ينفي نشوء ولا يثبت خلقاً فنيون أثبت مذهب ديموقريطس  
 ولم ينفي خلق الجوهر الفرد . فنفي الجوهر الفرد لا ينفي به شيء يراد نفيه ولا يثبت  
 به شيء يراد اثباته من هذا القبيل وما هو الا وهم او هو ضرب من التوهم للايهام

## الفصل السابع

( مناظرة اصحاب الخلق واصحاب القدم )

وخالف الماديون سوامهم في أصل المادة فقالوا انها أزلية لانهم رأوا ان المادة كالقوة  
 لا يستطيع خلقها ولا ملامشتها فهي واحدة لا تنقص ولا تزيد ولا تتغير الا في الصورة  
 قالوا ونحن لا نعلم غير ذلك فرد عليهم ان عدم العلم بالشئ لا يجعله غير ممكن فالحدوث  
 ممكن قال الماديون ولكن ذلك ليس من باب العلم بل من باب الايمان وهذا لا تنازعكم

لاجله ولا يحق لكم أن تنازعونا كذلك. فرد عليهم بل من باب العلم العقلي أي الفلسفة والفلسفة العقلية لا ترى بدءاً من الاقرار به. قال الماديون أن العقل لا يعلم شيئاً غير ما أتى به الاختبار ولا يحكم بشيء. إلا بالقياس على هذا العلم فإذا كنا لا نعلم خلق المادة ولا ملاشاتها فكيف يمكن لنا أن نحكم بها. وما الفلسفة إلا القياس العلمي بأوسع ما يقدر العقل أن يتصرف فيه وقد تقدم أن العلم لا يدرك ذلك فالفلسفة لا تقدر أن تدرك إلا ما يأذن العلم به فرد عليهم وكيف جاز لكم إذا الحكم بالجواهر الفرد وعلمكم لا يدركه قالوا اتنا وان كنا لا ندركه فانما حكمنا به لا تطابقه على الحوادث التي لا بدء من الاعتراف بها فحكمنا به من باب القياس العلمي. فرد عليهم « على اتنا لو سلمنا بأن الاجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ فلا نسلم بأزليتها بلا برهان ولا دليل على ذلك سوى الوهم كما هو دأبكم في كل أصول مذهبكم المادي » قالوا أما دليلنا فعلي لان المادة كما تقدم لا يستطيع خلقها ولا ملاشاتها وعقلي لان العقل لا يسلم بوجود شيء من لا شيء ولا باستحالة شيء الى لا شيء فيا للعجب كيف ترموننا بعد ذلك بالوهم فما دليلكم يا ترى غير الايمان وأي أقرب الى الوهم. فرد بأن الشيء لا يقدر أن يوجد نفسه ولا بدء له من موجد سواه ولهذا يحكم بخلق المادة لانها موجودة ولا تقدر أن توجد نفسها. قالوا فمن أين علمتم ان الشيء لا يوجد نفسه اولا نرون انه يصح لنا ان ندفع قولكم بنفس اعتراضكم. ثم نحن لا نجعل للعالم بداية مطلقة ولا نعلم له نهاية كذلك حتى يقال انه اوجد نفسه فنحن نسلم به كما هو كما انكم تسلمون بالمبدع كما هو قال اصحاب الخلق ان ما نراه في الوجود من النظام يدل على القصد ولا بدء من عقل مدرك يقصد هذا القصد ومادتهم غير عاقلة فهي لا تدرك حتى تقصد فرد اصحاب القدم ان ما تسمونه قصداً نسميه ضرورة فالعوالم لما كان بعضها مرتبطاً ببعض بنواميس معينة كان من الضرورة انه اذا حصل تغير في شيء يحصل تغير مطابق له في سائر الاشياء ولذلك لم يكن العالم ولا هو كائن ولن يكون بعضه بالنسبة الى بعض الآخر منتظماً. والالفاظ عندنا امر نسبي. ثم لو كانت علامات القصد موجودة لاقتضى ان تكون هذه العلامات تامة والحال اتنا نرى اشياء كثيرة لا ينطبق القصد عليها ولا



تنطبق الأ على الضرورة . قالوا انكم تجعلون الميولي واحدة اي متائلة وكيف يمكن  
 لشيء المتائل ان يترتب مع نفسه ويظهر بصور مختلفة . فردوا عليهم انكم تخالكم  
 تسلمون تحول القوة من حال الى حال وهي واحدة اي متائلة في اصلها فكيف لا يكون  
 للمادة ما للقوة المتصلة بها . ثم ان تماثل الذات لا يلزم منه تماثل الصفات والأ لكان  
 العالم جاداً واحداً او نباتاً واحداً او حيواناً واحداً والواقع بخلاف ذلك قالوا وان  
 كنا نسلم بان القوة واحدة ولكننا لا نسلم بانها تقدر على هذا التحول الأ بالعناصر  
 وهي مختلفة بخلاف هيولكم فانها متائلة فرد الماديون اننا لا نفهم معانكم ولا نفهم كيف  
 تفهمون أنفسكم فانكم قد ناقضتم وضع مذهبكم . ألا تعلمون ان وحدة القوة يلزم منها  
 وحدة المادة والأ كانت القوة متعددة أيضاً فالقوة - أو كما نسمونها أيضاً الحركة -  
 ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وكيف تكون القوة متائلة ان لم تكن هذه الاجزاء  
 المادية المهتزة متائلة كذلك وكيف توقعون بين القولين

ثم ان المادة كيفما اعتبرت إما قديمة وإما حادثة وهي ليست قديمة على قولكم  
 فلا بد لها من محدث . فاما ان تكون حادثة من شيء موجود او من لا شيء موجود  
 ولا يصح ان تكون حادثة من شيء موجود لان هذا الشيء الموجود إما ان يكون  
 نفس المحدث او شيئاً آخر موجوداً ايضاً فينتفي الحدث . ولا بد ان تكون فعلاً من  
 افعال المحدث والأ لم يكن هو المحدث فاما ان تكون نفس الفعل او نتيجته والفعل  
 ونتيجته موجودان في الفاعل والفاعل قديم فينتفي الحدث كذلك وان لم يكن الفعل  
 ونتيجته موجودين في نفس الفاعل فيقتضي ان يكونا ليس منه وهما منه وهو خلف  
 وان يكونا لاشيء وهما شيء وهو خلف ايضاً ثم يقتضي ان يكون الفعل واقعاً على شيء  
 هو لا شيء ومنفصل عن نفس الفعل والفعل منفصلاً عن نفس الفاعل والا كان الشيء  
 والفعل والفاعل واحداً . وكيف يكون الشيء منفصلاً مع هذا الارتباط وان لم يكن  
 منفصلاً فكيف يكون الشيء الحادث غير المحدث . فالعقل لا يقدر ان يسلم بهذه  
 المتضادات . وان قلتم ان وجوداً من نفسه لا يعقل قلنا لكم ان وجود شيء موجود  
 من لا شيء موجود لا يعقل كذلك فضلاً عن ان هذا القول ان صح يطلق عليكم

كما يطلق علينا . فنحن نتعذر علينا معرفة اصل المادة كما يتعذر علينا معرفة ملاقاتها . قيل ان ديوجانس رأى غلاماً معه سراج فقال له اتعلم من اين تجمي هذه النار قال له الغلام ان اخبرتني الى اين تذهب اخبرتك من اين تجمي . وان قلتم ان قدم المادة يلزم منه قدم معلولاتها و قدم المركبات من جاد و نبات و حيوان قلنا لكم ان قولكم لو صح لوجب ان يطلق على الخلق كما يطلق على النشوء فالخالقية كالناشئة بالاضطرار والا فتكون القوة الخالقة قد وجدت ساكنة قبل الخلق والسكون كالعدم لا يعقل وهو لا يليق بالمادة المنفصلة فكيف يليق بالقوة الفاعلة . على ان الاضطراب للخالقية او سواها لا يلزم منه استحالة الوجود دفعة واحدة لارتباط العلل والمعلولات بعضها ببعض وتحويلها بعضها الى بعض فالحياة يستحيل ان تظهر قبل ان يكون ماء والماء قبل تكون هيدروجين واكسجين وهما قبل اجتماع اجزاء المادة على كونه يتألف منه ذلك فوجود الحياة متوقف على وجود الماء ولو لحظة قبلها . ففي قياس أي عقل يصح وجودهما ووجود سائر المركبات معاً . وهل تكون السفطة الا كذلك . وان قلتم ( ولا يرد علينا بقدم المبدع وانه علة العلل لانه عندنا فاعل مخار يفعل ما شاء متى شاء ) قلنا لكم فبقي ان القضية ليست من باب العلم بل من باب الايمان ولو وقفتم عند هذا الحد لاسترحتم انتم وارضتموا من كل هذا التراجع . وكيف يعقل وجود ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة في صورة معقولة ولا له قسمة في الكم ولا في الكيف ولا في المبادئ فله من غير ما ليس منه متصل به ومنفصل عنه . فلا شك ان ذلك يقتضي ايماناً شديداً وحيث يتبدى الايمان ينتهي العلم والانسان حر في ايمانه الا ان الايمان ليس له حق بان يعترض العلم في سيره والعلم لا يستطيع شيئاً ضده وعليه فالفرق بين اصحاب الخلق والقدم في المادة انها مخلوقة من لا شيء عند الاولين وقديمة عند الآخرين ولا فرق بعد ذلك فالمادة عند الفريقين لا تتلاشى بل تنتقل من حال الى حال بالتفاعل والتركيب والتحليل والقوة عندها كالمادة لا تتلاشى وانما تتحول في الاجسام تحول المادة فيها . فالقوة المبلورة للملاح هي نفس القوة الموجودة في البسائط المركبة منها هذه الاملاح محولة كما ان مادة الاملاح هي نفس



مادة البسائط المركبة لها محمولة ولا فرق إلا في الأحياء إذ يجعل الحيويون القوة الحيوية غير القوة الطبيعية محمولة مع أنهم يعلمون بأن مادة الأحياء هي نفس المادة الطبيعية محمولة. وهنا نظر فانهم يجعلون القوة الطبيعية واحدة في أصلها وهي الحركة وربما جعلوا المادة متعددة في العناصر ثم يجعلون المادة واحدة في بناء العوالم من جهاد ونبات وحيوان والقوة متعددة

## الفصل الثامن

( فصل الخطاب بين اصحاب الخلق واصحاب القدم )

قال الروحانيون وعليه فذهب الماديين شرًا لا يناله شرًا لأنه يلزم عنه أن لا خير ولا شر ولا حلال ولا حرام ولا ولا وبالجملة يتمتع معه العمران. فرد عليهم الماديون لقد أخطأتم في ما زعمتم كأنكم تجهلون طبيعة العمران فالعمران ضروري للبشر والألم لم تتم لهم الحياة وهو من حيث أنه اجتماع طبيعي في الحيوانات وإنما بلغ الغاية القصوى في الإنسان لأنه أعد له طبعًا واقومه تكوينًا واجده فكرًا واقواه رؤية والعمران لا يكل إلا بالتعاون على المعاش والاعمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه. وهذا التعاون لا يكل البتة بما وصتم ولا يكل إلا بالاصطلاح على عادات معلومة تحسن معها المعاملات. وهذا الاصطلاح لا يكل إلا إذا عرف الإنسان ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات. وهذه المعرفة لا تكمل إلا بالعلم والعلم هو العلم الصحيح وذلك كله لا يكل إلا بالحكم الوازع. والحكم الوازع إنما هو الشرع. المفروض من البشر والتغير بحسب روح كل عصر واحتياجات كل جيل والا لما اقتضى أن يتغير الإنسان عما يفرضه له شرع معلوم وعوائد معلومة لأنها لا تخلو منه في أي الأحوال كان ولا أن تحصل العبرة للبشر قبل الانبياء ولا لأمم غير تابعة لهم

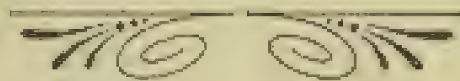
ولما كان به كذلك حاجة لاقامة الوازع منه بعدهم . قال ابن خلدون « وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غاية وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحداً من البشر وأنه لا بد ان يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف . وهذه القضية للحكام غير برهانية كما نراه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل اكتاب التبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المحجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يتمتع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة . » انتهى

ولا يخفى ان الانسان في العمران انسان عاقل وجاهل فالعاقل له بما يطلبه من المجد الصحيح وبما اكتسبه كذلك من العلم الصحيح باحوال العمران وازع من نفسه وذلك لما في طبعه بل وطبع كل حيوان من حب الذات فهو يترفع عن ارتكاب شرر يحق غيره لئلا يعود هذا الشر بالوبال عليه والجاهل كالعاقل يحب ذاته وانما لجهله قد بخطئ الوسايط فلم يكن له رادع الا من سيف حاكمه وكلاهما ان لم يردعهما ذلك كله لا يردعهما سواه وليجرب نزع الحكم الوازع من بين البشر مما عظم ايمانهم فانهم يقعون في القوضى . والافاضة في هذا المبحث لا يحتملها المقام لانها لتناول البحث في الاخلاق والطبائع وما للاقليم والتعليم والشرائع وسواها من الاثر فيها وما تؤثره هي نفسها في ذلك كله كذلك وما لاختلاف الناس من حيث اعتبارهم السعادة من الاثر في العمران بين ان تكون سعادة الفرد قائمة بسعادة الكل أم بالفضد الى غير ذلك من المسائل التي يطول بنا شرحها



قالوا واما غير ذلك من السعادة فمن مطامع المحال ولا نرى في تعليم المحال جدوى  
ولا نرى فيه الا خلاف ذلك قلنا هذا هو فقط وجه الخلاف بينهم

وأما ما جاء في رد المعترض من الأدلة على نفي التسولد الذاتي ونفي كون الحياة  
قوة طبيعية الى آخر ما ذكر فقد آوى منه الى ركن ضعيف القواعد متداعي الدعائم  
ويدل على انه لم يقرأ علم الحياة الا في غير كتبه ولم يسر فيه الا في غير منهاجه كما  
سنبين ذلك في فصل الحياة في ما يأتي وهو أعم من ان يختص به وحده



## الباب الرابع

(في الحياة واصلها وفيه اربعة فصول)

### الفصل الاول

(في الحياة)

ليس في طاقة الطبيعي ان يعلم الحقائق والماهيات وكل علمه قاصر على معرفة الكميات والكيفيات فهو لا يستطيع الكلام على الذوات مجردة عن صفاتها المقومة لها فلا يعرف الحياة الا من افعالها كما انه لا يعرف الجاذبية او الالفة او سواها من القوى الطبيعية الا من افعالها . فنظره الى الحياة مجردة ضرب من العبث كنظره الى سائر القوى الطبيعية مجردة فالحياة في ذاتها ليست اشد خفاء من الجاذبية او سواها من القوى في ذاتها . ويغاية ما يستطيع في درس الطبيعة معرفة الاشياء بعضها بالنسبة الى بعض اي معرفة ما بينها من الارتباط . والعلم الصحيح يجب ان يوجه سعيه الى هذه الغاية فهي وحدها تكفل له بالوقوف على ما في طاقته ان يقف عليه مما يكون به للانسان فائدة عملية صحيحة . وهذا ما يمتاز به العلم اليوم عما كان عليه في السابق وهي الصفة التي يمتاز بها شعوب المغرب عن شعوب المشرق . فان هؤلاء كما يقول الشهرستاني اكثر ميلهم الى تقرير خواص الاشياء والحكم باحكام الماهيات والحقائق وأولئك اكثر ميلهم الى تقرير طبائع الاشياء والحكم باحكام الكيفيات والكميات . ولما كان النظر الى الحقائق يقتضي النظر الى الشيء مجردا عما يقوم به نشأ ما يسمونه التجريد فاشتغل الناس بالبحث عن هذه الحقائق المجردة فتاهوا فيها بحكم



الضرورة وصلوا في معرفتها حتى انتهوا فيها أحياناً الى نوع من الاثبات في نوع من  
 النبي ابي انهم اثبتوا للشيء وجوداً بنفي كل وجود عنه . واي شيء غريب من ذلك .  
 بخلاف النظر الى الكيفيات والكميات فانه يتقرر به اشياء كائنة حقيقة لا يستطيع  
 انكارها وربما اطلقوا لفظة الحقائق على مثل هذا العلم بل قصروها عليه لتعذر علم سواه  
 ولا يخفى ما حصل للعلم من النهضة من اوائل هذا القرن في ايدي شعوب المغرب  
 وما حصل عنده من القوائد كذلك . واذا تخبرنا حقيقة هذه النهضة نجد انها كائنة في  
 معرفة ما بين الاشياء من الارتباط . واذا استقرينا سير الشعوب والامم في الافكار  
 والعلوم منذ التاريخ نجد ان تقرير هذا الارتباط لم يكن بدون مشقة كما يتوهم من ينظر  
 الى العلم اليوم بل انما صرف فيه الجهد الجليل والزمن المديد . ففي عصور الميتولوجية  
 كان عندهم لكل شيء قوة خاصة به تدبره فإله الحرب مثلاً كان غير إله البحر كأن  
 إله الواحد لا يقدر على تدبير آخر غير ما اختص به وإله الكرم غير إله القمح كأن  
 الواحد لا ينمو بنا ينمو به الآخر . وهكذا لم يكن يظن وجود ارتباط بين شيء وشيء  
 من مواد الطبيعة وقواها . فنشأ مذهب تعدد المواد والقوى العام ثم فصلوا القوى الى  
 علوية أمرة وسفلية مأمورة وفصلوا السفلية عن موادها فكان مذهب الثنية ولم يعضوا  
 القوى العلوية فلسفياً الى واحدة إلا بعد ذلك كثيراً فكان مذهب التوحيد العلوي  
 والثنية في الخلق والتثليث في الوجود وبقي مذهب التعدد في الخلق ولا يمكن تسع  
 سبر مرتب في ذلك وما يمكن تحقيقه انما هو نشوء لا ارتباط معه في الافكار إلا في ما  
 ندر وبجهد فلسفي

اما العلم فلما كان مقيداً أكثر من الفلسفة لم يتنبأ له ضم القوى والمواد وربطها  
 بعضها ببعض بالسرعة التي امكنت لبعض الفلاسفة فكانوا في اوائل هذا القرن يعتبرون  
 القوى الطبيعية كالكهربائية والنور والحرارة سوائيل مادية مستقلة بعضها عن بعض  
 ومستقلة عن المواد نفسها وكذلك القوى الكيماوية والحيوية ويعتبرون المواد انبثات  
 منفصلة بعضها عن بعض انفصلاً مطلقاً وعالم النبات منفصلاً عن عالم الحيوان وكل  
 نوع منفصلاً عن سواه والاحياء كلها منفصلة عن عالم الجمادات انفصلاً تاماً واضحاً مطلقاً

ولم يتيسر ردُّ القوى الطبيعية كلها الى واحدة وترجيح كون المواد من اصل واحد ترجيحاً علياً الا من عهد قريب ولم يجر ربط المواليد الثلاثة بعضها ببعض كذلك الا في هذا العصر. قال الطبيب من مقالة في الكلام على عالم الجناد ما نصه « فان التمييز بين النبات والحيوان يظهر في بادىء الرأي بديهاً سهلاً الا ان ذلك انما يكون في المراتب العليا منها على انه بالنظر الى الحقائق العلمية من اصعب ما وقف العلماء عليه جهدهم ولا سيما من حيث اشتراك الحدود وتداخل الصفات المميزة في مراتبها الساقطة. وكذلك التمييز بين عالم الجناد وعالم النبات والحيوان فانه قد يكون من اكثر المسائل اشكالا في نظر المدققين » وقد اتضح هذا الارتباط اكثر بمذهب داروين وعظمت قيمته الفلسفية. كذلك والحاصل ان من تتبع سير العلم من اوائل هذا القرن يرى انه مقسور على تقرير هذا الارتباط والسير في سبيل اثبات الوحدة للكائنات

على ان بعضهم مع اعترافهم بارتباط العوالم الثلاثة وارتباط القوى الطبيعية بعضها ببعض ربما لم يسلم — ولا نعلم كيف — بارتباط هذه القوى بالحياة ولم يسلم كذلك بارتباط قوى الحياة نفسها فجعل الحياة اكثر من واحدة من حيث الاصل. ولو فصل بينها جميعاً فصله بين المواد الحية والجناد لما جاز الاعتراض ولكن هذا الفصل من الامور اللازمة في العلم لسهولة البحث في المواضيع الكثيرة التي يتناولها كفصل النور عن الحرارة وفصلها عن سائر القوى الطبيعية مع اعتبار الرابطة بينها. ولكنه لا يقول هذا القول بل يفصل الحياة فصلاً مطلقاً ويعتبرها جوهرًا مجرداً يتصل بالمادة اتصالاً عارضاً وينفصل عنها انفصالاً لازماً عن مركباتها بل عن المادة نفسها ومع انه في فعله ذلك يرتكب خطأين عظيمين ضد العلم وضد الفلسفة فهو لا يبالي ولو استمسك بالمحال. فاما خطاؤه ضد الفلسفة فلان توحيد القوى تارة وتعددتها اخرى وتجردها عن المادة تارة ووصلها بها اخرى وتعدد المادة وتوحيدها امور لا تنفق بعضها مع بعض ولا تنطبق على العقل ولا على التصور الفلسفي لوحدة العالم. واما ضد العلم فلانه قد تبين اتصال مواليد الطبيعة بعضها ببعض وان القوى الطبيعية ليست سوى امتحالات عن الحركة وان الحركة ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وهذا يلزم منه ان تكون المادة



وقواها او الحركة شيئاً واحداً . وقد تبين كذلك ان القوى المذكورة تفعل في الاحياء فعلها في الجهاد وان المواد الداخلة في بناء الاحياء هي نفس المواد الموجودة في الجهاد وان التفاعلات التي تتم فيها من طبع التفاعلات التي تتم فيه .

والظاهر ان اعتبار الحياة جوهرًا مجرداً بقية موروثه من الاعتقاد القديم للقوى والمواد على ما مرّ والا فليس في العلم ما يسوغ ذلك بل ذلك يناهي ما قد تقرر به من الارتباط على خط مستقيم . قالوا اولاً ان الحياة قوة مجردة تعرض على المادة فتبطل فعل القوى الطبيعية منها وليس في افعالها شيء من الارتباط السببي . ولما بين كلود برنار ان الحياة لا تبطل فعل القوى المذكورة ولا تضادها وان كل عمل في الاحياء له سبب معلوم لازم له كما في الجهاد قالوا ولكن بناء الاحياء ليس فيه شيء من البساطة الهندسية للمعادن . ولما بين شوان ان الاحياء من نبات وحيوان عبارة عن مجتمع خلايا مؤلفة هي نفسها من شاء مصمت كالبيضة يتضمن حويصلة ذات منظر مختلف في النواة متضمنة هي نفسها كتلة صغيرة كروية هي النوية وان هذه الخلايا ذات اشكال وحجوم لا ضابط لها فتتضام وتجتمع على ضروب شتى كما نجتمع دقائق الجهاد بدون ان تفقد استقلالها وتؤلف وحدها كل الاحياء قالوا ولكن التفاعلات الحيوية غير التفاعلات الكيماوية . ولما بين باستور ان الاختار انما هو تفاعل كيمياوي بين المادة المختمة والخير وان الخير ليس سوي احياء صغيرة جداً شبيهة بالخلايا المذكورة حياة نبات او حيوان مرتق لا تفرق كيمياوياً عن ظواهر الاختار الا بكثرة اختلاف هذه الظواهر الناشئة عن اختلاف خصائص السكريات المختلفة الداخلة في بنائها قالوا ولكن القوى الطبيعية لا تستطيع ان تتركب الهيدروجين مع الكربون كما تفعل قوى الحياة . ولما بين برثلو امكان تركيب الاستيلين رأساً من الجهاد وتركيب سائر المركبات الكربورية بواسطة كاتواع السكر والكحول والارواح والزيوت والحوامض الآلية ويثبت كذلك امكان تركيب كل المواد المتكونة في الاحياء من عناصرها رأساً أي من الكربون والاكسجين والهيدروجين والازوت بواسطة الكيمياء الآلية المؤسسة على النموذجات قالوا ولكن قد بين باستور — في مقالة نشرتها جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٢٥

من سنة ١٨٤٤ ولخصها المقتطف — فرقاً مهماً بين المواد الآلية الطبيعية والمصطنعة فالأولى لها في حالتها الامورفية العديمة الشكل قوة على تحويل سطح النور المستقطب والثانية ليس لها ذلك او هي تفعل عكس فعلها — خلافاً للبلورات فذلك متوقف فيها على شكلها البلوري وعلى انتظام تغير نظامها المسمى بالهيدريامي تغير زواياها المائلة وذلك ما تنازع به قوي الحياة او كما يقال ايضاً القوى الغير المنتظمة عن القوى الكيماوية المنتظمة قالوا وهنا « العقدة » أما كون الحياة تفعل افعالاً تختلف عن افعال القوى الطبيعية التي يستخدمها الكيماوي فما لا ريب فيه كما انه لا ريب في ان افعال الكهرباء مختلفة عن افعال النور والحرارة مثلاً والألزم ان يكون العالم واحداً جمادياً واحداً او نباتاً واحداً او حيواناً واحداً وما نراه هو بخلاف ذلك . واما كون هذا الامتياز يلزم منه فصل الحياة عن قوى الطبيعة في المصدر فمن الغريب ما يذهب اليه والأوجب ايضاً فصل القوى الطبيعية بعضها عن بعض كذلك ولا سيما ان الفرق العظيم الذي اتخذته الحيويون حجة قوية لا ثبات مذهبهم في الحياة قد زال معظمه . وفي النظر الى هذه المسألة يجب اعتبار النسبة بين ما كان يزعم سابقاً وما يعلم اليوم فأي فرق بين الأمرين او لعل هذا الفرق النسبي اليوم والجزئي بالنسبة لما كان يزعم قبلاً كافٍ لتأييد هذا الفصل بل لجعل الحياة جوهرًا مجرداً عن المادة . وما الدليل على ذلك سوى عدم تمكن الكيماويين من خلق الحياة رأساً من الجاد وعدم تمكنهم من مجاراتها بمجارات تامة وهل ذلك دليل على ثبوت به الضد . فان كانت قوة تحويل سطح النور المستقطب كما يظن ناشئة عن عدم انتظام في تركيب جواهر الاجسام الفردية او دقائقها فربما كان ذلك خاصاً بالحياة وغير ممكن الحصول عليه بدونها الا ان امتناع ذلك على الكيماويين لا يوجب جعل الحياة من مصدر غير مصدر سائر القوى كما ان ظواهر الحياة في الحيوان العالي وان كانت تختلف عنها كثيراً في النباتات لا توجب جعل الحياة فيها من مصدرين مختلفين اي انه لا يعزز مذهب الحيويين ولا ينقض ركناً من اركان الماديين . لانه ان صح كما قال باستور ان سبب ذلك كيفية وقوع النور على النبات المصدر الاول لكل المركبات الآلية فيكون اصل هذه القوة



طبيعياً . على ان باستور قد تمكن من مجازاة الطبيعة على نوع ما وادخل عدم الانتظام في المركبات الكيماوية اذ جمع بين السكونين ( مادة غير منتظمة ) والحامض البراطريك أي المنبيك فرسب طرطرات السكونين اليساري وبقي الطرطرات اليميني ذاتياً في السائل أي انه حل الحامض المنبيك الذي لا يحول النور الى حامضين يحولانه احدهما الى اليمين والآخر الى اليسار . نعم قال مع ذلك انه لم يتمكن من ازالة الحاجز بين هذه المركبات لكنه لم يمتدح سوى ان الكيماء لم تستطع حتى الآن ان تستخدم في صناعتها سوى القوى المنتظمة وهذا لا يستفاد منه انه يوجد حاجز مطلق بين هذين النوعين من القوى . وقد صرح هو نفسه بذلك اذ اشار بازالة هذا الحاجز قال « فاذا اردنا ان نمائل الطبيعة وجب ان نتخطأ الطرق التي جرينا عليها حتى الآن ونستخدم الكهرباء اللولبية والمغناطيسية والنور ونحو ذلك من القوى غير المنتظمة » وقد قال ايضاً في غير هذا المكان « ان مركبات الحياة اذا كانت غير منتظمة فلانه تفعل فيها قوى عالية غير منتظمة وهذا فيما ارى الرابط الذي يربط الحياة على سطح الارض بالعالم أي مجموع القوى المنتشرة فيه » فيرى مما تقدم ان لا شيء من كلام باستور يحمل على الظن بانه يعتقد علمياً بان قوى الحياة من مصدر غير مصدر قوى الطبيعة ولا بانها جوهر مجرد بل هو اول من بين ظواهر الاختيار وقال انها لا تفرق بشيء عن التفاعلات الكيماوية

ذكر كزل فوجت في خطاب اقاده في مجمع جنيف العلمي من نحو خمس عشرة سنة ما تؤنره عنه قال « خذ عضلة من خفدع حي واجعلها في احوال مناسبة تمنع جفافها وفسادها وقدم لها من وقت الى وقت الدم اللازم ليقوم مقام المواد المغترقة منها كجين الهواء كما تقدم اللحم وقوداً للآلة البخارية فترى العضلة تتحرك كما هيبتها بالكهربائية كما يتحرك لولب الساعة اذا كانت دائمة . قال وتنفصل كذلك رأس حيوان عن جسده حتى يموت ثم لنحقق فيه بعد هذا الموت دماً صالحاً من حيوان آخر من نوعه نر الرأس يفتح عينيه وكل حركاته تدل على ان الحياة قد عادت اليه وعاد دماغه يشتغل كما كان يشتغل قبل القلع » وذكر المنتطف نقلاً عن الجريدة العلمية الفرنسية

في العدد الثالث من سنة التاسعة ما وقع للذكور يتسكن مع ذلك الرأس المقطوع الذي وقع على مقطع العنق واستقر على الرمل حيث وقع فخف نزف دمه فاخذ ينفس في الذكور المذكور ويجعل عينيه محققاً فيه حتى دار الذكور حوله ربع دورة وعيناه تنبعاث وتسلان اليه نظراً يدل على شدة الالم وادراك الحالة التي هو فيها .

وكل ذلك يدل على ان الحياة ليست جوهرًا مجرداً عن المادة وان تفاعلاتها اشبه شيء بالتفاعلات الكيماوية من حيث التمين والضبط . ونحن نعلم ان كل عمل حيوي انما هو نتيجة لازمة لتيسر في الجهاز العصبي وان المنصرف في هذا العمل ليس قوة حيوية بل كمية معينة ومقيسة من الحرارة ناتجة عن احتراق كمية معينة كذلك من مواد مخترقة يتناولها الحي على صورة طعام او غذاء والطبيعيون يردون الحرارة الى الحركة فلماذا لا تكون الحياة التي تتحول الى حرارة والتي لا تختلف تفاعلاتها عن التفاعلات الكيماوية نوعاً كذلك من الحركة المعتبرة اصل القوى الطبيعية . فتكون نسبة الحياة الى القوى الطبيعية كنسبة الانسان الى الحيوان بمعنى ان اصل الحياة كأصل سائر قوى الطبيعة وهذا لا يلزم منه ان تكون ناشئة رأساً من القوى المذكورة في حالها المعروف اليوم وان يكن ذلك غير ممتنع عقلاً كما ان الانسان ليس ناشئاً من القرد رأساً . أي ان الحياة لا يلزم ان تكون اتصال كمال القوة المبلورة بل من اصلها كما ان الانسان ليس اتصال كمال القرد بل من اصله . ولا يلزم ان تكون حركات الحياة كحركة دقائق الجهاد كما ان اعتبار القوى المعروفة من اصل واحد كالحرارة والكهربائية والنور مثلاً لا يلزم منه ان تكون حركات كل قوة منها كحركات الاخرى . ولا يمنع ان تكون حركات الحياة من جنس حركات الدقائق كما ان اختلاف حركات القوى الطبيعية لا يمنع كونها من جنس واحد . وبهذا الاعتبار لا تختلف قوى العالم بعضها عن بعض ولا تختلف موادها كذلك الاً اختلاف المركب عن البسيط او اختلاف الفصل عن النوع والنوع عن الجنس . وهذا الاختلاف لا يكون جوهرياً الاً اذا اريد بالجواهر الكيفية لا الذات وعليه فلا يكون في اعتبارنا تأثيرات المادة نوعاً من المس شي غريب باعتبار المس في ابسط احواله وباعتبار الحياة نوعاً من الحرارة والحرارة



نوعاً من الحركة والحركة صفة لازمة للمادة وام كل القوى . نعم إذا اريد بالحس كما يتبادر منه الى الفهم لغة يكون مثل هذا القول في متعنى الغرابة ولا يجوز ان يطلق على النبات ولا على غير الحيوان العالي الا ان الحس كما يراد به فيسيولوجياً يقسم قسمين كما تقسم الحياة قسمين كذلك حساً حيوانياً للحياة الحيوانية وهو يقتضي العلم به ويسمى حساً معلوماً . وحساً نباتياً للحياة النباتية كحس المعدة والقلب والاعوية الشعرية وسائر اعضاء الحياة الآلية ويسمى حساً غير معلوم ومن هذا القبيل أيضاً حركات اوراق السنط الحساس وغيره من جوارح النبات التي تقتضى الذباب ونمضه في اوراقها الملتفة عليه وتغذي به . فهذا الحس ليس فيه شيء من الادراك وهو بعيد عما يتبادر من معناه الى الذهن . فاذا صح ان يسمى هذا النوع من التأثير حساً جاز لنا مع مراعاة النسبة ان نتوسع ونقول ان المادة تحس لان نسبة تأثيرات قضيب معدني الى حس النبات السافل ليست ابعد من نسبة حس هذا النبات الى حس الانسان . ثم اذا اطلقنا الحس على الحيوان والنبات وجب ان نطلقه على كليهما لا على بعضهما ولا يخفى ما بين انواعهما من المباينة في ابداء دلائل الحس . ولا يخفى كذلك صعوبة التمييز بين عالم وعالم من العوالم الثلاثة بحيث تعتبر آفاقها مختلطة . قال الطيب في المقالة المذكورة آنفاً « والحاصل ان كثيراً من العلماء يرون ان الكائنات متداخلة بعضها في بعض فلا توجد حدود حقيقية فاصلة بينها لان ادنى مراتب النبات والحيوان متصلة ببعض مراتب الجماد » وكيف لا توجد « حدود حقيقية » بين عالم الاحياء وعالم الجماد وتوجد هذه الحدود بين القوى الفاعلة فيها بل كيف يمكن الاشتباه ان لم تكن القوة فيها من طبع واحد . لعمرى ان ذلك غريب

تقول ومن عجيب ما ورد في كلام الفلاسفة المتقدمين على هذا الارتباط والارتقاء أيضاً كلام لابن خلدون في مقدمته قال « ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدریج آخر افق المعادن متصل باول افق النبات وآخر افق النبات متصل باول افق الحيوان ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات ان آخر افق منها مستعد بالاستعداد القريب لان يصير اول افق الذي بعده

واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية « انتهى. والحاصل ان المسافة البعيدة التي كان يزعم انها تفصل الحياة عن سائر قوى الطبيعة فصلاً مطلقاً لم يبقَ منها اليوم سوى فرق جزئي لا يصح ان يعتبر كذلك. الا ان ذلك يدعو الى النظر في مسألة اخرى ربما كانت من اكثر المسائل اشكالاً على الطبيعي وهي التولد الذاتي

## الفصل الثاني

( في التولد الذاتي )

اعترض الأستاذ بر على الذين يجعلون الجراثيم سبب الامراض عموماً —  
والاستاذ المذكور ممن يذهب الى ان الجراثيم قد تكون نتيجة المرض لا سببه دائماً اي  
ممن يذهب الى التولد الذاتي للأحياء الدنيا — قال من مقالة نشرت في العدد ١٦٠  
للانبيون مديكل سنة ١٨٨٤ حاول فيها الفصل بين التدرج الرئوي والتنازيري ما  
نصه « ان الكباوي الذي يعلمني ان الالة الكباوية تقدر بزيادة مكافئ من الكالور  
ان تحول مادة غير سامة كالور كاورور الزئبق ( زئبق حلو ) الى سم قاتل كثنائي  
كلورورم ( سلفاتي ) والذي يعلمني ايضا ان مواد متساوية المكافئات الكباوية  
كالحامض البراطريك والحامض الطرطريك تقدر بموجب ناموس الازوميريا ان يكون  
لها خصائص مختلفة بحيث ان بعضها يحول النور المستقطب الى اليسار وبعضها الى  
اليمين ويعلمني كذلك ان مادة كالنصفور الابيض المتبلور السام يحول بموجب ناموس  
الالوترويا تحت حرارة ٢٤٠ الى جسم احمر عديم الشكل غير سام يريد ان يذكر علي  
التصديق بوجود الفة وايزوميريا والوترويا حيوانات قادرة على ان تفعل في جسدي  
كما تفعل في الاشياء التي من خارج وتولد في حالة المرض دقائق مريضة وانسجة  
مريضة كما تولد في حالة الصحة دقائق صحيحة وانسجة صحيحة ... » انتهى. الا ان



هذا القول وان كان معقولاً يرد عليه اليوم اعتراضات كثيرة يصعب دفعها وهو وان صح لا يفيد شيئاً في اثبات النشوء الذاتي من الجمار رأساً لانه انما هو كامن في الاحياء وواقع تحت فعل الحياة نفسها فلا بد لنا اذاً من تدقيق النظر في هذا الموضوع من وجه آخر فنقول :

ذكرت النشرة الاسبوعية في العدد ٩٧ من السنة الماضية اقراض جيل من الناس من اعظم الاجيال كان يعرف بالغنش وموطنه الاصلي جزائر كناري قالت وكانت غلة اقراضه ما مني من الاوبئة والعبودية وجور السبائين في القرن السادس عشر . اهـ . وذكر الطبيعيون كذلك اقراض كثير من انواع الحيوان منذ التاريخ فالدينوريس انقرض في زيلاندة الجديدة والايوريس في مدكسكر والدرنت وعدة انواع من السلاحف في جزائر سكارينا وقد قل الارخص في اوروبا كثيراً وبعض انواع البال انقرض من بحارنا والابريكوس والستريكس يقلان بسرعة في زيلاندة الجديدة <sup>(١)</sup> وانقرض كذلك اجيال كثيرة من البشر غير من ذكر وذكروا اسباب ذلك ايضاً وليس في ما ذكره منها شيء فائق الطبيعة ولما كان يعلم ان العصر الحالي لا يختلف عن العصور السالفة كان اقراض الاجيال الاحفورية القديمة قبل التاريخ ينسب الى اسباب مثل هذه الاسباب اي الى اسباب طبيعية كذلك

نعم يعلم كذلك ان انواع الاحفورية المنقرضة قديماً قد عوض عنها بانواع اخرى فلا بد اذاً من التعويض عن الانواع المنقرضة اليوم كما عوض عن تلك الهمم الا ان يكون عالم الاحياء سائراً اليوم نحو الاقراض الكلي وهذا لا يعقل ولا يسلم به احد ولا بد في هذا التعويض من احد وجهين اما بالتدرج اي بحلول الانواع الموجودة تحولاً بطيئاً متدرجاً وأما فجأة . فان لم يكن بالتدرج فلا بد من ان يكون بالخلق أو بالنشوء أي التولد الذاتي وفي كليهما لا بد من تكون الذكر والانثى في

(١) الدينوريس والايوريس والدرنت كانت كالابريكوس الذي لا يزال حياً من انواع الطيور الذي لا يظهر وكان قد الاولين اكبر شيئاً من قد العامة والستريكس كانت نوعاً من البيغا يقطن اوجار الارض وبنيه ظهور الليل الجوارح

الحيوانات العليا خاصة من غير ابرين . ولا يخفى . كيف ان تعب بوشه وجولي وموست وبستان وغيرهم لتوليد الاحياء الدنيا ذاتياً قد ذهب سدني وكيف ان باستور قد يئن استحالة ذلك في الاحياء الميكروسكوبية فمن يصدق به ياترى في الاحياء العليا واستعمال لفظة الخلق عوضاً عن التولد الذاتي لا يزيل الصعوبة لان الارادة الخالقة لا تظهر لنا الا بافعالها والعلم لا يستطيع أن يصعد الى تحقق ما وراء هذه الافعال فالخلق عنده باعتبار التعريف كالتولد الذاتي اي نشوء حي من لا حي ولا بدء من حدوث ذلك في يوم معين ومكان معلوم فما قولك في من يقول — اني في يوم كذا وساعة كذا ومكان كذا رأيت اسداً أو فيلاً نشأ وشب من الارض وهل يصدق احد — فالحقل لا يجسر أن يقول بالتولد الذاتي الا بعد ان يسميه خائفاً . ولا بالخلق الا بعد ان يؤخره الى زمان نحسب معه الازمنة الميتولوجية كالمس . فكيف يكون اذا هذا التعويض عن الانواع المنقرضة ان لم يكن بالتولد الذاتي في الاحياء العليا كما ذهب اليه ليل لانه والحالة هذه اصعب من الخلق . ولا بالخلق المتعاقب لان انقراض الانواع كما يعلم حادث بالتدرج فالتعويض عنها يقتضي أن يكون بالتدرج كذلك وليس في ما يعلم ما يؤيد به مثل هذا التعويض فلم يبق الا أن يكون بتحول الاحياء وتكون الانواع بهذا التحول كما مر في الكلام على مذهب دارون . ولو لم يكن في هذا المذهب سوى ايضاح هذه القضية ابصاراً شافياً لكفى به فائدة للعلم

قال بلانشار من مقالة في اصل الحياة في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٧ شباط سنة ١٨٨٥ ما يأتي :

« على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الا انه غير مقنع ويظهر لنا انه لا يحل المسألة وانما يزيدنا ارتباكاً فان لم تكن الحياة قد ظهرت على الارض ذاتياً بفعل احوال طبيعية وكيمائية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداء على احد كواكب نظامنا الشمسي وخصوصاً التولد الذاتي الذين يتعلقون بحال هذا التعليل كالملجأ الاخير لهم انما يبعدون حل هذه المسألة ولا يأتون



فيها بتعميل شاف . ولا يخفى ان الحل العلي الذي استعملنا بواسطته ان نعلم تركيب  
الكواكب الكيماوي أراثا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منها سيارتنا  
فالصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأكسجين والكربون والكلسيوم والحديد  
والثوريوم والبزموت والانتيمون والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنا . وقد  
علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا  
بدء اذا من ان تكون الاحياء الاول قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا .  
فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بان ارضنا انما اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في  
مروره في الفضاء اذ لا بدء من الاقرار في كل الاحوال بان التعضي قد وقع في المادة  
في أحد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذا الاصرار على انكار نشوء الحياة في  
الارض « انتهى والذي ارتأى أولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو  
السر وليم طمس الانكليزي ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكون البرد  
وقال انه يتكون من بخار موجود في الخلا الذي بين الاجرام السماوية فما اتم الخطبة  
حتى وقف السر وليم طمس وقال اظن الخطيب يمزح في ما يقول لانه لو فرضنا تكون  
البرد في تلك الاعالي لذاب قبل ان يبلغ الارض بملايين من الاميال . ولما جلس قام  
المورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً ارتأى رأياً أغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء  
هبطت على الارض من السماء . فقال السر وليم طمس انا لم احتم بصحة ذلك بل  
قلت بامكانه وبانه لا يمكن ان يقام دليل على فساد

واذا فقرر ذلك وعلمنا به ما بين الاحياء من الارتباط لا يبقى علينا الا النظر  
الى الاصل الاول الذي تفرع منه عالم الاحياء لتكون بفعل خلق خاص ام نشأ  
ذاتياً — ویراد بالنشوء الذاتي نشوء الحياة من المادة بقوة فيها — ونفي الخلق الخاص  
لا يلزم منه نفي الخلق الكلي ثم ما ذا كان هذا الاصل . وفي كلام النشوء والخلق  
لا بدء ان يكون هذا الاصل إما حياً كاملاً مؤلفاً من اعضاء مختلفة او مادة حية  
يتألف منها الحي . ففي مذهب النشوء لا يصح ان يكون حياً كاملاً لان ذلك يقتضي  
ان يكون هذا الحي قد تكونت من المادة وقواها رأساً بتفاعلات شبيهة بالتفاعلات

الكياوية بدون استعداد سابق فيها . ومثل هذا الحي يعتبر جسماً مركباً مختلطاً بعيداً جداً عما تستطيع التفاعلات المذكورة ان تعمل . ولا يصح في مذهب الخلق كذلك اولاً لان التعويض عن الانواع المنقرضة يستلزم خلقاً متعاقباً والآن تلاشت الانواع مع الزمان وذلك كما تقدم لا يعلم وثانياً لانك ترى ان الخالق سلك في الخلق على نظام معلوم فهو لم يخلق العوالم كما هي الآن بل قسم الخلق الى اطوار . فلما ان يكون قادراً ولم يفعل وإما ان يكون مثل هذا الخلق ممتعاً لخلق كل طور اعدادياً لما بعده لتوقف صور المادة على وجود المادة اولاً وتوقف الحياة على الصور الصالحة لها كذلك وفي كلا الامرين لا بد من مراعاة نظام معلوم ربما جازت تسميته اقتصادياً في الاول ويسمى ضرورياً في الثاني . وقد تقرر ان هذا النظام مطرد في سائر العلوم الطبيعية فالسما وكواكبها والارض وطبقاتها انما تكونت بالشوء بعضها من بعض بقوى موجودة فيها . فلماذا لا يكون كذلك في العلوم البيولوجية أي لماذا لا يكون سلوك الخالق في خلق الحياة كلوكه في سائر الخلق وأي دليل على انه خالف هذا النظام وهل تنقص الحكمة بذلك . فلا بد اذا في الخلق كما في الشوء من تكون المادة الحية من الجاد اولاً قبل الحي وهنا نقطة ملتقى الماديين بالاهلين . فاذا اردنا الكلام على نشوء الحياة وجب علينا والحالة هذه ان نبحث عنه لا في الحي نفسه مهما كان بسيطاً بل في هذه المادة الحية التي يتألف منها الحي لتعلم اذا كان مثل هذه المادة ممكناً لها ان تكون من الجاد رأساً وان تكون ذات حياة ايضاً

### الفصل الثالث

( في المادة الحية او البروتوبلازما )

اول من قال بمادة اولى حية الفيلسوف الالماني اوكن وسماها اورشليم من الالمانية وقوله بها كان من باب الفرض وكاد قوله بضعف لمناقضة الميكروغرافي اهرنبرغ له



لولا ان دوجاردن الطبيعي الفرنسي بين ان في الحيوان مادة مؤلفة من حبيبات متجانسة اطلق عليها اسم السر كود ثم عرف النباتيون وجود مادة في خلايا النبات شبيهة بالسر كود وسماها فون موهل بروتوبلازما وقد بين المشرح الالماني مكس شاتز وحدة السر كود والبروتوبلازما ثم تغلب اسم البروتوبلازما في العلم لما في معناه من المناسبة اذ معناه — المكون الاول —

ثم علم من التشرح ان جوهر الحياة غير قائم بالانسجة والاجهزة وما اشبه لانها غير لازمة لها وان تكن مما يؤثر فيها بل في هذه البروتوبلازما العرية عن كل صورة وعن كل بناء معين فهي لا جامد ولا سائل بل بينهما متجانسة كلال البيض ومركبة مثله من كربون وهيدروجين وازوت واكسجين وقليل من الكبريت ومواد أخرى معدنية . وهذا الامر مهم جداً فان المادة الحية ليست بسيطة بل مركبة من عناصر كياوية بمقادير معينة وزد على ذلك انها شبيهة بصنف من المركبات يعرف بالمركبات الزلاية وهذه لا شيء بحملنا على اعتبارها من طبيعة غير طبيعة سائر المركبات الكياوية الاعتيادية . ومن ثم يعرض لنا سؤال مهم وهو هل يستطاع توليد البروتوبلازما ومن ثم خلق الحياة كياوياً . ويجب التمييز بين توليد البروتوبلازما كياوياً والتولد الذاتي كما يفهم عادة فليس المراد هنا توليد احياء مركبة وان كانت صغيرة جداً ولا تكوين عنصر تشريحي منها كان بسيطاً وما يطلب من الكياوي ان يصنعه انما هو هذه المادة المتجانسة البسيطة التي يظهر ان الحياة كائنة فيها . وفي بادىء الرأي لا يظهر هذا الامر غريباً لان امتحانات باستور لا تطلق على البروتوبلازما الحرة العرية عن كل صورة والخالصة من كل صفة موروثية فيها ولكن على الخير وانواع التقاعيات وهي اجسام حية مركبة ذات تكوين معين وصفات قديمة موروثية أي على الاحياء لا على المادة الحية نفسها . أيما هذه المادة فغاية ما يعلم ان المركبات الكياوية التي تنحل هي اليها بعد فقدتها الحياة لا تستطيع ان تتركبها من نفسها . وهذا ليس خاصاً بها وحدها بل يطلق على سائر المركبات الكياوية فان الماء اذا انحلت الى عنصريه الاكسجين والهيدروجين فعنصره لا يتحدان ولا يركبان ماء ان لم يلبيها بشرة

كبر بائية او غيرها . فليس في ما تقدم ما يقتضيه اصل البروتوبلازما الكيماوي وتولدها الذاتي . وعدم امكان تركيبها كياوياً حتى الآن لا يفيد شيئاً كذلك ضد هذا الاصل لان المواد الزلائية تعتبر كسائر المركبات الكيماوية مع ان الكيمياء لم ينسر لها تركيبها للآن الا انه لا يقطع باستحالة ذلك عليها بناء على ما تم لها تركيبه بالكيمياء النموذجية وربما لا يطول الامر حتى يتم لها ذلك . الى ان البروتوبلازما وان كانت مركبة كسائر المواد الاليومينية فهي تختلف عنها اختلافاً كبيراً لانها عرضة لتغير سريع مع حفظ تركيبها كما هو . بخلاف هذه المركبات فان تركيبها الكيماوي لا يعود لها ولو لم يتغير الا قليلاً أي انها تمتاز عنها بالتغذية . وهي ليست قائمة بنمو بسيط والا لم يكن فرق بينها وبين البلورات فان البلورة اذا وضعت في سائل مشبع من محلول مادتها تنمو كذلك وتشبه في نموها نمو البروتوبلازما شبيهاً ظاهرياً ولكن عند تدقيق النظر يرى ان هذا النمو فيها يتم على نوعين مختلفين فالبلورة انما تنمو بجذب دقائق تركيبها الكيماوي كتركيبها ووضعها على سطحها وأما البروتوبلازما فتجذب اليها غالباً مواد مختلفة عنها فتحملها مثلاً بعضها وناذلة البعض الآخر ومتغيرة في حدود معلومة تغيرات كلية . فان تركيبها التشريحي والكيماوي يظهر انه واحد في جميع بيوض الحيوان وهي مع ذلك تولد هنا اسفنجاً وهناك سكة ومرة ضفدعاً واخرى حيواناً آخر ويمتاز عن البلورات كذلك بنموها المحدود فان البلورة لا حدة لنمو حجتها بخلاف البروتوبلازما فكل كتلة بلغت منها بعض اعشار المليمتر تنقسم من ذاتها الى كتلتين او اكثر وتولف الجسيمات الصغيرة المعروفة بالخلايا . فلم يكن في البروتوبلازما قوة تفعل في ظاهرها كما تفعل في باطنها لم يكن مثل هذا الانقسام والتغير والتحديد فيها ممكناً ولكن نموها لا يفرق عن نمو البلورات . فالبروتوبلازما تختلف اذاً عن سائر المركبات الكيماوية من حيث اختصاصها بالتغذية والنمو والانقسام والتوالد اختلافاً كبيراً وهذه الخصائص تختلف ايضاً عن المواد الزلائية . ولذلك ربما لم تستطع الكيمياء خلق الحياة وان استطاعت اصطناع اشد المواد الزلائية اختلاطاً ولا سيما اذا صح ان البروتوبلازما متجانسة . على ان من يذهب الى ان الحياة نتيجة التعضي ربما انكر على



البروتوبلاسميا نجا نسبها وقال ربما كان عدم تحققتا تعضيها ناشئاً عن ضعف الآلات البصرية  
الكبيرة لا عن عدم الشيء نفسه فالجواب على ذلك ربما لم يكن صعباً وهو: لا يخفى  
ان العين المجردة تبصر اشياء ليس لها من الغلط سوى جزء من مائة جزء من المليمتر قطراً  
كوبر الجلد وخيطان بعض انواع الزيتلاء واغوى ما لنا من المناظير برينا اشياء اصغر  
من ذلك بالفي مرة أي مما قطره ليس الا جزءاً من مائتي جزء من الالف او خمسة  
ملايين جزء من المليمتر فإذا أمكن معرفة المسافات التي تفصل بين دقائق الاجسام  
ومعرفة كبر هذه الدقائق هان علينا حل هذه المسألة

وقد توصلوا الى ذلك بطرق مختلفة فلوشميدت عين قطر الدقائق من النسبة بين  
كثافة غاز وسائل الناتج عن تكثفه. ووندرولس من الفرق بين قابلية الغازات  
الحقيقية للانضغاط وقابليتها النظرية لذلك كما في ناموس مربوط. وطلمسن من درس  
طبيعة النور في ابواق الصابون. وكلهم اتصلوا بهذه الطرق الى نتائج تكاد تكون  
واحدة<sup>(١)</sup> ولا يفرق بعضها عن بعض الا بكسر من المليون من المليمتر وذلك اقل  
قليلاً من حجم اصغر الاجزاء المنظورة باقوى تكبير ميكروسكوبي. ثم ان المواد  
الاليومينية<sup>(٢)</sup> تعتبر باجماع الكيماويين من المركبات التي دقائقها ذات حجم من اكبر  
الحجوم فلو كانت هذه الدقائق مركبة فيها تركيباً مختلطاً كالانسجة التشريحية لما خفي  
ذلك علينا. وبما ان البروتوبلاسميا تعتبر في طبعها كالمواد المذكورة كانت تعتبر متجانسة  
نظيرها طالما لا يعرف عنها ما يتفرض ذلك. ثم ان كل المراد بالتعضي ترتيب اجزاء  
متماثلة او مختلفة ترتيباً خاصاً معيناً فالاولى ان يطلق على المركبات الاخرى الكيماوية لا  
على البروتوبلاسميا فان دقائق تلك المركبات مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً شديداً يجعلها  
اثبت من البروتوبلاسميا المتغيرة على الدوام والتي تتنازع عن سواها من المركبات بعدم

(١) المباحث المتعلقة بذلك مبسطة جيداً في كتاب الرأي الجمهوري للعلامة ادولف ورتز الكيماوي

انتهر صفحة ٢٢٤

(٢) تركيب الاليومين حسب ليركن من كربون ٢٤٠ هيدروجين ٢٩٢ آزوت ٧٥ اكسجين ٧٥

كبريت ٢ أي ان كل دقيقة من الاليومين مؤلفة من ٧٨٥ جوهراً فرداً من عناصر مختلفة

ثبات تركيبها . وإذا اعتبرنا ان اقرب المركبات المذكورة الى البروتوبلاسم ما كان منها اقل ثباتاً من غيره جاز لنا حينئذ ان نعتبر مثل هذه المركبات الفاقدة كل ثبات الحلقة المتوسطة بين الجداد والحي فانها تختلف عن الجداد بعدم ثباتها وعن الحي بعدم اقتدارها على استرداد تركيبها مع هذا التغير بخلاف البروتوبلاسم كما تقدم فان تركيبها الكيماوي يتغير على الدوام مع بقاء صفاتها الحية كأنها الزوابع التي تتكون في مجاري المياه وفي البحار فانها تحفظ ذاتها زماناً طويلاً مع تغير دقائقها دائماً وقد اتبه التيزولوجيون الى هذه المشابهة منذ زمان طويل فكوفيه شبه الحي بهذه الحلقات الزوبعية وهكسلي يشبه بها كذلك اشارة الى بقاء الحي على صورته مع تجديد اجزائه . وصحة هذا التشبيه اكثر ظهوراً في البروتوبلاسم نظراً لبساطتها بالنسبة الى الحي المركب من اعضاء وانسجة مختلفة فليس في مادتها سوى تركيب كيماوي فقط وهي مع ذلك مقر لحركة خاصة تتناول من الخارج دقائق تحفظها في جوفها مادتها مدة معلومة ثم تنبذها وتأخذ غيرها وهكذا كما تفعل الحلقات الزوبعية المذكورة وهذه الحركة تماز حقيقة البروتوبلاسم الحية عن المواد الاليومينية وسائر المركبات الكيماوية فالحياة البروتوبلاسمية نفسها بل الحركة التي تحركها

يقي علينا ان نعرف طبيعة هذه الحركة فقد تقدم ان الطبيعيين والكيماويين كانوا في اوائل هذا القرن يحسبون القوى ايات مستقلة بعضها عن بعض ثم تحققت بعد البحث انها ليست سوى استحالات قوة واحدة هي الحركة . وجواهر المادة كما يتحصل من مباحث طمس التي مال اليها مشاهير علماء الكيمياء كورتز وغيره ليست سوى زوابع في الهبولى وجميع ظواهر الجاذبية والالفة ناشئة عن استحالات الحركة وكل شكل من الحركة يولد نظيره فاذا صدم جسم جسماً آخر تحرك الجسم المصطدم بحركة الجسم الصادم فالجسم الساخن يسخن الاجسام التي حوله والمثير يثيرها والمكهرب يكهربها وتحويل هذه القوى بعضها الى بعض لا يخفى على اهل العلم ولا يخفى عليهم ان هذه الحركات كما تركبت عسر تحويلها ويعلمون كذلك ان هذه الحركات لا تتلاشى . وقد تحقق بالبرهان كما يشهد هلمهولتز وطمس ان الحلقات الزوبعية التي يشبهون



بها الجواهر الفردة ابدية ازلية لا قبل القسمة ومعلوم ان الجواهر الفردة كالحلقات الزوبعية المنتشرة في السائل المتكونة فيه حركات في هذا السائل لانها اجزأؤه نفسها فذاتيتها قائمة بهذه الحركات . الا انه لا يعلم اذا كانت اجزأؤه الهيولى التي تؤلف الجواهر الفرد لا تتحدد دائماً لان هذه الاجزأؤه لا تظهر لنا الا بعد دخولها في الزوبعة فاذا كان ذلك كذلك فالاجسام لا توجد الا بنوع من التغذية شبيه بما يحصل بالبروتوبلازما

ومما يمكن من ذلك فاننا نرى بهذا المثل ان الحركة في الهيولى تولد ذواتاً حقيقية ثابتة يفعل بعضها في بعض متغيرة الى ما لا حد له بدون ان تفقد استقلالها مظهره بدوام نوع اهتزازاتها انها تحفظ نوعاً من الذكري لما يؤثر فيها . نعم ان ذلك ليس الحياة كما يراد بها الا ان معرفتنا بان صور الحركة كلها تركبت واختلطت صكونت اجساماً تقترب اكثر فاكثر من الاحياء لا تكون بدون فائدة . نفرض ان حركات متشابهة او مختلفة نتناول بعض الزوابع المتكونة في الهيولى وتركبها عوضاً عن ان نتناول الهيولى نفسها فان هذه الزوابع لا تبقى على حالها لان اشتراك الحركات حينئذ لا يحدث عنه نفس الحركات أي انه لا يتولد عن تركيب الزوابع او الجواهر نفس هذه الجواهر بل ينشأ عنها كائنات اخرى مختلفة عن الدقائق التي تؤلفها ذات حجوم معينة على الدوام بدون ان تفقد جوهرها حافظة فيها نوعاً من الذكري للتأثيرات السابقة الطارئة عليها أي انه ينشأ عنها انواع البروتوبلازما

فاذا كانت انواع البروتوبلازما قد تكونت من هذه الحركة في اول الامر كما تكونت العناصر فربما لم يكن تكونها كياوياً او بفعل الطبيعة ممكناً اليوم لعدم امكان ذلك في العناصر وربما كانت انواعها المتولدة في هذا الطور متعددة كما ان العناصر متعددة . الا ان ذلك لا يجعل الحياة من مصدر آخر غير مصدر القوى الطبيعية . فالحياة كسائر القوى نوع من الحركة وبهذا الاعتبار يجوز ان يقال قوة حيوية كما يقال الفة كياوية الا انها غير القوة الحيوية للحيويين . فهي هنا خلافاً لتلك كسائر انواع الحركة خاضعة لناموس الميكانيكيات وهي البروتوبلازما كاللفة للمعادن ذات

أفعال معينة تضاف الى القوى الطبيعية لا انها تعرض على المادة فتبطل فعل هذه القوى منها وعليه فان كان المراد بمذهب النشوء تولد حي من لا حي بفعل القوى الطبيعية المنتشرة في العالم فهذا يصعب تقضه وهو كائن بالبروتوبلازما والآ فان كان المراد به حصول التولد الذاتي اليوم فربما لم يكن ذلك ممتمعا الا انه غير ضروري لمذهب النشوء. واما بعد ذلك فكوفيه صاحب ثبوت الانواع وحكيلي صاحب تغيرها الى ما لاحد له يلتقيان عندهذه النقطة وهي « كل حي من حي » وتوجد اليوم ايضا في البحار والمياه العذبة حتى الارض الزدية كائنات بسيطة تعد من اقرب الصور الحية الى الصور الاصلية كالمونير والبائيبوس والبروتوباسيبوس واشباهها على ان الآراء في التولد الذاتي منها اختلفت فانها متفقة على حصول ذلك بقوى الطبيعة أي بالنشوء كما تكونت سائر العوالم بالنشوء ايضا والعقل لا يأبي ذلك ولا سيما بعد ان مهد العلم له سبيل القول بوحدة الكون بما قرره من الارتباط بين العوالم ولا يرى فيه ما يحيط بشأن الخلق عند المؤمن خلافا لما يظن ان كل ما خالف ما قام في مخيلته هو جهل و بطلان وضلال وبهتان وهذه دعوى لا يقو لها الا مثل من لا يرى العلم الا في تحريفه. سئل احد كبار العلماء والفلاسفة المؤمنين ما قولك في مذهب دارون وكيف تصنع معه بخلق الانواع فقال « اذا كان الذي يصنع ساعة يعد عظيما فلا شك ان الذي يصنع ساعة تصنع ساعة يكون اعظم ايضا » انتهى

## الخاتمة

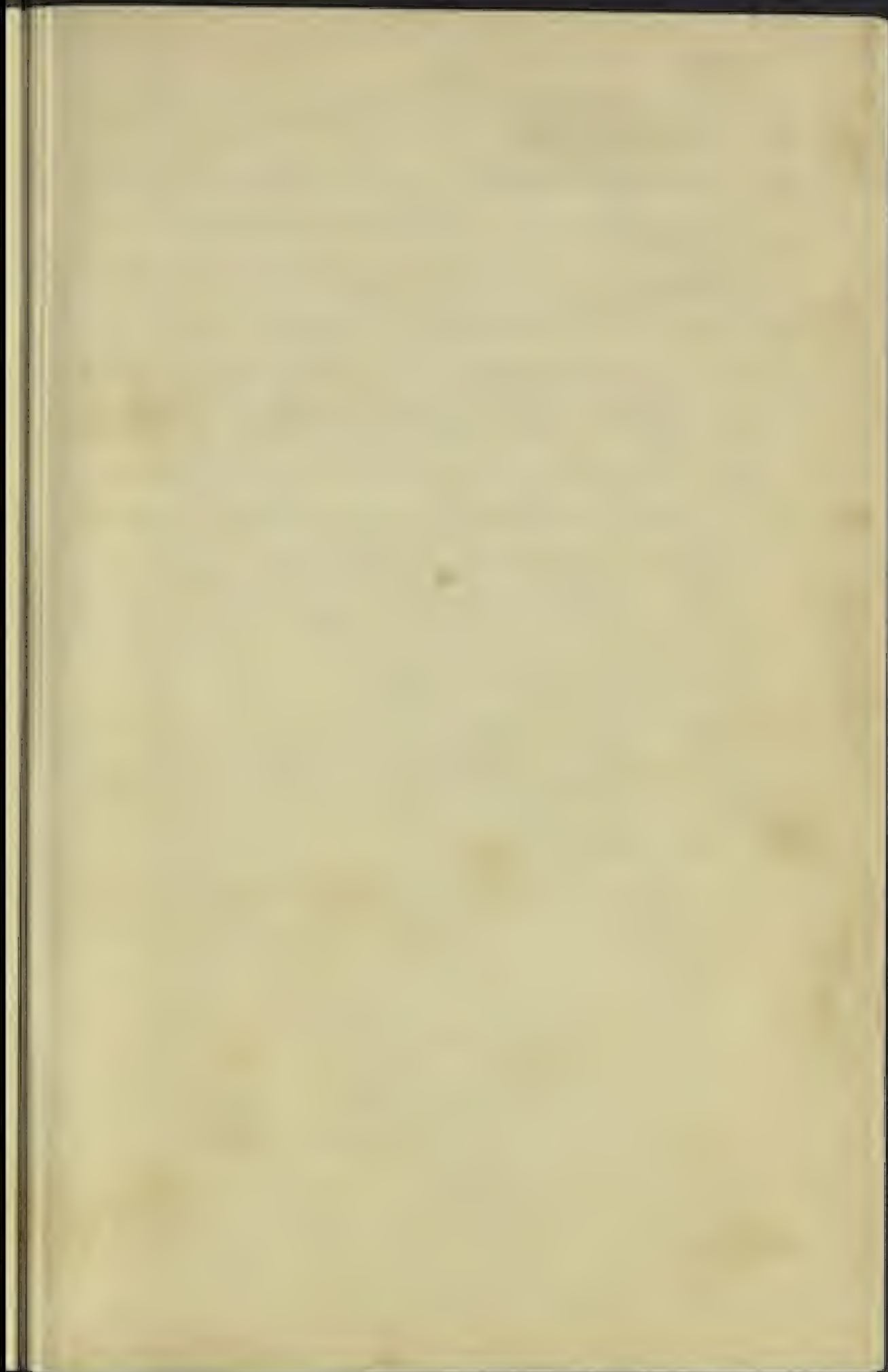
( المال للعمل كالعلم للعقل )

هذا ولا شك ان البحث احسن الذرائع للوقوف على الحقائق لكن لما كنا غير قادرين على تجري كثير من المسائل العلمية بامتحانات تعيدها واكتشافات تبديها كان علينا ان نبحث في اعمال غيرنا ممن نوفر لهم ذلك والاستنتاج بحسب ما ترشدنا اليه افهامنا. واذا كنا قاصرين عن تولي امر كثير من هذه المباحث بانفسنا



فلأن الطفرة في كل شيء محال فدخل العلم الى بلادنا حديث العهد جداً ولا يخفى ما يلزم للقيام بمثل هذه الامور العظيمة من الاستعداد في النفس والتفرغ للعمل وغير ذلك من المعدات والآلات مما لا ينال الا بالمال الذي لا يحصل عليه الا بانضمام القلوب وانعقاد الهمم حتى ننقل من صف الخليات الى مراتب البشر ونصير لنا ذاتية مستقلة نعرف بها وهذا يحتاج الى العبرة الوطنية . واني بكل اسف اقول ان تربية هذه المزية فينا لا يزال يلزم لها زمان طويل حتى تقوى . على ان ترونا مجتمعة هي دون ذلك بكثير فكيف بنا واغنياؤنا القادرون لاهون وافرادنا المشتغلون بالعلم قليلون وهم بسلاسل العسر مكبلون الا اننا يبحثنا في اعمال غيرنا على ما في امكاننا نهد السيل لاولادنا فيأتون من بعدنا وبهم في النفس قوة وفي العقل استعداد أعظم من قوتنا واستعدادنا فيتولون القيام بهذه الاعمال العظيمة بانفسهم وتحقق بهم امانينا التي نصير بهم آمالاً تنال واعمالاً تتسابق في مضمارها عم الرجال . انتهى <sup>(١)</sup>

(١) قال البروفسور موريس غليري في خطبته الافتتاحية في ( السوربون ) في فرنسا المنشورة في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٦ مائنة ( واني لا اسف جداً ان ليس في امكاني ان ادفع محمد نظركم لزيادة البيان كل ما يلزم من الأدلة المتوفرة في ( فيسورت ) في كولد سبرين مريور ) او في ( برزبرام في فرنسا ) ثم معيدين حتى اليوم في العلوم العقلية لاننا لا نزال نتظر ( كرنجينا ) ينهر الى كرنجيني الحسن الاعظم ) انتهى . فاذا كانوا اليوم في فرنسا لا يزالون يقولون مثل هذا القول افلا يكون قولنا السابق وقد قبل منذ ٢٥ سنة احق بان يقال فينا امس واليوم وغداً ايضاً . ونعل بعض المازولين وهو بهم في ذلك المحين يحملون اليوم من انفسهم لاستفادهم على مثل هذا الكلام ولكن الصحافة في رؤوس الصغفاء في كل مكان وزمان ليس لها حد .





ملحق

في

مباحث في الحياة

لأنبياء

الرأي المادي فيها

من

سنة ١٨٧٨

استفهام<sup>(١)</sup>

حضرة منتقى المتططف الفاضلين

قرأت في الجزء الاول من السنة الثالثة من المتططف المفيد كلاماً وجيزاً في ما خص  
 الحيوة وهل هي من الظواهر الذاتية الطبيعية الخاضعة لنواميس الطبيعة في مبدإها  
 ومبدأ الانواع الحية ام هي خالق خالق رسم صورة كل نوع واودعها في جرمومة  
 خصوصية وقد اشرتم فيه الى الاختلاف الكائن بين جمهور العلماء من هذا القبيل  
 وتعسف بعضهم ثم قلتم ان هذه المسئلة قاربت النهاية وان الحزب القائل بخلق البرزور  
 او الجراثيم على انواعها دفعة واحدة في بادي الخلق قد استظهر على سواه بناء على  
 تجارب احد فطاحله العلامة تندل الشهير وقد راسل بها العلامة هكسلي يصفها له كما  
 في الجرائد وبعلمه ان الحيوانات التي زعم الخصم بتولدها من نفسها اتت من الهواء  
 المنتشرة فيه بزورها ولو انقطع الهواء عن التراكيب التي يزعم هذا الخصم ان الحيوة  
 تتولد فيها لبقيت كل ايامها خالية من اثر الحيوة ومن عبارتكم يظهر ان كل دليله قائم  
 على انقطاع الهواء عن تلك التراكيب وهو كلام منقوض لا يبنى عليه حكم كما لا يخفى  
 حضرتمكم لانه هل يمكن ظهور حيوة او حفظ حيوة ظاهرة اذا امتنع الهواء واذا كان  
 لا يمكن فلماذا توهم السبب في عدم وصول البرزور المزعوم بها الى هذه التراكيب وليس  
 في انقطاع الهواء نفسه عنها طالما نعرف جيداً ان لا حيوة حيث لا هواء على ان  
 العلامة المذكور لم يكن يعتمد على مثل هذا الدليل ولعل له او لغيره ادلة اخرى علمية  
 قاطعة لا تنقض حتى زعم بنوزه وفوز اصحابه ، فترجو من حضرتمكم على ما عودتم قراءكم  
 من الارشاد والافاداة ان تفيدونا اذا امكن في مقتطفكم عن حقيقة هذا الامر الذي بهم  
 العلم جداً لما يتوقف عليه من الامور الكلية في سيره جزاكم الله خيراً ولكم الفضل



## (١) الحيرة غلة البحث

ما احسن قولكم الحيرة حيرة العلماء — والحيرة هي سبب البحث وهو غلة العلم ولولاها ربما لا ينسى الانسان شيئاً ولكنه بكل تأكيد لا يتعلم شيئاً

قد اطلعت على ما اتيت به من الافادة . اما قولكم وظاهر الاعتراض انه حاصل من نوحه الانقطاع بمعنى الاتزاع وهو خلاف المقصود الخ . فيوهم بانه اذا ارتفع هذا الوهم سقط الخلاف والحال كلاً . ولو جاز لي ان اتهم ذلك من كلامكم لما جاز لي ان اتوهمه فيكم ولا ان ارجعكم في مسألة ترجع حينئذ الى ايسر مبادئ الكيمياء والفيسيولوجيا بل كنت متيقناً ان الكلام يحتاج الى بيان آخر وقد اشرت الى ذلك بقولي . ولعل له او لغيره ازالة اخرى الخ . والانقطاع في هذا المقام اهم مما تقولونه حضرتم فهو لا يستلزم بقاء المنقطع في المنقطع عنه ولا سيما اذا كان الكلام علمياً عاماً فعتبر فيه المواد والعناصر كأنها مستقلة فيفهم منه الفصل ايضاً . وسواء كان هذا المعنى محتملاً او غير محتمل فهو ليس المقصود ولا يغير شيئاً من مركز العبارة ولا من قيمة النتيجة لان قولكم وهو بمقام الدليل « ولو انقطع الهواء عن التراكيب المشار اليها لبقيت كل ايامها خالية من اثر الحياة » لا يفهم منه مرادكم اذ مرادكم بالتراكيب المشار اليها التراكيب المنقطع عنها الهواء الخارجي والتي ماتت جراثيمها وهو غير مذكور ولو كان مذكوراً لارتفع كل لبس في فهم المقصود . ولا يرتفع هذا الالتباس بالنظر الى اصلاح معنى لفظة انقطاع كما اسلفتم لانه اذا كان المراد بانقطاع الهواء عن المركبات عدم وصول الهواء الخارجي اليها مع بقاء هوائها المتخلل فيها فالمسئلة لا تزيد وضوحاً . أليس الهواء المتخلل تلك المركبات والمنفصل عن الهواء الخارجي هو ايضاً مركباً من مزيج قاعدته الحيوية الاكسيجين واذا كان كذلك فلماذا لا يصلح هو نفسه لان يولد حيوة كما يصلح لان يحفظ حيوة حتى تكلف لمساعدته جراثيم وبزوراً عجزت اقصى

(١) نشرت في مختلف السنة الثالثة رد على مقال الدكتور عنوان الحياة حيرة العلماء سنة ١٩٢٨

الامتحانات عن اظهار حقيقة وجودها وان قلتم كلاً بل النتيجة في ذلك متوقفة على  
 تنقية الهواء وعدمها قلت ان ذلك لم يذكر هناك فضلاً عن انهم لم يتفقوا على اية  
 درجة تحصل هذه التنقية فيه وان اتفقوا على مبدأها وظالما الاعتراض مقبول لا يمكن  
 الحكم لفريق دون آخر. ولقد عدلتم كل العدل بايرادكم اقوال الطرفين ومبادي  
 امتحاناتهما المتفقين عليها وتناجها المختلفين فيها من هذا القبيل فكنتي بها هناك عما  
 بحسب ذكره هنا اعادة وتقتصر على ذكر ما يمكن استخلاصه من كل هذه المحاورات  
 الطويلة والامتحانات الدققة وغاية ما هناك ان اقوال كل من الطرفين ذات قيمة  
 واحدة والنتيجة من كل ذلك سلبية لغاية الآن اي لا تؤيد مذهباً ولا تنقض آخر  
 فلا وجه لحاكم بينهما بالعدل ان يشير بفوز احدهما ان لم يكن له اسباب وادلة اخرى  
 توجب له ترجيح القول وان قلتم ان الاستظهار الذي اشرتم اليه سابقاً مسند الى  
 امتحانات الدكتور تدل كما ذكرتم اخيراً قلت انها لم تسلم من الاعتراض وقد ذكرتم  
 حضرتكم بعض اوجه علمها وكنت اقرب ادلة اخرى من غير هذا الباب لانه طالما بقي  
 البحث محصوراً في دائرة الامتحان على تولد البكتريا مع ما فيه من الصعوبة الواضحة  
 التي توجد لكل خصم حجة ولم يساعد بمراقبات اخرى طبيعية ربما اشتغل الفريقان  
 زماناً اطول مما يظن ولم يأتيا على نتيجة واحدة. لانه لو سلم بأن السوائل الممتحنة  
 الموضوعة ضمن اوعية زجاجية محكمة السد بالصهر هي منفصلة بهوائها عن الهواء الخارجي  
 لا يزال في المسئلة صعوبة بان كليتان احدهما صلاحية الهواء الداخلي للحياة الذاتية.  
 والثانية. درجة امانة الجراثيم بالحرارة. ومما قيل في ذلك فما يدعيه الواحد بحجة  
 ينكره عليه الآخر بحجة ايضا وكلاهما يدعي الفوز له ولا نتيجة مرضية من كل ذلك  
 فلا بدء للوصول الى نتيجة واحدة من النظر في هذه المسئلة من وجه آخر وبما ان  
 حضرتكم استخلصتم بذكر فكركم بالترجيح بين القولين جاز لي ايضا ان اذكر فكري  
 من هذا القبيل بعد ان وضح ان لا نتيجة مرضية من كل ما تقدم فأقول

ان مذهب الجراثيم ام الانواع يقضي بالجزم بوجودها منذ البدء وهذا يقضي بأن  
 تكون محصورة العدد لا تزيد ولا تنقص ويقضي ايضا بأن تفعل هذه الجراثيم عند



مناسبة الظروف لها على نسق واحد ابداً اي على نسق النظام الذي صنعت بموجبه وهذا يقتضي بأن تكون مستقلة في صفاتها ويقضي ايضاً بأن يكون لكل عضو حسب نوعه وظيفة ما وهذا يقتضي بأن لا تكون موجودة اعضاء تُسمى اترية والحال اننا كثيراً ما نرى في الانواع افراداً تشذ عن القياس الطبيعي النوعي في بعض صفاتها مما يدل على ان بينها وبين الانواع الاخرى من جنس واحد ومن جنس آخر ايضاً كما بين لحيران والنبات نسبة تكوينية حتى يرى جلد معزى في جلد انسان مثلاً وامثال ذلك كثيرة في التاريخ الطبيعي ونرى ايضاً اكثر من ذلك اذ يشذ احياناً كثيرة المتولد عن قياس النوع ونرى ايضاً اعضاء يسمونها اترية لا وظيفة لها على ان الحكمة تقتضي ان تكون هذه الانواع المتضمنة منذ البدء في جرائم خصوصية مستوفية الخلق محدودة الصفات في نوعها وذات اعضاء معلومة الوظائف في نفسها ولا يمكن خلاف ذلك اذ تفقد حينئذ اهمية هذا التقييد التكويني اي اهمية الجرائم فهذا ما اريد ان اوجه اليه فكمكم الآن ولعل في مثل هذا البحث اعظم وسيلة للوصول الى الغاية

هذا واني استغربت جداً قول حضراتكم « واما اذا اعتبر الدين فالايان عندنا مقدم على البيان الخ » وعلى فرض صحة قول القائلين بالتولد الذاتي فاي ضرر من ذلك على الدين على ان بين موضوع بحثنا والدين فراسخ لانه كيف كانت نتيجة سواء كانت موافقة للتصوص الدينية المأثورة او غير موافقة فلا تمس اهمية الدين بشي كما ان اكتشافات دوران الارض لم يؤثر بحركة شمس بشوع بن تون وكما ان الاعتقاد العميق بأن الله موجود في كل مكان لم يؤثر بأهمية القول ايانا الذي في السماوات وكما ان معرفة الفلكيين حقيقة السماوات وانما لم تعد قبة زرقاء مرفوعة فوق الارض بل هي مجال فسيح تسبح فيه الاجرام السماوية ومنها ارضنا هذه لم يغير شيئاً من قول موسى عليه السلام وخلق الله العجل فاصلاً بين المياه تحت العجل والمياه فوق العجل وغير ذلك من المسائل التي رفض العالم الديني البحث فيها اولاً زعماً منه انها تمس الدين واخيراً قلبها كحقيقة راهنة قبل غيره ولعل الآفة في ذلك وما يجري مجراه سبق الاقتناع ولو صح ما تقولون لا كفى الانسان عن السعي في سبيل العلم بالقول ان كان ما يأتينا به

العلم مأذوناً به في الدين فهو منصوص عنه وما كان غير منصوص عنه فلا حاجة لنا به ومثلكم لا يسامع على مثل ذلك وأنتم بجانب كعبة العلم وكيف كان الامر فلا بد في كل شيء من قصد وفي كل قصد من افادة او استفادة

### الحس وأنواعه المختلفة <sup>(١)</sup>

منذ اهلل الطفل الى آخر نسبة من حياته يتنازع عاملان متناقضان يولدهما جهازه العصبي وهما الذئذ والالم والفرح والغم . فان الانسان للفرح حس الغاية في النمو يشعر شعوراً لا يفوقه شعور بفعل كل العوامل المحيطة به طبيعياً ومعنوياً بل هو الوحيد في جنسه الذي يقابل النمو بالرجاء والياس بالامل ويتردد دائماً في جميع أعماله بين الاحجام والاقدام لشدة مرهوبة أو لذة مرغوبة . وهو عالم بموته ينظر في مستقبله بخلاف الحيوان الذي لا يدخل في حساباته امر موته ولا شيء من مستقبله . على ان الحيوانات العليا كالكلب والثور مثلاً لها حس ولها ادراك أيضاً تتميز به هذا الحس . وأما اذا تفقروا في سلم الحيوان فترى صفة الحس تتناقص كلما صار التركيب أبسط حتى لا يعود الحيوان يحس باللم ولو قطعت أعضائه تقطيعاً بل يصير تقطيعه واسطة نموه اذ يصير كل جزء مقطوع منه حيواناً شبيهاً به . وتحت الحيوانات عالم النبات الذي أنكر عليه لينوس الشجر الحس بقوله النباتات تنمو وتعيش والحيوانات تنمو وتعيش وتحس . وذلك أشبه بما كان يذهب اليه ارسطو من أن جميع الكائنات الآلية ( الحيوان والنبات ) ذات نفس تختلف قواها باختلاف الكائنات . فكان يعتقد ان نفس النبات قوتين وهما النمو والتوليد ونفس الحيوان اربعاً وهي النمو والتوليد والحس والحركة ونفس الانسان خمساً وهي الاربع المتقدم ذكرها مع النفس أو العقل . ومما يكن من قول لينوس وارسطو فانكارنا الحس على ادنى النباتات بحسب خطأ كانكارنا اياه على الحيوانات العليا لانه موجود في اصفر النباتات كما انه موجود في اكل



الحيوانات . ولكن وجوده فيها على أنواع مختلفة وكأها لا تخرج عن الحد الذي حدّد كلود برنار الحس به حيث قال « الحس هو جملة التفسيرات الحاصلة في الجسم الحي بواسطة المبهجات أو هو تكيّف في التأثير لكيفية في المؤثر » . وقد قسم يشأت الحس الى ثلاثة أنواع : الحس المعلوم وهو المستولي على الحركات الظاهرة والحس غير المعلوم وهو المستولي على الحركات الباطنة والحس غير المحسوس به أي الذي لا تدركه العين وهو القائم بغير الحركات . وفي كلامنا نلحق النوع الأخير بالثاني وتقتصر على نوعين فقط وهما الحس المعلوم والحس غير المعلوم ميبين إمكان استحالة الواحد الى الآخر الأمر الدال على كونها نوعين لصفة واحدة فنقول

إننا لا نتعلم القراءة إلا بجهد جهيد وقال من يقول انه تعلم القراءة من دون أعمال النظر ولكننا بعد ذلك نقرأ صفحة بجملة من دون ان نشكر فيها فلا شك والحالة هذه انه حصل استحالة في نوعي الحس . كذلك في المشي وفي كثير من الأعمال الاعتيادية فانه كثيراً ما يكون الدماغ الذي هو عضو الإدراك لاهاً عنها بغيرها وهي جارية من دون علمه . وهكذا أيضاً اذا خزنا رجل ضفدع بكرة مثلاً فأها ترفع رجلها لتعورها بالأم وتحاول التخلص من يد عدوها . فالحس هنا من النوع المعلوم . ولكن اذا قطعنا رأسها أي مركز الإدراك فجسمها المقطوع الرأس لا يزال يرفع رجله الموهوذة ولكنه لا يحاول الحرب فالحس هنا من قبيل الفعل المنعكس فقط من دون علم . فبقطع الرأس في هذا الامتحان قد تحول الحس من نوع الى آخر . وأكثر أعضائنا الباطنة تستغل عادة على غير علم منا فقلبنا يضرب سبعين ضربة في الدقيقة من دون ان نشعر به ومن دون ارادتنا بل غصياً عنا أيضاً ولكن اذا فاجأنا أنفعال ما في الحال نشعر بشدة إحساسه . وتنفس أيضاً من دون علمنا ومن دون ارادتنا ولكن اذا انتبهنا قليلاً نعلم اننا تنفس وتنفس كما نريد . ومنى اكلنا فبعد ازدراد الاطعمة لا نعود نعلم بشيء مما يحدث فينا ومع ذلك فان حسنا لا ينقطع عن الانفعال بهذه المواد التي تتغير كجاًوياً وطبيعياً ثم تدخل في الدم وتصل الى ادق الدقائق الشريحية وتؤثر في حسها . ففي هذه الدقائق الاولى الآلية العديدة جداً التي تتألف من مجاميعها الكائنات الحية توجد

كل الصفات الحية الجوهرية ومن ثم الحس . فان فيها مادة جوهرية تعرف بالبروتوبلاسم وهي مادة لا شكل لها بنفسها ذات صفات غريبة قد يتكون منها جسم حي متحرك ذي محيط بالدقائق الصغيرة التي يجدها في الماء فيبعضها ويمثلها له . والاثير الذي هو الكاشف العظيم للحس يفقد هذه المادة شفافيتها وحركتها وإذا تطاير عنها رجعت لها سيولتها وصفاتها الحيوية . فهي اذا ذات حس ولكنه من النوع الذي يُعرف بالحس غير المعلوم . وكما صعدنا في سلم الكائنات الآلية رأينا فيها نوعاً من الكريئات التي تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ويختص بها الحس ويزيد بها قوة ونموً . ونعرف هذه الكريئات بالكريئات العصبية وهي منتشرة في الجسم الحي وتؤلف في الحيوانات العليا مجاميع مركزية تعرف بالمراكز العصبية تتركز فيها التأثيرات ثم تنضم أيضاً الى كريئات أخرى تعرف بالكريئات العقلية فهذه تعرف بها طبيعة الحس فيصير الحس من النوع المعلوم . وأنواع الحس المختلفة جميعها من طبيعة واحدة ويؤيد ذلك فعل المحدثات فيها . والحس هو اعم صفات الحياة فكل ما يعيش بحس ويمكن تخديره حيواناً كان أم نباتاً كما يتضح مما يأتي

كل من يعلم ان بعض النباتات اذا لمست تنفعل وان السنط الحساس تنقبض اوراقه وان كثيراً من النباتات آكلة اللحم تنطبق على الذباب وغيره من انواع الحيوان الذي يستقر عليها فتصطاده وتفتدي به . وليس من يجهل ايضاً تأثير النور في بعض الازهار التي تفتح في النهار وتذبل في الليل ومع ذلك فلم يكن احد يعلم بوجود الحس في النبات حتى بين ذلك كلود برنار اشهر فسيولوجي هذا العصر وفلاسفته يبراهين لا تدع معها سبيلاً للشك . فانه يبين ان المحدثات كالايثير والكلوروفورم تخدر بالسواء ارفع اشكال الحس المعلوم وادنى اشكال الحس غير المعلوم . فاذا خدرنا حيواناً بهذين المحدثين يفقد منه اولاً الحس المعلوم فيقع في نوم عميق ثم اذا طال الامر يفقد منه الحس غير المعلوم اذ يمتد تأثير المحدث الى جميع الدقائق العصبية المنتشرة في جسمه فيبطل عملها ويموت ويحدث هذا الامر عنه في النبات اذا خدر بالاثير والكلوروفورم فاننا اذا وضعنا احدى اوراق السنط الحساس تحت فعل احد هذين المحدثين لم تعد



تأثر بالحس وذلك لا شك ناتج عن قدها قوة الحس لا قوة الحركة بناءً على ما نعلمه من تأثير الاثير والكأوروفورم بالحس فقط دون الحركة . وهكذا اذا اخذنا احدى الحبوب السريعة التفرخ كحبة الجرجير ووضعناها على اسفنجة مشربة ماء فلا يمر عليها اكثر من ٢٤ ساعة حتى تنبت وينمو لها ساق وجذير . ولكن اذا راجعنا الامتحان مع مراعاة جميع الشروط اللازمة من الأكسجين والماء والنور والحرارة ووضعنا الاسفنجة تحت قابلة فيها اثير فالحبة لا تنمو ولكنها لا تموت بل تنام نوعاً بدليل انها تعود فنفرخ متى رفعت عنها القابلة وتطير الاثير . فهذه الحياة الخفية الساكنة التي تتضمنها الحبة لا نستطيع ان نظهر لوجود الأ شروط منها خارجية ومنها داخلية . فالشروط الخارجية هي الماء والأكسجين والحرارة وكلها شروط طبيعية وكأورية واما الشروط الداخلية فمرجعها الى واحد فقط موجود في نفس الحبة هو جوهر الحياة وهو الحس فاذا عرض له ما يوقف عمله امتنع النمو ولو كانت الشروط الاخرى مستوفاة . وهذا ليس خاصاً بالنباتات وبزورها لان بيضة الدجاجة ايضاً لا نستطيع التفرخ في هواء فيه اثير

ولا يخفى ان التعفن حاصل عن فطر صغير ميكروسكوبي يحلل المواد المتعفنة فيفتدي بعضها والبعض الباقي بحويل الى صورة جديدة . فمع كون هذا الفطر دينياً جداً في سلم الكائنات الآلية فالآثر يؤثر فيه وينبع عمله فيستع التعفن . وعلى ذلك فمن أدنى سلم الكائنات الحية الى أعلى ما يوجد على الارض من نبات وحيوان توجد فيه نفس هذه الصفة الجوهرية التي تتميز بها الحياة وهي واحدة في الذات ولو تعددت انواعها فبدونها لا حياة او بالحري لا حياة ظاهرة وبها تبدو كل حياة وينمو النبات والحيوان . والعقل الذي يضع الانسان في مركز يميزه عن سائر المخلوقات ليس سوى نتيجة مجتمع احساساته المشتركة بعضها مع بعض

هذا واذا نظرنا الى الحس من حيث كونه تكيفاً في التأثير لكيفية في المؤثر ( كما في الفقرة الثانية من تحديد كلود برنار ) فلا نستطيع ان نقفل باب الكلام في هذا الموضوع حتى نأتي ولو بإشارة فقط الى كون المادة ذات حس ايضاً بدليل انها تتأثر

حال كونها مؤثرة وتنفعل حال كونها فاعلة فيكون حس الاجسام الآلية مرتبطاً ارتباطاً  
الجزء بكلمة بتلك القوة العظيمة التي بها تتجاذب الاجسام بالنسبة الى مادتها وبالقلب  
كربيع البعد بينها اعني بها الجاذبية العامة التي هي عبارة عن حس المادة في أبسط معانيه  
واعم انواعه . اه

### كل السر في المادة (١)

جاء في مقالتي ( الحس وانواعه ) المدرجة في صفحة ٢٩٤ من السنة الخامسة  
المقطف ما ينحصر منه « ان المادة ذات حس » وان « الحياة خاصة من خصائص  
المادة » . وهذه الحقيقة وان كانت من الحقائق التي لا تقبل الرد في هذه الايام الا  
انه لا يزال يوجد طائفة من العلماء يحاولون انكارها وعلى ذلك جرى صاحب مقالة  
« الحياة والجاذبية » المدرجة في صفحة ٢٣٦ من السنة السادسة للمقطف في اعتراضه  
على ما جاء في مقالتي المذكورة من هذا القبيل فيباناً للحقيقة يترتب علينا جميعاً ان  
نبحث في هذه المسألة بحثاً لا يتجاوز حد العلم وانكاراً لما يذهب اليه هو واثباتاً لما  
ينكره يترتب عليّ أولاً ان اثبت ان المادة ذات حس وثانياً ان الحياة ليست سوى  
خاصة من خصائص المادة واذا تبين ذلك سهل علينا الحاق هذه الخاصة بالنواميس  
الطبيعية سواء كانت الجاذبية او سواها

### (١) المادة ذات حس

الحس بالشيء في أبسط معانيه واعم انواعه هو الانفعال به ولا يسع صاحب  
الاعتراض الا ان يوافقنا على ذلك والا يترتب عليه ان ينفي الحس عن النباتات  
والحيوانات الدنيا التي لا شعور لها ولا ادراك وهذا لا يوافق عليه احد من الطبيعيين  
والفسيولوجيين المعاصرين

من المعلوم ان المادة اذا لامست جسماً حياً تفعل فيه قهيج فيه الحس ولكن



من يقول لنا ان الجسم الحي لا يفعل في المادة ويحدث فيها تغييراً فلا شك ان الحياة تفعل في بعض الاوساط واكبر دليل على ذلك الاختار فاذا ترك محلول سكري كمصبر العنب مثلاً ملامساً للهواء فلا يلبث أن تدب فيه ملايين من الاجسام الحية الآتية بجراثيمها من الهواء . فهذه الاجسام الخيرية تنمو وتكثر بسرعة عجيبة وتحدث في المادة السكرية تفاعلاً كيميائياً يتحول به السكر بعد زمن معلوم الى حامض كربونيك وكحول ثم الكحول الى حامض خليك فوجود الاجسام الحية في هذا السائل قد غير خصائصه فلولا ما يكن هذا السائل يتأثر بهذه الاجسام الحية لما كان يتحال عند ملاسته لما اذاً هو يحس بفعلها . ولا يصعب علينا ان نأتي بامثال عديدة في هذا المعنى وان نبين ان النور والحرارة والكهربائية التي تؤثر في حسا تؤثر في المادة كما هو ظاهر من تأثير النور في المركبات الكيميائية المستعملة في الفوتوغرافيا فلولا ما تكن هذه المركبات تحس بالنور لما كانت لتأثر به . وكذلك اذا اجريتا مجرى من الكهرباء على قطعة حديد لين فالحديد يتأثر بالكهربائية اي يحس بها وهو ظاهر من اكتسابه قابلية جديدة لم تكن له قبل ذلك وهي اجتذابه الحديد اي صيرورته مغناطيساً . والحرارة كما نرى كل يوم تغير المواد تغييراً كلياً فتسيلها وتبخرها فكل هذه الظواهر تدل على ان المادة تحس بالعوامل الخارجية وهذا ما يراد به في تحديد كلود برنار للحس بقوله انه « تكيف في التأثير لكيفية في المؤثر » وعلى ذلك تكون الجاذبية التي تتجاذب بها الاجسام بالنسبة الى مادتها وبالقلب كربع البعد بينها عبارة عن حس المادة في ابطع معانيه واعم انواعه .

### ( ٢ ) الحياة خاصة من خصائص المادة

الحياة عند الحيويين قائمة بمبدأ حيوي قائم بنفسه مجرد عن المادة غير خاضع لنواميسها مع كونه ذا سلطان عليها يدخل المادة من حيث لا نعلم ويخرج منها الى حيث لا ندري . واما عند الماديين فالحياة حادثة من حالات المادة او كيفية من كفياتها خاضعة لنواميسها . ولقد احسن صاحب مقالة الحياة والجاذبية بقوله « قد اجمع

العلماء والفلاسفة على أن المذهب الأقوى دليلاً والابعد عن معارضة الحقائق هو الأرجح احتمالاً « فبقي علينا أن نعرف أية هي الحقائق التي يصح أن نسمي كذلك تلك المقررة في الذهن أم التي قررها العلم وأن نعرف أي دليل أقوى أدليل الحيويين القائلين في الحياة بالقوة الحيوية المنفصلة عن المادة أم دليل الماديين القائلين في الحياة بالقوى الطبيعية والكبائية المتصلة بالمادة وأقوى دليل للحيويين على القوة الحيوية هو أن الحي لا يأتي إلا من الحي ولا يمكن أن يتولد من المادة غير الحية بواسطة القوى الطبيعية. فعلياً إذاً أن نبين أولاً أن القوة الحيوية المزعومة بها لا وجود لها وأن الفاعل في الحياة هو القوى الطبيعية والكبائية وثانياً أن التولد الذاتي ممكن. فإذا ثبت ذلك سقط على ظني الحاجز الحصين الذي يقسم الحيويين بين الأجسام الحية والمادة فتكون كل الاختلافات العارضة على المادة في الكيفية والكمية أي في الصورة فقط لا في الماهية إذ أن جميع الأجسام العضوية وغير العضوية مؤلفة من عناصر المادة وخاضعة لنواميسها التي لا تنزع ع

○ القوة الحيوية لا وجود لها — انالاً نعلم الحياة إلا بالأجسام الحية المؤلفة من عناصر المادة ولا يوجد في الجسم الحي عنصر غير موجود في العالم المادي ونعلم أن ما يسمى قوة لا ينفك عن ملازمة ما يسمى مادة. فكل ما يحصل في الجسم الحي حاصل في عناصر المادة المؤلف منها ذلك الجسم بقوى المادة نفسها التي تعمل على نسق واحد في العالم العضوي والعالم غير العضوي كما نعلم من علمي الكيمياء والطبيعات اللذين لا يمكن الاستغناء عنها في درس الفسيولوجيا. فجميع الأعمال الحيوية مرجعها إلى القوى الطبيعية والكبائية كما هو ظاهر في التنفس والافراز والتثيل والهضم والامتصاص والدورة الخ. فإذا كانت أهم أعمال الحياة تتم بقوى كبائية وعلى مقتضى النواميس الطبيعية فإية حجة تبقى للحيويين لإثبات القوة الحيوية أو بالحري أي لزوم لها. وهنا أسأل الحيويين ومن تابعهم من أين أتوا بالقوة الحيوية أم من عالم المادة أم من غيرهم فإن كان من الأول فكيف أمكنهم أن يجردوها عن المادة وأن كان من غيرهم فكيف أمكنهم أن يدخلوها على المادة التي لا تنفصل عن قواها ولا تقبل سواها فما هي أدلتهم



العلمية على ذلك . وغاية علمي ان ليس لهم ادلة موجبة بل كل ادلتهم سالبة ينقضون بها حجة الماديين ويطلبون منهم ان يخلقوا لهم جسماً حياً من جسم غير حي فلننظر اذا كان ذلك ممكناً

التولد الذاتي — اعظم حجة كان يحتاج بها الحيويون على الماديين في التولد الذاتي هي عدم استطاعة القوى الطبيعية والكياوية على تكوين مواد عضوية من مواد غير عضوية مما كان يجعل حجتهم في القوة الحيوية قوية بحسب الظاهر لان عجز الوسائط التي للكياويين عن تركيب مادة لا يؤخذ منه عدم امكان تركيب هذه المادة طبيعياً . فان الالمانس مع كونه من المركبات التي لاخلاف في كونها طبيعية فالكيميا لا تزال عاجزة عن تكوينه ولو توفرت لها كل الوسائط ولم ينقصها سوى ذلك العامل العظيم اي الزمان الذي الف سنة منه في عين الطبيعة نظير امس الذي عبر لنقصها كل شيء . ومع ذلك فاحتجاجهم هذا لم يعد له قيمة من بعدما بين دهر سنة ١٨٢٨ امكان اصطناع الاوريا العضوية كياوياً من السيانوجين والنشادر غير العضويين ومن ذلك العهد الى الآن قد تقدمت الكياء جداً وصار في امكانها استحضار اكثر المواد العضوية من المواد غير العضوية بطريقة صناعية لا دخل للحياة فيها كاستحضار الكحول والحموض الفورميك وسكر العنب والحموض الاكساليك والمواد الدهنية حتى الاليوم والفيرين والخنودرين من مواد غير عضوية . فاذا كان مثل ذلك مستطاعاً في المعامل الكياوية فما المانع من ان يستطاع اعظم منه في العمل العظيم الذي فيه تعمل اعظم قوى الطبيعة فيتولد الحي من عناصر المادة تولداً ذاتياً والاجسام الحية المتولدة ذاتياً حسب هكل والتي يمكن مراقبتها هي الاجسام التي اطلق عليها اسم (Moneres) اي الحية وحدها فهي غاية في البساطة والمعروف منها للآن سبعة انواع بعضها يعيش في المياه العذبة وبعضها في المياه المالحة وهي ام الانواع وكل منها مؤلف من زرة صغيرة من مادة كربونية البيومينية من دون نسيج . وبما انه لا اعضاء لها ولا تقسيم عمل بل جميع ظواهر الحياة فيها تتم بواسطة مادة واحدة من طبيعة واحدة لا شكل لها فلا يمكن ان تكون أنت من جرثومة حية فلا بد ان تكون نتيجة التولد الذاتي آتية من المركبات الكربونية

الأشد بساطة وما المانع من أن تكون كذلك مع علمنا أن الكيمياء في إمكانها أن تكون مركبات كربونية من هذا القبيل . أليس ذلك أولى بالتصديق من الزعم بجرثومة طمس المحمولة على نيزك من النيازك أو غيرها من الجراثيم المزعومة بها وما هي تلك الجرثومة أو ما هي هذه الجراثيم الغريبة المصدر ومن أي العناصر هي مؤلفة وكيف تكونت فإذا كانت مؤلفة من عناصر المادة فهي تحت حكم النواميس الخاضعة لها المادة فما الداعي والحالة هذه إلى الخروج عن المادة لتفسير أعمال المادة التي فيها سر كل الكائنات . فهذه خلاصة من براهين كثيرة تؤيد بها حجة الماديين وتسقط بها دعوى الحيويين . ولكن لما كان المقام لا يسمح لنا باستيفاء كل البيانات التي جاءت من هذا القبيل اجترينا الآن بهذه المعجالة وفيما شديد أمل بالعود إلى هذا الموضوع كلما مكنتنا الظروف . اه  
طنطا ٩ ايلول ١٨٨١

### الحياة<sup>(١)</sup>

لا أعلم كيف جاز لجناب صاحب مقالة كشف الاستار عن الأسرار<sup>(٢)</sup> أن يتوهم بي المدول عن أن الحياة هي الجاذبية أو نوع منها مع أني لم أعدل حتى الآن وليس في كلامه : الحياة والجاذبية : ولا في : كشف الاستار عن الأسرار : ما يوجب بي سرعة هذا الانتقال وليس في كلامي شيء يوجه ولو كان فيه ذلك لالتفت له عذراً وأما قولي من مقالي السابقة « وإذا تبين ذلك سهل علينا التحاق هذه الخاصة ( أي الحياة ) بالجاذبية أو سواها من القوى الطبيعية » فلا يجوز لأي كان أن يتوهم منه ذلك فهو يحصّر الحياة في القوى الطبيعية وهذا لا يوجب الخروج عن الجاذبية إلى غيرها للمشاركة الكائنة بين القوى الطبيعية واستحالتها بعضها إلى بعض ولا اعتبار الجاذبية أم الباب فضلاً عن أن قولي في المقالة المذكورة في إثبات الحسن للمادة : — « فتكون

(١) نشرت في منتطف السنة السادسة سنة ١٨٨١ (٢) الدكتور اسكندر بارودي



الجاذبية العامة الخ . عبارة عن حس المادة الخ : — فيه من التخصيص ما هو كاف لازالة كل شبهة بالعاطي الحياة بالجاذبية فاذا كان الحس نوعاً من الجاذبية كانت الحياة بالضرورة ايضاً منها وهو على ظني كلام صريح لا يحتمل التأويل ولا يصح ان يؤخذ منه معنى العدول

وأما قوله ان الحس لا يصح ان يكون الانفعال لان من الانفعال ما ليس حساً وأنه لا يسلم بحس المادة حتى نبين له ان انكسار الحجر بالمطرقة هو حس لانه انفعال . فتجيبه عليه بما اجبتاه به في ما سبق وهو انه إما ان يسلم بالحس في النبات وفي أدنى الحيوان او لا فان كان الثاني كان اعتراضه في محله وإنما يبقى عليه ان يفصل الحس عن الحياة ويناقض الفيزيولوجيين ونفسه ايضاً . وان كان الاول ولا ارأه إلا ميالاً اليه ترتب عليه ضرورة ان يفهم بالحس معنى الانفعال فقط لان الحس فيه هو من النوع غير المعلوم وهو أشبه بانفعال المادة البسيط فما دام المادة تنفعل فهي تحس وعليه تبخر الماء بالحرارة واحتراق العود بالآثار واسوداد نترات الفضة بالنور ونفوذ الجسم الكهربي من كهربائيه وانجذابه بضدها حس أي تأثر أي تكيف أي انفعال فلو لم تكن المادة تحس لما كان الماء يتبخر ولا العود يحترق ولا الفضة تسود ولا المكهربات تدافع متشابهاتها وتجاذب متضاداتها فانكسار الحجر اذا حس لان انكساره هو عبارة عن تفرق اتصال في مادته لانفعالها بقوة مقاومة غالبة لقوة اخرى هي موجب اتصالها فاجتماع مادة الحجر هو لقوة كائنة في دقائقها تفعل فيها جاذبية الالتصاق وانكساره هو لقوة تفعل في مادته ضد ذلك كائنة في عمل المطرقة تحس بها الدقائق المنفردة ولو لم تكن تحس بها وبسابقها لما اجتمعت ولما تفرقت ولا تكون حجر ولا انكسر

وأما قوله في قولي : — ان ما يسمى مادة لا ينفك عن ملازمة ما يسمى قوة : — انه « دعوى لا يستطيع اثباتها » — وان جميع الاعمال الحيوية مرجعها الى القوى الطبيعية والكيمائية . — انه « ترد عليه شبهاته » فردود عليه بما يأتي وهو أولاً . القول بان ما يسمى مادة لا ينفك عن ملازمة ما يسمى قوة ليس بدعوى

بل حقيقة من أثبت الحقائق العلمية وإذا جاز أن يكون هناك دعوى فتكون بجانب من يدعي الخلاف وكيف يصح أن تكون دعوى ومبادئ العلوم الطبيعية تعلمنا أن المادة لا تعلم إلا بالقوة والقوة لا تعلم إلا بالمادة وتعلمنا أكثر من ذلك إذ تهمس لنا في آذاننا أن لا تصدقوا بقوة خارج المادة فهل له بعد ذلك أن يذهب بنا غير هذا المذهب ويضدنا عن قوة بلا مادة أو مادة بلا قوة فنسلم لما يقول ويصفق العلم لاكتشافه طرماً فيرينا الحرارة والنور والكهربائية وجميع القوى الطبيعية والكياوية أصلها وقرعها مجردة عن المادة والمادة مجردة عن الصفات والخصائص والقوى سمها كما شئت وحينئذ يسقط الخلاف بين العلماء بغلبة الحيويين . وإن لم يستطع فليسمح لنا بتكرار قولنا أن المادة الحية إنما تكيفت بالقوة اللازمة للمادة المركبة هي ( أي المادة الحية ) منها باستحالة في نفس القوة كما حصلت الاستحالة في نفس المادة

ثانياً . قلنا أن جميع الأعمال الحيوية مرجعها إلى القوى الطبيعية والكياوية وذكرنا لتأييد ذلك أهم الأعمال الحيوية كالتنفس والافراز والتشيل والضم والامتصاص والدورة الخ فاعترض بأن ذلك لا يدفع الشبهات التي أوردناها والتي قال أن جوابي له لم يكن فيه رد على واحدة منها مع أن الرد عليها متحصل من مجمل الكلام لو تدبر . ويظهر من كلامه أنه لا ينكر بأن الأعمال الحيوية تتم بقوى كياوية وعلى مقتضى نوايس طبيعية وإنما يشترط لها الاشتراك بمدير آخر غريب مجرد عنها يسمى بالقوة الحيوية هي مصدر شبهاته وسبب هذا الاختلاف العظيم بين الأجسام الحية والجناد وقد فاته أن المقابلة لكي لا تكون موهومة ينبغي أن لا تقتصر على إكل الأجسام الحية بل أن تشمل على أبسطها من مثل الكرية الحية التي تتألف من مجاميعها الأجسام الحية كافة والتي فيها أصل كل الحياة . فهذه الأجسام البسيطة إذا قوبل بينها وبين الجناد لم يكن فرق لافي المادة ولا في القوة ولا في المنشأ ولا في البناء ولا في النمو ولا في الشكل . أما في المادة فلأن العناصر المولدة منها الأجسام الحية هي نفس العناصر الموجودة في الأجسام غير الحية . وأما في القوة فلأن جميع الأعمال الحيوية بدون استثناء تتم بالقوى التي تتم بها جميع أعمال المادة أي بالقوى الطبيعية الكياوية . وأما في المنشأ فلأن الأجسام الحية



تتولد كما تتولد الاجسام غير الحية أي ان الحي يأتي من غير الحي وشاهد المنير  
والأميب والموناس وغيرها من المولدات البسيطة غير الآتية من جراثيم سابقة بل من  
عناصر المادة بقوة في نفس المادة ولا يعابى بانكار بعضهم لهذه الاجسام طالما يوجد من  
يؤيدها من ذوي المكانة من اهل العلم . وعلى فرض صحة عدم العلم بتولد ذاتي كما يزعم  
فذلك لا يجعله ممتعاً . وأما في البناء فلأن بناء الاجسام الحية الأولية بسيط جداً فهو  
بالسطة كبناء البلورات . وأما في النمو فلأن البلورات تنمو على مقتضى نوااميس محدودة  
والاجسام الحية تنمو على مقتضى نوااميس محدودة كذلك والفرق بينها ان النمو في  
البلورات يتم باضافة دقائق جديدة متشابهة الى سطحها الظاهر وفي الاجسام  
الحية باضافة دقائق جيدة متشابهة الى باطنها لتدخل فيها وهو فرق ظاهري فقط  
ناتج عن اختلاف في كثافة مواد الاجسام الحية والاجسام غير الحية . وأما في  
الشكل فلأن الحيوانات المشععة من جنس البروتست ذات تكوين هندسي كالبلورات  
محدودة بسطوح وزوايا هندسية والمونير والاميب والموناس وغيرها من العادة الشكل  
التي لا تثبت على شكل واحد بل تتغير في كل لحظة هي شبيهة بالاجسام غير الحية  
التي ليس لها شكل معين كاللحجارة غير المتبلورة والرواسب الخ

ففي ما تقدم نقض لشبهاته وإذا بقي هناك بعض احتمال فهو متعوض بما يأتي وهو  
ان وحدة القوة الفاعلة في المادة لا تستلزم مشابهة المادة في سائر احوالها أي اذا كانت  
الجاذبية اصل الحياة وهي موجودة في الجاد فلا يلزم ان تكون اعمالها فيه كاعمالها في  
الجسم الحي . فكما ان المادة الموجودة في الجسم الحي هي نفس المادة الموجودة في الجاد  
مع ان الفرق بينهما جسيم فكذا أيضاً القوة الموجودة في الجسم الحي هي نفس القوة  
الموجودة في الجاد ولو بعد الفرق بينهما واذا صحت استحالة المادة الى ما يجعل  
الفرق بينها في الجسم الحي وبينها في الجاد كلياً وهي واحدة في كليهما فلماذا لا تصح  
هذه الاستحالة نفسها في نفس القوة مع وحدة اصلها . والاستحالة في القوى امر معلوم  
فالجاذبية تستحيل الى حركة والحركة الى حرارة والحرارة الى كهربائية وهي الى نادر  
وبالعكس مع ان الحركة هي غير الجاذبية والجاذبية هي غير الكهرباء في الظاهر ولو صح

ما افترضه من لزوم مشابهة الجاد والحي لو كانت الحياة جاذبية لصح لنا ايضا بالقياس عليه ان نسأله لماذا لا يتشابه الكحول والسكر والنشا والشمع والاماس والفحم ولماذا يتلور الذهب على مشعات هرمية والبرموث والاقليمون على مسدسات واليود والكبريت على مربعات ولماذا تتحد الاجسام بعضها ببعض على نسب مختلفة ولماذا يكون بينها تفاوت في الالفة فان القوى الطبيعية والكياوية واحدة في جميعها وفي بعضها العناصر واحدة والمقادير ايضا واحدة فيما يجينا عن هذه الفروقات الكلية الواقعية مع وحدة القوى الطبيعية نحيه نحن ايضا عن الاختلافات التي بين الاجسام الحية والجاد فيضهم حينئذ كيف ان الحياة هي الجاذبية او نوع منها اللهم الا اذا قل لنا بقوى اخرى خاصة بكل مادة منها وبكل حالة على حكم القوة الحيوية لتصل بها وتنفصل عنها وتعمل هذا الفرق بينها وذلك اقرب الوجوه للتخلص الا انه يكون فيه منفردا حتى بين طائفته ويرتب عليه ان يفتشم اثباته ودون ذلك عقبات لا تقطع . وأما ما ذكره عن هكسلي وهكل بانهما رأيا بطلان زعمهما ( أي القول بالمولد الذاتي ) وانهما انكرا الباثيوس والمونير وغيرهما من جنس البروتست كلاميب والموناس وصارا بعدانها بين الاوهام فيحتاج الى اثبات فانهما على ما اعلم لم يريا بعد بطلان مذهبهما ولم يرجعا عنه وسواء علينا رجعا او لم يرجعا والذي اعلمه علم اليقين انهما ما برحا يؤيدان هذا المذهب ولم ينفردا فيه وحدهما بل انصارهما كثيرون وعددهم يزداد يوما عن يوم لازدياد الاكتشافات واتضاح الحقائق العلمية فكيف أمكنه والحالة هذه ان يرد الى مذهبه عصبية قوية صعبة جدا بمجرد كلام ليس فيه صعوبة او كيف جازله ان يضرب فيهم مثل ذلك الفلكي الذي سقط الجاحب على زجاجة نظارته وهو لعمري الحق اولى بطائفة الحيويين الذين اقاموا من الاوهام حقائق . ولا اقول ذلك استخفافا بل انما اقول الواقع فان القوة الحيوية التي يزعمون بوجودها ليست والحق اولى ان يقال الا بقية اوهام تجليات مجازات الغيوم وركبت على أجنحة الرياح وطارت وطارت في طبقات السناوات واحتجبت فيها والا فليقل لي جثابة : — ما هي القوة الحيوية ومن اين امت وما نسبتها الى المادة والاجسام الحية — فارجوه ان يجاوبني على هذا



السؤال ( الذي تقدم مني والذي سدل عليه الستر في مقالته كشفه الاستار عن الاسرار ) بكلام لا يدع معه مجالاً للتأويل انتهى

### (١) الحياة والجاذبية

ان تأييد القول في كون الحياة جاذبية وكون المادة ذات حس باعتبار الحس في ايسر ما يكون عليه لا بد فيه اولاً من تجريد الحياة من كل قوة فوق الطبيعة لكي يمكن حصرها في القوى الطبيعية أي في قوى المادة نفسها . وهذا هو السبب الذي جرتنا في المباحث الى انكلام في ملازمة القوة للمادة وفي التولد الذاتي وما يتضمنه من تكون الانواع الحية متسلسلة عن بعضها على سبيل الاستحالة مما تبرأ منه جناب المقترض بقوله ان تلك مسائل لا يعنيه امرها في هذا المقام مع انه يستحيل حصر الكلام في الحياة والجاذبية الا بعد الاتفاق على نسبة الحياة الى المادة لتعرف أعارضه هي أم لازمة وبغير هذا الاتفاق يكون البحث في الحياة والجاذبية ضرباً من العبث فكل واحدة منها مقدمة ونتيجة معاً للباقي فلا يصح ان يعد النظر في هذه المسألة على هذه الصورة شروداً او عدولاً

ولقد تقدم بيان ذلك فيما سبق جملة على قدر الامكان فقال انه لا يزال غير واف بالنقص لا في اثبات الحس للجماذ ولا في كون الحياة جاذبية ولا في غير ذلك لان الجماذ لا يصدق عليه الانفعال الحيوي اذ لا يؤثر الاثير في انفعاله ولا تفعل الجاذبية فيه ما تفعل الحياة في الحي ولا يخفى ما في ذلك من المؤلخدة مع ان القوة التي تفعل في التبلور على قياس معلوم تختلف سبب عملها كثيراً عن سواها من القوى الطبيعية كالحرارة مثلاً فهي مقتضى قياسه يجب ان يكون بينهما فاصل في التابع فان

سلم هذا سلم له ذلك ايضاً . فاذا كان الاثير لا يظهر فعله في الجماد فذلك لا يتخذ حجة على اختلاف طبع ما يفعل في انفعاله عن طبع ما يفعل في الاجسام الحية لان القوة تختلف ظواهرها بحسب مظاهرها والحس نفسه غير متساو في طبقات الاجسام الحية ولا انفعاله بالاثير فيها على حد واحد وقد لا يؤثر في ما كان منها بسيطاً جداً او لا يظهر لنا تأثيره كما في المركبات الآلية . ومن المعلوم ان من خصائص المواد الحية سرعة انحلالها فإين انحلال بعض المواد الحيوانية من انحلال بعض المواد النباتية التي تكاد تكون في ثبوتها كالجماد أ يمنع ذلك النسبة الكائنة بينها او لا يعتبر هذا الفرق بينها نسبة متدارجة . فلماذا لا يعتبر هذا الفرق في الجماد كذلك نسبة انحلالها في طبقات الكواكن . العلم لا يقر باستعالة المواد والقوى فإين الفكر المركب من الحس البسيط وأين الكهربائية من الحركة . فالقوة العامة في الكون والتي اصطلاح العلماء على تسميتها بالجاذبية سواء أفاد هذا الاسم شيئاً او لم يفد هي القوة التي ترجع مركبات القوى الى بسيطها وهي التي ترجع الحياة اليها ايضاً . وقوله ان اعتبار الانفعال في الجماد حساً بسيطاً شيء جديد لا يراه موافقاً لآراء العلماء ولا منطقياً على تعاريفهم قلت ان بحثنا ليس فيما هم متفقون عليه بل فيما هم مختلفون فيه والأما كنت داع لذلك كله

وأما قوله ان العلوم غير الطبيعية تعلمنا بان القوة قد تنفك عن المادة فنجيبه ان العلوم الطبيعية لا تعلمنا ذلك وبحسبنا فيها لا في تلك . قال ان وجود قوة لا تلازم المادة ممكن وضرب لذلك مثلاً ملازمة الحياة للمادة الى زمن محدود قلنا متى مات الجسم الحي اين تذهب القوة الحيوية اتبقى كائنة في مواده ام تنارقها اصلاً . أما نحن فنعلم ان المادة لا تتلاشى والقوة لا تتلاشى كذلك فلا شيء من مواد الجسم الحي يتلاشى من العالم المادي متى مات ولا شيء يتلاشى من القوى التي فيه فمواد الجسم الحي متى انحلت لتغير كثيراً في الصورة عما كانت عليه فيه كذلك الحياة تتغير في الخاصة ايضاً فهذا ما نذهب اليه وينذهب اليه اكثر الطبيعيين . ونحن لا نكر بان كيفية ذلك تخفى علينا ولكن تخفى علينا أمور أخرى كثيرة طبيعية ايضاً الا اننا لا نستطيع الا



الاقرار بان ما نعلمه من تكون الانواع بالاستحالة طبقاً لنواميس عامة لا تتغير برد كل شيء الى المادة ونواميسها التي هي ثابتة غير متزعزعة تفعل مضطربة غير مختارة على قياس معلوم على حدٍ سوى في الجماد والنبات والحيوان ولكن لماذا تظهر في الحي على خلاف ما تظهر في الجماد فعلى حد قولنا لماذا يعوم الخشب ويفرق الحديد . فلا يقتضي ان ينمو الجماد ويفتدي كما ينمو الحي ويفتدي والأصـار حياً . وهل تقتضي القوى اذا كانت من طبع واحد ان تكون اعمالها واحدة كيف كانت واين كانت ألا ترى ان ذلك يقتضي بنا الى ان يكون الكون واحداً متساوياً في الصورة حيواناً واحداً او نباتاً واحداً او جماداً واحداً والواقع هو بخلاف ذلك . أما ما قاله من اختلاف جواهر العناصر في التركيب بين الحي والجماد وما فيه لنا من المسامحة الظاهرة فيحق لنا ان نسامحه عليه لا لان الاختلاف المذكور غير موجود ولكن لاعتماد عليه فاصلاً بين طبيعة وطبيعة كأن الجواهر المذكورة غير مادية او كأنه لا يمكن الحصول على مثلها في الطبيعة وفي المعامل الكيماوية بواسطة القوى المادية

وأما قوله ان كون الحياة لا تفرق في الطبع عن القوى الطبيعية والكيماوية يلزم منه تبين امكان تركيب العناصر والقوى تركيباً جديداً يظهر ظواهر الحياة فيها — فان كان المقصد منه امكان ذلك طبيعياً فهو حاصل وبيانه في المواد الطبيعية المركب منها الحي بقوة ملازمة غير مفارقة الا مفارقة عارضية . وأما ان كان مقصده ان يخلق له بالوسائل التي لنا في بوائقنا رجلاً او فيلاً فهذا لا يمكن وهو شرط غير ضروري واما ايضاح الاحمال الحيوية بالقوى الطبيعية المعروفة فاظن ان البيولوجيا والفيزيولوجيا فهما من ذلك ما يكفي للاقتناع

وأما قوله ان التولد الذاتي لا يمكن بحجة انه لم يعلم الى الآن متولد ذاتي متفق عليه فهذا على فرض صحته لا يوجب كونه لم يمكن وقوله ان الباثيبيوس لم يكن إلا راسباً من كبريتات الكلس وان السفينة تشالنجر لم تضر عليه فردود عليه اولاً بما اظهر هكل فيه من تلونه باهر اذا اضيف اليه راسب الدودة وباصفر اذا اضيف اليود والخامض النتريك وذلك لا يحصل في راسب بسيط من كبريتات الكلس

وثانياً ان السفينة بولارس التي سارت بعد ثلثي قرن قد اكتشفت مادة بروتوبلاسمية تختلف عن الباثيوس بعدم وجود شيء من التجمعات الكلوية فيها وسماها الدكتور اميل بلس بروتوباثيوس فان كان هذا محور الخلاف ولا اظنه كذلك فهذه ضالتنا قد وجدت . وما ذكره من اقوال العلماء لا يستفاد منه سوى انهم يتعجبون ولا يدركون كيف تحصل الحياة وأي سر من الاسرار الطبيعية يدركونه او لا يتعجبون منه ولا يستفاد منه انهم يوافقون الحيويين فيما يقولون

وأما قوله ان الاجسام الاولى الحية على افتراض تولدها من الجاد بواسطة القوة الطبيعية المحضة فلا يتم لها ذلك لانها لا تقدر ان تغذي من المواد الجاذبية رأساً فلو تأمل قليلاً لوجد ان تغذية الاجسام الحية على فرض صحة افتراضه تحصل من المواد الآلية التي تتكون رأساً من الجاد كالباثيوس والغيرين وغيرها وربما كانت هي نفسها التي تظهر فيها الحياة أولاً ويجب ان يكون كذلك وهي بالحقيقة حلقة تولد الحي من غير الحي . فمن يرى ذلك كله ربما يحسب جوراً متعمداً اذا تنبأ بان العلم سيصل بعد خمسين سنة بل خمس مئة سنة الى ان يخلق حياً يسعى ولكن بلا شك يحسب جباناً مرتعداً اذا كان لا يعتقد بان الانواع متكونة بالاستحالة لا بالجراثيم وان الحي متحول عن غير الحي ويستحيل غير ذلك . فلو افترض ان الحياة مجردة عن المادة لوجب ان تكون هي العامل في تركيب محلها وتحليله والحال ان وجودها فيه متوقف على وجوده وهو لا يكون قبل تركيبه لتوقفه عليه ولا بعد تحليله لانتقاضه به فلو كانت هي العامل فيها لكان عملها واحالة هدم قبل وجودها في الاول وبعد عدمها في الثاني وهو محال . وابن الحكم في تجريد القوة الحيوية عن المادة بعد علمنا ان كل ما هو كائن خاضع لنواميس ازية في مادة هي كذلك بل الحكمة في الخلق هذه القوة بغيرها من القوى الطبيعية والعلم اكبر شاهد على ذلك . وعليه فالقوة ملازمة للمادة وكل قوة ملازمة للمادة طبيعية والحياة قوة فالحياة ملازمة للمادة اذا الحياة قوة طبيعية وتسميتها حيوية لا يفسر شيئاً من طبيعتها كتسمية بعض خواص القوى المعروفة في الطبيعة كالكأوية . وعندنا انها الجاذبية باعتبار الجاذبية اهم القوى وباعتبار الحياة في ابسط ما تكون عليه



هذا وإن الحياة مسألة من ضمنها مسائل لا يفي فيها النظر الاجمالي لأنها تحتاج شرحاً طويلاً يضيق عنه ما خصص لمثلها في الجريدة فربما ذكر الواحد شيئاً وفاته أشياء فلا بد فيها من التفصيل والتبويب على الترتيب الذي يقتضيه الموضوع للوصول إلى اجماع معلوم غير الاجماع على الاقرار بالقصور المشكور الذي هو اعم من ان يختص بالحياة بحيث نتكلم أولاً في الانواع أجرومية هي أم تحويلية وفي الحياة أقوة هي أم غير قوة وفي القوة أملازمة للمادة أم غير ملازمة وفي المادة أزلية هي أم فانية وفي الحياة كقوة ملازمة للمادة أصبح ان تكون الجاذبية أم لا . فربما لم يكن بيننا خلاف في الواقع او كان ولكن لم يكن جوهرياً ونحن نتوجه كذلك الآن إلى البحث هكذا ربما يطول واخاف ان يلنا القراء فسنأل لهم صبراً جميلاً ولنا عفواً كريماً ولكن ربما كان يطول أكثر بغير ذلك وانا متيقن بان جناب الخصم في المباحثة والصدق في المودة بسر بذلك لما يعهد فيه من الذكارة فوعدنا اذا إلى العدد الآتي والسلام

## بعض ملاحظات في الحياة

### (١) قابلية التهييج

من أهم مباحث الفيزيولوجيا العامة معرفة اعمال الكرية الحية لان جميع الانسجة المؤلفة منها الاجسام الحية مرجعها اليها . واهم اعمال الكرية الحية قابليتها للتهييج فمعرفة نوايس قابلية التهييج هي اذا معرفة نوايس الحياة كل جسم حي وكل نسيج كذلك متغير بالقوى التي من الخارج فكل قوة خارجية تغير حال الكرية الحية بحسب مهيجة لها الكرية الحية موجودة على حال كباوي وطبيعي معاً فهي على حالة معلومة من الكهرباية والحرارة والضغط والتركيب الكيماوي فكل ما يمرض لها من الخارج وينيرها عن احدي هذه الحالات بحسب مهيجاً لها . فجميع القوى التي من الخارج

مهيجات والمهيجات كهربائية وكبالية وحرارية وميكانيكية وهي إنما تنبه قابلية الكرية الحية للتنبه لانها تغير تركيبها فكل المهيجات مغبرات للكربية وكل المغبرات مهيجات

وعليه فالجسم الحي غير فاعل من نفسه الا ما يفعله في الاشياء التي من الخارج من قبيل ما تفعله هي فيه . فهو لا يتدر ان يتحرك ذاتياً فلو فرض — وهذا الفرض ممتنع مقوله — ان جسماً من طبع واحد وضع في وسط ساكن لبقى ساكناً ولم يتحرك. فحركة الاجسام الحية منفعولية لا فاعلية

واعلم انه لا بد من شروط معلومة لحصول التهييج فالمهيجات اذا كانت بطيئة جداً وتدرجية فالجسم الحي يكاد لا يتهيج منها . مثال ذلك اذا أجريت مجرى كهربائياً على جسم حي وقويته شيئاً فشيئاً فلا يحصل عنه حركة في ذلك الجسم وهكذا اذا وضعت سائلاً حامضاً حامضاً قليل جداً على جلد ضفدع فيمكنك ان تزيد الحامض قليلاً قليلاً حتى يبلغ درجة شديدة من الحموضة بدون فعل منعكس عنه وقس على ذلك جميع المهيجات مهما كانت

ولا تفعل الانسجة الا لفرق بين مهيجين : لنفرض مهيجاً (ب) مثلاً فاذا تبعه مهيج آخر (ب) مثله غير مفصول عنه بفترة فالمهيج الثاني لا تحصل عنه نتيجة . وهذا ما يحصل خاصة في الحس المعلوم فاننا لا ندرك الا فرق التهيجات وليس التهيجات نفسها فاننا اذا وضعنا اليد على مادة ولم نحركها فلا نمضي بضع ثوان حتى نفقد فيها الشعور باللمس ولا نعود قادرين على الحكم بطبيعة المادة اللموسة فما تقدم لنا النتيجة الآتية وهي كل مغبر للحالة مهيج لكنه لا يكون مهيجاً الا اذا صدم الانسجة صدمات مختلفة بين الشدة والخفة

## (٢) حفظ القوة وكونها في الاجسام الحية

كل اعتواز في العصب وكل عمل في الدماغ وكل انقباض في العضل ترافقه ظواهر طبيعية وكبالية في النسيج الذي يكون فيه العمل نجوز لنا الخاق النواميس الفيزيولوجية للاجسام الحية بالانواميس الطبيعية للجوامد



لا ينبغي ما قرره العلم من مذهب الحرارة الميكانيكي ومذهب حفظ القوة فعلى هذين المذهبين لا تضع قوة في الطبيعة فالحركة ليست سوى نوع من الحرارة فلا يوجد في الطبيعة الا تغيرات واستحالات في القوة فكمية القوة المنتشرة في العالم لا تنير ولا تنير الا صورها فتظهر تارة على صفة حرارة وتارة حركة ومرة كهربائية واخرى تركيب او تحليل كياويين

فقوة الاجسام الحية اصلها كياوي أي انه يحصل في جوهر انسجتها تاكسد وتركيب وجملة ظواهر تنبجتها ليس توليد قوة بل اظهار قوة كاملة وهذه القوة تظهر بالحرارة والحركة وبين مقدار الحرارة المنتشرة والحركة الحاصلة نسبة شديدة بحيث انه كلما كثرت الحركة قل ظهور الحرارة وبالعكس كلما ظهرت الحرارة قلت الحركة

ونتيجة كل هذه التراكمات والتحليلات الكياوية هي امتصاص الاكسجين وتوليد الحامض الكربونيك وهذا التبادل الغازي ضروري جداً للحياة الاجسام الحية لانه يلزم لها حرارة كافية لتقدر على مقاومة الاشياء التي من الخارج . فبامتصاص الاكسجين تحصل لها هذه القوة الضرورية ويلزم لها ايضاً ان تتحرك ومن ثم ان تكون قادرة على تجميع قوى كياوية في انسجتها كافية لكي يحصل منها ظهور قوة عند اللزوم وهو كذلك فان فيها قوة متجمعة كاملة عظيمة جداً بحيث ان تنبجها خفيفاً جداً يحمل فيها حركة عظيمة لا نسبة بينها وبين السبب الخفيف كوقوع الغبار على العين مثلاً فان هذا السبب الخفيف قد يحدث جملة حركات مختلطة وطويلة كالدمع والغضب والخوف والحرب والاحتقار والالام وغير ذلك . فلا نسبة بين هذا الانفعال العظيم وذاك التنبيه الخفيف لولا انه يوجد في الجسم الحي من القوى كمية وافرة متجمعة كاملة تظهر دفعة واحدة لسبب صغير . وذلك اشبه بما يحصل في صندوق بارود فانه ان اصابته شرارة يشتعل وتنفث منه قوة تدك الحصون وتزلزل الجبال فلا نسبة بين هذه القوة الكبيرة وتلك الشرارة الصغيرة لولا ان البارود يحتوي قوة عظيمة متجمعة في مواده فالاجسام الحية كغيرها لا تولد قوة وانما تظهر قوة كاملة فيها

## (١) الحياة في اعماق المياه

منذ نحو عشرين سنة كان يُظن أن اعماق البحار خالية من كل شيء حي وان الأحوال الطبيعية هناك غير صالحة للحياة وبقي هذا الاعتقاد شائعاً حتى سنة ١٨٦٠ اذ بين ملن ادوار الطبيعي الفرنسي وجود الحيوان في عمق البحر على مسافة ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر وعلى ضغط أكثر من ٢٠٠ ثقل من ثقل هواء الأرض والحيوانات التي اكتشفها في هذه الاعماق كان بعضها مجهولاً والبعض الآخر لم يكن يختلف بشيء عن الاسفنج. ثم تكاثرت الابحاث واندفع لذلك علماء الانكليز والاميركان وغيرهم وتعددت الاكتشافات حتى اصبح امر وجود الحياة في اعماق البحار الشاسعة مقروراً لا خلاف فيه وأبعد عمق صار سيرة وانتشال كواثر من حية منه لغاية يومنا هذا هو العمق الذي سيرته السفينة الفرنسية المسماة لاترافاليور<sup>(٢)</sup> سنة ١٨٨١ البالغ ٥١٠٠ متر الا أن جميع الحيوانات المستخرجة من جميع هذه الاعماق الشاسعة لم تكن سوى ديدان وبلايس وما شاكل من انواع الحيوانات الدنيا ولم يكن بينها شيء من السمك. وربما لم يكن السبب في ذلك عدم وجود مثل هذا الحيوان في مثل هذه الاعماق بل كان من نوع الآلات المستعملة ومما يقوي هذا الظن ما شاهدته السفينة المذكورة في ميناء ستوبال الكائنة الى الجنوب من ليسبون حيث رأت حماتها العلمية رأي العين طائفة من الصيادين يلتون بأشبا كههم الى عمق نحو ٢٠٠٠ متر ويصطادون من السمك المعروف بالسكوالوس<sup>(٣)</sup> انواعاً خصوصية يتددون لحومها ويستعملون جلودها في صقل الخشب ويوقدون دهنها كالكزيت وكانت تصل هذه الحيوانات الى سطح البحر بحالة يرئ لها من التهلك فتكون مثاتها التي تعوم بها والمثثلة هواء متعددة جداً اردافعة المعدة المنبثقة من الفم والعين نافرة من الحجاج والقرنية منشقة لتدغدغ غاز الدم وجميع الانسجة متفجرة لحفة الضغط الخارجي وفقد الموازنة بينه وبين الضغط الداخلي.

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨١

Squalus (٣)

Le Travailleur (٢)



## الحياة واصل الاجسام الحية<sup>(١)</sup>

لنا على اصل الانواع الحيوانية والنباتية قولان احدهما انها ظهرت على الارض كما هي الآن مع فرق قليل فيها وليس بينها صلة تربطها بعضها ببعض ولم يكن بينها ذلك والآخر هو ان عالم الحيوان وعالم النبات بما فيها من الانواع والفصائل لم يخلقا كذلك دفعة واحدة وانما ظهرت الحياة على الارض اولاً في صورة بسيطة ومنها تفرعت باقي الصور المركبة بمحصول تغيرات فيها مستمرة متتابعة فلنبحث في هذين القولين نرى ايهما الاقرب الى الصواب

ولقائل ان يقول ان تلك مسائل فوق طاقتنا ولم يعط لنا علمها فالاولى بنا ان نسلم بالعالم كما هو بدون ان نتعب انفسنا بما كان او بما سوف يكون فتجيبه ان الانسان لا يعرف نفسه جيداً حتى يضع حداً لمعرفته فهو يخطئ في خطاه لا مرید عليه اذا جزم بانه ما من احد يستطيع في المستقبل مها تقدمت المعارف ان يفهم ما لا ندركه نحن اليوم فتحق الطبيعي في البحث عن اصل الكوائن الحية اذا حق مطلق واذا ثبت ذلك قلنا ان في معرفة اصل هذه الكوائن فائدة كبيرة ونو لم يكن فيها سوى العلم فقط تكفي ان مقام الانسان بالنظر الى هذه الاجسام الحية يختلف باختلاف ما يعتقد من اصلها فعلى القول الاول أي على فرض كونها ثابتة هو غير مكلف للبحث فيها الا بقدر ما تمس الحاجة من دفع ضرر قد ينشأ له عنها او جلب منفعة قد تحصل له منها وهذا لا يتعدى ما جاورده منها بحكم المساكنة العارضة. واذا نظر فيها نظر الطبيعي كان نظره فيها مقتصر على وصف صورة صورة ونوع نوع وتقدير وظيفة عضو عضو بقطع النظر عما قد يمكن ان يكون بينها من الارتباط والمناسبة وما يجمعها من النواميس اذ لا يرجو ان ينكشف له سرها يوماً ما لانه خارج عن العالم المادي

ولا ان يقف على ما يردّها الى وحدة معلومة ويربطها بناموس ما لان كل نوع هو كما  
قال اجاسيز — صورة فكر خالق متميز — وليس بين فكر خالق وفكر آخر مثله من  
النسبة الا مجرد الارادة فلا يقدر الانسان ان يدرك النسبة بين فكر وفكر من هذه  
الافكار الخالقة المتجسدة الا اذا ادرك العقل الخالق نفسه ولا يتم له ذلك فهو  
يتصور الخالق كصانع (على صورته) مهتم على الدوام ببناء ابناء بين جميل وقبيح  
وجليل وحقير ويقيها زمناً معلوماً ثم يهدمها لانه يريد ذلك لا لسبب آخر ويقيم  
غيرها عوضاً عنها يكون انسب لما جد في افكاره . فكيف يرجو الانسان مع ذلك ان  
يجد رابطاً يربط الانواع ببعضها فلا حاجة له اذاً ان يسألها عن اصلها ولا عن اصل  
ولا ان يتعب نفسه في البحث عن الحياة لانها سر فوق اسرار الطبيعة يستحيل ادراكه  
وعلى القول الثاني أي على فرض كون الاجسام الحية آتية عن بعضها متسلسلة على  
سبيل الاستحالة المركب من البسيط والبسيط من الابطس فلا يقتصر الانسان في البحث  
فيها على النظر في كل نوع او كل صورة فقط بل يتعداه الى النسبة بين نوع ونوع  
وصورة وصورة وبين جميع الاجسام الحية بالنظر الى بعضها وإلى الاشياء التي من  
خارج ايضاً فيرى اولاً ان الانواع مرتبطة ببعضها ارتباطاً شديداً وان النواميس التي  
تعمل في كل منها هي نفس النواميس التي تتكون وتنمو بتوجيهها الاجسام الحية كافة  
وثانياً ان الاستحالة الحاصلة في الصور ناتجة عن التفاعل الحاصل بينها وبين الاشياء  
التي من خارج ويري غير ذلك ايضاً اذ يعلم ان كل ما يفعل في الاشياء التي من خارج يفعل  
بالضرورة ايضاً في ما تفعل هي فيه وهو يقدر ان يفعل فيها اذاً هو يقدر ان يفعل في العالم  
الحي المحيط به ومن ثم في نفسه ايضاً لانه جزء منه بخلاف ما لو كان غير ذلك وسواء  
خرج (الانسان) من عالم الحيوان والى عالم واحد او لم يخرج فهو يجد في ماضي هذا  
العالم تاريخ نفسه . وكل جسم حي له الحق ان يدعي ان له معه بعض نسبة او قرابة  
لانه ليس سوى صورة متحولة عن نفس المادة المؤلف هو منها او عن مادة شبيهة بها  
فعرفة الحيوانات والنباتات محال كانت حقيرة هي نفس معرفة الانسان ومعرفة عمل  
جسمه ومعرفة التغيرات القابل لها لان نواميس تغيرات المادة هي واحدة اينما كانت



وهي فيها سر ما نسميه بالامراض وسر منعها وشفاؤها. فالطب والتشريح والفيزيولوجيا والزولوجيا والامبريوجنيا والبيئولوجيا والانثروبولوجيا وغيرها من العلوم الفرعية التي تبحث عن الانسان تؤلف سجلاً شديداً الارتباط ببعضه يشمل علم واحد هو علم الحياة ويسمى البيولوجيا وعليه فليست الانواع تجسد افكار خالقة متميزة وليست اسبابها ارادة ذات مقاصد خفية ولكنها تكون تبعاً لنواميس ثابتة غير متزعزعة تعمل دائماً على قياس معلوم أشبه بالنواميس الطبيعية والكجماوية وتؤدي نظيرها الى نتائج متعددة. فكل صورة لها اسبابها المتممة وتعرض لنا لاكمال مطلب منا تقريره بل كسأله يطلب منا حلها وهذا هو سبب التقدم الذي حصل في علوم الحياة منذ انتشار الكتاب الشهير لدارون في اصل الانواع ولولا هذا السبب لما كان حصل او يحصل فيها شيء من ذلك

فذهب التسلسل او كما يسمونه ايضاً مذهب الاستحالة بريناً دائماً الحركة والنزاع والغلبة حيث بريناً مذهب ثبوت الانواع او الجرائم السكون — فالحياة ميدان خصام قد تحصل فيه مقاتل وملاحم يشترك فيها نوع الانسان وتنجلي عن ظفر انواع وملاشاة انواع — وهذا المذهب اقدم جداً من دارون فقد قال به علماء كثيرون قبله في اواخر القرن الماضي وفي اوائل هذا القرن نخص بالذكر منهم بوفون ولامارك وجات وجفروا ساتيليار الذي حصل بينه وبين كوفيه المخالف له في المذهب في جمعية العلوم في باريس جدال شاهد بفضلها ولم يزل ذكره حتى اليوم الا ان دارون منذ نحو ٢٢ سنة قد فصله بجملته ووضع على اساس متين وهذا هو السبب في تسبته اليه.

وبراد به ان جميع الاجسام الحية بما فيها من الاختلافات حيوانية كانت او نباتية مفترضة كانت او باقية هي مشتقة من صورة واحدة اصلية او من صور قليلة اصلية بسيطة جداً. والادلة على صحة هذا المذهب كثيرة منها واهمها (١) اشتراك نواميس الحياة في سائر الاجسام الحية فهي واحدة في جميعها (٢) تحول الاجسام الحية عن بعضها والى بعضها كما نعلم من البيئولوجيا فان هذا العلم يعلمنا انه في مدة الادوار العديدة لتكون الارض كل طائفة من الحيوانات والنباتات قد مرت متحولة بالتتابع بسلسلة فصائل وانواع متعددة جداً. فان طائفة ذوات الفقر مثلاً قد مرت بطائفة

السماك والأصفياء والحشرات والطيور وذوات الثدي وكل من هذه الأنواع قد مرَّ أيضاً بسلسلة أنواع مختلفة (٣) وجود الأعضاء الانثوية فلو كانت الاجسام الحية جبروتية ومخلوق قوة خالقة تفعل لقصد معلوم لما وجب ان يكون فيها أعضاء انثوية لا نفع لها والحال انه لا يكاد يخلو جسم حي منها ولكن لما كانت متحولة عن بعضها كان وجود هذه الأعضاء فيها لازماً ضرورياً اذ ان وجودها وعدمه متوقفان على الاحوال الطبيعية التي هي الفاعل الاول فيهما وهذا لا يكون دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً ايجاداً كان او اعداماً ولا يخفى ما صادف هذا المذهب من الصعوبات في اول انتشاره وأما الآن فيكاد لا يختلف فيه اثنان من الطبيعيين

### (١) حياة الجماد

قال ثولت من رسالة في هذا الموضوع : ان القول بان الجماد حي كالحی ليس بجديد فقد قال كرزان في القرن السادس عشر «ان الحجر يحيا ويمرض ويهرم ويموت» وهو قول صحيح لان المادة متحولة ومتغيرة على الدوام فهي في تولد دائم وموت دائم وبعث دائم وذلك هو الحياة وحياة الجماد لا تفرق عن حياة الانسان او الحيوان او النبات اذ الكل خاضع لسنن واحدة مندفع قسراً في تيار زوبعة لا تسكن حركتها اولها وآخرها مكتنفان بظلمات بعضها فوق بعض

والتولد اول اطوار تحولات المادة وهو بقطع النظر عن افتراضات الخيال التي قد تضل والبراهين الفلسفية التي كثيراً ما تخدع واقع تحت نظر كل انسان وعام على الجماد والنبات والحيوان . ففي كل دقيقة بل في كل لحظة ترى الاحياء تتكون والحيوان الفردة تنضم والدقائق تتركب . ولا فرق بين البسيط والمركب من حيث السنن الفاعلة بهما اذ لكل فرد معاً كان تركيب كيميائي معلوم وصورة معلومة ونوع تبلور معلوم .



حتى نفس تغيره ثابت الى حد محدود ويتم تبعاً لشرائط معلومة . واذا تغيرت احدى هذه الشرائط تغيرت موازنته حالاً فهو متغير على الدوام الا انه لا يزول من الوجود وكما ان الحي يتأثر بالاحوال التي من خارج كذلك الجاد واذا كان بينهما فرق فاما هو في الشدة والضعف بحيث ان احدهما اشد انفعالاً واسرع تأثراً واقل ثباتاً من الآخر ولكنهما يفعلان وينفعلان على السواء طبقاً لناموس المادة الاولى وهو التكافؤ بين الفعل والانفعال

ولناخذ أي جاد كان ولنحمله بالتدريج فالحال عند انتشار الحرارة فيه يتغير شكل تبلوره ومرونته وصلابته وصفاته الكهربائية حتى لونه فان زيدت حرارته انحل رباط دقائقه فتباعدت في جهة وتقاربت في اخرى الى ان يبلغ حرارة تختلف درجاتها باختلاف نوعه فيذوب ويصير سائلاً . فان زيدت اكثر من ذلك تفرقت دقائقه وانتقل الى حالة هوائية ما بعدها من الحالات سوى انفصال الجوهر الفرد وخروجه من مدار الكيمياء ودخوله في مدار آخر تحت سنن اخرى لا نعلمها وعلى الفلسفة الطبيعية والميكانيكات اكتشافها وتعيينها

وانحلال الجاد هو موته لان كل حد ينحل عنده المركب هو موت ذلك المركب وكل موت يتبعه موت فالموت كالتولد نقطة على محيط دائرة لا أول لها يعرف ولا آخر يوصف . والطفل اول ما يهل يتدى بموت وكذلك الجاد اول ما يتكون يتدى بموت . فان الفلاسبات المكون معظم الارض ينحل الى عناصره<sup>(١)</sup> بفعل الهواء والماء ويسس النهار وتدى الليل وحر الصيف وبرد الشتاء وسائر العوامل الميكانيكية والطبيعية والكياوية ماراً باستحالات قد لا يحس بها . ثم كل عنصر من عناصره يدخل في تركيب جديد فاما ان يعود حجراً او يصير نباتاً او حيواناً وفي هذا الدور لا يرى ابن هو التولد الحقيقي ولا أين هو الموت ولا يرى سوى اطوار فقط

ولقد أقام الاقدمون حداً فاصلاً بين النبات والحيوان وهذا الحد لا وجود له حقيقة واقاموا كذلك حداً بين الجاد والحي ونحن كلما تعمقنا في درس الجادات نرى

(١) السليكا والالومينا والحديد والكلس والفضة والبريتا والصودا

أوجه الفرق بينها وبين الأحياء ثقل وأوجه الشبه تزيد . فالإنسان يولد من أبوين  
والحيوان السافل من نظيره بالانقسام أو التبرعم اذ تنفصل كرية مولودة في كرية والدة  
والنبات من نبات نظيره . قالوا وهذا يفصل عالم الحي عن عالم الجماد الى ان قام جرير  
وبين ان الجماد كالحي يتولد بعضه من بعض فانه صنع محلولاً واشبعه بالبورق المثلن  
وبالبورق المعين ولا فرق بينهما الا في اختلاف نسبة الماء الذي فيها وهذا المحلول  
اذا انتهى به يبقى صافياً ويمكن ان يضاف اليه اجسام من مواد مختلفة بدون ان  
يحدث فيه حادث خصوصي لكنه اذا وضع فيه بلورة صغيرة جداً من البورق المثلن  
فلحال ترتفع حرارته وفي الحفلات قليلة يتبلور كل البورق المثلن الذائب فيه دون  
البورق المعين الذي يبقى ذائباً ولا يتبلور حتى يلامس بلورة معينة من جنسه ولا يختص  
ذلك بما ذكر فقط بل يتناول كل انواع الجماد ويتبين منه ان كل جماد يتولد من  
جماد آخر نظيره

واذا بلغت البلورة كمالها بحيث لا يستطيع الكماوي ولا الطبيعي بما لها من  
الآلات والوسائط ان يربا في تكوينها نقصاً قليلاً ان الفرد من الجماد قد بلغ اشدّه  
ثم يتكاثر كالحي وهو كالحي معرض للأمراض فاذا عرض له من الاسباب الخارجية  
ما اضعف نموه فقد نظامه وظهرت على زواياه خدوش كالقروح واذا زالت عنه  
عادية المرض عاد الى نموه وبرى من قروحه وان لم تزل او اشددت فربما ترحلت  
قروحه فاعضلت عنه وحصل فيه تأكد وتركب وتحلل حتى تتغير طبيعة آخر جزء  
منه ويظن انه تلاشى وهو لم يتلاش بل مات وانما مات كما يموت كل انسان أي كما  
ان جسد الانسان البالي لا يتلاشى وانما ينحل الى عناصره كذلك الجماد لا يتلاشى  
لان الجوهرة الفرد الذي يؤلف كلاً منهما لا يتلاشى بل ينتقل من تركيب الى تركيب  
راجعاً عوده على بدنه كما يرجع الليل على النهار انتهى ملخصاً



## (١) اصل الحياة

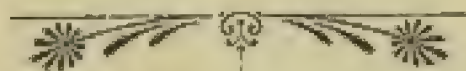
قال بلانشار من مقالة في اصل الحياة في جريدة العلم الفرنسية بتاريخ ٧ شباط سنة ١٨٨٥ ما يأتي (١)

« على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الا انه غير مقنع ويظهر لنا انه لا يحل المسألة وانما يزيد بها ارتباكاً فان لم تكن الحياة قد ظهرت على الارض ذاتياً بفعل احوال طبيعية وكيمائية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداءً على احد كواكب نظامنا الشمسي وخصوصاً التولد الذاتي الذين يتعلقون بحال هذا التعليل كالمجاء الاخير لم يعمدوا على حل هذه المسألة ولا يأتون فيها بتعليل شافٍ . ولا يخفى ان الحل الطبي الذي استطعنا بواسطته ان نعلم تركيب الكواكب الكيماوي اراتنا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منها سيارتنا فالصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأكسجين والكربون والكلسيوم والحديد والتوريوم والبروم والزنك واللاتيوم والزنابق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا بد اذاً من ان تكون الاحياء اولى قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بان ارضنا انما اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مروره في الفضاء اذ لا بد من الاقرار في كل الاحوال بان التعضي قد وقع في المادة في احد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذاً الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض » انتهى . والذي ارتأى اولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السر وايم طمس الانكليزي . ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكون البرد وقال انه يتكون من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية فما اتم الخطبة حتى

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢

وقف السر ولیم طمس وقال اخن الخليل يعزح في ما يقول لانه لو فرضنا تكون البرد في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الاميال . ولما جلس قام اللورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً ارتأى رأياً اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء . فقال السر ولیم طمس انا لم احتم بصحة ذلك بل قلت بامكانه وبانه لا يمكن ان يقام دليل على فساد . ونقل ذلك العلامة بركثر منشي جريدة المعرفة وعقب عليه قائلاً اذا صح قول السر ولیم طمس فاقدر مصنوع من جين طري لانه لا يقام دليل على فساد ذلك

والخلاصة ان اقوال العلماء وآراءهم كثيرة وهم احرص الناس على انتقادها وتحصيلها فلا يرتقي احد منهم رأياً جديداً حتى يتصدوا لمقاومته من كل صوب ولا يقرون رأيه بين الآراء العلمية الا اذا لم يروا فيه للرؤية مكاناً





## خاتمة الكتاب

او

## خلاصة ما تقدم

تربي العاشر ابناءهم  
ويشقي الامام بما ربهوا  
وما الناس الا نبات لزما  
ن ليحصل القوم ما بنوا  
( ابو العلاء الميري )

اذا كنت قد عملت بالوصية كما في صدر هذا الكتاب وطالعت به بكل تعمق . وكنت مع ذلك قد تمكنت من التغلب على مؤثرات تربيتك السابقة لضبط نفسك عن الاندفاع مع عوامل الهوى <sup>(١)</sup> غير مداح او متوار رغبة او رهبة او مصاد بدعوى الحكمة <sup>(٢)</sup> مستقلاً في احكامك <sup>(٣)</sup> غير مستهوى بكثرة تغالبك <sup>(٤)</sup> او منقاد لقول ليس من صميم العلم <sup>(٥)</sup> ولو ان قائله عالم عظيم <sup>(٦)</sup> فالعلم مباح لك كما هو مباح لسواك <sup>(٧)</sup> منقاداً في تساؤلك <sup>(٨)</sup> لاحكام العقل لا لرغائب القلب <sup>(٩)</sup> وفي علمك

- (١) الانسان ابن التربية وهو فيها ابن هواجسه قبل ان يكون ابن علمه
- (٢) فان المجبن والكذب منشأهما من مثل هذا السبيل وهما اصل كل الشرور
- (٣) اقتضت انك تحكم لنفسك بالحقيقة انك غالباً تنطق عن احكام سواك
- (٤) العدد ليس دليل الاصابة او هو برهان القوة الوحشية دائماً
- (٥) كقول العالم الضميري او لفرلودج اليوم ( يمشي ) الاذواخ وهو يعبر في ذلك عن مري في النفس لا عن مسوغ في العلم
- (٦) فتلعلله احلام كالعوام من الرأدية والعقل حزانة كثيرة الادراج
- (٧) هناك ان تتولد فيك الثقة بالنفس تنظر انت وتحكم لنفسك ولا يكون كل علمك قال فلان وفلان والثقة بالنفس غير الاستعداد بها فهي خبر عن روية وعن فطرية عن استسلام
- (٨) الانسان مهما كان لا يثق امام الحوادث صامتا مهما كانت وذلك اظهر في الطفل الفطري حتى يثق على تعليل ولو مضطجع
- (٩) التعرف والاستجلاء بالاخبار لا لتحقيق ما بك من الرغائب الهوى في النفس اذا ما تراعى العقل يجلو حقائقها شكاً للقلب ان العين في ذلك المجمل وما الغيب الا ان يرى القلب عائقاً ويخفى على العقل المحفاني في الدقائق

لاختيارات الطبع لا لاحكام الوضع<sup>(١)</sup> ناظرًا الى الحقيقة عارية عن كل ملاسة<sup>(٢)</sup>  
فلا يسمعك الا الاعتراف معي مضطراً بما يأتي

(اولاً) ان علوم الاقدمين علوم نظر<sup>(٣)</sup> اكثر منها علوم عمل او فلسفةهم عقلية<sup>(٤)</sup>  
اكثر مما هي محسوسة . مجردة اكثر مما هي مادية . متحركة مفارقة اكثر منها لازمة  
ملازمة . موضوعة اكثر منها مطبوعة . روحانية اكثر منها جسمانية . كلامية<sup>(٥)</sup> اكثر

(١) اي للعلوم التقريرية المستفادة من مراقبة الطبيعة لتقف عند الحمد الذي تفرصة لك انسلا اذا  
تخطتها تصرف عنها فيعسر عليك اسقيلاً الغامض منها لا للعلوم الاجتهادية الموضوعية التي  
انصرفت اليها لما انصرفت عن البحث في الطبيعة نفسها

(٢) غير ناظر فيها الا الى كونها حقيقة . واما ملاساتها فيسهل الانطباع فيها والبحث فيها وان جرحك  
احياناً في اعتقادك الا انها لنفع لك في كل حال في دنياك

(٣) يراد بالنظر هنا ما اصطالحوا عليه وجار بهام فيه في ما كتبنا وهو علوم الفرد او علوم الكلام على  
الاطلاق وهو ما نقصده في هذا القول على نوع خاص والا فالنظر بمعناه الحقيقي اعم من ان  
يختص بطائفة من العلوم وهو لازم في كل علم وله شأن عظيم في العلوم الصحيحة . مثال ذلك  
القول بان كل شيء في الطبيعة منها وبها وباليها نظر ولكن دليلاً عياناً محسوساً . واداً رأينا  
شجرة سقطت من الشجرة الى الارض فاذا قلنا انها سقطت بناموس النقل ثم قلنا ان ذلك يدل  
على وجود ناموس في الطبيعة شامل للاجسام كافة بفعل على شرائط معينة فهذا نظر ايضاً ودليلاً  
العيان ويسقط او يتأيد بالامتحان . واما اذا رأينا جسمًا نكزن في الطبيعة من موادها وبنائها  
وانخذ صورة معلومة ثم انزل وزعيت صورته وشاهدنا موادها كما فيها من القوى فتكثرت ورجعت  
الى مصادرها العيانية فاذا قلنا ان عين هذا الشيء لم تنفذ وان احييت عنا وانما انتقلت الى  
مكان آخر غير منظور . ثم قلنا ان غير المنظور هذا ليس في الطبيعة بل فوقها او تحتيها او  
امامها او ورائها ما لا يدرك ولا بالتصور ولا دليل على سوى اليوم الذي نشأنا فيه او الخبر  
الذي يجنب الكذب او الغي الذي يطابق الحق فهو نظر ايضاً ولكن على عكس الاول نظر  
سلي اي مجرد بحث ومن مباحث علوم الكلام فقط

(٤) من معنى العقل الذي هو كالنفس عندهم بوجه مجرد . ولقد كانت هذه النفوس او العقول  
مرادفات مشبوهة في الكون كالقوى ولكن طائفة من العوالم والاعمال نفسها عقل او نفس او قوة  
تسير بها كما نشاء حين نشاء

(٥) علوم الكلام تهت في النظر العقلي مجرد مفادة في ذلك الى احكام العقل وحده . فثبت في المختار  
والماضي والمجهر لا لاحكام الاعتبار الذي ينظر الى الكيفيات والطبائع وذلك يقتضي مجرداً  
في النظر وهذا نيتنا للفعل . على ان كل هذه التفصيلات ليست بالمحصر طبعية بل اجتهادية والا  
فالاحكام العقابية نفسها هي اختارية كلها وانما هي في الاول اكتفاء باعتبار نافع وتعويل على  
علم موهوم وفي الثاني تفيد بالمعلوم من هذا الاعتبار المتزايد كل يوم



منها اختيارية . متمنيات مرشوبة أكثر مما هي حقائق مقررة  
(ثانياً) ان علوم الاقدمين وفلسفتهم انتقلت اليها وبقيت زماناً طويلاً كل  
علومنا وفلسفتنا ولا تزال حتى اليوم روح فلسفتنا وعلومنا العقلية والادبية والدينية  
(ثالثاً) ان حالة الانسان الاجتماعية ونظاماته وشرائعه وقوانينه حتى استعداد  
عقله واميال نفسه وغرضه في ابجائه مستفادة كلها في كل اطواره في التاريخ من علومه  
ونظيره الفلسفي في الكون

(رابعاً) لا ينكر ان العلوم الاختيارية المادية الطبيعية قد ارتقت اليوم جداً عما  
كانت في الماضي . ولا ينكر ان علوم الكلام قد انحطت اليوم وقل الميل جداً الى  
مباحثها وتغير كذلك ما ترتب عليها من النظريات الاجتماعية والادبية والدينية . ولا  
ينكر ايضاً ان حالة الانسان الاجتماعية في الماضي كانت اعمس جداً منها اليوم  
(خامساً) اذا قابلنا بين الشعوب والامم والحكومات اليوم في اقطار المسكونة  
كافة نجد بينها تفاوتاً عظيماً جداً بالنظر الى كل ذلك ونجد ايضاً انه حينما كانت  
علوم الكلام والنظريات المترتبة عليها منتشرة اكثر كانت العلوم الطبيعية منحلة  
وكان الانسان منحلطاً متقهراً وحالته الاجتماعية سيئة كذلك والعدد بالعدد

•••

وللحكم في هذه القضايا لا نعتمد الى العصور الاولى للانسان الاول لتغلغل اليه  
من خلال آثامه<sup>(١)</sup> البعثرة في طبقات الارض كشهب متناثرة ذات لمان ضليل يحيط  
بها ضباب كثيف ولا ننزل الى اعماق التاريخ غير المدون الضائع في ليل من الغموض  
دامس<sup>(٢)</sup> حتى ولا التاريخ المدون الذي حاكته قرائح القوم الشعرية في العصور

(١) كما في علم الاحافير الذي يبحث في تسلسل الانسان والحيوان في العصور الجيولوجية والجيولوجيا  
يستدل به على ان الانسان من عصور طويلة وهو اقرب الى الحيوان منه الى نداء اليوم  
في تكوينه الطبيعي ولا تزال تبايناته حتى اليوم في اجسامها المعيشية ليست ارقى منه بكثير  
(٢) كما كان في حقب طويلة من عهده لم يسمي بما قبل التاريخ والتسلسل عليها بمصنوعات الفيلة النسان  
كالمصر العجري او العصر الحجري الذي كان الانسان يصنع فيه سلاحه وسائر آلاته في  
معابده من الحجارة الصلبة

الميثولوجية<sup>(١)</sup> أم نسجته أميالهم الوحشية في العصور الحاسية<sup>(٢)</sup> بل تنظر الى ذلك من عهد التمدن اليوناني القديم<sup>(٣)</sup> الذي بنينا عليه تمدننا الحديث كليل من عهد الاديان المعتقد انها موحاة في نظر الامم التي تأتمر بها في اكثر المسكونة<sup>(٤)</sup> فالاقدمون كانت اكثر علومهم من موضوعات العقل الاجتهادية اكثر مما هي من معلومات الطبع التقريرية وانما كثرت عندهم هذه العلوم لان قلة اختبارهم في اول الامر لم يمكنهم في تعرف الاشياء التي حولهم والتي فيهم من الوقوف على النسبة الحقيقية فيها التي تربط الاسباب بالاسباب لاختلافها احيانا كثيرة في سلسلة من المتلازمات طويلة فتبدو لهم كأنها متناكة منفصلة حيث هي مترابطة متصلة<sup>(٥)</sup> فغلب فيهم حيال هذا الجهل القول بالاسباب الغريبة المفارقة المنحكة التي لا تقع في افعالها تحت ضابط<sup>(٦)</sup> ونظروا الى

(١) حيث كان كل شيء في الطبيعة اما او مظهر اله فكانت الآلهة عندهم كثيرة جدا فتعظم في نظام كل شيء طبيعيا كان او ادبيا فتثير الريح وتبعج العار وتجلب الامراض وتفسد المحفوظ وتربي البشر بسهام العشق وتساكنهم في ارضهم ولما معهم مواقع شهيرة مدونة في اشعارهم

(٢) حيث كان كل الفخر في الغزو والقتل والمحروب كما تنهد بذلك اشعارهم ولا يزال روح هذه المفارقة في الامم حتى اليوم ولكن على قلة وكان آخر عهد هذه المحروب الحاسية المحروب النبوية

(٣) الذي هو لا شك ارقى تمدن وصلنا من الاقدمين اجتماع فيو العمل بالعرفان

(٤) الاديان الشائعة اليوم ليست الوحيدة التي قامت بين البشر بل هي بقية راقية من معتقدات كثيرة كانت شائعة في القديم ثم اندثرت وكنها موحاة في نظراتها عنها او هي عقولها عنها لغاية اجتماعية او سياسية

(٥) مثال ذلك الزمري فهو غير مذكور في الطب القديم كمرض قائم بنفسه وفي نظراتنا انه قدم جدا وقائمة النوعية تدل على انه عريق في القدم وهي وان لم تجعله قديما كالسرطان والسيل لاسباب اوردينا في المقدمة الا انها لا تعد فيكون المجدي والحصى الموصوفين منذ القدم واذا تخربنا البحث جيدا لا نعدم ادلة على ان اعراضه المنفرة مذكورة في كتب الطب القديم او انه مذكور فيها ما ينطبق عليها ولكن الذي لم يكونوا يعرفونه هو نسبة هذه الاعراض بعضها الى بعض فلا يخفى ان لهذا المرض ثلاثة اطوار ممتازة قد تكون العجوة بينها طويلة فكان يصعب عليهم بعد مجموع الاعراض الاولى ان يجعلوا للاعراض الثانية علاقة بها وللاعراض الثلاثة علاقة بها فذهب عليهم انها مرض واحد

(٦) لا يخفى ان اقراط هو اول من قال لاسباب الامراض الطبيعية ومع ذلك لما اضره من الامراض العصبية وشاهد ما فيها من الغرائب الخاوية عن القياس المعروف لم يستطع ان يبيها عنها الاسباب الروحانية وهو معذور في انه لم يحسم مشقة في روحانيتها لنفس العلوم الطبيعية ومنها الطب في عصره نقصا بتعذر معرفة افانته الدل العلي كما كان يجب ان يفعل دائما في زمانه



الطبيعة كلها من خلال ذلك . وجدوا في تعرف هذه الاسباب الغريبة وانتقلوا فيها من تجريد الى تجريد حتى المبدأ <sup>(١)</sup> وهكذا وضعوا علومهم الفلسفية ونظرياتهم في الكون والاجتماع على مراقبة ناقصة وما بقي على الناقص فهو ناقص ضرورة

وقل من شدة منهم عن ذلك ولو ان به ميلاً الى المحسوس او حدساً بان الازياء ليست الا في الاحكام المستفادة منه لقللة المستندات الاختبارية التي كانت له لدفع الوهم فيضطر هو نفسه ايضاً الى التعويل على علوم الكلام نفسها فيدفع المثل بالمثل مما كان يجعل كلامه مضطرباً لا يفرق كثيراً عن كلام مخالفيه في الغرابة والابهام <sup>(٢)</sup> لان جميع الفلاسفة في القديم نظروا في مباحثهم في الكون الى السبب والغاية المجردتين لا الى تعرف الكائن المحسوس فلم يدركوها وانصرفوا بهما عن الواقع

•••

فلهذه الاسباب استتبب الغلبة في علوم الاقدمين للنظر المجرد على النظر المقيد والفلسفة الروحانية على الفلسفة المادية وعلوم الكلام على علوم الاختبار واعتبرت نظراً الى موضوعها <sup>(٣)</sup> ووعودتها من العلوم العالية <sup>(٤)</sup> التي استغرقت فيها العقول الراقية واستغندت فيها قواها وصرفتها عن سواها وباتت الى عهد قريب روح العلوم

فضلاً عما كانت براء من شدة غرابة ظواهر هذه الامراض كما لا تزال تبدو لنا اليوم فبسع الانسان ولا يخطب . منظور ويرى ولا مرتى ويمس ولا يلمس . سواه كان في النوم او اليقظة ويعمل احياناً اغلاً غريبة تعجز عنها وهو بحال الصحة . ولكن ما عذرتنا حتى لا يزال كثيرون من طائفتنا اليوم يقيمون في هذه المسائل مع ان العلوم الطبيعية بلغت شأواً سهلاً على من لا يكثر هذه المشكلات . ولا سيما ان علم الامراض انجلي لنا الفجأة في كل غرب . كما فعل اوليفر لودج في كتابه الحديث في البحث كما نخضعه المتعطف حتى اننا بهذا القول الاغرب عن (نفق الارواح) مع انه من العلماء الطبيعيين . ولو كان مع ذلك طبيباً لما غلب على امثال هذا القول

(١) لما نظروا الى المبدأ انصرفوا الى الغاية ايضاً للزوم القصد حيث في كل عمل وجوباً فيها مبرام في المبدأ نفسه . وقصروا فيها بالتجريد ايضاً مع ان كمال احياء هذا العالم كما هي تنفي كل ذلك اذ لا استقلال في الطبيعة مطلقاً ولا غاية الا الضرورة

(٢) شأن الفلاسفة الماديين انفسهم في القديم ايضاً

(٣) البحث عن المبدأ والغاية اي القصد

(٤) باعتبار انها علوم عقلية وهي فوق علوم المحسوس

الاختبارية نفسها ايضاً<sup>(١)</sup>

وهذه الفلسفة وعلومها هي التي انتقلت اليها بكتب ارسطوطاليس<sup>(٢)</sup> حتى غلب عليها اسم الفلسفة الارسطوطاليسية فبينما عليها علومنا العقلية والادبية والدينية وسائر نظاماتنا الاجتماعية ونظرياتنا رسخت فينا حتى ما زجت عندنا كل شيء ولا يزال منعولها يعمل في عقلنا حتى اليوم

واذا نحرينا العلوم الموضوعة وغاياتها المقصودة من عهد ارسطو الى اليوم ونظرنا الى مباحث الذين اشتهروا بعده من العلماء والفلاسفة ظهرت لنا هذه الحقيقة باجلى بيان . بل ذكر اسماء هذه العلوم يعني عن بيان حقيقتها ويدلنا دلالة كافية على انها من موضوعات العقل المنصرف الى المباحث التجردية لا من معلومات الطبع المستفادة من البحث في المحسوس كالعلم الالهي وعلم النفس والعلم الطبيعي نفسه الذي هو مرادف العلم الالهي عندهم في المعنى والعلوم العقلية والعلوم الآلية وهي كالعلوم العقلية في التجرد ونحت كل علم من هذه العلوم الاصلية علوم فرعية كثيرة جداً كعلم المنطق وعلم الكلام وعلوم اللاهوت والفقه الاكبر حتى الاصغر والعلم الدني وسائر علوم الادب كاليان واليديع والمغاني الخ

•••

وقد زاد شأن هذه العلوم استقلالاً بعد اليونان حيث كانت الاحاطة بها مقرونة بالاحاطة بسائر فروع العلوم الاختبارية ايضاً وزادت تجرداً كذلك وزادت فروعها

(١) الاجرام السماوية والاصوات البحرية وسائر الجواهر الطبيعية كان لما نظام في علمهم مقرر ومع ذلك فلم يكن يصعب عليهم التسليم بخاتمة هذا النظام في بعض الامور من غير ان يتغير النظام كله كتحريف حركة الشمس او الارض مثلاً مع بقاء سائر العوالم على حالها

(٢) وبني شيخ الفلاسفة اورثيسهم . وقد احاط بكل علوم عصره وترك فيها كتباً في عبارة عن انميكلويذية حقيقية (موسوعة) ولكنها ضربت بها حداً للعقل فوقف يشتغل فيها اجيالاً عديدة وهو يبي عليها ولا يجاسر ان يقتطعها حتى في العلوم الصحيحة نسبها . وقد بقي كهلر خمس عشرة سنة يرى ان الحركة الاصلية لكونها ككب هي الصواب ولا يجاسر ان يصرح بها احتراماً لحركة ارسطو المستندة



ونسفلت أيضاً الى المباحث السخافية المبثلة وشيدت لها المعاهد الخاصة<sup>(١)</sup> حيث صارت كل هذه العلوم النظرية الكلامية الاعتقادية — الشاغلة للعقل على كثرة مشاغله والمضیعة للوقت على قصره والصارقة للفكر عن الاهتمام بالمحسوس المفيد والتي لا تشيد كوخاً ولا تقلي بيضة<sup>(٢)</sup> وحدها بضاعة العالم والفيلسوف والامام فيلبس الحجة ويطيل الاودان ويقرن القلنوسة ويكور العامة ويتهادى في مشيتهم اختيالاً كأنه اكتشف سر الخلود وما اكتشف حقيقة سوى سر الخبط والخلط حتى اذا حاك قصة اراك الحبة قبة او اراد التمايل عن قضية نظرية كلامية أمكنه ان يروغ ما شاء اذ هو غير مقيد في برهانه المتقلقل تقيد الرياضي والميكانيكي في برهانها المحكم

واذا قيمت نظرة اجمالية على المؤلفات الكثيرة التي تعد بمئات مئات الألوف في هذه الموضوعات المختلفة الفلسفية العقلية الادبية وما صرف فيها من القوى الراقية ضياعاً وما رسخ بسببها في العقل والعبانع من الميل الى المباحث الفارغة والانصراف بها عند العلوم النافعة وما أحدثته في الامور الاجتماعية من التضليل والتغريب فلا اعلم اذا كان يجوز لك ان تكون ممسكاً كثيراً لارسطو الذي اورثنا هذه الفلسفة ولا بن سينا الذي

- (١) عدا عن الجامعات كما كانت في اول عهدها في اورشليم وعدا عن المدارس الدينية كما هي اليوم في عاصمة الكنتكة وعواصم المسلمين فان المدارس الاخرى حتى العالمية القائمة لتعليم الشعب العلوم اللازمة لا تزال حتى اليوم قليلة الاعناء بغير تلك العلوم وهي بصرف بها التلذذ زهرة شبابهم وهو بمشور الفارغ والنازع حتى اذا امتلأ بها تخرج الى الدنيا مثل الذبائح منقوشة كالعليل وهو في امور الحياة المملوءة اجمل من هبة - ولكنه يصف لك ثوب كبير يطرا وعشيقها وحلم فرعون وغرام ديانا وصفاً يدعى ثم يقول لك مثلاً «والفضيلة وما ادراك ما الفضيلة» ويملا صفحات طويلة يقول لك انها غير الرذيلة ثم يشكل عليه الامر في تحديد الرذيلة اطلاقاً ونقصها هل هي في الشيء - فهو مجرداً ام فيه ما او هناك مفيداً ثم يقول لك منعاً ان هذا البيت يعني كذا ويعرب كذا بل كذا وهو ليلان بل فلان الى آخر ما هناك من الآداب العالية في اصطلاح القوم لانها ترفع عن الاتساع بأوصاف المادة وسواء عداً افاد او لم يند فانه ملاً الصفحات واتى بالمعجزات وهو بحسب انه يروى العقل ... ولكن على الصفحات
- (٢) ما اسرع ما يقوم المعترضون عند سماعهم ذلك ويقولون ان الحياة ليست كلها اكلًا وشربًا والا كانت حياة حيوانية - فاذا كان البدن يعال بما هو مادي فبالعقل يعال بما هو رقي أيضاً - ولمولاه تقول ان ذلك لا يوجب ان يكون هذا الغذاء الرقيق للعقل اوهماً واجلاً وما وخيالات

نقلها اليها بعده<sup>(١)</sup>

بل اقرأ فصلاً من نهافت الفلاسفة للغزالي ونهافت التهافت لابن رشد وقل لي ماذا تفهم ؟ بل الفت نظرك الى الباحث العقيمة الجدلية القائمة على القضايا المنطقية وقل لي ان كان يجوز ان يصدر كل ذلك عن عقول سليمة

بل حاول ان استطعت قراءة المجلدات الضخمة في مسائل سخافة استحالية وتحليلية وتجريبية وقل لي اذا كان ذلك يفرق كثيراً عن الهذيان !

بل انظر الى هذا السيل الجارف الذي طما اليوم حتى كاد يتلع فيه كل قوى الانسان ولا سيما الاعتقاد فيه لا يزال راسخاً في العقول انه من منتجات العقل الراقية ولم يتطرق اليه الريب بعد كما تطرق الى العلوم الفلسفية والعقلية والدينية نفسها اريد به سيل كتب الادب الرائجة سوقها اليوم جداً وهي عبارة عن افاصيص موضوعة خيالية ارتقت مع الانسان من حكايات الف ليلة وليلة الطائفة بكل غريب<sup>(٢)</sup> الى الافاصيص المتناهية اليوم بالتائق في السبك والدقة في الوصف والزقة في الخيال مع

وهي لا تشبه الا اذا بقي مريح في الجمل . وفي بحثي في العلوم الصحيحة ووفرت على اسرار الحقائق المادية والفصل بها الى الاعتراضات النافعة في معانيها وتطبيقاتها على مصالح الاجماع غذاء شهى واكل طيب ولذة لا تعاد لها كل اللذات الموعودة . فارخيدس لما اكتشف النفل النوبي وغلبي لما اكتشف دورات الارض وكبرلما اكتشف الحركة الاهليلجية ونيوتون لما اكتشف ناموس الجاذبية شعروا بلذة عقلية لا تضاهيها كل اللذات الجسمانية - وهي لذة جمالية ايضا - حتى اتهم نسوا انفسهم وعرضوها للتفريفة وبعضهم استعذب الموت في سبيلها

(١) ابن سينا وابن ابراهيم وارسطوطاليس يشاربون في انهم تركوا كتباً جمعوا فيها علوم الاقدمين حتى نسبت اليهم كما انهم واضعوها . فارسطوطاليس جمع علوم الاقدمين وفلسفتهم على ما فيها من الدلائل ان ذلك كلهم المتناقضات في الكتب المنسوبة له فبينما نراه يثبت مادية الكون اذا هو يفتح المجال للفئات السرية ويثبت نراه يحاول وضع نظام الاجماع على مبادئ الاشتراك والاعاون نراه يوايد سلطان الامة والاممرفاق ولكن الغلبة انما كانت لعلومه العقلية وفلسفته المبردة وابن ابراهيم جمع انطب القديم ولكنه هذبة حتى جعله علماً طاريعاً - وهو قلما استقى بالفلسفة وهذا قدال ان عظيم بضعة فوق سائر الذين تقدموا

اما ابن سينا او ابراهيم العرب وارسطوطاليس معاً فقد جمع فيه الاثنين . وفي الفلسفة مال الى فلسفة ارسطو حتى كان انشأها في الشرق والغرب

(٢) كككايات الشياطين والجن والعفاريت والغيلان واستعاطى التجار وهم لغات الجوارح والاميار ولا يزال هذا الميل الى الغرب العربي في الطابع غالباً على البشر حتى بين ارقى الامم بدليل



بعدها في كلا الحالين عن الحقيقة ثم انظر الى سلطانها على العقول حتى الراقية وقل لي  
ما هي منفعتها العملية بل الادبية نفسها. أليست في جعلها تذبذباً لقوى الاجتماع وتضليلاً  
للعقل في آن واحد؟

ويقلب ترددك في القضاء على هذه الفلسفة وكل ما بني عليها من التعاليم الموضوعة  
الى السخط اذا علمت انها كانت السبب لوقوف الانسان عن التقدم في علومه  
الصحيحة <sup>(١)</sup> قروناً عديدة . ولا يزال اثرها فينا شديداً حتى اليوم . وطيفها لا يزال  
حالياً حتى على علومنا الطبيعية نفسها سواء كان في تأييدها <sup>(٢)</sup> او في اسلوب بسطها  
ولا يزال حتى اليوم نصيب فهمها بادخالنا عليها كل تعقيد لغوي <sup>(٣)</sup> ووصفي مما لنا

اللغة الذي احداثه رواية ( شنت كلار ) للشاعر الفرنسي ( روستان ) التي جعلها على لسان  
المحوانات والبس الناس جلودها كيف انها افادت عالم الادب في أوروبا وأمريكا حتى اوفدوا  
لها الوفود واشغلوا بها الاسلاك البرقية وعقدوا لها الفصول الطويل وتنازعوا سبق الفحص فيها  
كأنها ليست من حكايات كل عجوز شرقية لا طمأنا . واهم الباربيون انفسهم بها أكثر من  
اعلامهم يعرف مدبنتهم بالظوفان . ولا غرو اذا طغى بهرم ومهدم والفرق وغفل من رسوم  
عن اخذ المحطة دونه فانهم في شغل عتبه ما عوام ما يتدفق من افلام كتابهم من السيل  
الجارف الذي لا يبق اليوم في سبيله مد

(١) نجد مثالا لذلك السبب بان الاطباء انفسهم مع ان علمهم يفرض عليهم درس المرض على المريض  
نفسه لم يكن لهم حق حتى القرن الثامن عشر سوى اعادة العلوم الكلامية الفصول على جوائز يجيز  
لم العمل بصنائعهم . فكانوا ياضون وقتهم في المدرسة او الجامعة وهم يفسرون كتب افراط  
وجالينوس كأنها منزلة ويؤزلونها ويحفظون الطبيعة بها ليطبقوها على الميادين الفلسفية والدينية  
معاً لا انهم يحفظونها ليعضوا فاسدها . فكانوا يصرفون وقتهم في التدرب على الماشغلات المجردة  
حتى اذا اجادوها بخصال يفكره باللائحة المنقورة والجمل الموشحة العريضة المعقنة العريضة  
على التمام اعتبروا حيث شئ انهم اكفاء وسيبوا اهلها من يد رئيس الجامعة الذي نفسه سياحة  
دينية كما سام الكهنة والاساقفة ونقلوا المحبة والفلسوة كما ينقلها خزانة والجامعات اليوم .  
فكان كل علم بخرفة اى صناعة جندل وذراية لسان كما هو شأن كثير من اليوم

(٢) الذين ينظرون الى هذه العلوم اليوم ربما خفي عليهم ما اوجب تأييدها من العناء وما عهدها  
بالمشاحات التي اوجبتها مسائل تبدو لنا واضحة في المحاضر بعيد من مثل في السوائل غير  
الفاطمة النور والاثاث تحول الثرى وفي الشداء الجوي وتأيد مذهب النشوء والقول الخ مما  
يعد اليوم في حكم المقررات والطرار الطبيعيين انفسهم في تأييدها اسباباً الى استعمال براعهم  
منسوجة على نول تلك الفلسفة

(٣) هذا التعقيد منه اصل من اثر خطة مباحث علماء الكلام فيها ليلوك انسيل المعقنة ومنه لعدم  
انطلاق الكلام المألوف على الحديث من العلوم

من ذلك التراث القديم كأن الحقيقة اذا وصفت بسيطة تضعي مبتذلة  
وتاهيك بما في هذا الالتزام في البحث دون الالتجاء الى العمل والاختبار من  
تعويد العقل وتربيته على حب الاغراب ولا شيء أسهل عليه حينئذ من ركوب متن  
السطحات المنطقية حتى في العلوم المادية نفسها . ألا ترى العلماء انفسهم واصحاب العقول  
الراقية في المسكونة قاطبة كيف انهم يميلون حتى اليوم الى مباحث فارغة ويصرفون  
انفس اوقاتهم في التنقيب عن هذه الآثار الادبية القديمة <sup>(١)</sup> ويعبرونها من الالتفات  
ما لو صرفوا بعضه في العلوم الصحيحة <sup>(٢)</sup> والاشتغال بما امامهم لا فادوا الاجتماع فوائد  
لا تحصى ووقروها من زيادة التضييل

ولم يقتصر ضرر هذه الفلسفة المجردة على العلوم الصحيحة والطبيعية بل تناول كل  
شيء حتى الاديان نفسها

خذ مثلاً شريعة القرآن فانها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة الاجتماعية  
العملية المستوفاة <sup>(٣)</sup> التي ترمي الى اغراض دينوية حقيقية بمعنى انها لم تقتصر على  
الاصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع بل اهتمت اهتماماً خاصاً بالاحكام الجزئية  
فوضعت احكام المعاملات حتى فروض العبادات أيضاً . وهي من هذه الجهة شريعة  
عملية مادية حتى ان الجنة نفسها لم تخرج فيها من هذا الحكم من اشجار وانهار وانهار  
الى آخر ما هنالك . وطالما جرى اتباعها عليها صلحت امور دنياهم على سواهم بالقياس  
الى حالة البشر في تلك المصور لان كل شيء نسبي في هذا الوجود . حتى دخلت  
عليهم علوم اليونان الفلسفية ومباحثها المجردة فمالوا بها الى العلوم الكلامية واطلقوها  
على الدين وروضعوا الفقه الاكبر فكثرت البدع بينهم وشرها في تمكين هذا النوع من

(١) اذا وجد فيها احياناً بعض الفائدة فهي كما في المثال (درم دس على قطار عش)

(٢) اذا علمت ان المشتغلين حتى اليوم في العلوم الصحيحة ليسوا الا اجراء كسرية من ملايين تشتغل  
في سواها ورأيت الفوائد الكثيرة التي تجبت عن ذلك ادركت الفوائد الكبرى التي كانت  
تحصل للاجتماع من شأصركل هذه القوى لو انصرفت الى العمل والى ما يؤدي اليه

(٣) شريعة موسى مادية عملية ايضاً ولكنها غير مستوفاة . وشريعة عيسى وان كانت حكماً ومواعظ  
تعتبر اصولاً كلية الا انها في مجلتها نظرت الى العالم الروحاني أكثر من الحياة الدنيا . بخلاف  
شريعة محمد فانها نظام اجتماعي عملي مادي فانولوجي حقيقي



النظر الصوفية . فانصرفوا بذلك عن غاية الدين العملية المادية الى المرامي المجردة والمنازع النظرية وسائر علوم الجدل الادبية المقامة عليها حتى الى ما لا علاقة له بالدين مطلقاً<sup>(١)</sup>. وحل ذلك حتى على شعورهم نفسه فانقلب من خطئه الوصفية التقديرية كما كان الغالب فيه في الجاهلية الى هذه الصورة الخيالية الواهية وتبدلوا فيه بان صار اكثرهم لسان حال تهتكهم في غزلهم ومرمى ذل نفوسهم في تزلهم واغراقهم في اختلافهم مدحاً او ذماً فتمقروا وما زالوا متقهقرين حتى اليوم . ولو بقيت وجهتهم في مجتمعهم شريعة القرآن وحدها كما هي فيه لما قام في وجههم حائل يصد عن الارتقاء الا ما يقوم من كل شريعة اجتماعية جمدت على الالام<sup>(٢)</sup> غير ان الشارع الحكيم نفسه وضع لهم مخرجاً من ذلك الجحود بآيات النسخ نفسها التي اتاها في قرآنه في حياته لهم يتدبرون<sup>(٣)</sup> وقد كان لروح هذه الفلسفة اسوأ وقع في احوال الانسان الاجتماعية أيضاً ولا اكفك الوقوف في الماضي البعيد بل انظر الى الماضي القريب . فقد كانت اوروبا حتى الى عهد قريب ( ١٥٠ سنة ) ملك الامراء يحكمونها بحق السيادة المطلقة ويستولون عليها كما يستولي المالك على ملكه ويضمونها او يقتسمونها بالميراث او بالزواج . وكانت

(١) ان الاسئلة السبعة التي ترد على مجلة المشار من اطراف العالم الاسلامي والتي تقسم صاحب المار الفضائل مشقة الرد عليها مضطراً لذلك على مبلغ نفقر القوم في فهم الدين من مثل جواز قبح دفن الميت لتفقد من موته . وانعشه بالافرنج في الزبي . وغروب الشمس والانتظار . وعده الوفاة . وجواز ذكر الله بالرقص والتواجد . وعذاب الغير والتجوز عند الضوئية . وايضا الغناء للمح . وهذه الاسئلة ماخوذة من عدد واحد من مجلة . وغير ذلك من الاسئلة التي تضطرب لها عظام التي في خبر القرآن وشريعة بريان منها لو انهم يفهمون

(٢) قانون نابوليون كان اية في زمانه ولكنه ككل القوانين المسنونة في من الجعود ولوا ان خال من القصة الدينية ما يجعل تصويره على مدى الايام بعيداً فلا تلبث الا بعد تمام الضرر . وبالمثل ذلك بل هو اليوم يا ادخل على من النظامات المربكة المشبكة وبما صار من وجوب الانقياد الى المخرج في الاول والتفسير كسائر علوم الكلام فيه في رجل الاجماع بدع بالهية احياناً كثيرة

(٣) الذي نفع المسلمين في الاول فارلهم اذ صرفهم الى الحياة العملية هو الذي اضرهم بعد ذلك اذ قدم شريعة والذي اضره انتصاره في اول الامر اذ اصابهم فاما لم عن الحياة الدنيا هو الذي نفعهم بعد ذلك لانه لم يقدم به شريعة الا لا بد لكل شريعة من ان تتغير مع الانسان بحسب الزمان والمكان

السلطة تسري من فوق الى تحت من الامير الذي كان كل شيء الى الشعب الذي لم يكن شيئاً مذكوراً فلم يكن له اذن صوت ولم يكن شأنه في التاريخ الا شأن المتاع يباع وبشرى ولم يكن له حق في اشتراع الشرائع التي تحكمه او سن النظامات والقوانين التي تسوسه وبالجملة لم يكن له وجود ادبي مطلقاً . ومع ذلك فقد كانت تلك المبادئ الفلسفية والعلوم الكلامية ولا سيما الدين القائم عليها في ذهونها وابان عجزها بل انظر الى الحاضر اليوم ترى كيف ان اترك كل ذلك في شرائعنا ونظاماتنا وحكوماتنا وسائر معاملتنا وغايتنا في حياتنا لا يزال يتنازعنا في مجتمعنا ويصرفنا عن تعاوننا ويدفعنا الى تمزيق بعضنا بعضاً وكيف ان الحكومات لا تزال تؤيد التعاليم المبنية عليها بالقوة والمظاهرات فتقيم لها المعاهد الخاصة<sup>(١)</sup> لتطمس بها على الشعب لحفظ السيادة العمياء عليه<sup>(٢)</sup> بل انظر الى هذا الشعب الجاهل نفسه كيف انه يقتصر بها لسواه على نفسه فان حاولت ان تخرجه من جهله قام عليك كأنك امتهنته كما في هذا القول والمرء ان ما اعتاد مترية فان تصنه فهو يمتن

انظر الى كل ذلك لا في الشرق السخيف باممه وحكوماته وملوكه حيث غاية كل هذه العلوم تفوق كل غاية في مجتمعه<sup>(٣)</sup> . بل انظر اليه في ارقى الممالك اليوم

(١) المعاهد الدينية لا يجوز ان يكون للحكومات الراشدة هذا فيها مطلقاً لا لشرعاً ولا لمخذاً بل في من حقوق المجامع تشييدها بما لها الخاص على ما هو في مدارس الحكومات المشددة بما لا ائمة لا يجوز ان تشاد فيها معاهد دينية ولو كانت الامة كلها من دين واحد فكيف وهذا حال -- لان الغاية الاولى منها تعليم العلم لا تعليم الدين -- فالذين يجب ان يعلم في معاهد الخاصة فقط -- والحكومات لا يجوز ان يكون لها دين طائفاً في تحكم اقواماً من معتقدات مختلفة بذلك منها ان تجمعهم في مصالح اجتماعية واحدة مشتركة والا كانت هي العاطلة على الدمار وفي لسوء حفظ المجتمع -- في الآن كذلك في اكثر المكونة كما في هذا المثل «حاميها حراميها»  
(٢) الحكومة الفرنسية الجمهورية اليوم تحارب الجماعات الدينية في بلادها من غير حق وتنصرها في الشرق من غير حق ايضاً . نزع انها هناك تقوم زرع سمومها وهذا تنصرها نفوذها . فتقاربها هناك ينشر التعليم الصحيح لا بالمصادرة وتنصرها بما بالاعمال من الحقوق السياسية لمحايتها لا بالتصديق في حفلات اعيادها

(٣) الجامعة الدينية في شرقنا لا تزال فوق كل جامعة ويا تذكر المصالح الاجتماعية في وطننا الواحد وفي سبب كل الاعمال والداخلية حتى اليوم نغشها بيننا في كل شيء حتى في كتاباتنا الادبية وفي جرائدنا السياسية فقلنا نخلو كتاباً من كلام البسملة والمحمدية والصلوة على هذا والسلام



على ما هي عليه من الفرق الجسم عما كانت عليه في الماضي عزة ومنعة . فمع معرفتها  
ان ارتقاءها انما كانت بهجرها كثيراً من ترهات الماضي فهي لا تتنازل عن الباقي  
برضاها <sup>(١)</sup> بل انظر الى الجنايات الكثيرة التي ترتكب كل يوم بحق الجموع والافراد  
تحت طي هذه المبادي القائمة عليها مراعي الاديان <sup>(٢)</sup> والاطمان <sup>(٣)</sup> كما هو شائع  
بين الناس حتى الآن ولا نستغرب بعد ذلك اذا كان المجتمع لا يصلح صلاحاً تاماً بها <sup>(٤)</sup>

•••

واذا نظرنا الى الاجتماع نظراً عملياً من حيث ذلك كله لزمنا القول ان الشرقي  
فيه اليوم على نوع خاص فضلة لا عمدة . وهو في علومه حتى اليوم عالم اي ان علمه  
نظراً اكثر منه عمل . والمدارس التي تعلمه العلوم الحديثة لا تخرج في تعليمها عن هذا  
الحد فهو في الاجتماع شريك سلبى لا قسام المنفعة لا ايجابي للعمل لها . بل هو يقتسمها  
مرغماً في ورودها اليه من الخارج ويقوم في سبيلها معارضة من الداخل . واذا استثنينا  
اليابان نوعاً نقول ان هذا الحكم يشمل اليوم اهل الشرق الاقصى والادنى وسواهم  
من شاركهم في جهودهم من الامم التي لا شأن لها اليوم في العلم العملي الراقي . ولو

على ذلك ما هو خاص بكتب الدين حتى لا يهتر هذا العرق ينقض فيما وثق عواطفنا على عقولنا  
وتربتنا على عانا في مصالحها الاجتماعية

(١) امة الانكليز مع انها ارقى الامم اليوم بعد الاميريكاني لا تتنازل عن ثقافتها الخفية وامتيازات  
حكومتها الخفية الا تهتز فصل الى اعاقها كجلاس الاعيان والاقاب وحفلة التويج وغير ذلك  
من التحفات المعروضة عليها جداً وكأني بهذه الدورة الاجتماعية قد بدأت اليوم

(٢) من مال مذبحه سانت برنلي في فرنسا وديوان التفريش في اسبانيا ومذامح الارمن وتجاوز املته  
في تركيا

(٣) كم صدمت الاوطان كما هي مفهومة اليوم بتوت المدينة للاعتصام بميل العميرة

(٤) كيف نرجو هذا الصلاح وجراندنا حتى اليوم نغني بغير الامام المسلم او النصراني في جنازة ميت  
ليس من دينه كان الامر غريب في نفسه وهل يصلح جميع مؤلف من هذه الخلفاء في  
الاعتقاد المشابهين الخلفاء وما يجهلان بكروا فيهم اخرون متعاونين متفنين

اطلقنا عليهم شريعة « شو »<sup>(١)</sup> وهي كشرية النحل في الابقاء على النافع وقتل غير النافع<sup>(٢)</sup> لوجب ان يهلكوا عن آخرهم . بل لوجب ان يباد اكثر البشر في المعسورة كلها باعتبار هذا النافع منطقاً على مراعي ارقى فكر اليوم لان القسم العامل لصلاح المجتمع حتى في البلاد الراقية ليس الا دون الطفيف لولا ان هذه النظرية من حظ الاجتماع غير ممكنة لان الاجتماع مدفوع الى الصلاح بطرق عملية اصح ليس فيها شيء من هذا التبذير . ولو امكن العمل بهذه الشريعة لما درينا ان يكون مقام « شو » وامثاله في هذا النزاع العنيد لان الاقوى ليس الاصلح دائماً ولا هو واحد في كل حال<sup>(٣)</sup>

و « شو » يزعم وزعمه فاسد انه يستند الى مذهب دارون في بقاء الانسب لا بالانتخاب الطبيعي فقط بل بالانتخاب الصناعي ايضاً . ومن رأيه ان هذا الانتخاب الاخير العقول يجب ان يكون غرض الاجتماع البشري العاقل الى ان يبلغ الغاية من ارتقائه بخلق الانسان الاسمي او « السيبرمان » كما يسميه بلغة الانكليز<sup>(٤)</sup> وشو متفق في ذلك مع الفيلسوفين الالمانيين « شوبنهاور » و « تشه » في ان شريعة الاجتماع كشرية الطبيعة نفسها لا يجب ان تعرف شفقة ولا رحمة فتقتل العاقل او تمنع تناسله

(١) هو (برنارد شو) الانكليزي وهو يذهب الى وجوب تهديد الزواج وقتل الذين لا خير يرجى منهم بمخطة المجتمع

(٢) في النحل شريعة لا تدبر وهي ان الذكور مئة بعد ان تنقضي وظيفتها التلقيحية ولا يعود لها نفع مطلقاً بل تصنع عائل على التفكير تقوم عليها الاناث وتنتكها وتقتلها عن آخرها . ولولا ان عملها الذي ضمت به على ذكرها وجد الانسان به غذاء شهيته التي جعلته يعتني بها لا تعرضت لشرعيتها هذه التي كل فائدتها لما كانت تحفظ تنوع اناها والقوة البدنية على ذكرها لان المحافظة في كل شيء وعرف يدعو الى التفتت في هذا النزاع مع الغير

(٣) الاصطع المرغوب فيه ليس واحداً في نظر الاجتماع في كل الاحوال فقد يكون الجمال او الغد او صغره والقوة قد تكون في جانب القوة البدنية او المحيلة العقلية وقد تكون حسنة صالحة اليوم وتزد غير ذلك غداً وكل ذلك يجعل شريعة ( شو ) نظرية ناقصة والعمل بها غير ممكن كغير الاجتماع والا وقت لم يرتق البنية

(٤) طالع مقدمة سلامة موسى في ذلك المنشورة حديثاً في اللغة العربية



ولا تبقى إلا على الانسب<sup>(١)</sup>

ولكن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة الخالين « القائلين » كما اسميهم لم يقولوا لنا متى يجب العمل بشريتهم اليوم أو غداً وهل كان يجب العمل بها منذ البدء . لأن الإنسان ليس واحداً في طبيعة هذا التفوق ولا في علمه هو نفسه لتقديره . ولو صح العمل بها في كل العصور عن ارادة ومقدرة لغلب على الاجتماع منذ البدء التفتقر حتى يعود ويندمج ثانية في الحيوان الاعجم ولبقي في صورة همجية هائلة لا عقل له ولا علم كأنه الوحش الأكبر<sup>(٢)</sup> لأن الإنسان إنما ابتدأ متوحشاً جاهلاً وتفوقه حينئذ إنما كان بقوة البدنية وكثيرته . بل ماذا كانت حالة الاجتماع لو عمل بها بعد ذلك أيضاً كما في عصور الحماة في أوروبا يوم كانت صناعة الحرب ارقى الصناعات في نظر الناس وصناعة الكتابة احقرها . يوم كان الأمير لا يفخر إلا بالسيف ومهزاً بالقلم ويحتقر العلم ولو عمل بها حينئذ لعمل بناء على ان ذلك هو الانسب والا أقوى كذلك ولما كان قدر ان يعلم شيئاً أو يعمل شيئاً مما تعتبره الاصلاح اليوم على ان هذه النظرية وان كان يستند بها الى مذهب دارون كلياً إلا انها ناقصة في جزئياتها لاختلاف العوامل الداخلة فيه مما يجعل الارتقاء فيه نتيجة عمياء سواء كان

(١) هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يقولون - وقولهم حق - ان الشريعة الطبيعية السائدة في نظام الطبيعة كلها من صامت وهي كما في مذهب الشوء هي (الانانية) أو حب الذات . ولكنهم بعد هذا القول الدحيح يقومون في الزعم ولا سيما في تطبيق ذلك على الاجتماع البشري . فيقولون ان الشرائع الالهية والاجتماعية نفسها لا تنطبق تعاليمها على هذا المبدأ لأن تعاليمها الوضعية مبنية على الرحمة ولذلك كانت عبوب الاجتماع وشروطه كثيرة . وما قالوا فقولهم هذا إلا لأنه ذهب عليهم ان شريعة الانانية هذه مخالفة لشريعة اخرى طبيعية تجعل هذه الانانية مقيدة بتمها هذه المنفعة إلا اذا دار كما فيها مشارك وهي المنفعة المتبادلة . وسواء كانت الانانية طامعة كما في الاجتماع البشري أو جاعلة كما في الطبيعة فهي مقصورة على هذه المشاركة التي تبدو لها مزاياها أكثر كلما زادت كلما بطلتها . فان كانت الانانية تجعل الكائنات على جذب النافع اليها فالصلوة تدعوها الى توفير منفعة سواءاً حياً بنفسها وعلمها هذا ليس رحمة أو تقاضاً في حب الغير بل عن ضرورة . ولم انظر الى استعمال هذه الفسوة اسماً في ظروف خصوصية جزئية لا كلية

(٢) والمرجح ان كان افترض ان قوته البدنية لم تكن كافية وجدها تسج في الفناء بين خصوصيات

تفوقه هذه القوة

ذلك في الطبيعة الصامتة أو في الاجتماع العاقل ولولا ذلك لما ارتقى الاجتماع . وعمل  
الارتقاء وإن كان الدافع فيه « الانانية » إلا أنها هي نفسها خاضعة لنا موسى التكافؤ  
والتكافل<sup>(١)</sup> الذي بموجبه يتم الارتقاء قسراً ولو بعد التذبذب الطويل باعتبار أنه  
الانسب والأصلح لمصلحة المجموع لا لفئة من هذا المجموع . والاجتماع نفسه العاقل  
لا يستطيع التصرف بهذا النظام إلا في حدود معلومة معها تعاضل شأنه وقويت ارادته  
إلى أن يصبح فيه ذلك بالعلم الكثير في حكم المطرّد اضطراراً أيضاً لا عن ارادة غالبية.  
وهذا ما يجعل نظرية أمثال هؤلاء الفلاسفة حلماً قاسياً لا حقيقة عملية وبالبته مع ذلك  
حلماً لمصلحة الاجتماع ولكنه حلماً لو صح لسار به الفهري حتى وهو في أرقى حالاته  
لأن ارتقاء الإنسان ليس له حد كما أن علمه ليس له حد أيضاً حتى يقف عنده  
وبقصر ارتقاؤه وعلمه عليه دون الأخذ بسواه

ولا يبقى عندك أدنى ريب في كل ما تقدم إذا علمت أن أوروبا نفسها لم تبتدى  
نصطلح إلا منذ القرن الثامن عشر حين بزغت شمس العلوم الطبيعية ضئيلة في أول  
الأمر وأخذ ضياؤها ينتشر بين الناس ويبدد غيوم تلك العلوم المظلمة ففتحت الأمم  
حينئذ وأخذت تتغير في نوع أحكامها تارة بالثورات وتارة بالشؤون التحولي تارة  
بالحروب وتارة بالسلم . ولكن الاجتماع لم يخط الخطوة الصائبة في سبيل ارتقاؤه الحقيقي  
حتى صار ارتقاؤه أسلم إلا من بعد ما تأيد مذهب التحول الطبيعي<sup>(٢)</sup> وركز على  
قواعد ثابتة وتحولت به قوى العقل من التخبط في دياجير الخيال إلى الدرس الاختباري  
فارتقت حينئذ العلوم الطبيعية ارتقاءً عظيماً كاد يربط أطراف العالم بعضها ببعض

(١) التكافؤ والتكافل يراد بها أن كل عمل في الطبيعة لا يمر من دون صدى وبها يتكفلان وحدهما  
بإزالة عيوب الاجتماع كالأمراض وتقليل المجتنبات بمقاومة كل أسبابها المبدئة لها لا يقتل أصحابها  
في المجتمع على نوع خاص

(٢) أي مذهب النشوء والارتقاء الذي رقى العلوم الطبيعية وهدى السبيل السير بها لهم هرائع  
المجتمع فيها أصح



وسوف تجعله وطناً واحداً<sup>(١)</sup> فنلت حيث نل قوى التحول الارتقائي<sup>(٢)</sup> في الاجتماع  
غلبة ظاهرة على قوى الاحتفاظ التقهيري وصار كل عمل اليوم في قطر برن صده في  
الاقطار الأخرى بالانصياع لا بالمقاومة<sup>(٣)</sup>

•••

وقد قلّ الميل اليوم الى تلك المباحث العقيمة عن ذي قبل وقبل الاعتناء بالعلوم  
العقلية والفلسفية في المدارس الراقية<sup>(٤)</sup> مجردة كانت أم مادية . وإذا كان العلماء  
الطبيعيون في القرن الماضي لجأوا الى الفلسفة أحياناً لرد غارات مقاوميهم قائما فعلموا ذلك  
اضطراباً لدفع المثل بالمثل مع انصياعهم في برهانهم الى الدليل الحسي الراهن وإذا  
كان لعلوم النظر شأن كبير في العلوم الطبيعية نفسها حتى اليوم فلأن العلوم الطبيعية  
نفسها لا تزال في أولها ولم تنتشر الانتشار الكافي بعد ولأن مجرى الأفكار أيضاً لا يزال  
متأثراً جداً بتلك المبادئ النظرية العريقة فيها منذ القدم<sup>(٥)</sup> . ولكنه سيأتي يوم وما  
هو في تاريخ الاجتماع بعيد تسقط فيه قيمة هذه المباحث الكلامية الفلسفية بل ينظر  
الى اصحابها كأنهم صبية يلعبون او مصدعون يهزون اذ يصبح العلم كله علم اختبار

(١) كلما اختلعت المصالح بين الأمم بالاختراعات قلت التواصل بين الاوطان واصبح شأنها في المجتمع

العام كالمدن الى الوطن او كاليوت الى المدينة

(٢) أي السلم خلافاً لمذهب شو العنيف

(٣) لا كما كان في الماضي ينفذ الوطن بأزاء الوطن ويتفانيان بالمحروب

(٤) ما عليك إلا أن تقابل بين التعليم في المدارس القديمة والحديثة لترى هذا الفرق وتري كذلك

أهمية الوقت الضال في الأول مع فلة الفائدة بالنسبة الى عظم هذه الفائدة مع قصر الزمان

في الثانية ولا ريب عندما أن مدارس المستقبل ستكون أعظم فائدة جداً وأسهل تحصيلاً للعلوم

على الطلبة كذلك ويتفاد ما تستقط علوم الادب والفنون من قوى علوم العمل الاعتبارية

وتعتبر كتب التدريس بحسب ذلك

(٥) أكبر شاهد على ذلك تأليف العالم الطبيعي أوليفر لودج كتابه في المنع به على ربح سأكنة في

النفس أثارها اليوم الكاتب الصهيوني ستيد وعرضيات المشعورة اوسايبا . والمرجمات التي ساقها

لباء الارواح خالدة مستقلة لا تخرج عن انباء حكاية عرافة النبوءة وهي كلها دليل على

معتقدات في الناس لم يروى اعتقاد بالتربية لا على تقرير عقائدي مدعومة بمبادئ العلم الطبيعي

وعصراً علم الطب وقد لا يشك في صدق منه في مبرراته ولكن لا شك كذلك في انه هو

ناسة مخدوع ومجهول في آن واحد كما يبين ذلك في مقالات نشرت في الصحف والمجلات

و يتعزّن العقل عليه بالمزاولة ولا يعود يستعذب سواه فيقل النظر ويكثر العمل ويقوم  
البرهان الرياضي والميكانيكي مقام البرهان العقلي والقياس المنطقي ولا يعود يصدق  
الأعجاز العلم وحده ويتنفي من العالم كل ما ليس من العالم على حد ما في  
هذا القول

لو كان ربكم كبر كوني<sup>(١)</sup> لما ضقتن وضائق بالفريق نجات<sup>(٢)</sup>  
رصد السفينة ثم نجى قومها في حين لم تغد النجاة صلات  
علم عجائب هديه مشهودة لا علم غيب تدعيه هداة  
هذا الصحيح وليس ما اوحى به سيناء او طابور او عرفات  
وهكذا الى ان تزول سائر العقبات التي اقامتها تلك العلوم الكلامية الفلسفية في  
سبيل ارتقاء الانسان في اجتماعه والتي اشدها هولاً الحاسة الدينية<sup>(٣)</sup> والحاسة

واثنتها في الجزء الثاني من مجموعتنا ولا ريب في ان اوسايا هذه من افرد عمرافات هذا  
العصر ولكن لا ريب عندنا في ان كل اجالها شعورة راقية لا يصعب كشف الدجل فيها  
على المراقب البصير كما قلنا من اشال ذلك من عهد بعيد في رسالة بعثنا بها من الاسكندرية الى  
جريدة الاحرام ونشرت فيها سنة ١٨٧٦ تحت عنوان «ان من العلم لحرراً» وقد اثبتنا في  
الجزء الثاني من مجموعتنا

(١) اشارة الى التفرد الاسلامي

(٢) اشارة الى حادثة البصرة التي عرفت ونجا رعاياها بواسطة هذا التفرد الذي لولاه لما امتدى  
اليهم في تجاهل البحر ولتصير طعاماً للمك

(٣) انا لست متعصباً ضد الاديان بمعنى الكلمة الموجب لكرامة من لا يشاركك سبب اعتقادك  
الخاص وفي امكاني ان انازع كل انسان مهما كان معتقده وبمبنى الاخلاص ولكنني  
متعصب جداً انقول الحق ان ما اعتقده كذلك وحتى اليوم لم يعني عن هذا القول تحذير ولا  
مصلحة فاذا شددت النكير على الاديان فليس فوسدي ان اخرج احداً في ايمانهم ولولا ما  
اشاهده كل يوم في معاملتنا من الشرور المتعصبة المبطل بها المجتمع بسبب هذه الحاسة  
ولاسيما في وطننا الخاص لما لفت قومي على الاديان واصحابها في كل ما كتبت حتى اليوم  
وهي بعد ذاتها شرائع ليس فيها من الاصول الاجتماعية ما يخالف مصلحة الاجتماع لولا انها ككل  
الشرائع التي تطلع اليوم ولا تعلم غداً وخصوصاً لولا ان الضميمة الاخيرة التي طاعتها جيوداً في  
نظر انبيائها لا تتخرج عنه الا بتورات هائلة تجري الدماء فيها امراً واصحابها من المتعلمين  
الذكاء في عصورهم والمتعلمين كل تعظيم لولا انها اصيحت بعدم في ابدى الزمان وسيلة لازمة ان  
وفي ابدى الجهلاء سلاحاً للتدريس في الوطن الواحد فانقلب لبركة التصود منها بايديهم



الوطنية<sup>(١)</sup> على أن هاتين الحاستين أخذتا اليوم في الضعف ولو مهما تقول فيها المنقولون وترقق فيها المترققون والفضل في ذلك للعلوم الطبيعية من جهة الاختراعات الصناعية التي تربط العالم بعضها ببعض ولعلم درس الاحياء من جهة معرفة نسبة الكائنات بعضها الى بعض ونسبة افعالها الى الطبيعة وستزولان تماماً كلما ارتقت هذه العلوم وانتشرت بين الناس او انهما لا تبقيان بسطونهما كما هما اليوم فتسقط حواجز الاديان<sup>(٢)</sup> وتمحى حدود الاوطان. وهكذا يصير الانسان انساناً حقيقياً ويكون الانسان اليوم الحلقة الواصلة بين الانسان الحقيقي والحيوان

•••

والعقبة التي يقدر لها عمر أطول من سواها هي عقبة التفاهم أي اللغة. ولكن العلوم الطبيعية نفسها بجعلها العالم كأنه مدينة واحدة بتقريب المسافات ينهـُـ يستجمل التنازع شديداً جداً بين اللغات<sup>(٣)</sup> حتى يقضى على الكثير منها الذي لم يكن له في هذه العلوم شأن يذكر<sup>(٤)</sup> وكان البقاء اليوم غير مقدور إلا للغات ثلاث سيقصر

لغة حتى يتركها الخلف على السلف. فإذا أضفت الى كل ذلك انها من الوجهة العلمية مقولات لومام واضغات احلام وهي مع ذلك لا تستطيع ان تضبط الجميع لولا الزارع المدني فلا أرى (لا تخترعها) بعد ذلك أدنى منفعة فيل كل هذه الاضرار للانضمام عنها

(١) لقد كانت الاوطان في أوروبا الى عهد قريب لغة المحروب بشروطها منهم لاقبل سبب. وأما اليوم فقد قلّ الجبل الى اضرام نارها لاجل ذلك ولا سيما بعد ان عرفت الأمم ان المحروب لا يخدم مصالحها غالباً وإنما يخدم اغراض الناس قليلين من المتولين قيادتها على الأمم اليوم مبالغة الى المصالح من فوق حدود الاوطان سيما وراء مصالحهم العامة. والاشتراكية الصحيحة ليس لها غاية أخرى. والأرجح ان حرب السبعين الحادثة هي خلفه المحروب الوطنية الكبرى بين الأمم المتقدمة

(٢) لقد كانت الثورة الفرنسية خاتمة الثورات الكبرى فبطل المصالح الدينية عن المصالح المدنية ولغاب هذه الاخيرة على حقوق الاشتراكية. على ان الاديان لا تزال سبب الخلافات الكثيرة في الشرق الأدنى خاصة. وحتى اليوم ليس فيهو جنباً عامة خارجة عن هذا السبب ولو ضمت

(٣) من يوم تحول علم الطب في مدارس مصر وسورية الى الانكليزية والفرنساوية فقدت اللغة اقوى اركانها العلمية حتى صار من الصعب عليها جداً الخلق بالعلوم الطبيعية في سورها السريع (٤) اللغات تقرباً بجماعة الأمم وحياء الأمم انما تكون بعلومها وصناعاتها وحياء العلوم والصناعات بالعلماء والصناعات منها. فإذا غلبت أمة منهم ذهب استقلالها وكان انقضاء طريقتها امرأ محموراً

التنازع عليه في المستقبل بينها وهي الانكليزية والالمانية والفرنساوية . وكان الراجح حتى الربع الاول من القرن الماضي ان يكون الفوز للفرنساوية لانها اسبق اللغات وامتها اسبق الامم الى المبادئ الاجتماعية الراقية لولا انه سطا عليها بعد ثورتها الشهيرة عاملان قويان كانا كالغل في عنقها واقيد في رجلها وهما تيار كتب الادب المجنونة الخيالية التي بلغت صناعتها بينهم مبلغاً برزوا فيه على سائر الامم واستغرقت فيها أعظم العقول الراقية وهوتست بها الآخرين <sup>(١)</sup> وتيار علم آخر هو علم الحقوق <sup>(٢)</sup> الذي اورثه نابليون لامتة وللعالم ايضاً بعد ان كبح ثورتها وردها عن غايتها النبيلة وحولها الى مطامعها الخاصة وصرفها الى ما صارت اليه في زمانه وبعده . فهذان العاملان الصارقان للافكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة سيكون ضررها على العالم اجمع وعلى فرنسا خاصة أشد من ضرر النظريات الدينية التي ما كادت تنخلص من شرائها في ثورتها الاولى حتى وقعت من ذلك في شرك اخرى اشد وادهى <sup>(٣)</sup> على ان كل ذلك اليوم عقبات صغيرة في سبيل ارتقاء الانسان الكلي <sup>(٤)</sup> في العمران لسرعة ارتقاء العلوم الطبيعية وسهولة انتشارها

\*\*\*

(١) لا يرضى الخلاص من هذا الشر إلا بتعليق كتاب الادب الطبيعيين لا ليفهموا مقامهم بل لفهموا الافكار بهم اولاً ولكن المقاومة حتى الآن حقيقة جداً والغلبة لا تزال في جانب الكتاب الخياليين  
(٢) لقد بلغ هذا العلم اليوم من السعة في التطور والتفصيل في العمل مبلغ علوم الكلام في الماضي وهو للفقول الراقية اليوم لا هوت لان هذا عدا ما يلحق الاحتياج بسببه كما هو اليوم من الانصرار اليافئة مادياً بالثقافات اليافطة وانماصة الوقت وادبها بما يتسرب من الخلق لغيرها على ضروب الفتن في تبيد هذا الوقت والانصراف بذلك عن العمل بما هو ارفع من جميع  
(٣) اود انصر اليوم ان يختصر شيانها الرافون من تحميم في الهافت على هذه العلوم الكلامية التي لا تقبل استقلالاً ولا في من فسر . ولينصوا بكلهم على العلوم العملية والصناعات التي لا ترتقي بلاد حقيقة بدونها

(٤) الياسون في طيانج العمران لا بهم قيام ام وسقوط ام في المصنع البشري ولا يظفرون من خلال ذلك الا الى النتيجة الكبرى الكلية . ولقد كان من شأن هذه النتيجة في الماضي التفقر والوقوف في غالب الاحوان وقيام ام جديدة على اطلال ام قديمة يعامل الحروب المنازعات اليافئة عليها الدين والوطن . واما اليوم وقد ارتقت العلوم الطبيعية . واخذت بمصنوعاتها ومخترعاتها تربط



وانا اسمع من هنا غفمة وارى انساناً يقومون ويقعدون وخاصة وعامة يهزأون او  
يسخفون وربما قام منهم متحمسون تمدنهم نفوسهم لو أنهم لا يصبرون . وكلهم يقولون  
كيف تريد ان تبعضنا بعلمك المقيد وفلسفتك المحدودة عن ذلك العلم المطلق وتلك  
الفلسفة التي لا تقف في سبيلها عند حد بل تخرق حجب المادة وتطلع الى ما وراء  
المنظور . بل كيف تريد ان تصرفنا بماديتك الارضية وتصوراتك الترابية — ولو أنها  
حقائق — عن تلك المصائب العالية والافكار السامية التي يناجي الانسان بها امانه  
بل آماله بل نفسه وربه اذ يصعد بالخيال الى سماء المآل ويراها بذلك الجمال في  
فراديس الآمال — ولو ان ذلك تنقل في بروج الاوهام — وتطلع الى صروح المحال —  
وهل يجد العقل فيها تلك اللذة التي يجدها في هذه ؟ أم هل يجد وجدانه <sup>(١)</sup> فيها تلك  
الراحة التي يرتاح اليها ؟ وابن عظمة كتب العلماء من عظمة كتب الانبياء ؟ بل ابن  
جمال ومصنوعات تلك المشهودة من جمال موضوعات هذه الموعودة ؟ بل ابن مقدرة  
علوم اولئك المقيدة من مقدرة مواهب هؤلاء العاطفة من غرائب عجائب العصور  
الميثولوجية وما تخلف لنا عنها من مأثورات التجلي الموعود بين البروق والرياح قزول  
الروح المسطور على ذلك الطور بين النار والنور فذلك الوجود والصعود الخافين لطبيعة  
الوجود الى ما سأل من العجائب على لعاب العناكب ! أم هل تقاس كتب القصاصيين  
الطبيين اليوم أم أي مؤلف آخر يؤلفه أي عالم في الهواء والماء والتراب لتقرر ما فيها

مطراف العالم بعضها ببعض فصار الارتقاء مطرداً كما في العمران تدج في الامم الضعيفة او  
تقرض بعامل النشوء القوي غالباً لا بالمحروب والثورات الوحشية كما كان في الماضي ولا تقطع  
اليها الامم القوية

(١) الفلاسفة الادبيون لما يذكرون لك لفظة الوجدان فقط يخال لهم انهم الفهموك فيسمون انفسهم  
فان كان الوجدان خاص بالانسان ولو تحروا البحث لوجدوا انه عام على الحيوان والنبات حتى  
الجمادات فكما ان الاعيان تموت بموت الاجسام فكما يموت الوجدان بموت الاعيان ايضاً . او  
هو لا يموت حقيقة بل يعود الى شأوه الاول البسيط ويتوزع في قوى موادها المظلمة اليها . ولو  
كان الوجدان حجة لما اقتضى ان ينعقد احباً في الجسم الواحد لمرض بمرض عليه اللهم الا ان  
يعودوا بنا الى القول بالمخالفة ويرجعوا الى طرد الارواح المشاركة بالرفق والسلام

ووجداننا هل انت الفيت انه يقوم بغير الجسم ان جعل ما اسنوى  
الم تر انا نحيو تحت طواربي نعدد فيها او نعدد له الرفق

من الحقائق أو في المحراث والممول والعمل لبيان ما فيها من المنافع بكتب أساطين  
الادب ولا سيما القصاصيين الفرنسيين الذين أحرزوا قصب السبق اليوم في ميدان  
« الرومان » حتى بلغ منهم النائق في السبك والدقة في الوصف والركة في التصور أنهم  
وصفوا الخيال بارق من الخيال ؟

بل أين اشعار المعري القربرية التي تكاد تقصم صلابة من اشعار الفارض  
الخيالية التي تكاد تذوب رقة ؟ بل أين وقعها في النفس من اشعار شكسبير الموضوعة وما  
يقولها من الخيال الرائع الذي يستفز الطبع ويستهيوي العقل ؟ بل أين جهود قولك هذا  
لازم الموت في الوجود حياة لازم الموت في وجودها الموت قصرا  
حاول الناس منعه وبمنع الموت منع الحياة في الكون طرا  
من أين قولك هذا

وحكيم من يزدي بحياة كل يوم تزداد بالطول قصرا  
بل أين فتور كل ذلك من حرارة هذا القول الحاسي  
إذا استل منا سبدا غرب سيفه فزعزت الافلاك والتفت الدهر  
بل أين جفاف مثل قولك هذا العلمي  
وما الحب من أدنى فاعلى الى الرجا فما فوق الأ الشوق في كبد السهي  
ترقى بنا حتى النهي وهو دونها كما في نبوب الليث أو في حشى الثرى  
من طلاوة مثل هذا القول الخيالي

وهزنته بقصيدة لو أنها تلبت على الصخر الاصم لأغدا  
بل أسأل أي فني متعلم أو أية فتاة متممة ان تقرأ فصلا في مخترعات الكهرباء قبل  
أن تقرأ رواية من سقط الوضع . بل أسأل عالما اليوم أن يقرأ مقالا في تحويلات المادة  
قبل أن يقرأ كتابا في مناجاة الارواح فانك لا تفلح . ولماذا ؟  
لان تكيفات الطبع والعقل الشأن الاول في أعداد ما فيها من القابليات . وأن  
الخيال في هذه القابليات أعرق في القدم من أثر الحقائق . فالإنسان لم يعرف الحقائق  
في أول الامر وما عرف إلا الاوهام فانطبع فيها وتكيف لها وشاد بنيانه العقلي والادبي



عليها ونسج كلامه على منوالها فصارت نفسه لا ترتاح الى مباحث الحقائق ولا تلذذ بها كما تلذذ بموضوعات الخيال لان اللذة والراحة انما هما المطابقة بين فعل الفاعل وقابلية القابل حتى ان لفته نفسها تضيق بهذه المباحث فليس لها فيها تلك السلاسة ولا تلك السعة التي أحرزتها في المباحث الادبىة وحتى ان عقله يتعب منها . فالقول ان تصورات الاحلام يلزم الاستسكان بها لانها تبدو لنا أجمل من تصورات الحقائق وانها أصبح كذلك لان الوجدان يرتاح اليها . وان ترويض العقل بمباحثها الكلامية التافهة أنفع لنا من تدريبه على البحث في المحسوس المنفرد لأنها اعذب له وأسهل عليه يقتضي منه أن يكون الخيال أصدق من الحس وأن يكون كذلك الكذب على النفس أنفع من الصدق لها وأن تكون الاوهام نفسها أنفع لنا من الحقائق وأن يكون الاشتغال بالكلام الفارغ والمناقشات العقيمة أفضل من العمل <sup>(١)</sup> وأن تكون اضاءة الوقت بتتبع المقالات الخلافية في مسائل جدلية لترسيخ الميل في العقل الى المباحث النظرية المجردة أفضل من الاشتغال باختراع آلة لجر الأثقال وان يكون الطيران بمناطيد الخيال في قبس الاحلام أنفع من الطيران بمناطيد الصناعة في فيج هذا القضاء . فكيف لا نسو حال الانسان الذي لا ترتاح نفسه الا الى ذلك في العمران ؟ فلا الحياة مما يزدرى به . ولا الافلاك تنزع . ولا الدهر يلفظ . ولا الصخر يثقل حتى ولا المروج نفسها تسورق بمثل هذا الكلام . وما هو الا زيادة تضليل للعقل وتبذير في قوى الاجتماع على غير طائل . ولكن ذلك نشأ في الانسان اضطراراً على هذه الكيفية وسيتحول عنه اضطراراً أيضاً وما اثنى عليه اليه الا بحث للاسراع في هذا السبيل

فكما ان ذلك نشأ في العقل والطبع بغلبة الغريب والبحث في الماهيات والحقائق المجردة أولاً فهو سينقلب ضرورة متى تمكن الضد فيها بغلبة المحسوس والبحث في

(١) قال روزفلت في عطايه في المحرطوم على مخرجي المدارس الاميركية « انني أكره التجاذلات والتجادلين فاصرفوا قواكم الى العمل بدل الجدول ودعوا تلك الاضاءة للعالم القديم » ولعل مثل هذا القول افضل ما شجوب به الذين لم يفهموا اولم يريدوا ان يفهموا لما أردنا التنبه اليه ما هو متأصل فينا من التهاون على المباحث الكلامية التي تصرف العقل عن العمل الى الاسترسال في التدرب على مباحث الخيال

الطباع والكيفيات. وهو أخذ اليوم بالتحول كما أخذ نظر الانسان المادي يتقرر فيه اكثر. وسوف يدوله ذلك الجمال سخيفاً قبيحاً وتضيق الحقائق البسيطة التي لا صبر لنا اليوم على التبحر فيها أو اننا نريدها مبهرجة<sup>(١)</sup> مما يستحب اليها جداً وتجلب مطالعنا لنا الراحة المطلوبة واللذة المرغوبة وتحويل لغاتنا<sup>(٢)</sup> اليها ويتغير منهجنا في بسطها من المركب المعقد الى البسيط الصريح<sup>(٣)</sup> حينئذ يجد الانسان في مطالعة كتب الحقائق لذّة لا تدانيها اللذّة التي يجدها اليوم في كتب الخيال الموضوعية وموضوعات ادب المصنوعة<sup>(٤)</sup> ويجد كذلك في الارض التي صبا عنها فأهلها فردوساً موسوياً<sup>(٥)</sup> حقيقياً مشهوداً فيهم به ليحمله لنفسه كذلك ويستغني به عن ذلك الفردوس الخيالي الضائع اذ لا يعود يرى الحقيقة الا في مثل هذا القول

(١) الناس حتى اليوم يكرهون البساطة في كل شيء سواء كتبوا او تكلموا او عملوا ويدخلون هذا الخيال الغريب لا في مباحثهم العلمية والادبية والدينية فقط بل في سائر امورهم الاجتماعية حتى اللذّة جداً ايضاً. فان تصوروا ملكاً لو حكماً ارادهم بكل مظاهر الالهة ولو ظهرت فيها مظاهر المسائر كانت لا يسمع ان يكونوا ببساطة ازياء العامة. ولاجل ذلك هم يهلون الى تعظيم علماءهم الغابرين اكثر من المعاصرين ويتصورونهم بهالة من المجد ترفعهم فوق سائر الناس طيفات ورعاً جردوم من عبودهم ويعظمون الذين يصنعونهم اكثر من الذين يروهم. وما ذلك الا لانهم يسمون ان يدخلوا هذا الخيال الغريب على كل شيء ويسهل عليهم ذلك في من لا يرونه اكثر من يرونه

(٢) الحافظون على اللغة لا يدرون انهم لو استطاعوا ذلك لوقفوا بها متقربين على ان سنده القول افوى منهم وهي تسير باللغات ضرورة كما تسير في تحول كل شيء في الطبيعة والاجتماع وما ارتقاء اللغات الا اضافاتها على حيليات الاجماع يستندونها من افواه العامة كما يأخذونها من مباحث العلماء في اصطلاحاتهم لتعبير عن الادوات والاعمال والافكار وكان اللغات البرافنة بجزائرها المبرزون اذا جروا مع الزارع او الصانع او العامل او المفكر اليوم فليجأوا الى الصمت والتفكير ليقولوا غير المبد

(٣) انظر الى اسلوبها في الكناية ولا سيما في الشرفين فان احداً ماخذاً انتباهه على المباحث الكلامية اذا اراد بسط قضية اعتلى رهوة خيال وطار في الاجواء وملاً صفحات كثيرة ليقول شيئاً قليلاً

(٤) يروي عن غردوي صاحب المباحث الشهيرة في تسلسل علم الحيوان في العصور الجيولوجية انه لما ظهر كذاب دارون في اصل الانواع قال (التي قرأت يا عجب وولع واذا جاز لي هذا التشبيه اقول اني شرهه مطلقاً كما يساع الشراب اللذبة نغمة نغمة)

(٥) فردوس موسى ليس الا الوعد بالتخلص من العبودية والحصول على الحرية والرفق الواسع في



لا يصلح الانسان مجتمعا  
ولم يزل من علمه خطا  
محلقا في الغيب مختبلا  
ويحمل الارض وما كثر  
وعلمه ان لم يكن عملا  
يستخرج الاسرار ما خفيت  
وشرعه ان لم يكن شرعا  
يقسم الاعمال مشتركا  
وليس فيه مرهق منهم  
موطنه العالم اجمعه  
ما دام فيه الدين والوطن  
بضيع فيه العقل والزمن  
كلما الغيب له عظم  
وانما الارض له سكن  
برئاض فيه العقل والبدن  
وتصدق العين بها الاذن  
وسنة الكون له سن  
لا واسن فيه ولا وسن<sup>(١)</sup>  
وليس فيه مرهق يهن  
ودينه السلام لا الفتن

•••

لكنما القوم الالى ظعنوا  
جاثل الدين لهم شرك  
ان لم يكونوا مركبا لهم  
ظلم عليهم منهم وبهم  
والمرء ان ما اعتاد مترية  
لغيرهم هم الالى ضعنوا<sup>(٢)</sup>  
لصيد قوم دونهم غيبوا  
أخفى على أيديهم الثفن<sup>(٣)</sup>  
من جهلهم في رأسهم رسن  
فان نصته فهو يمتحن

وما هو حلم ما اقول ولكنه الحقيقة لو انك تنظر الى الاجتماع في الدهور السوالة  
فتقابل ما كان بما هو كائن لتعلم ما سيكون والبعض القليل الذي حصل يدل دلالة  
كافية على السكل المتغير. وما الاجيال والدهور في عمر الاجتماع بالشيء الكثير

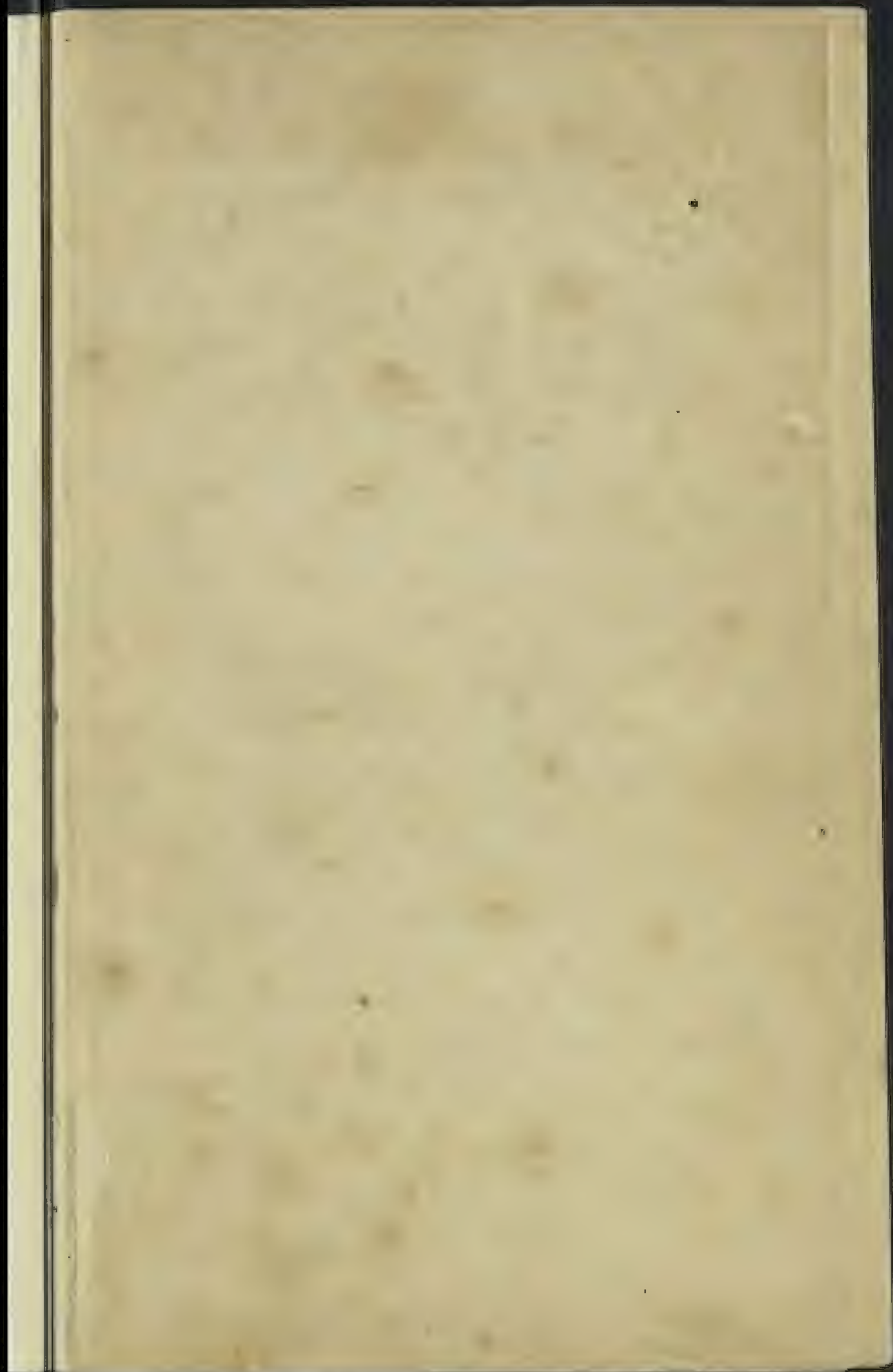
ارض المعاد كما يستلزم من كل كلام الشراء

(١) لا يفظ ولا حامل

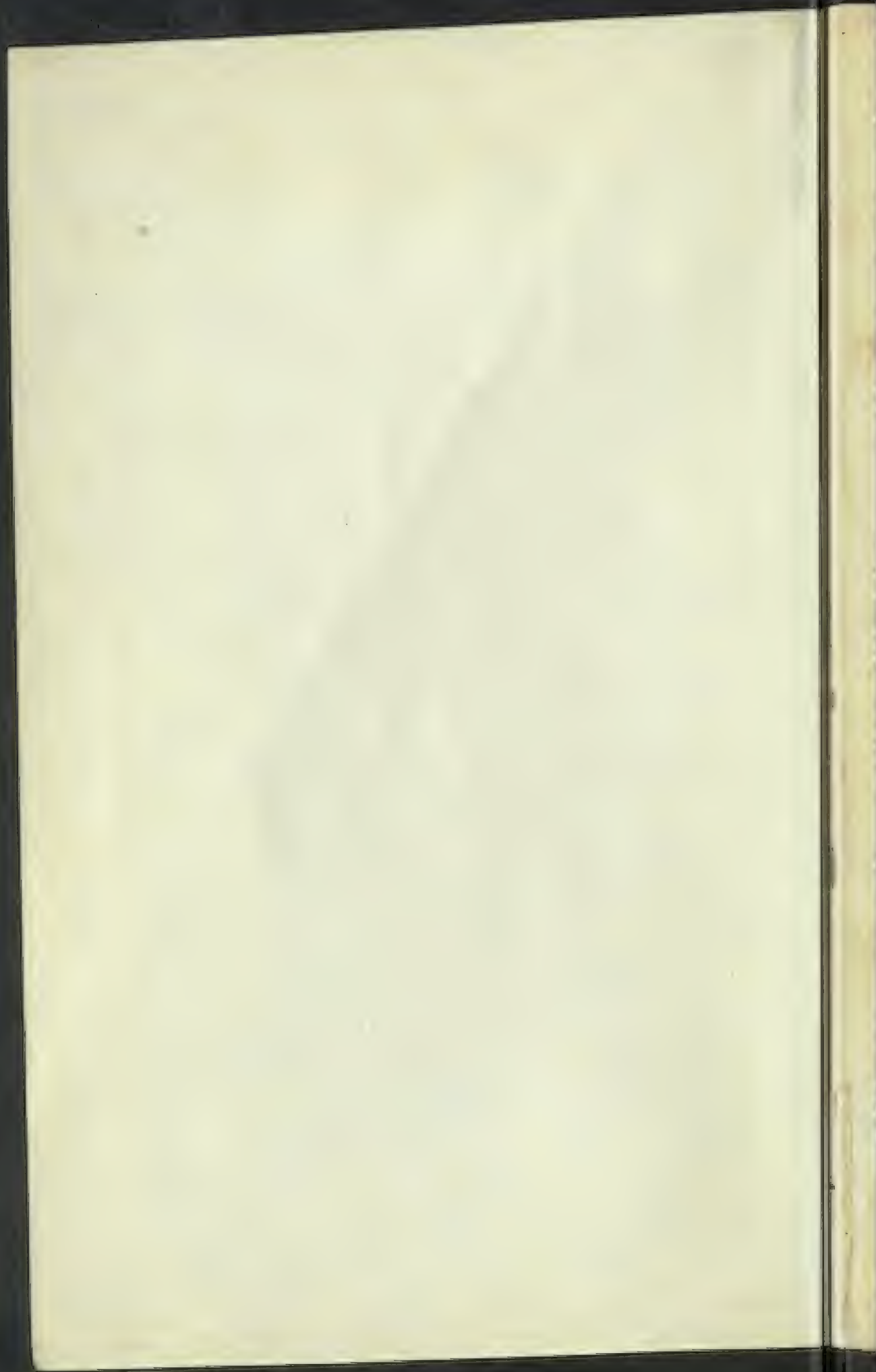
(٢) مالوا الى الدنيا

(٣) براد به العمل الثاني



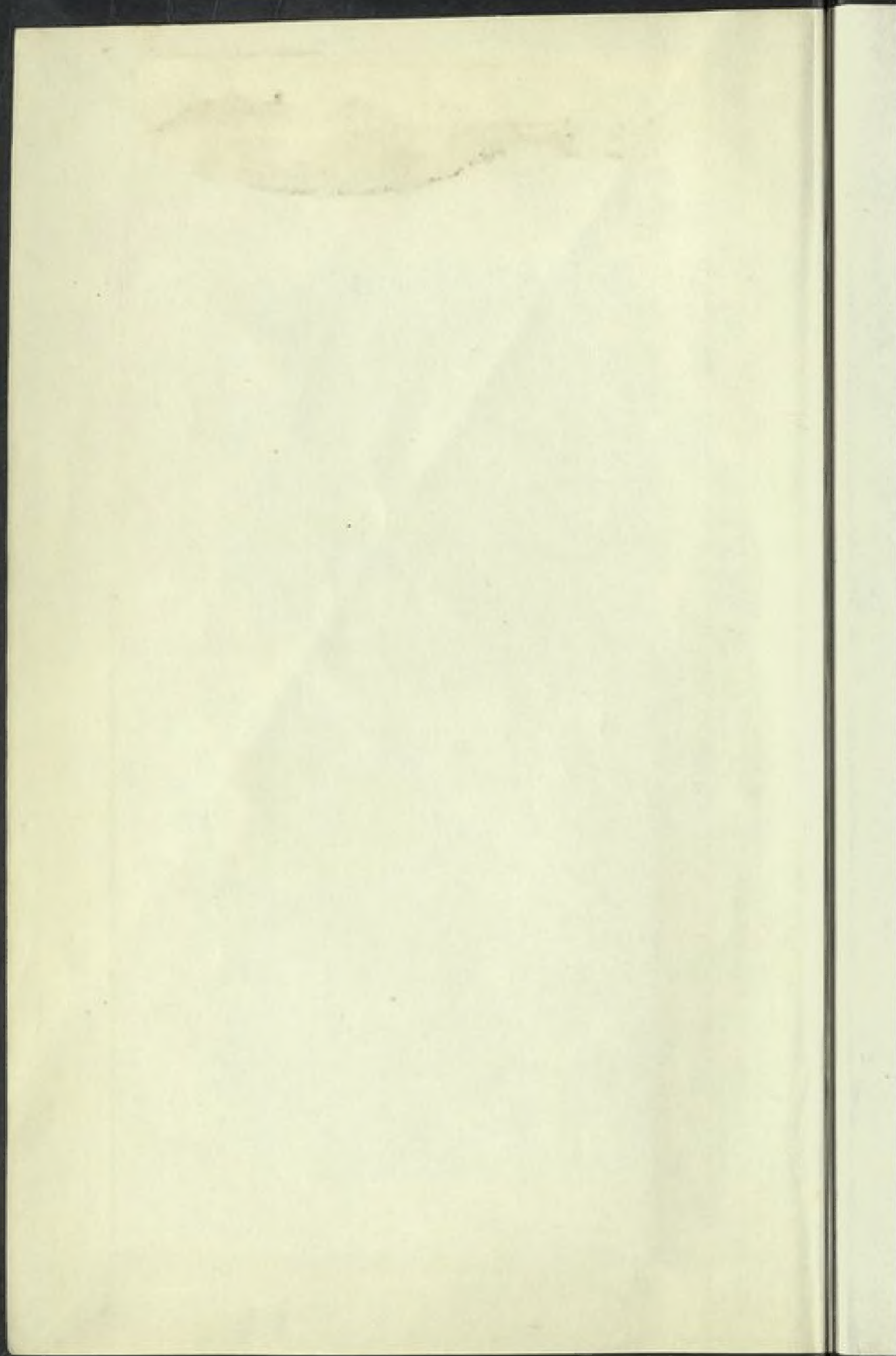












DATE DUE

**CLOSED AREA**



CLOSED AREA  
'A.U.B. LIBRARY'

شميل شيلي  
مجموعه شيلي شميل  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01064995

v.1

CLOSED AREA

• شميل

• مجموعة شيلي شميل

CLOSED AREA



